محمد عبد القهار

غارب

رواية

غارب
رواية

أشار أبو عبد الله الزغل إلى النهر وقال انظر يا موسى إنه نهر حدرة، ثم رفعني بذراعيه وأشار إلى الجنان الخضراء الممتدة مدّ البصر وقال إنها جنان غرناطة، ثم أشار إلى أسطح قرميد بعيدة وقال أنها حي البيازين؛ حي الصعاليك والخوارج وأهل الفتن!

لم أعِ شيئًا مما قال وإن ردّدته كثيرًا غمغمة ودندنة على عادة الأطفال مع غريب الكلام. تكررت زيارته لي مرة بعد مرة ليرفعني بذراعيه فوق برج قمارش لأبصر نهر حدرة وجنان غرناطة. لم أدرِ في تلك الأيام أنّي سأصير محصورًا بين هاتيك العلامات، وأن مسيري الذي شمل غرناطة ومالقة ولوشة وجبال بُشرة، وامتد حتى العدوة؛ سيرتد بي حاسرًا إلى حيث بدأت، وأني اليوم أقيم في الحمراء بعد طول هجر، وكذا يا ولدي تجري علينا المقادير دون حول منّا ولا قوّة والحمد لله على كل حال.

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing
978-977-6459-08-3

غارب

غارب (رواية)
تأليف: محمد عبد القهّار
مراجعة لغوية: شيماء علي
الغلاف بريشة الفنان: عبد الرحمن نجم الدين

الطبعة الأولى لمركز مدارات للأبحاث والنشر
يناير ٢٠١٦م - ربيع الآخر ١٤٣٧هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٤١٤ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-08-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
مدارات للأبحاث والنشر

العنوان: ٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠١٠٢٤٤٤١٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤١٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤١٣٧٢
البريد الإلكتروني: info@madarat-rp.com

-جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر-

مدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

رواية

غارب

محمد عبد القهار

الفصل الأول

بنين

أنا

بسم الله الرحمن الرحيم، مُفَرِّج الكروب والهموم، شارح الصدور، له الملك والجبروت فلا غالب إلا هو، أسأله العفو والرحمة، هو حسبي وبه أستعين، والصلاة والسلام على نبيه خاتم المرسلين وسيد النبيين وعلى آله وصحبه وأنصاره إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذا كتابي إليك يا عبد الملك أحدثك فيه عن أهلي ونسبي والحوادث التي حلت بي.

وأظنك تعجب أني أجيبك إلى طلبك بعد رفض؛ فمازلت لم يُوسّد لي سرير الملك، ولم أصبح ذا وزارتين يُشار إليه بالبنان، أو رحالة طاف الجزيرة يكتب عن بلدانها وولاتها وقصص أهلها. لكنك لا تدري ما الحصار يا عبد الملك؛ نحن في غرناطة يكتنفنا الموت من كل جانب. وهذا الخطب يسلمنا إلى التفكير في الصحب والأحباب، فنكتب إليهم رسائلَ وكتبًا لا ندري أيصل بها الرسول أم لا، نبثهم فيها أحزاننا وأفراحنا ووساوسنا كأننا لم نبارحهم ولم تبعد الشقة بيننا وبينهم.

لعل الله يغفر لي أني لم أصحبك مثلما يصحب الوالد ولده فلم أسامرك وأحك لك عني، ولم أعلمك ولم أعظك، لكني أحسبك على خير وأن أمك أنَشأتك مثلما أنشأتني أمي.

فليكن هذا الكتاب حديثك في سمرك ودليلك في سفرك، تستعين به على ضيقك فتصبر وعلى غفلتك فتذكّر، وما يذّكر إلا أولو الألباب.

واغفر لي أني لم أصنفه لك كما يعمل المصنفون، وإن اجتهدت في ذلك، فدونه قلة بضاعتي وما أنا فيه من خطوب، واعذر شتات قلمي، فإنما أكتب ما يرد على خاطري، ولا تضق بفضول قولي، فإنما أنا رجل قد ربته النساء. أعانك الله بهذا الكتاب على إرادتك ونفعك به وقت حاجتك.

ذكر نسبي ومولدي ونشأتي في الحمراء

اعلم يا بني أنك ابن موسى بن سعد بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، جدك هو سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه سيد الخزرج صاحب رسول الله ﷺ، ذكر ذلك غير واحد من كتّاب الأخبار والسير.

جلس أبي السلطان سعد على سرير الملك بعد موت السلطان الأحنف، وتزوج من أمي ليلى بنت عبد الملك من علماء ألمرية وأكابرها، فولدتني له في قصر الحمراء سنة واحد وستين وثمانماية للهجرة.

نشأت في ترف ونعيم وتربيت في جنان حسان تسر الناظرين، فما أظن الشمس طلعت على قصر أبهى من الحمراء.

لا أفتأ أذكر الغرفة التي نشأت فيها، أذكر السقف الخشبي ونجومه المحفورة عليه متجاورات كأنها تعوضنا عن السماء، وأعالي الجدران التي تحمل السقف قد ازدانت بجمل مزخرفة، لونها في النهار كلون الشمع، وحروف كلماتها مائلة كألسنة أهل غرناطة التي تجعل «الباب» «بيب».

كانت الحروف متزاحمة كأن صانعها أبى أن يترك قيد أنملة من فراغ دون أن يكتب، كما قرأت لي أمي، «العز الدائم لمولانا» أو شعار بني الأحمر «لا غالب إلا الله». أما أواسط الجدران وأسافلها فكانت مكسوة برخام أبيض كُتب عليه بالأزرق آيات من القرآن الكريم بخط كوفي آثر راسمه أن يباعد بين حروفه على نقيض سلفه في الجدار، ثم اكتسى باقي الجدار بالزليج (١) دوائر أو خطوط متقاطعة كثيرا ما شردت فيها، وسرت عليها بأصابعي وأنا على الفراش متتبعا طرقاتها ودروبها.

لكن على الرغم من زينة الغرفة فقد ضقت بها ذرعًا، كنت أرفع يدي إلى الروشان(٢) وأقول «بَلكة.. بَلكة» أي بَركة. كان الروشان عيننا على الدنيا؛ فلا تُرى السماء إلا من بين خشب الروشان المورق المطل على فناء البركة، أو إذا خرجت من الغرفة ونظرت إلى مربع من السماء يعلو فناء الحجرات الذي أقمنا فيه بقصر قمارش بالحمراء، وتلك كانت مرات قلائل.

كنت أظن حجب السماء قاصرًا على حجرات الصبيان والحريم حتى ذهبت مع أبي يومًا إلى بهو قمارش الذي فيه عرشه، أبصرت روشانًا في أحد الجدران وإن كان أكبر من روشان غرفتي، ومن فوقه في أعلى الجدار قمريتان ذواتا زجاجٍ ملون ألوانًا بهيجة تكسر حدة الشمس، وتستبدل ألوانها بلون السماء.

كان فناء البركة ما أرى فيه السماء كلها وأشم ريح أشجار الريحان حول البِركة. وعلى نقيض حجرات الحريم رأيت جداري القصر على يمين

---

(١) فن زخرفة مغربي يُستخدم لزخرفة الجدران بأشكال هندسية ملونة.

(٢) مشربية.

فناء البركة ويسارها جدرانا ملساء لم تصبها الزينة بنصيب اللهم إلا العقود التي علت الأبواب المفضية من غرف القصر إلى الفناء، وتلك العقود اللاتي علت الأعمدة التي اصطفت رواقيْن عند مبدأ الفناء ومنتهاه. كانت أعمدة الحمراء كلها نحيفة كالأقلام، بيضاء مرمرية لها تيجان منقوشة بالحنايا والمقرنصات كخلايا النحل، وكنت أزهد في النظر إلى ذلك كله وكل زينة من جنس حجرتي، بل أحدق في الجدارين العاريين يحملان السماء، فأحس بالسعة. كان ذلك الفناء متنزهي الوحيد ومقصد خروجي من الغرفة التي أصرّت أمي أن تصحبني فيها ولا تفارقني للجواري، فأقنع حينا بالجلوس في حجرها وأحيانا أخرى أدبُّ برجلي على الأرض غاضبا صائحا «بَلَكة.. بَلَكة».

ثم جاءنا ذات يوم رجل يشبه أبي وإن كان حدثا لا يزال. قالت أمي إنه أخي وتركتني أذهب معه. لا أذكر إن رأيته قبل أن أعي ما أرى أم لا، لكني فرحت حين أخذني بين ذراعيه وخرج بي، هتفت بفرح بَلَكة، لكنه تبسم لي ولم يفهم شيئا. كان ذلك أخي أبا عبد الله الزغل(١).

اصطحبني وكنت للتو تعلمت أن أمشي مشيا وئيدا، فاخترقت معه فناء البركة إلى بهوها ثم جزت دهليزاً يفضي إلى برج قمارش وقد حملني أخي حتى سطح البرج. هناك أبصرت الخارج كاملا، كانت السماء تحيطني من كل جانب، رأيت نهرا غير بركة الريحان وأبصرت جنانا أكبر من جنان الحمراء التي لم أذهب إليها إلا أيامًا معدودات مع أبي.

---

(١) تعني الشجاع.

أشار أبو عبد الله إلى النهر وقال انظر يا موسى، إنه نهر حدرة، ثم رفعني بذراعيه وأشار إلى الجنان الخضراء الممتدة مد البصر وقال إنها فحص[1] غرناطة وغوطتها، ثم أشار إلى أسطح قرميد بعيدة وقال أنها ربض[2] البيازين؛ ربض الصعاليك والخوارج وأهل الفتن!.

لم أع شيئا مما قال وإن رددته كثيرا غمغمة ودندنة على عادة الأطفال مع غريب الكلام. تكررت زيارته لي مرة بعد مرة ليرفعني بذراعيه فوق برج قمارش لأبصر نهر حدرة وفحص غرناطة. ولم أدر في تلك الأيام أني سأصير محصورا بين هاتيك العلامات، وأن مسيري الذي شمل غرناطة ومالقة ولوشة وجبال بُشرة، وامتد حتى العدوة؛ سيرتد بي حاسرًا إلى حيث بدأت، وأني اليوم أقيم في الحمراء بعد طول هجر، وكذا يا ولدي تجري علينا المقادير دون حول منا ولا قوة والحمد لله على كل حال.

بيد أن الخروج من الغرفة لم يكن دومًا سلواي؛ فالخروج إلى الحمام من أشق الأمور على نفسي، كنت أُحمل في ممرات عدة وسط صفوف من البرانس البيضاء اللاتي ترتديها الجواري حتى أصل إلى الحمام كأنه صندوق من رخام لا تدخله الشمس إلا خلال القمريات، فتنتشر حولنا دوائر من الضوء بعدد تلك القمريات المغروسة في السقف الأبيض المقبب، كنت أكره تلك العتمة وتلك القوصرة المنحوتة في حائط الرخام الذي كنت أجلس فيه بعد الاستحمام، ثم عرفت بعدها من أبي المحارب

---

(١) ما اتسع من الأرض واستوى، تُطلق على الأرض المزروعة حول المدن.

(٢) يُطلق على ما حول المدينة أو القصر من مساكن ومحلات، كما يُطلق على الأهل وكل من يأوي المرء إليه.

الحمامي أن هيئة الحمام تلك تحمينا من نسمات البرد وتستر العورات، وتلك القمريات تحمل البخار عن الهواء وتنفذه عبرها للخارج، لكن أنّى لمثلي وقتها أن يدرك ذلك؟

ومما زاد الطين بلة كرهي للاستحمام ولم أدر لذلك سببا، ربما خجلا أن أبدو عريانا أمام تلك الجارية العجوز، أو ضيقا بأصابعها على جسدي، أو ربما خوفًا من مياه الحوض الساخنة، فأنثر الماء صائحًا ليصيبها الماء أكثر مما يصيبني، فتتسخط عليّ وتقول بعجمتها سبابًا لا أفهمه.

كانت تلك الجارية النصرانية العجوز رفيقي إلى الحمام وإلى أخي أبي عبد الله الزغل أو إلى الخادم الذي يأخذني إلى أبي في جنة من جنان الحمراء، كانت تخوّفني دومًا من الجن والأرواح، وتقول أن السباع الاثني عشر الملتفين في دائرة في حوض بهو السباع، الذين يمجون من أفواههم الماء في النهار؛ يزمون تلك الأفواه بالليل لأن الأرواح تسكنهم. ارتعت لمقالتها تلك وظل في نفسي شيء منها سنين طويلة حين أتذكر الحمراء. وفيما بعد حين عدت للقصر وجست أروقته وطرقاته في الليل والنهار، سمعت أصواتًا تتردد ناحية بهو السباع كما روت الجارية لي، كان خرير الماء، فتأمل.

ثم إني لبثت في الحمراء أربعة أعوام غلب على وقتي الجلوس مع أمي في الغرفة، ترعاني وعلى وجهها أمارات الحزن دون كلام. كانت أُنسي وصوتها إلى الآن لم يفارق أذنيّ، كانت تغني لي أغانيَ أذكر لحنَها ولا أذكر كلمها، ولم تخل الأيام بيننا من أمور لطيفة كأن أخلع

خلخالها من رجلها فأضعه في يدي أو أضع قدمي في شاربيلها[1]، فأشعر كأنني أسوق الشاربيل لا أرتديه، أو أرتدي خمارها الذي تصلي فيه. وكانت تأتي لي بالصور على شاكلة غلمان وجوارٍ وفرس مجنح تلعب بهم معي، ونتوهم كلامهم وحكاياتهم، وجِدهم وهزلهم، وكنت أعدُّهم أبنائي؛ أطعمهم حتى يصيبهم الطعام كما يصيب ثيابي فلا آكل منه شيئًا، وأحممهم وأؤدبهم وألثمهم قبيل النوم، وجدتك تجاريني في هذا كله.

وكنت أطعم الصور حلوى ينير، تلك الحلوى التي تصنعها نسوة الأندلس في شهر ينير على شكل مدائن لها أسوار وأبراج، وتُزيّن بالفواكه، فيأكل منها الصبيان حتى ينتهي الشهر، ولا أظنها عندكم بالمغرب، فدون ذلك بداوة تلك البلدان وفقرها. كانت الجواري يصنعن لي الحلوى على شكل الحمراء ويزيِّنَّ العجين بقطع الجوز وحبات الرمان مرصعة على جدران الحمراء كالياقوت. وإلى اليوم لم آكل حلوى أشهى من كعكة الحمراء، وقد حاولت جدتك مواساتي بعمل أشباهها فيما تلا ذلك من الأيام، لكنها لم تكن أشهى من حلوى الحمراء تلك. رحم الله جدتك، حتى الآن أذكر ضمها لي لتدفئني في الشتاء حين يشتد البرد ويكسو الثلج جبل شلير الذي يطل على غرناطة، ولما تركنا الحمراء لم أفتأ أقول لها ضميني يا أماه ضمة مساغة شلير.

كذلك كان جدك رحمه الله يجلسني على حجره ويعرّف جلساءه بي، فيسلمون عليّ ويسألونني عن أمور أجهلها فأتوارى في حجر أبي ويضحكون. رحمه الله كان عادلا رحيمًا بالناس، عاصمًا للدماء. كان

(١) نوع من أحذية النساء.

يجالس العوام في مجلسه عند باب الشريعة بين القصر والمدينة ليقضي حوائجهم، وقد طما عليه بحر من الفتنة وتكاثر عليه الخوارج والواثبون، وهو ثابت الجنان رابط الجأش يصون ملكه بجميل صبره وعظيم شمائله.

ومن مجالسته عند باب الشريعة عرفت أخويّ الآخرين؛ أبا الحسن علي، وأبا الحجاج يوسف.

كان أبو الحسن أشقر عظيمًا في جسده، مستدير الوجه، عيناه زرقاوان حوراوان. كان يركب فرسه في تلة السبيكة على أحسن ما يركب الفرسان، يضع عليه وفرسه دروعًا من حديد على عادة الروم، فيصول ويجول في الميدان أمام أبي على مشهد من بني سراج وبني أضحى وبني الثغري؛ كبرى عصبيات الأندلس وأهل الحل والعقد فيها منذ أقام بنو الأحمر دولتهم.

أما أبو الحجاج فكان قصيرًا نحيلاً، جعد الشعر أسوده، ضعيف البنيان، أصيب بداء في صدره منذ سنين، فكان يسعل حتى ينشرخ حلقه، وكنت أرتاع لسعاله ولما أصيبت أمي بداء صدرها بعد ذلك بعمر أدركت أن مصيرها كأبي الحجاج.

وكان الزغل، أصغرهم، على صورة أبي ربعة عظيم المنكبين عظيم الهامة، بين عينيه عرق يدره الغضب، كان أبرَّ إخوتي بي وأمي، وهو من خرجت على كتفيه إلى الدنيا كما تقدم، وهو أكثر إخوتي تغيبًا عن غرناطة والتزامًا لمالقة؛ إذا له فيها أنصار وأصهار، وإن كان في تلك الأيام قانعًا لا يزاحم إخوتي في قيادة الأجناد ولا كنز الأموال.

وكان أبي يكثر الثناء على أبي الحسن، فأغار من ذلك كأبي الحجاج، غير أني كسائر الأطفال كنت أجاهر بهذه الغيرة؛ فتارة أشاغل أبي في لحيته أو أتحدث بكلام غريب ليتنبه لي، وحين أسلمني إلى شيخ يعلمني القرآن لما بلغت الرابعة، كلفت بالحفظ أيما كلف لأنول رضاه حين يراني. وكان شيخي رجلاً عجوزًا ذا لحية بيضاء عظيمة، يرتدي طيلسانا [1] كبيرًا غير أبي وإخوتي الذين يرتدون غفارات[2] حمراء وخضراء يرسلون من تحتها شعورهم.

كم تتعتعت في الحفظ يا عبد الملك! وقتها ظننت أني أنطق القاف كافًا لكثرة ما أسمع من لحن الجارية النصرانية ورقة لسان أمي، لكني علمت أن ذلك لحن كثير من العامة، ولولا قراءة من قراءات القرآن لما تلونا بتلك الإمالة في ألسنتنا التي تجعل الكفار كُفّيرًا.

وكانت أمي كذلك لا تحب أبا الحسن، وعائشة زوجته وبنت السلطان الأيسر رحمه الله، وذلك لأن عائشة كانت تزدريها بالنظر في الغدوة والروحة، تستكثر على أمي منزلتها من أبي لأنها من عامة الناس، أما عائشة فأبوها كان سلطانا واليوم حموها وغدًا زوجها، وقد جاراها أبو الحسن في ذلك ولما شكت أمي لأبي عزلنا عنهم في المجالس والسفر، فلم تتوثق العرى معهم ولا أولادهم. ولم أرَ ولدهما أبا عبد الله محمد إلا مرات على عجل، ثم قَدَّر الله بعد ذلك اللقاء والصحبة دهرًا حسبما يتقدم ذكره.

---

(١) وشاح يضعه الشيوخ فوق رؤوسهم.

(٢) طاقية تطوق الرأس.

وعلى هذا الحال استمرت حياة أبيك ردحًا من الزمان في دعة وسعادة ورغد من العيش، لكن دوام الحال من المحال يا بني، وسبحان من له الدوام؛ ففي ليلة من الليالي دخل عليّ أخي أبو عبد الله الزغل ومعه الجواري فأخذوني وأمي إلى خارج القصر، وأردفني أبو عبد الله خلفه على الجواد، وذهبنا لا نلوي على شيء وأنا في غاية الفزع. حاولت أن أبدو جلدًا كإخوتي، لم أعرف وقتها أن أميرًا من بني الأحمر يُدعى ابن إسماعيل وثب على أبي وأجلسه أنصاره على سرير الملك في غرناطة. عرفت ذلك اليوم ما هو الوثوب وعرفت يومها أن تلك الجنة ليست بخالدة كما كنت أخالها، فتأمل.

ذكر ذهابنا إلى شلوبانية وعودتنا إلى الحمراء

وهكذا يا بني ذهب أبوك وأهله في جنح الليل إلى شلوبانية، وهي كما يقول عنها ابن الخطيب: «معقل ومستخلص السلطان بين الأوطان، ورعيتها عديمة الأعيان، مروعة على الأحيان».

فكانت نعم المعقل والممتنع لجدك وأعمامك، أما أبوك فلم يصبه منها إلا الروع.

لا أذكر تلك الأيام رغم اجتهادي وسؤالي جدتك، أو ربما أذكر شذرات من حوادث أول ليلة فقط؛ شجر الخلاف بين الجميع دون سبب أفهمه؛ أمسك أبو الحجاج بتلابيب أبي الحسن، وحاول أبي وأبو عبد الله الزغل أن يحجزا بينهما خشية أن يسمعنا مماليكنا، فما الذي سيفعلونه لو رأوا أننا، آل الملك، نتناحر فيما بيننا؟ لربما قتلونا وقدموا رؤوسنا قربانًا

لابن إسماعيل كما قال أبي. كانت أول مرة أسمع فيها عن القتل وحز الرؤوس. تعجبت أن يقتلنا مملوك أبي؛ مهند ويلقي بنا إلى عدونا؟ كان مهندٌ مملوكَ أبي الأثير، وكثيراً ما داعبني في حضرته، كان عبداً أسود من السودان ما رأيت مملوكًا أكثر منه اعتناء بنظافته وطيب ثيابه، وكان أبي يعده كولده وكان أبو الحسن يكره ذلك كما سمعت من أمي. رُوّعت من كلام أبي وإخوتي عن القتل يومئذ وإن سعدت، لبرهة؛ بمرأى جميع إخوتي وأمي وأبي في غرفة واحدة. لم نجتمع مرة أخرى معًا حتى بعد أن وثب أبي مجدداً على ابن إسماعيل وعدنا إلى الحمراء مرة أخرى، ثم حدث بعدها ما تعرف ولله عاقبة الأمور.

***

هو

تثاءب جبل شلير . . راقب بعين ناعسة غرناطة كما عرفها لقرون. رأى الرمانة منكمشة على نفسها من البرد، منعقدة حباتها المتجمدة بيوتًا وأرباضًا على سفحه. شيخ وقور يكلل رأسه بالثلج طوال العام؛ لا يبالي بشغب العوام ونوادر القضاة ولعب الحواة ووثوب السلاطين. لا يهمه سوى أن يحكم برنسه الأبيض حوله في الشتاء، ونهرا حدرة وشنيل ثاويان تحته قد جمد ماؤهما عن الجريان كما جمّد البرد شفاه أهل غرناطة عن السلام.

يرقب شلير الصمت حوله، رنا إلى الأفق البعيد عن برنسه الثلجي حيث يرعى الخيل الزرع وتتواضع البقر ويكثر اللبن، وتنغرس أوتاد الزيتون والرمان، ويزدوج الطير، وتلزم طيور الشذانقات البلنسية أعشاشها وتأخذ في السفاد.

رمق القمر في منزله الجديد. بالأمس حل القمر بمنزل سعد الذابح؛ قطعة من السماء ينزل فيها القمر، فيها نجمان كالألف وبالقرب من أعلاهما كوكب صغير كالشاة ينحرها، واليوم بلع النجم السفلي الشاة. . ذاك سعد بُلَع؛ قد بُلِع فيه ما نُحر.

إيه كم في هذه الدنيا من ذابح غير بالع وبالع غير ذابح!

زفر ريحًا خالطه بعض الثلج ولمح أشباحًا تتحرك من بعيد على جسور

حدرة وربض البيازين. . أهو سلطان واثب، أم رومي[1] غاز، أم شقي يغري العوام بالفتنة؟

ياللسأم!

***

-«لاش الحزن يا بو نصر؟ مَشقى ليلى لو ما شكيت همك».

صمت، لم يعرف كيف يطمئن زوجته الصغيرة. كان يريد الخلوة بنفسه وهواجسه في غرفته، لكن ولده موسى دب على الأرض وصاح رافضًا النوم يريد أباه السلطان. ها قد أتى الأب وفضحته عيناه أمام زوجته. لم يشأ أن يلقي الخوف في قلبها. أغلق دونه باب الصمت وتشاغل بتمسيد شعر ولده الصغير موسى المسك بحلوى الحمراء يأكل منها، ويسأل أباه عن كل جزء قبل أن يلتهمه! لوهلة رأى السلطان ولده في الظلام كشيطان يأكل الحمراء، فأجفل برهة، ثم هز رأسه ليطرد فأل السوء، ترى هل يمتد به العمر ليرى ولده فتى يافعًا يرفل في نعيم الملك وأبهته؟ أم تحول الأقدار دون ذلك وتقضي عليه بالموت أو بالوثوب.

سارت الأيام ببطء منذ العودة من شلوبانية لتنبت الفتن في داره ووسط أنصاره. يعلم جيدا أنه انتصر، لكنه نصر غادر لا أمان له؛ فمن يضمن له أن بني سراج، حلفاء ابن إسماعيل الذين واطؤوه عليه؛ لن يواطئوا غيره؟

---

(١) يُعبر عن الإسبان بأسماء مختلفة؛ الروم والنصارى والعجم وأهل قشتالة وأراجون أو أرغون وهما المملكتان اللتان شكلتا أسبانيا الحديثة.

وكيف يصطفيهم فيأمن شرهم دون أن يخسر أنصاره من بني بنيغش وبني أضحى وبني الثغري؟ وكلهم بيوتات وعصبيات ذات بأس ولطالما تلاعبت بسلاطين بني الأحمر لقرنين من الزمان؟

ها هو قد أجاب عن سؤاله برعونته، فقتل مفرج بن سراج ليسكّن وساوسه من خيانة بني سراج، لتثور وساوسه من قصاصهم!

وحتى إن اجتث جذورهم واستأصل شأفتهم، فكيف يجتث تلك الفتنة التي نبتت بين ولديه؛ أبي الحجاج وأبي الحسن.

كل ما يخشاه أن يجمع كل منهما أنصاره ويقتتلان على ولاية العهد تحت سمعه وبصره، وربما يغري ذلك ابن إسماعيل أن يجتاز العدوة، ويعود الود بينه وبين بني سراج إن سلموه الحمراء.

كلا، لن يحدث هذا. حاول طمأنة نفسه بمهابته في نفوس أولاده، ثم بكفاية أبي الحسن وقدرته على ترضية أخيه بما يحفظ لهم الملك جميعًا. ليتك تخضع لأخيك وتعرف له فضله يا أبا الحجاج وتستل الحقد من صدرك العليل، ليهنأ أبوك بالبقية الباقية من حياته.

طُرِق الباب فجأة.. اقشعر بدنه، ضم يده اليمنى كأنه يقبض على سيف، وبذراعه اليسرى حجز عن زوجته وولده كأنه يحمل ترسًا يقيهم سيوف الواثبين.. بصوت حاد خفيض سأل عن هوية الطارق، ثم لم يلبث أن زفر بارتياح لما عرف أنها جارية زوجته جاءت برسالة من المطرف عامله على مالقة.

فض الرسالة بفضول، وجلس على فراش ولده وزوجته تستوضحه ولا يجيب، وخيم الصمت إلا من لوك موسى لجانب من جدار الحمراء

يتلمظه بشغف. ومع كل حرف يقرؤه السلطان يرتفع صوت لوك الأمير وتلمظه بجدران الحمراء المرصعة بحبات الرمان، وبعيدا عن كل ذلك تحركت أشباح الظلام مقتربة من القصبة[1] المنيعة.

***

«ولقد وصلني كتابك يا مولاي وتحققت من الأمر بنفسي؛ فقد راسلني من لا أتهم من ألمرية أن نفرًا من بني سراج نزل بها عند بني عمومتهم، وعليهم إسماعيل بن مفرج بن سراج يلبس السواد يطلب ثأر أبيه، وأنهم امتاروا من المدينة واشتروا الخيل والسلاح، وأنهم يقصدون غرناطة حرسها الله وأدام عز سلطانها. وأنت تعلم يا مولاي أن الخروج داء الأندلس منذ فُتحت؛ لمناعة البلدان واختلاف السكان، واستغناء كل بلد بقصبتها وعصبيتها، وعلو همم أهلها وشموخ أنوفهم فلا يخضع بعضهم لبعض، وما جر ذلك من كثرة الانتزاء[2] والخروج على السلطان، والاستقواء بملك النصارى الذي يروم ضرب المسلمين بعضهم ببعض».

***

لم يحتاجوا وقتا طويلا ليذبحوا الحارس البائس الذي اتكأ على رمحه الصدئ في هذا البرد يرقب من برجه الأسوار، كان سيحذر الجنود بالأسفل من المتسلقين. فإذا به يُذبح من خلفه. لم يعلم أن أبواب القصبة المنيعة قد لا تحتاج إلى متسلل لفتحها حين غفلة؛ فالخيانة تكفي.

***

---

(١) قلعة أو حصن.

(٢) التمرد.

«وقد أطلّت الفتنة برأسها في مالقة لما تسامع الناس بخبر قتل مفرج بن سراج، لكني قطعتها بما علمني مولاي من الحزم وحسن التدبير.

ولتعلم يا مولاي أن الخطر ليس من مالقة ولا ألمرية ولا غيرها ولا حتى من أولئك المتنزين الذين يعيشون تحتكم في البيازين، وقد علمت أن لبني سراج أياديَ بيضاء على الصعاليك والسوقة فيها، فالسيف علاج كل خارج إلا المقربين؛ فإن سيوفهم سيوف غدر تروم نقض ملكك من أركانه، وطعنهم يشق قلبك قبل أن يشق قلوبهم، ولا ينجدك ويؤاسيك عندها حلمك وحزمك ورباطة جأشك، إلا من عاهدت فأوفيت، وحالفت وأعطيت».

***

سرعان ما وجد جنود القصبة أنفسهم محاطين بالمهاجمين من الخارج والغادرين من الداخل، فاستسلموا عدا رجل واحد استطاع الهرب عبر زنقات القصبة الملتوية. علم أن ليس لهذا الخطب إلا السيف المهند.

***

«فأنا خادمك وعاملك وناصرك وأخوك؛ فكم من أخ لك لم تلده أمك، وكم من ولد من صلبك ذللت له الصعاب، وخلعت عليه من كرمك، فأركبته أقفية الناس، وشيدت له ليسكن، وزرعت له ليحصد، ونحرت له ليسمن، وهو لفضلك من الجاحدين، ولأعدائك من المواطئين».

***

جاسوا خلال الحمراء . . لم يمسوا شيئًا . . يعرفون مقصدهم جيدا، فاجؤوا جميع الحرس الناعسين الذين اعتمدوا على إخوانهم في القصبة المجاورة. استسلموا للمهاجمين والغادرين استسلامَ مَنْ اعتاد على الخضوع للواثب وحراسته بانتظار واثب جديد؛ فاكتست الأرض بعشرات السيوف الباردة.

❊❊❊

«فخذ حذرك وناجزهم قبل أن يبادروك ولا تأخذنك بهم شفقة ولا رحمة، فقد عمَّت البلوى وعظم المصاب، ويعجز القلم عن البيان، وما إطنابي وإرجائي للبيان إلا شفقة على مولاي من الخبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

❊❊❊

دخلوا فناء البركة . . وقف بعضهم حول البركة وخلف الأعمدة، بينما صعد الآخرون إلى الحريم، كما أشار لهم الخدم، ليأتوا بالسلطان «المخلوع».

❊❊❊

«وإنه ليحزنني ما أقول، لكنها حقيقة أخبرتني بها العيون؛ أن بني سراج قد واطؤوا من بنيك من عاهدهم أن يحتز لهم رأسك فيرفعونه على عرشك. حفظك الله يا مولاي وأحسن لك العزاء في خيانة ولدك . . .».

-«نحن جند السلطان بلحسن!»

كُسر الباب فجأة ومعه جسد حارسه، الواقف أمام الباب، صريعًا، فصرخت زوجته، وسقطت جدران بهو البركة من فم موسى. ارتعشت يدا السلطان. سقطت منه الرسالة. احمر وجهه وشعر بجسده يشع لهيبًا. شعر بثيابه تستحيل شوكا يدميه، وتقلصت أحشاؤه. نظر بوجه جامد لأعدائه وقد خذله جسده، فلم يستطع حتى الإمساك بسيفه وترسه الخياليين.

لماذا يا أبا الحسن؟ ألهذا الحد استبطأت عمر أبيك؟

بماذا أوغروا صدرك على أبيك وسلطانك؟

هل زينوا لك أن أباك قد يفضل يوسف العليل عليك؟

-«لاش يا بلحسن؟ لاش؟»

سيق بغلظة مع زوجته التي حملت ولدهما الصغير. لم يجسر على النظر في وجهها، أو وجه ولدها. سار مستسلما لآسريه. هبط الدرج المفضي إلى بهو البركة حيث ينتظر باقي الواثبين.

سمع جلبة آتية من الحمام، رأى الجواري في البرانس البيضاء، يهرعن نحو الفناء. تحلق الواثبون حول قائدهم منتظرين أوامره مستشرفين النسوة القادمات نحوهم.

استوقف القائد جنده، تساءل متى اجتمعت كل تلك النسوة ولبسن البياض ثم خرجن في تلك الساعة، تقدم منهن بتؤدة يحاول طمأنتهن، لوّح بيديه نحو السلطان مبينًا أنه ما جاء إلا واثبًا عليه!

دنا منهن منحنيا ملاطفا فسكنّ، ثم سمع حمحمة فرس، فانتصب وقبل أن يخرج سيفه من غمده، عاجلته ضربة سيف فلقت رأسه، وانحسر أول برنس عن المهند أو ما ظهر من وجهه الأسود في الظلام . .

خشي السلطان على نفسه، وأقعى خلف أحد الأعمدة منكمشًا كأحشائه يرقب صنيع مملوكه.

كانت الحيلة قد أثلمت سيوف الواثبين، ألقى مماليك السلطان المخلوع برانس النساء، ورفعوا سيوف الرجال، يقودهم المهند، يطيحون بأعدائهم في البركة مضرجين في دمائهم.

هرول المهند بين الأروقة باحثًا عن سيده، وضرباته تفسح له الطريق بين الواثبين حتى أظهر السلطان نفسه. أخفض المهند سيفه وانحنى على يد السلطان يقبلها دامعًا.

-«ذبحوا الرجال في القصبة يا مولاي . . ذبحوهم لأجل القطيم[1] مفرج».

-«راجعين يا مهند . . راجعين».

-«نهرب؟»

أمسك رأس المهند بكفيه، ورفعها لتتلاقى عيونهما. استجمع شيئًا من رباطة جأشه وقال:

-«الحرس كثير، والكثرة تغلب العرم[2] يا ولدي . . نركب لمالقة عند المطرف ونتحمي بيه».

---

(١) كلمة عامية تعني المخنث.

(٢) الشجاعة.

قام المهند وصفّر للفرسان، فأقبلوا وحوافر خيولهم تصرّ على الرخام. أركبوا السلطان وزوجته وولده، تركوا موتاهم وجرحاهم، ثم انطلقوا رجالة وركبانًا نحو باب الشريعة، والساقة[1] تتلفت بين برهة وأخرى تحمي الجيش الصغير.

انتظرتهم مزيد من الخيول عند الباب، ولما غادروا الحمراء تعلق نظر السلطان بقصره، وأقسم عندها أن يفني بني سراج ويستأصل شأفتهم، ثم يذبح ولده بيديه ويخوض في دمه حتى لو عُيّر به. ولما أيقنوا النجاة عند ظاهر غرناطة أوقف السلطان الركب وأقعى في الخلاء يطلق العنان لطبيعته ويتمتم من بين أنينه: «الدنيا آخذ وموخوذ يا بلحسن، والخاين لا يفوت!».

❋❋❋

(١) المؤخرة.

أنت

تتوهم خروج جسدك منك، لا تراه لحمًا ودمًا وعظامًا، بل تراه كغرناطة. منذ سمعت جدك عبد الملك يشبه النفس بالمدينة وأنت تصور جسدك كحلوى المدائن، كحلوى الحمراء؛ فالنفس غرناطة، والصدر قصر الحمراء وقصبتها، والقلب في الصدر ملك ثاو في برج كبرج قمارش، هو مستودع الإرادة، هو من يأمر وينهي، والعقل وزيره المؤتمن يجلس عن يساره، لديه دار كتب دون فيها كل معارفك وعلومك وسيرتك منذ بدأت تعي على الدنيا، وداعي الله فيك قاضي الجماعة يجلس عن يمينك يذكرك بالحلال والحرام وأحكام الله، وحواس السمع والبصر والشم والسمع واللمس جواسيس تنبؤ الملك بما يرونه في الخارج، والأطراف جيوش على كل طرف منها عريف، يأمر الملك العرفاء فيطيعوا؛ يأمر عريف اليد يحرك يدك لتقبض أو تبسط أو يأمر عريف الرِجل يحرك رجلك لتقوم أو تقعد أو تمشي، أو يأمر عريف اللسان يحرك لسانكَ فتنطق، وشهواتك ورغباتك أرباض غرناطة كربض البيازين، مشحونة بالبيوت والعوام تموج حول أسوار القصبة، لكل رغبة أو شهوة أو صفة راية مخصوصة ترفعها.

كانت مملكتك تلك سلواك الوحيدة بحكاياتها وشخوصها أيام الحجب في الخضراء بالمرية.. وأي حجب كحجب الخضراء!

من الحمراء إلى الخضراء؛ حجب يتلوه حجب وحتى صرت كالعذراء في خدرها، بل كعود كلخ يتهشم من أرق النسيم!

كـثـيـرا مـا تداخلت الحكايات بينك وبين مملكتك؛ بين الكل والأجزاء.. تجمع نفسك حين تأسرك الذكرى والفكرة فلا تريد من نفسك إلا حسًا محضا يمليه الهوى؛ غضبًا أو حزنًا أو طربًا، أو تفرّق نفسك قلبًا وعقلاً وضميرًا وأرياضًا إذا ما أردت معرفة نفسك وسبر أغوارها، وتكر وتفر بين الجمع والتفريق حتى تنسى مرادك؛ أتريد فهم نفسك أم الانصياع لأهوائها بحجج مدبَّجة؟

ثم جعلت لكل من أسماء أجزائك نصيبًا؛ الملك قلب الدين، والوزير ابن لبابة، والقاضي أبو الضمير، وأرباض الحب والكره، الصبر والعجز، الرضا والحسد، القناعة والطمع، شهوات البطن والفرج واللسان.. أزواج من الأرباض تحيط بصدرك، الذي صورته كالحمراء، على مرمى البصر، والوزير ابن لبابة ينتظر جواسيسه من حواس السمع والبصر واللمس والتذوق والشم، ثم يدخل على الملك قلب الدين يرفع إليه أحوال الخارج على لسان الجواسيس، وما تمور به أرباض الصفات والشهوات، ويدور الكلام بين الملك والوزير وقاضي الجماعة، وصياح الأرباض يشاركهم مدحًا أو ذمًا، أو يدخل ربض من الأرباض على الملك يحمل رايته المخصوصة ليحمل الملك على إرادته، ثم يقف الملك قلب الدين؛ منتهى الفعل ومستودع الإرادة، ليسكت الجميع بإشارة من يده ويأمر وزيره أن يدون في ديوان الذكرى أوامره، وإذا احتاج لفعل أمر في الخارج، نادى على عريف اليد أو الرجل أو اللسان أو أي من عرفاء الأعضاء ليأمرهم بما شاء.

وكلما خطرت لك صفة أو شهوة صيرتها ربضًا، وتوهمت سجالات الملك مع قاضيه ووزيره، وثورات الأرباض وتنازعها في حضرة مليكها لتصرف إرادته وحدها، تريد أن تدخل عليه حمراء الصدر فتحيط به وتحجبه عن الجميع، تستبد باسمه وتصرّف أفعاله وأوامره وفق ما تشتهي.

والشيطان دخان أسود يسري في مملكة النفس، ريحه كريح الحشيش، وكلما نفث في نفسك نفثة تصاعد البخار في الهواء حتى تظلم سماء المملكة؛ مملكة النفس.

ثم جعلت لنفسك بندًا [1] كبيرًا خفاقًا على سطح قصبة صدرك نقشت عليه:

«الله ربي

الإسلام ديني

محمد ﷺ نبيي

اسمي موسى

سعد أبي

لكن أبا الغسان من أنتسب إليه».

فذلك الشعار آفتك أبدًا؛ الأمير موسى بن سعد بن الأحمر المنسوب لأبي غسان!

(١) علمًا.

الأمير ابن السلطان أخو السلطانَيْن عم السلطان!

يفتح الملك قلب الدين ديوان الذكرى. يقرأ ما وقع يوم وثبَ أخوك على أبيك في الحمراء.. تحضرك الذكرى كأنها البارحة. في البدء جاء أبوك على غير العادة، ربما أقضَّت حاجته مضجعه فهرع إلى أمك، وهو الرجل الكثير الباءة، لكن تشبثك بالبقاء معهما أفسد عليه ليلته.

لا بد أنه جاء لذلك. أم تراه أتى ليراك! هيهات فلم يكن برّه لأحد غير أبي الحسن؛ الواثب عليه!

يعتصر الملك قلب الدين ديوان الذكرى، يمور العوام في ربض الحقد مقتربين من أبواب الصدر، وينتفضون بصوت كالفحيح. يتصاعد الدخان الأسود في الهواء وتظلم سماء المملكة رويدًا رويدًا. يغطي هتاف ربض الحقد على صوت قاضي الجماعة الذي حاول تهوين المصاب. يروي ديوان الذكرى ساعة كسر الباب، يوم قادك الواثبون إلى الخارج لتستقبلك البركة بوجه غير الذي عرفتها به؛ ليل شديد البرودة والظلمة، وقناديل متناثرة عظّمت ظلال الواثبين. أتاك جاسوس البصر يصورهم كالغيلان ويلقي الروع في قلب الملك. وقف ملكك قلب الدين حينها متذبذبًا لا يقدر على جمع إرادته. ثم يرتد جاسوس البصر كرة أخرى ينقل إليك وقوف الجواري في برانسهن البيضاء مدافعات عنك ضد «الغيلان» الخاطفين.

ولما أشهروا السيوف وأسفرت البرانس عن رجال آخرين لم تفهم إلا بعد فترة، وراقبتهم من فوق كتف أمك التي اختبأت بك عند مدخل الحريم. راقبت أقواس سيوفهم البارقة وهي تطيح بأعدائهم في البركة..

كتبت هذا المشهد في صحيفة الديوان متوهمًا أن إغماد السيف وخروجه كقطع السكين في حلوى المدائن، سيحفظ ذلك الوزير ابن لبابة جيداً، حتى يسبه الملك قلب الدين ويقطع تلك الصحيفة غضبًا لما يخبره عريف اليد أن السيوف والرماح تنغرس في اللحم والدروع، ولا تخرج إلا بشق الأنفس، فيفجؤك ذلك عندما طعنت برمحك رجلاً لأول مرة في حياتك يوم وقعة لوشة، ثم حاولت نزع الرمح حتى كدت تكسره وتواجه أعداءك أعزل بلا سلاح!

يأخذك مماليك أبيك من حضن أمك، ترى البقع والخطوط الحمراء الداكنة على الأرض الرخامية المكسوة بالثلوج. يظهر أبوك في هذه اللحظة بعدما اختفى فجأة منذ نزلتم الدرج.

-«لن أغفر له هذاً اليوم.. لم يهتم بي، كان يهتم بملكه.. يرثي لمجلسه في قمارش، ومواكب صيده، والعوام المسبحين بحمده في طرقات غرناطة. لم يطمئن عليَّ ولا أمي، ركب فرسه مسرعًا فرحًا بمماليكه، وكأنه تعلم من عقوق أبي الحسن أن يبرهم وينسى ولده! لم يردفني خلفه، وإنما فعلها المهند» قال الملك قلب الدين ويداه تعتصران الديوان. صاح ربض الغضب مؤيداً مخترقًا الصدر يرفع رايته، والوزير ابن لبابة غير عابئ، فتلك ذكرى بالية لا يُبنى عليها أمر ولا نهي!

-«ربما لو لم يكن عندك في الغرفة لتركك وأمك في الحمراء فريسة لغيرة عائشة بنت الأيسر، وكِبر أبي الحسن». صاح ربض الكره.

يبأس أبو الضمير من تهدئة الملك، يحاول تذكرته بشؤم الملك وأهله، يحاول أن يستنزل منه أمرا لعريف اللسان بالاستغفار لأبيه وإخوته

- «لا غفران اليوم. . عثراتهم لا تُقال!»

- «فلماذا إذن داريت عن ولدك الحقيقة، واستدررت منه العطف على جده واللعنات على أعمامه. لماذا أمرت عريف اليد أن يمسك قلمه عن ذكر حماقته بتأليب بني سراج عليه لما سفك دم كبيرهم؟»

اضطرب قلب الدين وصاح ربض الكِبر يسب قاضي الجماعة. تكاثف دخان الشيطان الأسود حتى ملأ مجلسَ الملك. .

- «أنا أخبرك أيها الملك. . إنك لن تذكر ذلك لولدك، بل إن شئت ستدافع عما اقترفه أبوك، لأنك في دفاعك عنه. . تدافع عن سلطانك الجديد وابن أخيك، تدافع عن نفسك!»

***

الفصل الثاني

فبراير

أنا

ذكر ذهابنا إلى مالقة وخروجنا منها:

ولما خرجنا من غرناطة فارين بأرواحنا لا نلوي على شيء، ارتأى أبي رحمه الله أن نلجأ لعامله المطرف في مالقة؛ فهي قاعدة عظيمة من قواعد الأندلس، جامعة بين مرافق البر والبحر. تشد الرحال إلى ثمارها من كل مصر، يكثر فيها أشجار النارنج العجيبة ورمانها المرسي لا نظير له في الدنيا، وفخارها المذهب من جملة مفاخرها، غير أن أباك لم يعرف عن مالقة ذلك إلا عندما زارها بعد سنين. يومها كانت مالقة غرفة مغلقة في قصبة منيعة والنوم مع أم باكية وأب أكل عقوقُ أبنائه كبدَه.

وقتئذ لم أعِ شيئا مما نزل بنا. كنت طفلا كباقي الأطفال؛ سريع التبدل بين الفرح والحزن، خالي النفس من العقائد الراسخة والتجارب النافعة، شديد الإقبال والإملال، أرجو الخيرات ولا أتوقع الشرور والمنكرات، ولأني كنت على الفطرة جافتني القسوة والغلظة، فأسارع بالشعور بالذنب وأستقصر نفسي. كذلك كنتُ وكذلك كنتَ وكذا سيكون أي طفل، فتأمل.

غاية القول أني لم أعرف ما دار بين أبي وإخوتي، لكن عرفت بعدها أن أبا الحسن استعان على أبي ببني سراج ليوسدوا له سرير الملك بالحمراء، فكسر شوكة أخيه أبي الحجاج الذي مات من الحسرة والعلة مسجونًا في قصره، واستمال أخاه أبا عبد الله الزغل حتى يخرجنا من

مالقة؛ فللزغل فيها أنصار وأصهار. حاصروا القصبة بضعة أشهر، ثم دفعنا إليه المطرف ليحفظ نفسه، فخرجنا يحدونا الروع كما حدانا من غرناطة.

وعند أبواب مالقة أرسل لنا الزغل رسولا يخيرنا أي المنازل نشاء، فألحت أمي على أبي أن نذهب لألمرية حيث يعيش أهلها، وكذا كانت مشيئة الله وإرادته ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصولنا ألمرية:

وصلنا ألمرية يا بني سنة تسع وستين وثمانماية للهجرة، وألمرية مدينة عظيمة كمالقة، ردهما الله تعالى إلى المسلمين، وأحسب أنك لم تطلع عليها لحداثة سنك لما تركتها، وإذا أردت أن تراها اليوم يا بني، فتوهم رقعة من الأرض حولها سور كالمربع، وفي قبلته[1] ساحل ممتد على استقامة من جهة المغرب إلى ناحية المشرق، والبحر في جهة الجنوب منه، كنت أقطع الساحل راكبا عند الأصيل مع أترابي لما بلغنا أول الشباب، نستبق من أول الساحل في المغرب عند جبل الكُنَيسة بمحاذاة سور المدينة الجنوبي، حتى نصل إلى آخر الساحل في المشرق إلى موضع سميناه بالرّجل؛ وهو حيث كنا نترجل عن جيادنا بعد السباق، ثم نعطف إلى جوف البلد فنغشى فحص ألمرية، وهو قسم المدينة الأول؛ فحص عامر في شرقها خارج السور، مزروع بالتفاح والشعير والزيتون، وفيه سامر القوم ومصلى العيد وأبراج السراة وأكابر التجار مفروشة بالمتاع والفراش، يخرجون إليه

(١) يُعبر عن الشمال بالجوف، والجنوب بالقبلة.

في النزهة إذا ما حل القيظ، وكانت لنا في الفحص ليالي وأخبار، حتى إذا قضينا وطرنا من النزهة عدنا إلى الرّجل وسرنا بمحاذاة السور مرة أخرى ثم دخلنا المدينة من جهة القبلة عند باب البحر، وهو قسم المدينة الثاني وفيه الجامع الأعظم وفي قبلته القيسارية[1]، وجوفَي هذا القسم القصبة وهي مقسومة بقسمين، يفصل بينهما سور من أحسن القلاع وأحصنها قد ارتفعت جهاتها واستقلت من كافة نواحيها. وفي ذلك القسم كانت الخضراء بيت جدك، وبيوت خالي وأبنائه، أما القسم الغربي، وهو ثالث هذه الأقسام يُعرف بالحوض، بينه وبين المدينة سور مستقيم من الجوف إلى القبلة وفي السور باب يفضي إلى المدينة يُدعى بباب الخروج، وقسم الحوض هذا خرب لا يسكنه أحدٌ من أيام الطاعون الفارط[2] وجوفيه خندق، ثم عَمَّر أبي هذا الحوض عند نزوله ألمرية واختار السكنى فيه، ومن بعده عمرته أنا، لا يجاورني فيه إلا أبو إسماعيل اليهودي.

وفي جوف المدينة من جهة الفحص في الشرق خندق يُعرف بخندق باب موسى وكان معموراً قبل الطاعون، ثم تجنبه الناس وهجروه ونهوا عن قربه لما شاع بينهم أنه مسكون بالجن، ثم نزله أبوك مع أترابه وبت فيه ليال حتى دعانا الناس بالأشقياء!

تلك يا بني ألمرية؛ وطنك ووطن أبيك، فتوهمها كلما خلوت بنفسك، عسى الله أن يردها للمسلمين ويجمعنا فيها عما قريب.

---

(١) سوق كبير في المدن العتيقة.

(٢) السابق.

ذكر مقامنا فيها:

ألح علينا جدي عبد الملك أن نسكن عنده بدار الخضراء، وكانت جوار القيسارية والمسجد الجامع حيث كان مجلسه عند باب صومعة المسجد. غير أن أبي أبَى ذلك، وبالمال الذي أعطاه المطرف له اشترى داراً وبرجيلة تفاح عند ربض الحوض في غرب البلد؛ وكان ربضاً عامراً حتى جاء الوباء في عام خمسة وأربعين وسبعماية ففتك بأهلها ضمن مَن فتك، فأصبحت مهجورة يأوي إليها شذاذ الآفاق والصعاليك والزهاد، اللهم إلا بعض مجاشر وبراجيل[1] أصلحها أبو إسماعيل اليهودي لرخص ثمنها وبعدها عن المعمور من البلد لجفوة بينه وبين قومه من اليهود، ومنه اشترى جدك الدار والبرجيلة.

ولعلك تسأل يا بني عن رغبة جدك في اعتزال الناس ومخالفته أصهاره، وما أراه سراً؛ إذ أن الشيخوخة سن استيلاء البرد واليبس على الدماغ، فقلما يذعنون لأحد، ولا يحكمون على شيء إلا بما جربوه؛ فالحكم عندهم حكم ما قد سلف، ويقل عندهم توقع الخيرات لما رأوه من قبيح في الدنيا من أنفسهم ومن غيرهم، وإيثار السلامة وإحاطتهم بعواقب الأمور أكمل عندهم من غيرهم وذلك لما رسخ عندهم من كثرة التجارب والتعقلات والتصورات، فيذهب ذلك عنهم الغيرة والغضب. وإذا غضبوا فيكون غضبهم ضعيفا؛ إيثارا للسلامة وخوفًا من الدنيا التي ناجزتهم وناجزوها فيما مضى.

---

(١)مراع ومزارع.

وما نقل جدك من الكهولة إلى الشيخوخة في لمح البصر إلا بُعد الأبناء وعقوقهم، فأنت لا تدري يا عبد الملك ما يشعر به الأب حين يتركه أولاده، كأنه شجر مقطع الأغصان لا يلقي ثمراً ولا ظلاً، لا يسر عينًا ولا يصد ريحًا. يذوب قلبه كما يذوب الملح في الماء. وما شعرت بأبي إلا لما تركتني، وما عققتني حفظك الله، لكن عقَّني من تَعْلَمُ سامحهم الله وغفر لهم. أقول لمْ أشعر بأبي إلا لما تركتني، وليتني شعرت قبل أن يموت. ليتني واسيته وكنت سلواه وسنده في أواخر أيامه. ليتني قلت له إن كان أبناؤك عقُّوك للملك وتركوك إلا من نفقة يُبرئون بها ذممهم، فأنا ولدك أبرك وأعينك حتى تعيش مكرمًا لآخر عمرك. لكن أنّى لصبي أن يدرك ذلك؟

رحمك الله يا أبي وألحقني بك في الصالحين، ولا تنسه من دعائك أبدًا يا بني ما دمت حيا.

ذكر دخولي المدينة وتسميتي بابن بأبي الغسان:

كان بيتنا بعيدًا عن المدينة كما تقدم، وأراد جدي أن ألتحق به لأكمل حفظ القرآن في المسجد الجامع بألمرية. رضي أبي بعد طول حجاج مع أمي، ودخلت المدينة من باب الخروج، وهو الذي يفضي من الحوض إلى قسم البلد الأوسط، وجدي يردفني على حماره. وَطئتُ حينها ألمرية لأول مرة في يوم غامت فيه السماء. تجولت معه في طَرقات ألمرية الواسعة والناس يسألونه عني ولا يجيب إلا بـ«ولدي». كان رحمه الله يخشى من العرب القضاعيين أصل بني سراج ومنبتهم في الأندلس كله، فكان أول الأمر يخفي نسبي عنهم لئلا يمسوني بسوء إن علموا

أني ولد سعد بن الأحمر. صدقوا الأمر لكثرة ترحال جدي وأسفاره، وتندروا به أيامًا ثم نسوه، وبعد مضي عمر ومعرفة الناس بأصلي ونسبي، وعجب بني سراج أن يظن جدي بهم السوء أن يفتكوا بغلام لا ذنب له ولا جريرة؛ عاد إليّ نسبي، غير أن الناس مازالت تدعوني إلى اليوم بموسى بن أبي الغسان، وطوى موسى بن سعد النسيان، فصرت في ألمرية موسى بن أبي غسان وفي دارنا بالحوض الغربي موسى بن سعد.

ذكر مؤدبي أبي عبد الله المالقي:

دخلت مسجد ألمرية الجامع أول مرة مع جدي في الشتاء. وَطئتْ قدماي صحنه فشعرت بهما تتجمدان رغم جوارب الصوف. أشفق عليّ جدك حينها وحملني. لم أدقق وقتها في أشجار الليمون والنارنج المزروعة حول حوض الوضوء في وسط الصحن. كان جدي يحملني جامدًا إلى مؤدبي أبي عبد الله المالقي. كان رحمه الله رجلا صالحًا جاوز الستين بقليل، تقيًا، دينًا. وكان خفيض الصوت فلا يُسمع إلا بتدقيق ومشقة، غير أنه كان عذب الصوت حين يدندن بالأراجيز، وقد علق بي مما علق من تلك الأيام مطلع أرجوزة القراءة التي يقول فيها:

الحمد لله وصلى الله ... على نبيه ومصطفاه
محمد وآله وصحبه ... ومقرئ القرآن مع محبه
وبعد: إن هذه مقدمة ... في ما على قارئه أن يعلمه
إذ واجب عليهِمُ محتم ... قبل الشروع أولا أن يعلموا

وما فتأتُ أدندنها كلما تذكرتها في خلوتي كما كنت أدندنها قبل أعوام في صحن المسجد الجامع بالمرية. لم يستكثر مؤدبي رحمه الله من الصبيان كعادة المؤدبين في زمنكم؛ لئلا يضيع حقوق الصبيان؛ فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فإنها كرياضة المهر الصعب الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس، حتى يرتاض ويقبل التعليم. وأكثر المؤدبين في زمنكم جهال بصناعة التعليم؛ لأن حفظ القرآن شيء، والتعليم شيء آخر لا يحكمه إلا عالم به، وكذلك كان مؤدبي رحمه الله. تعلمت على يديه الهجاء والخط والقراءة، وتجويد التلاوة، وكان يأمرنا بالصلاة ويكتب لنا التشهد وما نقوله فيها، ويؤدب من يتكاسل عنها بعيدًا عن أعين الناس في سقيفة المسجد، لا كما يعمل المؤدبون في زمنكم من ضرب الصبيان وتفليقهم في المساجد ولا يراعون لبيت الله حرمته.

ولا تظن يا عبد الملك أنه كان مغاليًا في أجرته، ولعلك تعجب إذا عرفت الأجر الذي أديته له، وكلما أتم أحدنا الأجل معه وهمَّ بتركه، أخذ عليه عهدًا أن يقرأ جزءًا من القرآن على غسله، فلما مات رحمه الله في السعبين من عمره اجتمع مائة وخمسون رجلا يقرؤون عليه، فختم القرآن على غسله رحمه الله خمسين مرة، وذلك خير من الدنانير والزيت الأخضر والقمح الريون.

وكان رحمه الله يتركنا نلهو في المسجد إلا أن نلهو بالماء في حوض الوضوء، فكان يبدرنا بالنهر قبل المحتسب، وكلما رأى أحدنا مريضًا في الدرس أخذه ليشرب من عين عمود على يمين المحراب، يجري عليه ماء

المطر منهمراً من مزاريب السقف، كنا ندعوها العين الباكية، وما من عليل شرب منها إلا وبرئ بإذن الله.

ذكر مجلس جدي عند الصومعة:

وكنت أخرج من بعد صلاة العصر إلى باب صومعة[1] المسجد، فيذهب الصبيان إلى دكاكين آبائهم، وأذهب أنا إلى حيث يجلس عجائز البلد، ومعهم جدي رحمه الله، قبل أن ينقل مجلسه إلى الخضراء في علته الأخيرة. كان ذلك المجلس غير مجلس أبي عند باب الشريعة، فلم يهتم بمداعبتي والتودد إليّ أحد، وكانوا جميعًا يتحدثون بفضول القول لا يلقي أحدهم بالاً لكلامه طربًا أو سخطًا، وحين يقوم أحدهم عن المجلس يولي جلساءه ظهره، على غير عادة من هم في حضرة السلطان؛ إذ يتقهقرون مولين وجوههم شطر السلطان حتى يغيب عن ناظريهم. وما ينطق أحد بكلمة إلا زيدت عليه من الباقين كعادة العجائز والنسوان. أذكر منهم رجلاً بخيلا يقال له ابن البرذون جلس يومًا في مجلس جدي فقال بعضهم: ما في الأرض أمشى مني، فقال ابن البرذون: وما يمنعك من ذلك وأنت تاكل أكل عشرة أنفس، وهل يحمل الرّجْلَيْن إلا البطنُ، فقال آخر: أنا والله لا أقدر أن أمشي، فقال له: وكيف تستطيع المشي، وأنت تحمل في بطنك ما يثقل ثلاثين رجلا، وهل ينطلق مشي الإنسان إلا بخفته، فقال الآخر: أما أنا فما نمت البارحة من وجع ضرس، فقال: وكيف لا تشتكي، وأي ضرس يصبر على الدق والطحن مثل ضرسك؟، فقال آخر: ما اشتكيت قط

(١) مئذنة.

ضرسي، وما تخلخل من موضعه، فقال له: ذلك من كثرة المضغ، فإنه يشد الأسنان، ويقوي اللثة، وقال آخر: ما أظن أحدًا أكثر شربًا للماء مني، وما أروي منه، فقال: لا بد للبطن من الماء حتى يبله ويرويه، وأما أنت والله لو شربت شنّيل ما استكثرته لك؛ لما أرى من كثرة أكلك، فقال آخر: وأنا لا أشرب الماء، فقال: لكثرة ما تأكل، لأن البطن إذا امتلأ لم يحتَجْ لشيء، وكذا إن شكر أحد نعمة استقلها ابن البرذون، وإن شكا نازلة رماه بالجحود! وجدي وسط هذا الصخب حليم مالك للسانه، وإذا سألته لماذا يكظم غيظه إذا قدحه أحد أو زلقه ببصره، قال ما أضيَق الحياة لولا الحِلم والغفلة، ولو عوتب كل أحد في زلل لسانه ما تعارف الناس!

ذكر بُرطة ألمرية:

وكان إذا شعر جدي بالفتور من المجلس أخذني إلى البُرطة[1]، فكنت أرى الأجفان والقراقير[2] مطوية أشرعتها عند المرسى، والحرير والبسط والآلات الصفر والحديد يحملها الحمّالون في الغدوة والروحة، وأخلاط من البشر تروح وتجيء في البرطة؛ نصارى من أرغون وجنوة، منهم تاجر يُدعى مرعش، عرفه جدي في أسفاره البعيدة ثم استقر به المقام بالأندلس، وكان لديه خان قريبًا من البرطة يضيّف فيه بني جلدته من الوافدين على ألمرية، وكثيرًا مازرناه في بيته وتسامر جدي مع أخدانه ومرعش ترجمان بينهم، وكان رحمه الله يبغض أهل أرغون ومجالستهم ويغلظ القول لخالي على تجارته معهم، ولما سألته عن سر ذلك وحبه

(١) الميناء.

(٢) من أنواع السفن.

للجنويين قال «نصارى غير النصارى»، وأذكر مما حكاه لنا مرعش عن حصار برطة لهم حاصرها جند من الترك والروم المسلمين، وحكى لنا عن سلطانهم أبي الفتح محمد بن مراد فاتح القسطنطينية، وقال أنه رآه بنفسه. لا أنسى عجمة ذلك التاجر وامرأته البدينة السافرة ورائحتهم المختلطة من العرق والعطر، وأذكر كذلك طعامهم اللاذع الغريب، ورأيت عندهم في الخان ظلة نُسجت من خيوط الذهب، قالوا أنهم نشروها لأخي أبي الحسن لما زار ألمرية منذ عام، ولديهم غرفة واسعة مغلقة منذ دخلها أخي السلطان، وقالوا لا يدخلها أحد من بعده، وقد علمت بعدها أنه أنفق عليهم نفقة أغنتهم عن العمل عامًا أو يزيد للظلة التي نشروها عند مقدمه، ومائدة حفلت بطعامهم الردي ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وكان يغشى ألمرية كذلك بربر من العدوة، بعضهم جاؤوا لما ضاق بهم المعاش في بلدانهم المقفرة، فجاؤوا يتجرون بالسوق ويأكل أكثرهم بالغش والدّين، وآخرون غزاة جاؤوا للرباط، وإن كان منهم من يزعم الجهاد لأكل أموال الناس وقطع الطريق، وكان جدي رحمه الله يبغضهم ويرتاب بهم ويقول «الغازي والفار لا تعلمهم باب الدار».

ذكر الخضراء:

ولما كان من المشقة بمكان أن أبقى في دارنا بالحوض وأذهب كل يوم إلى المسجد، ثم أعود عند الزوال، والطريق وعرة يكتنفها اللصوص وقطاع الطريق، ارتأى جدي رحمه الله أن أمكث معه بالخضراء على أن

أعود بين الفينة والفينة إلى الدار، وكانت جدتك رحمها الله تتلقاني يوم عودتي بالمركاس والفالوذج[1] والشواء، كل ذلك مرة واحدة!

على كل حال مكثت مع جدك وحدي بالخضراء. وسميت الخضراء كذلك لأن جدرانها وبسطها ونمارقها كلها بالخضرة. قامت على خدمتنا جارية عجوز هي من ربت أمي بعد موت جدتي من زمن بعيد، لازلت أذكر القصص التي كانت تقصها علي، ولازالت تلك القصص زادي إلى اليوم كلما خلوت بصبيان، أو طلبها مني خليلٌ في سمر. كم قضيت من أيام حلوة في الخضراء يا عبد الملك! كم لهوت وجدي عند حوضها، واختبأت منه بين عمدانها، وداعبت وجهي النسمات في فنائها، وقضيت الليل والنهار في مجلس الكتب فيها. كان ذلك المجلس على يمين الفناء فيه من الكتب النفيسة ما جمعه جدي في أسفاره، يغشاه النساخون والوراقون من المرية جميعها، وكان رحمه الله يؤدي النساخ أجرًا ثابتًا جوار ما يأخذونه عن كل ورقة ينسخونها وذلك حتى لا يتعجلوا فيزلوا، وذلك من حكمته وبصيرته ألا يحسب كل أمر بالدرهم والدينار، فإن المال إذا دخل القلب فسد وأفسد، وأورث صاحبه العداوة والشقاء.

تعلمت في ذلك المجلس من كبير النساخ رسم الحروف على لوح من خشب نمحوه بالماء بعد كل درس، وتعلمت منه النقط على عادة المشارقة والمغاربة، ولعلك لا تعلم أن الفاء عندنا تنقط نقطة من تحتها والقاف نقطة من فوقها، أما عند المشارقة فالفاء تنقط نقطة من فوقها، والقاف نقطتين.

---

(١) طعام مغربي وحلوى.

عرفت في ذلك المجلس أيضًا شيئًا من الفلك؛ فاطلعت على كتاب الصوفي عن الكواكب، وأصدقك القول لم أعِ شيئا منه وقتها، غير أني كلفت برسومه أشد الكلف؛ ففيه رسوم الكواكب الثابتة من كوكبة الفرس والدب الأكبر والأصغر وغيرها، وكنت أسير بإصبعي بين النجوم متنقلا على حواف الرسم، ويشير جدك إلى الكواكب في السماء عندما نصعد للسقيفة في الليل، فأعجب كيف من تلك النجوم المتفرقة في السماء تصورَ رجلٌ هذه الصور ورسمها. غير أني بعد عمر، لما قرأت في الأنواء، وعرفت أخيلة العرب في الكواكب؛ أضحت صور الأعاجم عن السماء أوثانًا جامدة، غير العربالذين رأوا في النجوم آثار ظباء نوافز فزعن من الأسد في كوكبته فوردن الحوض آمنات، ورأوا الدبران[1] يتبع الثريا يطلب ودها، ويخطبهاله القمر فتأبى عليه، فهو يدور في إثرها أبد الدهر!

وكثيرًا ما قصر أبو عيسى الوقاد عن إيقاد جميع القناديل بالمسجد بعد المغرب. عندها كنت أستلقي على ظهري في بيت الصلاة، وأرقب القناديل الموقدة المتفرقة أصورها قصصًا وحكايات كما رآها العرب. وكان لي مع القناديل وسلاسلها أحاديث وأحاديث.

وكذا ظل حب الخضراء في قلبي، حتى حجبني فيها جدي كما كنت محجوبًا من قبل في الحمراء، وكذا تنقل أبوك بين حجب وحجب! ووراء كل حجب منهما شيخ ظن أن الله لم يؤت الحكمة أحدًا سواه وإن خالف المعقول والمنقول! رحمهما الله وجمعني بهما في رحمته والحمد لله على كل حال.

---

(١) نجم أحمر لامع.

ذكر موت أبي:

مرت الأيام على هذا الحال ثلاث سنوات ما بين المسجد والخضراء والحوض، كان أبي رحمه الله في أواخر أيامه يسير من البيت إلى البرجيلة في النهار، فيجلس في الظل ساعة أشعث الشعر واللحية، ثم يقوم إلى غرفته، فلا يخرج منها إلا إلى الخلاء لا يحادث أحدًا، ولا يجالس أحدًا. ألحت عليه جدتك كثيرًا أن يخرج مما به فأبى، تحدثه فلا يجيب، وتضع أمامه الطعام فلا تمتد له يده إلا حين تتركه، ولا يصيب منه إلا ما يقيم صلبه. ظل على ذلك الحال، ثم مات رحمه الله. ولا يعلق بذهني من يوم وفاة أبي إلا دخول جدي علينا يلبس ثيابًا بيضًا فعاتبه الناس أن يلبسوا الأسود حدادًا على صهره ويأبى هو إلا أن يلبس ثياب الفرح، فوبخهم وسفه منطقهم، وأبان لهم أن ذلك أصل الحداد في الأندلس حتى جاء بنو الأحمر، وترنّم بقول الشاعر:

ألا يا أهل الأندلس فطنتم	بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم فى مآتمكم بياضًا	فجئتم منه فى زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزنٍ	ولا حزن أشد من المشيب

غاية القول أن أبي مات مخلوعًا من كرسيه، مطرودًا من بنيه، منفيًا من الدنيا وما فيها. مات وحيدًا وعلى صدره مصحفه الذي خرج به من الحمراء. كان آية من الجمال في حسن الوضع ورعاية الرسوم والتذهيب، ولكل ضبط لون لا يُخلُّ به؛ فاللازورد للشدات والجزمات، واللكُّ للضمات وللفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات

المكسورات، والأصفر للهمزات المفتوحات. والمصحف من رق الغزال سفره أحمر قان وبدفته اليسرى لسان يسمى المرجع؛ يوضع على الصفحة المتوقف عندها ليُرجع إليه.

كان يضم المصحف إلى صدره ويقول: «هذا شفائي من الدنيا»، ولقي الله والمصحف على صدره، ودُفن معه رحمه الله حسب ما وصى. وظللتُ أقوم على قبره بالحوض أقرأ له الفاتحة وأترحم عليه، حتى كان ما كان وهجرت ألمرية فيما تعلم.

***

هو

قد جاء سعد موعداً بشَرَّه   مخبرة جنوده بحَرَّه

ظهر نجم سعد الأخبية في السماء، وحوله ثلاثة كواكب خافتات، أخبر قدومه الهوام بانتهاء الشتاء، وإقبال الحر، فخرجت من جحورها بعد طول اختباء وانتظار.

يبلى برنس شلير الأبيض، يتمطى الجبل في مكانه بعد طول جمود. تطل أشجاره برأسها على استحياء، تسأل السماء عن الشهر، فتجيب بالسريانية ذلك شهر التوريق، فترفع الأشجار رأسها مطمئنة ويكثر تحتها الكماة.

فبرير يشرف على الانتهاء؛ فيه تفقص الطير وتفرخ النحل وتتحرك دواب البحر، وينغرس بصل الزعفران ويزرع بقول الصيف ويُركب الإجاص والتفاح، وفيه تنفذ الكتب للحشود للصوائف[1]، غير أن صوائف بني الأحمر غير الصوائف.

***

خطر الجنود الثمانية صفا وراء رمح الناظر ذي العقد المعقود. تبعتْ خمسةُ رماح معقودة متجاورات وراء بند العريف المنصوب. انتصبت خمسة بنود على استحياء أن تطاول لواء النقيب المنشور. تهادى الجواد أمام خمسة نقباء يظلله علم القائد المرفوع. نظر الحاجب ابن رضوان،

(١) غزوات الصيف.

حاجب السلطان أبي الحسن وأمير جيشه، إلى قواده الخمسة مسروراً. هز رايته في الهواء ثم همز فرسه ليسير الجمع وراءه متقدمين نحو تل السبيكة بالحمراء حيث مجتمع العوام، ومع كل قدمٍ يُسْرَى تدب على الأرض، تُقرع الطبول وتتمايل معها رأس السلطان أبي الحسن غبطة وهو يستعرض جيشه أمام أهل غرناطة. جال في عيون رعيته. ضحك سراً لما تخيل وجوههم لو عرفوا أن ذلك المهرجان الذي يستعرض فيه الجيش ليس إلا توطئة لزيادة مغارمهم تعللا بنفقة جيشه الكبير والجهاد ضد قشتالة!

راح زمان سعد الطيب! حتى متى كان سينتظر موت أبيه؟ كان سيذوي في الظل حتى يبلى كعشرات من أمراء بني الأحمر الذين يملؤون قصور مدينة الحَمَّة وحماماتها، يثرثرون في مدينة الأمراء حول الماء والبخار. كلهم ابن سلطان أو حفيد سلطان أو أخو سلطان، جلهم يجمع دم سلطانَيْن أو أكثر، وإذا كان الملك واحداً والأمراء عدة، أليس من طبائع الأمور أن يتعارك الجميع!

ومن أدراه أن أباه لا يعهد بالمُلك من بعده لأبي الحجاج أو لأبي عبد الله الزغل أو حتى الصغير موسى؟ هو السلطان ولا رادَّ لحكمه وقضائه، ثم إن أباه أخطأ بعداء بني سراج. ظن مماليكه السود يغنونه عن عصبية بني سراج، ولو لم يضع يده في يدهم لفرقوا بضع أكياس من الدنانير على صعاليك البيازين يحاصرون بهم القصبة، ولخرجوا إلى الحَمَّة وأخذوا ابنًا من أبناء الأحمر ببرنسه من الحمام ووضعوه على عرش الحمراء!

يومها سيذّكر حلفاؤه من بني بنيغش أن أصلهم نصارى وعصبيتهم لا تصمد لعصبية العرب، فلن يقووا على بني سراج؛ فبيت شعر يهجو أصلهم ويهجو صلتهم بطاغية الروم، حتى يبدرهم العامة بالرجم في الطرقات كما فعلوا باليهود في غرناطة أيام بني زيري. أما بنو الثغري فسيلجؤون إلى رندة ومالقة، أو يتحالفان معًا فيتقاسمان ما يرضى به بنو سراج من العطايا والأرض، وسيرضون جميعًا في النهاية والسلطان بينهم كالمحلل؛ يلعنونه ويحتاجونه، فإن اختلافهم ونبذهم للسلطان يعني أن يغلب عليهم الغزاة البربر القادمون من العدوة أو جند طاغية الروم، وله في سيرة أجداده السلاطين عبرة؛ فقد تنقلوا بين حلف ملوك بني مرين في المغرب وملوك قشتالة حتى احتفظ سلاطين بني الأحمر لذريتهم بالعرش خالصًا لهم من دون الناس لما يربو على قرنين من الزمان، كان أنبغهم في ذلك جده أبو عبد الله الفقيه، رحمه الله من فقيه! وأي فقه كفقه السلطان!

زوى ما بين حاجبيه مدققًا في الفرسان القادمين؛ أمجاد غرناطة وفرسانها من أمراء بني الأحمر، اللاهين بين حمامات الحَمَّة والصيد واستعراض الجند.. أي كرسي يسع كل هؤلاء! كان يظن بلوغه الأمان بعد موت أبي الحجاج وإرضاء الزغل بالبقاء مع أخواله من بني الثغري، ما أشد فحولتكم يا أبناء الأحمر؛ أن تنجبوا كل أولئك الملوك، وعقمتم أن تأتوا بكرسي أكبر من كرسي غرناطة؛ كلقمة أفلتت من فم لب[1] الروم الهصور!

---

(١) أسد.

شعر بيد إسماعيل بن مفرج بن سراج تفتل طرف كمه في خفية عن الناس، فانتبه. تبسَّم السلطان لابن قتيل أبيه. ها قد خلع السواد ولبس الحرير والديباج بعدما حل محل أبيه، أشار ابن سراج بطرفه للود الزائد بين وجهاء بني بنيغش وبني الثغري وكؤوس الشراب تدور عليهم. زفر السلطان ضيقًا من لكاعة الصبيان؛ ألا يكفي ابن سراج أنهم يحيطون به في مقصورته وتحت ظلته دون الجميع، كأنهم يريدونه أن يقتل كل أحد سواهم. أبدى نواجذه هازئا يجاوب ابن سراج في بغضه لخصومه. أرضت تلك البسمة أنفة ابن سراج. يؤمن أن السلطان مدين لهم بعرشه، ولولا سريان العرف بالملك لبني الأحمر منذ قرنين لأعلن ابن سراج نفسه سلطانًا! ولم لا وعصبيتهم في الأندلس ليست كباقي العصبيات؛ عصبيات دم بارد وولائم عرس ووضائم جنائز، بل عصبية نجدة ونخوة وغضبة، عصبية لا يقوم المُلك إلا بها، ولولا أنهم يخشون اجتماع الأندلس كلها عليهم بغضًا وحسدًا لفعلوها من سنين، وأكثر من ذلك خشية بني سراج أن تتفسخ عصبيتهم ويتنافسوا على الملك كما جرى لبني الأحمر فيقطع بعضهم رقاب بعض ويتسلط عليهم من خلفهم بنو ثغري بقواعدهم وبنو بنيغش بأموالهم.

لا بأس فليحفظوا لأنفسهم الوزارة، وليقطع بنو الأحمر رقاب بعضهم البعض على كرسي لا قوائم له.

نُفخ البوق عند دخول ابن رضوان الحلبة تاركا جنده يدورون حولها خلف أترابهم. غرس رايته في الأرض جوار رايات أترابه من الأمراء، والسلطان يراها تنغرس في لحمه، فلا يرى دواء لهواجسه من أصحاب

الرماح إلا سُمّا أو خنجراً بليل. ناول الخدم الحاجب ابن رضوان رمحًا، هزه في الهواء كعادته، أومأ للسلطان بالتحية، فأومأ له بدوره. صرف بصره عن الجمع وتعلقت بالطبلة الخشبية المعلقة بالهواء، يرمي برمحه فيخطئ. ثم يعيده إليه خادم فيعيد الكرة من جديد، وبينما يناوش الحاجب الطبلة مع أترابه، ثمة جندي أسود اللون دار حول الحلبة مع أترابه يخطو كل خطوة على أثر من يتقدمه حتى يحافظ على النظام، غير أنه سرعان ما تضطرب مشيته، فيجتهد في ضبطها على وقع الطبول من جديد، ذلك أن بصره ورمحه معلقان بطبلة أخرى؛ طبلة سلطانية من لحم ودم.

***

-«اشتعمل لو كنا ظلمناه؟».

- «نستغفر الله!». تعجب أبو عبد الله الزغل من رد المطرف، الذي تابع كلامه وبدا مقطبًا حاجبيه: "أنت الباقي لي يا محمد. أبوك وصاني عليك، قال محمد طيب عاون أخوه وشد على إديه حتى يحميني من بني سراج».

-«الله يعلم نيتي، إش كنا نعمل يا مطرف، وكلهم كانوا عليه؟».

-«انس يا محمد، بش يفيد الكلام؟ المهم إنه اليوم يتم المطلوب ونعلنك من مالقة سلطان غرناطة».

- «وبلحسن؟».

-« بلحسن مالو أمان وأنت ريت الرسالة بنفسك. كان يريد موتك وموت أخوالك بيدي».

يبدو أن لا مفر من الحرب إذن. بضع سنوات مضت حتى استتب الأمر كله لأبي الحسن وخضعت كل المدن والقرى، حتى الصعاليك في الأزغار دانت له رقابهم.

لماذا الغدر يا أبا الحسن؟ أم أن زوجته ابنة السلاطين ضنت على أخي زوجها بمنزلته، فلم تزل بأبي الحسن حتى خضع لها وأراد قتل أخيه ليلحق بمن سبقه؟ ها قد صدق المطرف فيما حذره منه منذ ثلاثة أعوام مضت. عليه أن يأخذ بالنصيحة الآن في وقتها، ويدعو الله ألا يكون متأخرًا كأبيه فيلقى ذات المصير. أحنى الزغل ظهره في جلسته ووضع وجهه بين كفيه. زفر في أسى، ثم قام مع المطرف إلى مسجد مالقة الجامع ليدعو نفسه سلطانًا لغرناطة.

-«راهو[1] يتقملك المطرف يا سعد! نام وارتاح ياخوي!» تمتم بها المطرف سرا، يالسذاجة الغر الزغل إذ ظن أن المطرف ناصحه الأمين، يظن المطرف يبايعه سلطانًا. إنه لا يعرف سوى سلطان واحد، السلطان المستعين بالله سعد بن الأحمر. أما هؤلاء فأطفال صغار يلهون بصولجان المُلك ويتقاذفونه فيما بينهم، ولا يعلمون أن لولا الكبار الذين وثبوا عليهم لكانوا يستجدون العطاء والمراتب في بلاط فاس أو قشتالة! أو يبقون في الحَمَّة ينتظرون لحظة شك من السلطان يتبعها حز الرقبة في جوف الليل!

ماذا يعرف أولئك المردان عن الطاعون الجارف الذي وُلدوا بعده بعقود، فشهدوا أذنابه تتوهج كالنار تحت الرماد يأخذ الأجداد

---

(١) سوف.

والأصحاب قبل أن ينطفئ ليشتعل من جديد! ماذا يعرفون عن رائحة الموت، عن رائحة البخور والسكون في المنازل لأن كل حركة تدخل مزيداً من الهواء الفاسد إلى الجسد، والثياب المنقوعة في الآس والليمون وماء الورد عل رائحتهم تحمي من عفونة الهواء، وفصد[١] الدم من العروق أوقيات ملأت جراراً أكثر مما ملأه عصير العنب والرمان! النظر من بعيد للأحبة الذين طُعنوا، ورؤيتهم يذبلون واحداً تلو الآخر من الحمى والرعدة، حتى ينضج المرض وتنعقد ثماره القتّالة تحت الإبطين. ماذا يعرف أولئك المردان عن الدنيا! عن اللعب على حبال فاس وقشتالة وأرغون، والطواف على أمراء بني الأحمر في أقبية قصور الحَمَّة؛ هذا يُقطع ألمرية وهذا المنكب، وهذا مالقة، فيجتمع لهم بضعة جنود خلف آخرين كاليهودي يجمع قروشه في دكانه بصبر وأناة، الحلم على طمع بني سراج، والتغافل عن انزواء بني الثغري بما تحتهم، وتجارة بني بنيغش مع النصارى حتى ساعة الجهاد!

ماذا يعرف أولئك المردان؟ أو لعلهم عرفوا ذلك وتعلموه جيدا، وشبوا عن الطوق.. ووثبوا! قبض المطرف على أجفانه لما ساءل نفسه للمرة الألف، وهو يكتب رسائله لسلطانه الوحيد يخبره بنجاح الوقيعة بين أبنائه، لماذا يفعل ما يفعل؟

تذكر اليوم الذي أخبر فيه سلطانه أن الهزيمة وقعت ولا بديل عن النزول عن المُلك للابن الواثب الجحود..

***

(١) إخراج الدم من أحد أجزاء الجسم عن طريق شق العروق.

-«تخونني يا مطرف؟».

- «أخونك يا مولاي؟ وي خيانة لو قلتلك فوجّك!».

- «واشتعمل داب[1]؟».

- «أحميك من بني سراج، كل أبناءك خانوك يا مولاي، لسَ يبقى لك سوى عبدك المطيع، ذا ما أقدر أن أعمله؛ أسلمك للزغل قبل بني سراج».

- «إذن عاهدني يا مطرف.. عاهدني بشيبة الراس واللحية».

- «علاش؟»

-«عاهدني إنك تاخذ ثاري وتقتل بعضهم بايد بعض وتشفي قلبي».

- «أعاهدك، لكن لي طلب..».

- «اطلب».

- «المهند وكل مماليكك يتسلمو لبلحسن حتى يطمئن من ناحيتي وناحيتك».

أومأ الذي كان سلطانا برأسه، ومضى ليدخل خباءه ويبدأ انتظاره الطويل.

***

دق موسى بيده على كومة الرمل اليسرى ومعها دق قلبه. دعا الله أن يصيب هذه المرة، بحث بيده بين الرمل عن الخبيئة، ثم تنفس الصعداء حين وجدها.

(١) الآن.

-«كسبت . . كسبت» صاح موسى؛ فمنذ زمن لم يفز على عمرو ابن خاله في البحاثة، ترك فاطمة وعبد الملك الميل على الأرجوحة ليهنؤوا بالحدث السعيد، أما هشام فكان يدور حول نفسه لاهيًا بخشبته المشدودة إليه بحبل.

نظر الخال إلى ابن أخته وأولاده بملل. تساءل عما جاء به إلى الحوض الغربي، ألم يكن من السهل أن تأتي أخته بولدها وتترك زوجها المجنون وحده بالدار. ما الذي يجعله يترك تجارته ليأتي جانب المدينة المطعون هذا. ولا يكلف هذا المجنون خاطره بالسلام على صهره الذي يصله ويصل أخته وابنها بعدما هجره أبناؤه الأمراء ووثبوا عليه، ولما أراد الخال معاونة أخته وزوجها على نوائب الدهر وعرض أن يتجر بأمواله مع أرغون انتفش المجنون وانتفض، أن كيف للسلطان أن يصير تاجر بقل، ومع من؟ مع النصارى أعدائه الذين حاربهم وانتصر عليهم فيما مضى.

تبا لأنفة الملوك الخادعة! أيقول ابن الأحمر هذا وكل من تملّك منهم يتخذ لنفسه خاتمين؛ عربيًا وعجميًا كجدهم الكبير ابن الأحمر مؤسس دولتهم، كان يختم بالعربي على الظهير[1] في الحمراء، وبالعجمي على أوراق كورتيش[2] ملك قشتالة، كأحد أتباعه المخلصين. أيصير دفع الجزية لقشتالة وأرغون وقتال المسلمين معهم عملاً من أعمال الملوك، وتجارة البقل عارًا وشينًا! وكأنه لم يكْفِه تقريع أبيه عبد الملك ليقرعه زوج أخته! إنه تاجر بقل ولا يزعم لنفسه غيرَ ذلك، ولو لم يشتر من النصارى أو يَبِعْ لهم سيفعل مع غيرهم، وما الفارق بين نصارى جنوة وأرغون

(١) القرار الصادر من السلطان.

(٢) المجلس النيابي

وقشتالة؟ كلهم نصارى يحاربون المسلمين. ولولا تجارته تلك ومكانته في ألمرية لما طاب المقام لهذا الجاحد زوج أخته بعدما لفظتهم كل أرض لاذوا بها. وذاك الصبي الصغير ابنه، لم يرث منه إلا أنفته واستطالته على أبنائه وتعييرهم بحظوته من مؤدبه المالقي، ومازاد الطين بلة خرف أبيه على كبر أن ينسب حفيده له خشية ثأر لم يطلبه أحد، فيحتمل من سخرية النَاس في السوق ما يحتمل من أخيه الذي جاء على غفلة، وفوق ذلك لربما شاركه في ميراث أبيه كأخ لا كابن أخت! والله هذا الخرف لن يدوم!

راقبت ليلى أبناءها بحبور وهم يلعبون أمام الدار، رمقت فاطمة وموسى، ثم نظرت لزوجة أخيها نظرة ذات مغزى جاوبتها زوجة أخيها بمثلها وضحكا معًا حين دنت فاطمة من موسى على استحياء.

-«احك قصة الأمير يا موسى». شبت فاطمة على قدميها طالبة قصتها الأثيرة التي لا تمل سماعها. تصنَّع موسى التواضع وأجلسهم حوله على الأرض يحكي لهم قصة الأمير: «في زمن من الأزمان كان لسلطان غرناطة ولد وحيد اسمه أحمد..».

غير بعيد عنهم، وعند برجيلة التفاح، جلس الشيخ الكبير الذي كان سلطانًا، اتكأ في الظلال يقرأ من مصحف أحمر وقد علّم موضع الوقوف برسالة جديدة من محب مخلص لم تنقطع رسائله.

***

حاول الجندي الأسود ضبط خطوته مرة أخرى، دار حول الحلبة دورة كاملة، وعند الدورة الثانية عزم على إصابة هدفه، اضطربت خطواته

مجددًا، تحمل ألم كاحليه ليدب على الأرض بقوة كأترابه، قيود ثلاث سنوات أنسته ما كان فيه من شدة ونشاط. اعتصر رمحه حين تذكر ما كان. لم يحسب أبدًا أن يُلقَى في السجن كاللصوص، وأن يقاسي الهون والعذاب. ومن الذي سلّمه؟ إنه المطرف عامل سلطانه، لا ريب أن السلطان سعد ولي نعمته، الذي هب لنصرته يوم وثب عليه ابنه الذي من صلبه؛ لم يعرف بالخبز، وفعلها من ورائه المطرف. يالخبثكم يا بني الأحمر! لا تنحنون إلا لطاغية منكم أو طاغية من غيركم يلتقم حصونكم. وهم؛ المماليك لا ينالهم إلا قتال بعضهم بعضًا كل يدافع عن أميره من بني الأحمر، والعوام في أمثالهم يهجونهم ويخوضون في أعراضهم في الأسواق والدروب. إلا سلطانه؛ إنه لم ير من سلطانه إلا كل خير، ولسوف يثأر له من ولده العاق الواثب عليه ويسرع بالخبر لألمرية يبشره. هو سماه المهند، وسيكون مهندًا، يذكّر ما قاله أبو الحسن ساخرا منه حين سمع اسمه أول مرة: «اش اسود إذا أُقل لك[1] سيدي مهند!» يستكثر عليه المنزلة والرفعة ويعايره بسواد لونهَ، الويل لهَ!

ظن أبو الحسن الغر أنه يقدر على حبس المهند! لا يعلم أن مماليك بني الأحمر لكثرة الوثوب يتعلمون الضرب والطعن والهرب من السجون، والقفز على الحيطان والالتحاف بثياب النسوان!

هاهي الظروف مهيأة لتكافئه على انتظاره الطويل رغم خروجه مُنكَرًا معدمًا. اقترب من مجلس السلطان مجددًا ولما دنا من طبلته غامت السماء..

***

(١) قيل.

هطل المطر فجأة. . تقافز الأطفال في نشوة، غير أن الخال دفع موسى وأبناءه إلى الدار رغمًا عنهم وقد غضب موسى من قطع قصته. بسملت زينب زوجة الخال وحوقلت، ثم حمدت وشكرت وقالت مثلا كعادتها: «مطر فبريل أحلى من فيض النيل». ضحكت ليلى منها وهي تتمتم بالدعاء. تجهمت فجأة حين تذكرت سعدا الغافي تحت الشجر.

غير أن الأخير أغمض عينيه، واحتضن مصحفه وضمه إلى صدره بما يحويه من رسائل صاحبه، ضم جديدها إلى قديمها بين اللسان والسفر، متذكرًا خروجه من مالقة قبل ثلاثة أعوام. .

***

-«لاجل شيبة الراس واللحية».

***

وصل المهند إلى مراده. اختبر قبضته على الرمح مرة أخيرة ثم همَّ بالرمي، لكن كان للسحابة رأي آخر.

أرعدت السحابة وأبرقت، وانتشرت من ساعتها على السبيكة وما قرب منها، وعلى غرناطة وما حولها، وجاءت بمطر عظيم، ومازال المطر يزداد ويعظم حتى صار كالأنهار العظيمة، وعاين الناس الهلاك من عظم ما رأوا، واحتمل السيل الطرق وما حولها، فكان لا يسمع إلا بكاء الصبيان وصراخ النساء ودعاء الرجال إلى الله تعالى والابتهال، إلى أن ارتفع السيل وحمل الأشجار العظيمة وهدم البيوت والمساجد والحوانيت واحتمل من البشر معها ما احتمل، ومن هؤلاء البشر رجل ظن أنه يثأر لنفسه ومولاه، يثأر من الغدر والخيانة والعقوق غير عالم بما جرى.

أنت

مـدينة النفس من جـديد، تحـاول توهمـهـا عندمـا كنت طفـلاً، كـيف كـانت؟ ربما كانت لينة طرية كـالعجين، أو ربما نبتت في نفسك يوم أكلت حلوى الحمراء ومعها أكل مُلك أبيك في آخر ليلة له في الحمراء.

يومها كـانت أرباض الشهوات والشعور تبني قـواعـدها ببطء، وتنسج راياتهـا حـول أسوار صـدرك الحـمراء اللينة. كان وزيرك ابن لبابة يتـهـجى الكلمـات، ويمسك القلـم معـوجًا يخط به حـروفًا شـوهاء كـمـا نقلهـا له جواسيس الحس، وكـانت تلك أول كلمات في مـعـجم الكلام؛ السـفر الذي يعود إليه ابن لبابة كلما جاءه جاسـوس السمع أو جاسـوس البصر بكلام جديد. قدر الجمع بينهما لما تعلم الهجاء وربط المسموع بالمقروء. كم مزق ابن لبابة من أوراق معجمه وأعاد! تتغير الكلمات من «ددا» إلى «بو» إلى «أبي»، والحـديث عن نفسـك من الغـائب إلى الحـاضـر، ونسبة أشيائك بانهـا «متاع موسى» ثم لما حضـرت ذاتك من الغيب إلى الحضـور صـارت «مـتـاعي». ويرفع تلك الألفـاظ مـضطربا لمليكك قلب الـدين السـاذج وقتها، ثم إذا استقر ابن لبابة على اللفظ مزق صفحات معجمه من جديد لتغيير المعنى! فكل «قطوسة» هي مـا يسير على أربع من القط حتى الثور! فيكتب ذلك أمام القطوسة ويرسم دائرة ذات أربع قوائم، ثم يتسع خرق المعنى على ابن لبابة ويكون في حيص بيص لما يأتيه جاسوس البصر بجديد كل يوم عن تلك الكائنات، حتى تنجده أمك حين كـانت تلقنك الكلام في غـرفـتكمـا بالحـمـراء، أو حين تخـرجك أمـام الدار

بالحوض وتشير إلى البهائم في الأواري والطيور في السماء والأشجار، فيأتي ابنَ لبابة جاسوسا السمع والبصر من جديد يحْملان لفظًا أصوب ومعنىً أدق، ومع كل لفظة جديدة يتجدد رسم معناها في معجم الكلام، كأن كلمة «الثور» أرتك قرونه، و«الكلب» أفهمتك نباحه. كأنك ملكت هذه الكائنات، وكلما علمت من أسماء حركاتها وسكناتها وأعضائها كلما شعرت بتملكها أكثر، كما تملكت العرب الخيل والإبل فسموها وسموا أعضاءها وحركاتها، حتى حركات فروجها في السفاد! وسموت بأسمائك على تلك الكائنات كما سما عليها أبوك آدم من قبل لما كرّ لهم أسماءهم، فقعوا له ساجدين، لكنك نسيت كما نسي آدم أن تلك الأسماء ألهمكها الله بفضله لا بكسبك، حتى كسبك كان إلهامًا منه، ولما عصيت كما عصى آدم، غاب عنك كما غاب عنه الاسم والمعنى حتى ألهمك الله من جديد، لتدرك أن العلم والجهل بقدرته وحده، وأنه قاهر فوق عباده، له وحده الجبروت. ولتعلم ذلك كان على آدم أن يخرج من الجنة، وكان عليك أن تهجر ألمرية!

يوم كنت طفلاً كان مليكك قلب الدين غرا ساذجًا، فتح أبواب الصدر أمام ربضيْ الرجاء والخوف؛ رجاء الطيبات وخوف الآفات؛ أول ربضين اكتملا في المدينة، رفع أولهما صورة الفالوذج على رايته، والآخر رفع صورة ظلال الرجال التي تراقصت على الجدران يوم الوثوب. يومها دخل ربض الخوف وغرس رايته في مجلس الملك واستبد بإرادته، فأمر عرفاء الأطراف أن يلتصقا بأمك، وابن لبابة عاجز عن فهم ما جاءت به جواسيس الحواس. زاد التصاقك بأمك أيامًا ثم جاء ربض

الرجاء يقتسم الصدر مع الخوف وخلفه شهوة البطن يستحثان مليكك أن يستجيب لأمك ويسمح لطعامها أن يدخل جوفك.

وكم كان تقييد الطعام في الدواوين أشق من الكلام! فكثيرا ما اجتمع جواسيس الشم والتذوق والبصر ليسمّوا لابن لبابة اسمًا ويصفوا له شكلا وطعما، فإذا لم يجد ابن لبابة كلامًا في معجمه يسع وصفهم جميعًا، لم يفهم منهم شيئًا، فيفترقون ويكتب ابن لبابة في ديوان الطعوم حروفًا شوهاء يرتب فيها مرغوب الطعوم ومكروهها حسب استحسان شهوة البطن أو ربض الرجاء.

وبعدما رحلت لألمرية بدأ ابن لبابة يدرك العالم من جديد: كتب معجمه مجلدات، عجمية وعربية، ألفاظًا عامة وخاصة، القرآن وأراجيز المالقي نحّاها في ديوان مخصوص لكثرة ما يأمر الملك عريف اللسان بترديدها، إذا ما خلوت بنفسك في سفر أو حضر. ثم عرف ابن لبابة من الكلام ما يفرق به بين الحلو والحامض والمالح وغيرها، والأبيض والأسود والأزرق وسائر الألوان، ما جعله يستنطق جواسيس الطعوم الثلاثة ويجلس بينهم كالقاضي يجمع من الشواهد ما فرّقوا، فيقيّد في ديوان الطعوم تفصيلاتها وتفضيلاتها بدقة وأناة، ولما عرفت الضمائر وكونت الجمل، انتظم فكرك بعدما كان رغبات متناثرة، ورقيَ كلامك بعدما كان أسماء شائهة، ولما جلست في درس المالقي لأول مرة مع أقران، نمى ربض العُجب وعلى رايته نسج صورتك، فإذا جاء درس المالقي فتح مليكك الأبواب للعُجب، يأمر العُجب طرفك أن يلحظ خفية استحسان الناس لصنيعك، ولم تفارقك تلك النظرة حتى اليوم تفسد

عملك وتحبطه، حتى إذا نلت مبتغاك من بسمة المالقي مثنيًا، عقب العُجب السأم، فتنصرف إلى ما يصرّف إرادتك من خوف أو رجاء، وإذا لم تنل بغيتك من الاستئثار بالثناء أوإجابة مطالب الرجاء، يستولد العُجب والرجاء ربض الغضب فيدخل رافعًا رايته السوداء فوق قمارش.

أما القاضي أبو الضمير، فكان وقتها بين يديه كتاب يحوي أمورًا فُطر عليها لا يقدر على تبيينها ولا تفصيلها، كحب الصدق وكره الكَذب والعطف على الضعيف من الحيوانات والهوام. أمور مُرسلة لا تفصيل لها، فكانت حاجته إلى تعلم الصواب والخطأ من الخارج حتى يفك رموزها ويجلي معانيها، ويزيد عليها بما يعينه أن ينصح لمليكك ويقيم عليه الحجة ويهديه الصواب، فوجد بغيته عند أمك ومؤدبك، وأي أحد في الخارج أقدر على تعليم الخطأ والصواب ممن تعلمت منهما الكلام؟

ومن بعد كلما أمَر ابن لبابة أمرًا أو نهيًا لطرف أن يتحرك أو يسكن، أو أن يدخل ربض شهوة أو شعور، أن يكتب لفظًا أو معنى، ثم يتبين له من أمه غير ذلك، أمر ابن لبابة أن يمزق صحائف الخطأ تلك ويثبت الصواب.. صواب أمه. كذا كانت حجة أبي الضمير البالغة على مليكه.. حتى حين.

وشيئًا فشيئًا نمى ربض الندم على تخوم الصدر يرفع على رايته صورة أمك حين تؤنبك، وأبو الضمير يلح على مليكك أن يفتح الباب له، حتى صار ثاويًا في قمارش لا يبرحه، يصرف إرادة الملك لإرضاء من يُقال لهم في المعجم أبي-أمي-مؤدبي-جدي، فإذا ما دفع الملكَ لمخالفتهم خوفٌ أو رجاءٌ أو غضب، زلزل ربض الندم بدبيبه صدرك حتى يُفتح له الباب

ويدخل على الملك، فيستقصر نفسه، ويأمر عريف العين أن يدمع، وعريف اللسان أن يعتذر.

غير أنك لم تستقصر نفسك أبدا لما فرحت في ابن خالك عمرو عندما طرده المالقي من دروسه وأغلظ له، وقال لخالك أن ابنه بليد وعليه دفعه للسوق إذا أراد منفعته. لم تنته عن التشفي رغم أن أمك علمتك غير ذلك، لم تذكر أن المالقي سريع الغضب كثير النهوض إلى حذائه إذا أغضبه أحد الصبيان، وأنت نفسك ضُربت منه مرات.. استأثر ربض العُجب بك أيامًا بعد طرد ابن خالك وردد لسانك تلك الواقعة متصنعًا الشفقة، وفي حقيقة الأمر مفاخراً تجهد في صرف بسمتك كلما رويت قول المالقي في عمرو، وعمرو نفسه لم ينس لك ذلك، وأمام كسر قلبه طفلا كسر عمرو ابن الخال قلبك رجلا.

هل كسره لأنك كسرت قلبه أم لأنك كسرت قلب أبيك في أواخر أيامه، كنت تنفر منه حين يناديك في سكرات مرضه بأبي الحسن، كففت عن استقصار نفسك وندمك إذا ما أخطأت في حقه، نمى مليكك، قلبك اللين، وظهر له زغب خفيف على شفتيه، اصطنع لنفسه أرباض العُجب والغضب والعناد، ، قوّى ربض الكبر إرادته فلم تعد صورة أمك أو الاستشهاد بها حجة بالغة عليه، لم يبالِ بتصحيح دواوين ابن لبابة وتمحيص الصواب من الخطأ فيها، فكلاهما صادر عن الملك، والملك مصيب دائما لا يخطئ، يومئذ ظهر دخان الشيطان الأسود أول مرة في السماء، فطُرد ربض الندم إلى أقصى مملكة النفس فلا يدخل الصدر إلا على فترة وعلى استحياء، وقُربت أرباض الشهوات.. وكذا تقلب بك الحال، وكذا صرت من طفلٍ لصبي!

الفصل الثالث

مارس

أنا

ذكر أحوالي بعد وفاة أبي:

لبثت مع جدتك في بيتنا مدة العدة، والمواسون يتوافدون علينا على استحياء لئلا لا يُتهموا بالمروق والعصيان، وقد علمت بعد أن الوالي يرقبنا من قصبته ويضع العيون على مدخل الحوض الغربي عند باب الخروج؛ خشية أن يتصل بنا أحد يرفع قميص أبي ويدعو لي بالمُلك!

هاهم يا بني آل السلطان؛ أحزانهم فريسة لتجار الثارات، وأفراحهم غفلات يقتنصها المتزون. مرت عليّ الأيام بطيئة وأنا لصيق أمي أقضي حاجتها، أواسيها وتواسيني. كانت ما تزال شابة جادت بنفسها لأجل رعايتي، وكذا أوقن أن تفعل أمك رغم أني مازلت حيا مكتوبا عليّ فقد الأب والابن، فتأمل حسرتي وشقائي.

غاية القول أني عشت أتقلب بين حجور النساء الباكيات بالنهار، وأتوسد دموعي وخيالاتي بالليل، وبينهما أخزّن في السقيفة ما يأتي به المواسون من دقيق لم يُخبز ولحم أكلته الجوارح وثمر تسنّى أكثره.

ولما انتهت العدة، جاءنا جدي يلح على أمي أن تلحق به في البلد ليعتني بها وأكمل طلب العلم. ثم أصر على إخفاء نسبي خوفًا من بني سراج ومن أقاويل سرَتْ أن كلا من أبي الحسن وأبي عبد الله يخشون أن يلتف حولي الناس في المرية، وأنهما سيبعثان من يسوقني إلى أحدهما فيحجر عليّ في الحَمَّة حتى لا يتسع الخرق عليهم في تنازعهم على

المُلك، بعدما دعا الزغل لنفسه واستقل بمالقة وأحوازها.

زعم جدي أني سافرت إلى فاس عند أصهاره قبل وفاة أبي، ولم يكن أحد قد رأى ابن سعد أبدًا، فالذي رأوه كان موسى بن أبي غسان، ثم علمت فيما بعد أن تلك كانت أوهام جدي وحده، وأن الناس لم يجاروه في هذا إلا توقيرا لشيبته ومكانته، فكانت قصة حجبي تلوكها الألسنة سرا وصارت بينهم مثلا: «أخوف من عبد الملك على حفيده»!

ولما علم جدي ذلك، لم يرجعه افتضاح حيلته إلى صوابه، بل زاد عنادًا وخوفًا؛ فزاد على حجب اسمي أن حجبني نفسي في الخضراء! وكذا كنت صبيا غير الصبيان، حُجبت عن الدنيا واستبدلت الكتب بأهلها، فلا أذكر من صباي وشبابي شيئًا إلا وله صلة بكتاب أو فائدة، كأني كبرت من طفل لكُتّاش! فاستبدلت بحفظ وجوه الناس حفظ خطب الكتب وما نقلته منها، وحذقت نسبة كل منقول إلى قائله، واستبدلت باللهو والتنزه، الجد في طلب العلم، وتقوية أسباب الحفظ والفهم.

ثم إن العدة انطوت أيامها، فحزمنا أمتعتنا وبعنا ما لا يلزمنا من الأغراض، وباع خالي محصول البرجيلة، وركبنا البغال تاركين بيتًا مهجورًا وزرعًا محصودًا.

ذكر مقامنا في الخضراء وطلبي للعلم:

أقمنا في الخضراء مع جدي، فصارت لي يا بني كالرداء للبدن؛ تحفظني من العيون، وتفردني بالدفء واللين. سكنَّا فيها على يسار الفناء قبالة مجلس النساخين، وفي الجوف حجرة جعلها جدي لمؤدبي المالقي يلقي فيها دروسه عليّ وعلى أترابي. وكان خالي يضيق بالخضراء؛ كان

يقول لجدي أن الخضراء لو انتفع بسعتها لبَنَى فيها خمسة منازل متجاورات وفرنًا وثلاثة دكاكين، فمالنا ومال الولاة نجاريهم بالسكنى في منزل ذي أروقة وبركة وخزانة للكتب! قال ذلك وهو يشيد برجًا يشرف على فحص المرية، شحنه بالفرش والمتاع ما فاق الخضراء نفسها!، كان يستكثر علينا السكن مع جدي خشية أن يقسم الخضراء لنا، رحم الله الجميع.

استقر الحال كما تقدم على طلبي للعلم بالخضراء، ورغم أن مؤدبي المالقي كره أن يأتي المؤدبُ تلميذَه كما يعمل المؤدبون في زماننا، وأن ذلك يزري بالعلم وأهله، إلا أن جدي رحمه الله أخبره بخبري فوافق متبرمًا. ولا تظن ذلك كبرًا منه يا بني ولا أنفة، وقد ورد علي في مجال المالقي صبيان كثر، أذكر منهم ابن حفصون وكان أبوه ناسخًا عند أبي، كان صاحب مُلَح ونوادر، رحمه الله، طلب معي عند المالقي بضع سنين ثم طلق العلم وعمل دلالاً، ثم قضى غريقا في نهر شنيل، ومنهم ابن فطيمة السواقة وكان يتيمًا معدمًا كفله جدي وأمه وأجلسه معي صاحبًا ورفيقًا، ورابعنا كان عبد الرحمن بن الفرّان وهو أيسرنا جميعًا، كانت أمه ترسله بالمجبنات والخبز من فرن أبيه، وكان دومًا في شجار مع ابن حفصون كنقار الديكة، عفا الله عنهم جميعًا وهدانا إلى ما يحب ويرضى.

غاية القول أني لم أجد لذة في تلك الأيام كطلب العلم وجمع الفوائد، وإني جمعت لك فوائد دونتها منذ حداثتي ولازمتني حتى يومنا هذا وقد رتبتها لك على نحو مارتبته لنفسي..

ماجاء في طلب العلم

فائدة في ذكر العلم والنية:

قال الطوسي: فإن العلم جليل، فقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم

فـريضة على كل مـسلم ومسلمـة» . والمراد هنا من العلم علم الحال، أي العلم المحتـاج إليـه في الحـال الموصل للنفع في المآل، وشـرف العلم لا يخفى على أحد، إذ العلم هو المختص بالإنسانية لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيه الإنسان وساير الحيوانات، كالشجاعة والقوة والشفـقـة وغـيـرها، وبه أظهـر الله تعـالى فـضل آدم عليـه السـلام على الملائكة، وأمرهم بالسجود له، وهو أيضًا الوسيلة إلى السعادة الأبدية إن وقع العمل على مقتضاه، فالعلم الذي يفترض على المكلف بعينه يجب تحصيله وجبره عليه، وقد يكون فرضًا على سبيل الكفاية إذا قام به البعضُ سقط عن الباقين، وإن لم يكن في البلد من يقوم به اشتركوا جميعًا بتحصيله بالوجوب .

ولابد لطالب العلم من النيـة في تعلم العلم، إذ النية هي الأصل في جميع الأفعال لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من نفسه ومن الغير بقدر الإمكان، فينبغي لطالب العلم أن يصبر في المشاق ويجتهد بقدر الوسع، فلا يصرف عمره في الدنيا الحقيرة ولا يذل نفسه بالطمع ويتحرز عن التكبر، وإياك يا بني من الكبر والرياء في العلم، واحفظ قول النبي ﷺ: «من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» .

فائدة في الفرق بين الحذق والفهم:

وقد يقول قائل: أعدمنا عقولنا حتى نحتاج إلى العلم والمتون إن هي إلا مهارة وتجارة؟ قالها خالي، جدك، يومًا، وكذا ستجد أبناءه،

أخوالك؛ يكررون، ولله در ابن خلدون حين قال: «أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً.

وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركًا بين مَن شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علمًا وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقض الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع. غفر الله لمن قطعك من أبيك وألحقك بهذه الدار البائرة.

فائدة في أوقات الاستفادة ومايورث الحفظ والنسيان:

قال الطوسي: قيل وقت التعلم من المهد إلى اللحد، وأفضل أوقاته شرخ سن الشباب ووقت السحر وما بين العشائين. وينبغي لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته فإذا مل من العلم اشتغل بعلم آخر. ومن طرق الاستفادة أن يكون معه في كل وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوايد، فقد قيل ماحُفظ فر وما كُتب قر، وقديما قالوا من لم يكن معه دفتر في كمه لم تثبت له حكمة في قلبه، فلولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد. وهذا خطأ ممن ذم الإكثار منها، ولو أخذ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادعوا ما شاؤوا. فلولا شهادة الكتب لاستوت

دعوى العالم والجاهل. وقد كنت أحمل محبرة ودفترًا إذا حضرت مجلس جدي في الخضراء، وكان عند رواق مجلس النساخين، ألتقط الشعر والطرائف والفوائد..

ومن أظرف ما قصوه في مجالسهم أن يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج؛ دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال له سليمان: على امرئٍ أجرك رسنك وسلطكَ على الأمة لعنة الله، أتظن الحجاج استقر في قعرِ جهنم، أو هو يهوي فيها؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه في النار حيث شئت! ومازال هذا الدفتر معي إلى الآن أطالعه من حين إلى حين متبسمًا ومستعبرًا على أيام خلت ومقام كنت فيه من المكرمين. وأقوى أسباب الحفظ الجد والمواظبة، وتقليل الغذاء وصلاة الليل بالخضوع والخشوع، وقراءة القرآن من أسباب الحفظ، قيل: ليس شيء أزيد للحفظ من قراءة القرآن لا سيما آية الكرسي. وتكثير الصلاة على النبي ﷺ والسواك وشرب العسل، وأكل كل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد الحفظ، وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان. ومن موجبات النسيان أيضًا إتيان المعاصي وكثرة الهموم والأحزان في أمور الدنيا.

النهي عن ابتغاء الكسب من العلوم:

قال ابن حزم: أن العلوم كثيرة، لكن الواجب أن يتهمم المرء بالعلوم النافعة، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به ثم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، فإن لم تفعل كنت كمن رام الصعود إلى عليةٍ

مفتحة مظلمة أنيقة البناء دون أن تتكلف التنقل إليه في الدرج والمراقي التي لا سبيل إلى تلك العلية إلا بها.

واعلم أن ليس للمرء إلا داران: دار الدنيا، ودار معاده إذا فارق الدنيا؛ وبيقين ندري أن مدة المقام في هذه الدار، يعني الدنيا، إنما هي أيام قلائل. فإياك أن تبتغي من العلم كنز المال؛ فإن وجه المكسب بها ضيق غير متسع، واكتساب المال بغير العلم أجدى، كصحبة السلطان وعمارة الأرض والتقلب في التجارات. وهذه الوجوه كلها قد نجد الجاهل أنفذ فيها من العالم النحرير؛ فإذ ذاك كذلك، فالشغل بطلب العلم ليكون سببًا إلى كسب المال والتعب فيه بهذه النية عناء وضلال، وفاعله قد جمع عيبين عظيمين: أحدهما ترك أخصر الطريقين، يعني جمع المال من غير طريق العلم، إلى مطلوبه وأسهلها في التوصل إلى غرضه. والوجه الثاني أنه استعمل الفضيلة التامة، يعني العلم، التي بان بها عن الحشرات والبهائم في اقتناء حجارة لا يدري متى تدعه أو يدعها، وكان كمن أتعب نفسه وأسهر ليله وأطال كده في إقامة سيف هندي قاطع نفيس ليقطع به البقل، فمَنْ أخسر صفقة من هذا!.

تلك يا بني فوائد في طلب العلم وابتغاء وجه الله به، احفظها عني واعمل بها، هداني الله وإياك إلى الرشاد.

ذكر تعلمي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم:

تعلمت مبادئ الخط من مؤدبي المالقي، ثم لما لزمت الخضراء أجلسني جدي في مجلس النساخين، وتعلمت منهم الخط وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا دربت في ذلك، درست وقرأت. والحد الذي لا ينبغي أن

يقتصر المعلم على أقل منه أن يكون الخط قائم الحروف، بينًا صحيح التأليف. وقد رزقني الله حسن الخط بما يبهج النفس ويسر العين، وأذكر يومئذ أن خالي قال لي «خير الخط ما قُرئ والباقي نقش!».

ولابن باديس كلام نفيس في الرد على هذا، قال رحمه الله: إن ذلك يخالف ما طُبعت عليه النفوس من الميل إلى الخط الحسن خصوصًا أهل الذكاء من السادة والألباء من الصدور والقادة، حتى من كان منهم أميًا أو أعجميًا؛ لأنه ما أن يتم المراد من الخط من نسخ العلم وتبليغ الرسائل وتقرير العهود وتحرير الحساب؛ لم تقنع النفس من صورة حروفه وأوضاع كلماته بدون صحة نسبته الوضعية، كما تناسبت أعضاء الحيوان، وتوازنت أجزاء النبات، لأن النفس عاشقة في الجمال، مجبولة على حب الحسن، وهو التناسب الطبيعي مرئيا كان أو مسموعًا، ألا ترى أنها لم تقنع من الكلام بفهم معناه دون أن رغبت إلى مسجوعه وطربت إلى موزون مسموعه، فشرفت الخطباء والشعراء، ثم لم ترض من الصوت بمفهومه حتى طلبت تناسبه فحررت الألحان، وعدلت الأصوات بالأوزان، فحسن الكتابة جمال مطلوب للنفس، وصحة نسبتها صورة معشوقة للقلب، لكن حذار أن يدعوك حسن الخط إلى التعلق بالسلطان، فتفني دهرك إما في ظلم الناس، وإما في تسويد القراطيس بتواقيع بعيدة من الحق، مشحونة بالكذب والباطل، فتبيع آخرتك بدنيا غيرك، وتندم حين لا ينفع الندم، ذلك حد الكتابة.

أما حد تعلم القراءة فكان مؤدبي يُقرئني الكتاب حتى أمهر في القراءة بلغته وحفظت مع ذلك القرآن، فإنذلك يجمع وجوهًا كثيرة عظيمة، أحدها التدرب في القراءة وتمرين اللسان على تلاوته فيحصل من ذلك

حداً، إلى جانب ما يقر من معانٍ ووصايا تجدها في قلبك قبل الحاجة إليها.

حتى إذا نفذت في الكتاب والقراءة كما ذكرنا. انتقلت إلى علم النحو واللغة؛ فقرأت من النحو «كتاب الواضح» للزبيدي و«الموجز» لابن السراج، وقرأت من علم اللغة كتابين: أحدهما «الغريب المنصف» لأبي عبيد، والثاني «مختصر العين» للزبيدي.

وتعلمت ذلك على يد الأستاذ الأجلّ أبي الحسن علي بن محمد الحضرمي، وهذا الشيخ النحوي قرأ السبع على أبي محمد قاسم بن الزقاق، وعلى ابن صاف، ولزم أبا بكر بن طاهر، وأتقن عليه كتاب سيبويه. ومن نوادره رحمه الله أنه قام يخطب خطبة نكاح فارتج عليه فقال: لقنوا موتاكم شهادة ألا إله إلا الله، فقالت أم الجارية: عجل الله موتك ألهذا دعوناك!

وكان رحمه الله جامداً على ما لُقِّن عن ابن طاهر قليل التصرف، متسرعًا لإنكار مالا يعرف، وما عرفت ذلك إلا لما حضرت مناظرات بينه وبين أبي علي الرندي، رحمهما الله، أنشقه أبو علي فيها الخردل فما قام معه ولاقعد.

وفي ذلك فائدة قررها ابن حزم في لقاء المتنازعين وحضور المتناظرين، فبهذا تلوح الحقائق، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد كمن تكلم عن غيره، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة، ومن لم يسمع إلا من عالم واحد أوشك أن لا يحصل على طائل، ومع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحق، ولا بد. فمن طلبه كما ذكرنا أوشك أن ينجح

مطلبه وأن لا يخفق سعيه، وأن يحصل في المدة اليسيرة على الفائدة العظيمة. ومن تعدى هذه الطريق كثر تعبه، وقلت منفعته. ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره؛ أوشك أن يكون ضحكة وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه، أكثر مما أدرك منه لتعليق العلوم بعضها ببعض، ومن طلب الاحتواء على كل علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء.

ذكر روايتي للشعر:

ثم تنقل معي مؤدبي إلى رواية شيء من الشعر، كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العون على تنبيه النفس.

وتجنب معي مؤدبي من الشعر في روايته أربعة أضرب على نهج ابن حزم:

أحدها: الأغزال والرقيق: فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة، وتحض على الفتوة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات، وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق، ويسهل الفسوق ويهون المعاصي.

والضرب الثاني: الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب؛ كشعر عنترة وعروة بن الورد وسعد بن ناشب وما هنالك، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق، وربما

أدته إلى هلاك نفسه في غير حق، وإلى خسارة الآخرة، مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء.

والضرب الثالث: أشعار التغرب، وصفات المفاوز والبيد المهامه، فإنها تسهل التحول والتغرب، وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى.

والضرب الرابع: الهجاء، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه، فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة، وتمزيق الأغراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات، وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة.

ذكر تعلمي الحساب والفلك:

ثم انتقلت إلى علم العدد، وأحكمت الضرب والقسم والجمع والطرح والتسمية، وأخذت طرفًا من المساحة، وشيئامن الأرثماطيقي وهو علم طبيعة العدد، وقرأت تلخيص أعمال الحساب لابن البنّاء وكلفت به ومازلت أستظهر من خطبته قوله: «الغرض من هذا الكتاب تلخيص أعمال الحساب وتقريب أبوابه ومعانيه وضبط قواعده ومبانيه وهو يشتمل على جزئين؛ الأول في أعمال الفرد المعلوم، والثاني في القوانين التي يمكن بها الوصول إلى معرفة المجهول المطلوب من المعلوم المعروض إذا كانت بينهما وصلة تقتضي ذلك. ومن الله أسأل العون والتوفيق وإن شاء الله سواء الطريق».

وقرأت كتاب أقليدس قراءة متفهمٍ له، واقفٍ على أغراضه، به

يتوصل إلى معرفة نصبة الأرض ومساحتها، وتركيب الأفلاك ودورانها ومـراكـزهـا وأبعـادهـا، والوقـوف على براهين كل ذلك وعلى دوران الكواكب وقطعها في البروج، فهذا علم رفيع جداً يقفو به المرء حقيقة تناهي جرم العالم وعلى آثار صنعة الباري في العالم، فلا يبقى له إلا مشاهدة الصانع فقط. وطالعت كتاب المجسطي، وعرفت الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها، والأوقات وزيادة الليل والنهار والمد والجزر، ومنازل الشمس والقمر والدراري. وتعلمت العمل بالأسطرلاب على يد جدي رحمه الله حتى حذقت ذلك وعرفت سمت القبلة ومواقيت الصلاة، ومواقع الكواكب وأوقات النهار والليل وما مرَّ من ساعات زمانية، ومازال أسطرلابه معي رحمه الله وليتك لازمتني يا بني، إذاً لأورثتك إياه وعلمتك العمل به. جمعني الله وإياك على خير ما يحبه الله ويرضى.

ذكر قراءتي في الفراسة وأخبار الأمم السالفة:

ثم طالعت أخبار الأمم السالفة والخالفة، وقرأت التواريخ القديمة والحديثة لأقف من ذلك على فناء الممالك وقيامها، وخراب البلاد وعمرانها، ودثور المدائن المشهورة وذهاب من كان فيها وانقطاعهم، وتقلب الدنيا بأهلها، وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم، ورحل بنوهم وضاعوا، وبقي ما تحملوا من الآثام والذم والذكر القبيح لازماً لأرواحهم في المعاد

ولذكرهم في الدنيا ، فحدث لي فيها بذلك زهد وقلة رغبة ، ووقفت على حمد المتقين الأخيار للفضائل فرغبت فيها ، وسمعت ذمهم للرذائل فكرهتها . وحرصت على مثل حالهم .

وقد كلفت بمقدمة ابن خلدون أيما كلف ، وهو الذي تفطن في كتابته للتاريخ عما غفل عنه أكثر المؤرخين . قال رحمه الله : ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ، وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعدأحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة ، وذلك أن أحوال العالموالأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال» .

ولما قابلت ابن الأزرق قاضي الجماعة في غرناطة ، أهدى إليَّ شرحها ماتعًاعلى المقدمةسماه «بدائع السلك» ، فتداولنا المقدمة وتدارسناها وصاحبهافي أسمارنا لياليَ طوالاً ، حتى تفرقت بنا السبل ورحل وفَّقه الله إلى المشرق يطلب المدد من ملوك المسلمين وكما أن ابن خلدون قد أبان عند الدول وأحوالها ، ففهمت عنه ما لم أكن أفهمه من سير الدول والملوك ، فقد فهمت أحوال الناس ودخائلهم وأطوارهم وعرفت طبائهم من ظاهر أعضائهم ، وذلك لما قرأت كتاب الفراسة للفخر الرازى ، وهو كتاب نفيس حفظته فى صباى وما رأيت رجلا إلا اختبرت فيه حدس حتى استقامت فراستى .

ذكر تعلمي أفضل العلوم:

قال أبو الوليد الباجي رحمه الله: وأفضلُ العلوم علمُ الشريعة، وأفضلُ ذلك لمن وُفِّقَ أنْ يُجَوِّدَ قراءة القرآن، ويحفظَ حديثَ النبي ﷺ ويعرف صحيحَه منْ سقيمه، ثم يقرأ أصولَ الفقه، فيتفقَّه في الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلَام الفقهاَء، وما نُقلَ منَ المسائل عن العلماء، ويَدْرَب في طرق النظر وتصحيح الأَدلة والحُجَج، فهذه الغَاية القصوى، والدرجة العليا.

وإذا قصَّرت عن ذلك، فلتقرأ بعدَ حفظ القرآن ورواية الحديث المسائلَ على مذهب مالك رحمه الله؛ فهي، إذا انفردتْ، أنفعُ منْ سائرَ ما يُقرأ مفردًا في باب التفقُّه، وإنَّما خصصنا مذهبَ مالك رحمَه الله؛ لَأنه إمامٌ في الحديث، وإمامٌ في الرأي، وليس لأحد من العلماء ممَّن انبسط مذهبُه وكثُرت في المسائل أجوبتُه درجةُ الإمامةً في المعنيين، وَإنَّما يشاركه في كثرة المسائل وفروعها والكلام على معاَنيها وأصولها أبو حنيفة والشافعي، وليس لأحدهما إمامةٌ في الحديث، ولا درجة متوسطة.

ولا تنسَ حظك يا بني من القراءة في الوعظ والزهد والاشتغال بأعمال القلوب؛ فإن العلم كالماء والنفس كالبذرة، فإذا زاد الماء لا ينبت إلا ما هو محفوظ في البذرة، فلا تتهمّم بحفظ المتون والفوائد، وبناء آلة العقل والفهم، وتجعل قلبك خربًا من خشية الله وتقواه. ولا تُطل القراءة في أحوال النفس وأمراضها فوق الحاجة لئلا تتخطفك الوَساوس والخطرات فتنزل وتقعد عن العمل، وإياك ومطولات الكتب فإنها تنقلب لذة تلهي عن القرآن وعن ذكر الله، وحسبك كأبيك أن تقرأ التوهّم

للحارث المحاسبي، فاجعله رفيقك في سفرك، واعرض نفسَك عليه؛ فإن أتممته، فنَمْ منشرح الصدر راغبًا في الله.

النهي عن قراءة كتب المنطق والفلسفة وعلم الكلام:

وإياك وقراءةَ شيءٍ منَ المنطق وكلامِ الفلاسفة؛ فإنَّ ذلك مبنيٌّ على الكفر والإلحاد، والبعدَ عنِ الشريعة والإبعاد.

وأحذِّرُك من قراءتها ما لم تقرأ منْ كلامِ العلماء ما تَقوِيه على فهمِ فساده وضعف شُبَهِه، وقلَّة تحقيقه؛ مخافةَ أَنْ يسبقَ إلى قلبكما لا يكون عندهَ من العلمَ ما يَقَوى بهَ على رده. ولذلك أنكَرَ جماعَةُ العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءةَ كلامِهم لمن لم يكن مِنْ أهل المنْزلة والمعرفة به؛ خوفًا عليهم مِمَّا خوَّفتُك منه.

وإياك وقراءة علم الكلام، فإنها أوردتْ من قبلك المهالك، وحسبك في الاعتقادات أن تعلم:

إن القرآن كلام الله وتنزيله، ليس بخالق ولا مخلوق، منه تبارك وتعالى بدأ، ومنه يعود. وإن الله خلق العرش واختصه بالعلم والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله: «الرحمن على العرش استوى» وأن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين وقال في نزوله سبحانه: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حدا. وإن المؤمنين يرون ربهم في الآخر، وأنه يحتجب من الكفار والمشركين فلا يرونه، قال عز وجل «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»، وقال«كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» فسبحان من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو

اللطيف الخبير». وإن الجنة والنار قد خلقتا، وإنهما لا يفنيان ولا يموت أهلهما. والإيمان إخلاص لله بالقلوب، وشهادة بالألسنة، وعمل بالجوارح، على نية حسنة وإصابة سُنَّة، وأنه يزيد وينقص. ومرتكب الكبيرة ليس بمؤمن كامل الإيمان، وليس بكافر، بل هو مؤمن بإيمانه متلبس بذنبه.

وعليك بحديث جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، فاعتصم به عن الوساوس والضلالات.

ذكر صباي:

ولعلك يا بني تستثقل كلامي عن العلم وتضيق بنصائحي، بل لعلك عزفت عن قراءة هذا كله وتسأل أكنت أفعل شيئًا غير طلب العلم.

والحق يا بني أن التقلب بين الكتب في هذا العمر محمود مطلوب، لكن إهمال طبيعة النفس وتقلبها بين الأسنان يورث الشقاء والعزلة ويجعل الإنسان حبيس تصورات لم يحصلها. ففي الصبا، كما قال الرازي، يشتد حب السرور واللذات ولا سرور ولا لذة دون معاشرة الأصدقاء والأصفياء، فإن كانت الصحبة صحبة سوء ساق المرء ذلك إلى حب الهزل والعبث، وإني أعيذك من هؤلاء.

وإياك والغرور والاستغناء عن ذوي الأحلام فإن الصبا سن حسن الظن بالنفس واعتقاد الكمال في كل شيء. وإياك أن تنفي الخوف عنك بالرعونة وإخفاء الشفقة بالغضب، فإنه يورث الندامة ويزين لك ظلم الضعفاء. غير أن هذا العمر أيضًا عمر الرحمة وشيء من سذاجة الصبا،

فإياك أن تضع حسن الظن والرفق في غير موضعهما فتصبح إمعة أضحوكة بين أقرانك.

غاية القول أنني قضيت صباي بين مجلس العلم، ومجلس جدك، ومجلس أخلائي بعد دروس العلم، يقصون عليّ، أنا المحجور؛ حكاياتهم ونوادرهم بينما نلعب النرد أو الشطرنج أو نأكل الأسفنج والفالوذج حول الكانون في الشتاء. وظللت في هذا الحجر حتى مات جدي رحمه الله، فقدرت على أمي، وأظهرت نسبي وخرجت للدنيا.

ذكر وفاة جدي:

كانت وفاته رحمه الله عندما أتممت السابعة عشرة من عمري، قام يومها صحيحا بارئًا من علة أقعدته شهرًا، وقد حل الربيع وتفتح الزهر. فطر بيضًا مقليا ومجبنات وعسلاً، فاستبشرنا خيرًا وبشرنا أصحابه، فجاؤونا وجلسنا مجلسنا بعد طول انقطاع، ولما جلسنا سويًا آخر الليل في السقيفة نتطلع إلى السماء، سقط من يده الاسطرلاب فجأة وأمسك بصدره، ومات من ساعته فلم يسعفه طبيب.

***

هو

طلعت نجوم الحوت في السماء، وخرج أقرانه الشولي والشابل[1] متوجسين من البحر إلى النهر، وأجفل الطير؛ فهذا موسم صب الشبك. حضنت طيور الشذانقات البلنسية بيضها والتصقت به. وانعقد الفول في البساتين، وظهر السمان وتولد دود الحرير، وتسافد الطواويس واليمام، وانغرس قصب السكر كقامات النساك والصعاليك في الليل، فمنزل الحوت منزل السهر من القمر حيث لا حرّ يأتي بالفتور، ولا برد يغري بالدثور.

***

تلفت حوله حذرًا، اضطربت أنفاسه كخطواته. ولما اقترب من أقرانه عند المكان الموعود. حسر عن رأسه قبة برنسه الأسود ووضع الدراهم في يد صاحبه ابن فطيمة الذي انتفخت أوداجه وقال: «دام عز مولانا الأمير!». حدجه موسى فصمت. حول بصره ناحية بيت يقام على روافد من خشب، غُطي بالجلد من جوانب ثلاثة والرابع شُدّ عليه ستر أبيض تحركت عليه ظلال الشخوص تروي حكاية الليلة.

جلس غير بعيد مع أقرانه الثلاثة للفرجة، مسح ابن حفصون شفتيه ولسانه بالخرقة ثم نظر لأقرانه ليروا أزال الحبر أم لا. ضحك ابن فطيمة وعبد الرحمن ابن الفرّان ملء فيهما وهزا رأسيهما. بصق ابن

(١) أنواع من الأسماك.

حفصون قانطًا. «كيف نقبّل بعد اليوم؟، قوللي!» ضحكا وتبسّم الأمير. سب ابن حفصون مؤدبهم المالقي الذي جعله يلعق أغلاطه من الرق عقابًا على بلادته. أشاح موسى وجهه متأذيا. ضرب عبد الرحمن على فخذ ابن حفصون وصاح مستهزئا: «واشتعمل بالقبل يا حزين، فاكر نفسك حبيب النسوان يا قطيم!». تأفف موسى طالبا الصمت للفرجة. قلب ابن فطيمة الدراهم في يديه ونهرهم فولوا وجوههم للستر.

كانت الحكاية عن صعلوك تعشّق جارية، وكان في أيام فقره، فعدا على بيت نديم له فترك الجارية عنده، واقترض منه دينارًا اشترى به خبزًا ولحمًا ونبيذًا، وصار إليهما، فقال نديمه: كيف يصلح طعام وشراب وجلوس، مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريحان ولا طيب؟ فخرج الصعلوك يبحث عن الطيب، فلما عاد وجد الدار خالية، فخشي أن يكون صاحب الشرطة قد أخذهما، فبقي متلهفا حائرًا، فلما أمسى دارَ في الدار دورة لعله يقع للجارية ونديمه على أثر، فوقف على سرداب، وإذا هما قد هبطا فيه، وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه، فأكلا وشربا وتنعما، فلما أحسهما دلى رأسه، ثم نادى على نديمه وقد استبد به السكر فرد على الصعلوك قائلا:

بِتُّ في دِرعها وبات رقيبي ... جُنُبَ القلب طاهر الأطراف!

ثم قضى الصعلوك ليلته مهمومًا مغتمًا حتى خرج صاحباه فجعل يلومهما، قال نديمه: يا صفيق الوجه، منزلي ومالي وطعامي وشرابي، فما شأنك في الوسط؟ فقال له: ألست من أحضرها ولي حق فيها، فولى النديم وجهه للجارية وقال: بحياتي إلا أعطيته حقه، فقالت: أما حق

قيادتك فتعرك أذنه، وأما حق فضوله فتصفع قفاه ففعل النديم ما أمرت، فلما تبرّم الصعلوك قال: جري الحكم عليك بما جرى من العدل والإنصاف!

ثم ختم الراوي من وراء الستر بعبرة من القصة ناصحًا جلساءه بالحشيش بدلا من الخمر التي تورث الأحقاد والشقاء! فأنشد:

ولاعبث القسيس يومًا بكأسها ... ولاقربوا من دنها نفس ملحد
ولاقول في تحريمها عند مالك ... ولاحد عند الشافعي وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بحد مشرفي مهند
وفيها معان ليس للخمر مثلها ... فلا تسمع فيها كلام المفند
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قهقه عبد الرحمن بن الفرّان طربًا حتى استلقى على قفاه وقد انحسر الثوب عن ساعديه اللذين حلقهما نزولا على حد المحتسب، لئلا تقع شعرة في العجين!

اغتنمها ابن حفصون فرصة للثأر من ابن الخباز فقال: «قم يا مولانا يا أبيض اليدين، والله أحلى من ادين قسمونة!» قهقهوا جميعًا حتى عبد الرحمن نفسه بيد أن موسى طاف بخياله.. عند صاحبة اليدين الليتين.

***

على ضوء السراج دخلت أم موسى المجلس، أوقدت بالماشة السرج الأربعة، شرعت مع الجاريتين في تنظيف الغرفة، زفرت لما تذكرت

كيف كانت تقضي لياليها فيما مضى، فرجت عن أشواقها بعمل يديها؛ سوت الحواشي والوسائد وسترت الكانون إذ ولى الشتاء بغير رجعة، حملت السجاجيد والحائطي[1] مع الجاريتين ونفضن التراب عنها في الصحن، فرشن المجلس ورمقته أم موسى مرة أخيرة، ثم أغلقت الباب مع الجواري. ها هو المجلس نظيف مهيأ لدرس ولدها وأقرانه في الصباح. تتحسر على ولدها في سرها إذ كيف انحصرت حياته بين غرفة في العلية قارئًا وناسكًا ومجلس الدرس منصتًا وناسخًا، حتى مجلس أبيها حول البركة هُجر لعلته الأخيرة. ازدردت تلك الغصص كما جرت العادة وراحت تنظف مدخل الدار على ضوء السُرُج علها تستمر في النسيان. وأنّى لها أن تنسى؟ فإذا تغافلت عن الماضي والحاضر، فماذا عن قادم الأيام؟ إن ابنها يكبر ويريد أن يشب عن الطوق ويخرج من عقال أبيها. يظن الناسَ تجزيه لملاحة وجهه وطلاوة لسانه، يريد أن يخرج للدنيا دون حرفة حتى صنعة التعليم لم يحترفها، بل شاد من العلم يلتقط من أقران جده، هذا يلقنه درسًا في النحو، وهذا درسًا في الفلك. وأخوها ينتظر موت أبيهما ليقتلعها وابنها من الخضراء. ما أقسى قلب أخيها حتى بات يحسب جميع أمره بالمال؟ حتى الحب البادي بين ابنها وابنته يسر أخاها ليضع المال كله في حجره؛ فإلى من سيلجأ ولدها قليل الحيلة ليتجر بماله ومالها؟ لا ريب أنه سيدفع بالمال إلى «الخال الويلد»!

***

---

(١) سجاد يُعلق زينة للجدران.

تلفت حوله حذرًا، اضطربت أنفاسه كخطواته. ولما اقترب من أقرانه عند المكان الموعود. حسر عن رأسه قبة برنسه الأسود ووضع الدراهم في يد ابن فطيمة الذي انتفخت أوداجه وقال: «دام عز مولانا الأمير!». حدجه موسى فصمت. انتحى ابن فطيمة بالفندقي مفسحًا الطريق. سار بتؤدة على حبات الرمل التي فرشت صحن الخان الحجري مصدرًا أصواتًا خافتة. دوت دقات قلبه في أذنيه، فكتم أنفاسه ثم أرسلها. اعتصرت يمينه لفة من الجلد. لم يحتج للتعلل بأي من تلك الحكايات التي نسجها في الطريق ليقنع الفندقي بدخوله؛ المال وابن فطيمة يمرران كل شيء. جاوز الرواق وما عنده من دواب وجواليق، صعد درجًا ملتويًا زاد في دقات قلبه. دخل غرفة خالية وأغلقها عليه، سمع طرق الباب فأجفل، فتح بحذر فوجد الفندقي يحمل حصيرة وحاشية ودلوًا وشمعًا. شكره وألقى المتاع مضطربًا، وأسرج القنديل بالشمعة وقبل أن ينصرف الفندقي سأل بلهفة: «أنا جوعان.. أريد صبية تطبخ لي».

- «موجود يا سيدنا، أحلى طبخ بَحَل[1] طبخ الويلدة». الوالدة! شعر بتوتر، ما الذي أخبره به ابن فطيمة؟ غريب يريد السكنى فحسب، أيكون ترك الفندقي لفطنته فخانته. لحق به قبل أن يبلغ عتبة الباب، دس في يد الفندقي دينارًا وقبض عليها. كتم نفسه طويلا قبل أن ينظر في عيني الفندقي المتخابثة ويقول ببطء: «الخرجيرة.. أريد الخرجيرة». تبسم الفندقي حتى بانت نواجذه. ترك ضيفه دون أن ينبس ببنت شفه. أقعى موسى ينتظر قد تعرق جسده وضاق حجره. مر الوقت عليه دهرًا. سمع نقرات أظفار على الباب. قام فزعًا، فتح الباب ببطء حتى تمازج

(١) مثل.

صرير الباب مع دقات قلبه. رآها تقتحم المكان بعطرها قبل خلخالها. جال بخاطره أن يمسك بها ويطيل النظر في عينيها وأبيات الشعر تنسكب في أذنيه. أمسكت لفافة الكاغد تحت إبطيه وفتحتها، نظر إلى قنينة الخمر في ضوء السراج، وفضت لفافة أصغر معها.

-«زلابية؟».

-«الزلابية حلوة!». ضحكت من سذاجة عاشقها الجديد. أخذت بيده وأجلسته على الحاشية، أطرق برأسه، اجتاحته خيالات كثيرة. بدأ يستحضر في داخله عفريتًا ينتظر انعتاقه، وقسمونة تلهو بأصابعها ساخرة في الزلابية الغارقة في السمن والعسل.

***

صبت أم موسى الحليب على ملح الجريش في الإناء. قلبت الملح حتى ذاب. نقعت فيه قميص موسى ودلكته. اجتهدت في تدليك مواضع المداد. ألحت عليها الجارية أن تفعل ذلك عنها لكن أم موسى أبت. صرفتها وصاحبتها لما تعلمه من تبرمهما بالعمل ليلاً. لكن كيف تقضي لياليها، تنفق وقتها تشكو رحيل زوج تركها في شرخ الشباب، وكبر ولد شب عن الطوق فما عادت تهدهده. لكنه يذكرها الآن بنفسها أكثر من أي وقت مضى؛ كانت تقضي وقتها مع المؤدبة في ذات الغرفة، وتلزم أباها وأصحابه في مجلسهم حول البركة. بيد أنه اليوم ينفر منها ويرد لمساتها الحانية. تعلم أنه يضيق بما طرأ عليها منذ فارقت الحمراء؛ البدانة، وكثرة الشكوى، ومجاراة لسان نسوان الزنقات وأمثالهن وحركاتهن وصخبهن. صار ينفر منها كما ينفر من زوجة خاله. لم ينس أنه أمير من

بني الأحمر وأنها كانت زوجة لسلطان. لكن أنّى لها أن تكتم أحزانها وتبقى وحيدة دون صحبة حتى تحافظ على كبر مزعوم وعز ذاهب. وليتها ارتاحت، كم بكت يوم نهرتها إحدى الجارات لما طلبت منها أن تَبتاع لها شيئًا من السوق، لم تذكر هذه الجارة كم صنعت لها أم موسى طعامًا لم تألفه ولا تقدر على صنعه، وكم ضيفتها في بيتها. تذكرت فقط أن أم موسى دائمًا ما تطلب منها ابتياع شيء من السوق، فوبختها وذكرت كلامًا عن الحمراء ونقش الحناء ثم تركتها تتمتم بالسباب! وأخرى تفضي لها بسر ثم تتهمها بنشره، وثالثة تحمل كلامها على أسوأ معنى وتقضي يومًا في شجار ويومًا في تذلل وصلح، أو أن تسعى بين متخاصمتين وتنقل لكل واحدة منهما ما يلين القلوب، فتصطلحان وتتهمانها بإفشاء الأسرار وتتجنبانها!

حتى تنزّلها ومجاراتها لنسوان الزنقات لم يفرج همومها، بل دفع تلك الهموم وأتى بأخرى. رفعت القميص أمام السراج لترى آثار المداد، ولما اطمأنت أنها قلعتها غسلت القميص بالماء والصابون، ثم صعدت تنشره في العلية حتى يجف.

***

تلفت حوله حذرًا، اضطربت أنفاسه كخطواته. ولما اقترب من أقرانه عند المكان الموعود. حسر عن رأسه قبة برنسه الأسود ووضع الدراهم في يد ابن فطيمة الذي انتفخت أوداجه وقال: «دام عز مولانا الأمير!». حدجه موسى فصمت. رمق القوم بين قائم ومضطجع حول الطيافير[1] الحافلة بالطعام والخمر في تلك الناحية من فحص ألمرية العامر. رائحة

(١) موائد.

الشواء والقلي داعبت أنفه، تذكر أمه. أشاح بوجهه عن الذكرى ومط شفتيه بأسى، أيكون الطعام ما يربطه بأمه بعد إنشاد الشعر وأعمال الحساب، وحل أحجيات المالقي عقيب كل درس! أهذه هي أمه التي طالما دخل عليها الغرفة متلصصًا يلحظ علو صدرها وهبوطه، فإن لم يجد ارتعد ووضع سبابته أمام أنفها يلتمس حرارة الحياة، كأنه يحميها من ملك الموت أن يأخذها منه كما فعل مع أبيه.

أتاه ابن فطيمة بعصا ودرق[1]، فشدّ على العصا بيمينه ولوح بالدرق بيسراه. وابن فطيمة يشجعه. اقترب من الحلبة يتفرج على النزال. سئم خيال الظل وخرجيرات الفنادق، وغناء الجواري. يريد أن يفرج عن قوته التي ضاق بها جسده من شواء أمه وثريدها!

حان دوره في النزال، تذكر أبياتًا لعنترة حث بها نفسه، وقبل أن يكمل شطر البيت الأول في نفسه علاه خصمه بالعصا. دفع عن نفسه بالدرق ورجع خطوتين، كرّ عليه خصمه مرة أخرى، فانتحى موسى جانبًا بسرعة وضرب خصمه على عاتقه. استدار الأخير محاولا رد الضربة، لكن درق موسى غاص في وجهه طارحًا إياه أرضًا. تعالت الصيحات مهنئة. رفع عصاه عاليًا وجاس ببصره منتشيًا بنظرات الإعجاب.

تمنى لو أن فاطمة معه الآن لتشهد قوته وفتوته، تمنى لو أن عمرًا هنا ليعلوه بالعصا حتى الموت وهو يسخر منه ومن حجبه عن الناس، لن ينسى له لما أنشد فاطمة أشعار الحماسة أنه قال: «ما أفرس الجالس».

---

(١) ترس من جلد.

-«تعال الليلة يا بن الزواني لأقعدك في سريرك داب» همس لنفسه قبل أن يسوقه ابن فطيمة لمائدة من الموائد العامرة ويهمس في أذنه أن مجلسَ طرب خاصًا معقودًا للأبطال الأمجاد في بيت قريب، دس موسى دينارين في يدِ ابن فطيمة شاعرًا بالنشوة، ورفع قنينة الخمر عاليًا مهيئًا أذنه لأعذب الأصوات.

❁❁❁

قطعتْ موس اللحمَ بضيعات صغارًا كهيئة العصافير، قلتها في الزيت حتى نضجت. تركتها بناحية، أتت بالقدر. جعلت فيه ثلاث مغارف خل، ومغرفتين من الزيت العذب، وفلفلاً وكمونًا وشيئًا من الزعفران. رفعت القدر على النار حتى غلتْ. وضعت فيه بضيعات اللحم ساعة ثم أخرجتها ووضعتها على الصفحة. تذوقت المرق بأطراف أصابعها، ابتسمت ظافرة. أحلى سحور لصيام الاثنين!

جعلت اللحم والمرق في آنية كبيرة، ووضعت أرغفة الخبر على الصفحة. صعدت إلى العلية، دقت الباب فلم يُفتح. فتحته بحذر فرأته معتجرًا بالدثار. تمنت له أحلامًا سعيدة تحلق به بعيدًا عن هذا البيت، وضعت الطعام عندها، ثم سعت لوالدها تطمئن عليه وتسقيه العقاقير على أن تعود قبل الفجر بساعة لتوقظ ولدها من خيالاته ليلحق اللحم قبل الفجر.

زمَّ عبد الملك شفتيه يلوك الكلام المحبوس في صدره مع البقية الباقية من طعام ابنته. حتى لو أمكنته علته من الكلام هل سيفهمه أحد؟

كلهم وُلد في الجزيرة فلم يبرحها، هو الذي سافر وخبر الدنيا وما فيها، رأى الملوك والصعاليك والعلماء وأهل البراري، علم الفقه والطب والحساب والفلك والخط، ولولا فقر الجزيرة ونقص عمرانها وقلة حظه، لكان أعجوبة زمانه، ولعلا كعبه وذكره على ابن الخطيب وابن عاصم والنباهي! ولما تبسّم له الزمان بمصاهرة السلطان، كان قد شاخ وزهد في كل شيء، ثم أمضى أيامه ليس له إلا الدوران بين صومعة المسجد والبرطة، حتى إذا سئم أقعدته علته في مجلس الخضراء، ولما ازداد سأمًا أقعدته علته في حجرته! وفي كل طور من أطواره تلك يعلم انتظار ولده موته، ذلك العاق قليل الحظ في العلم والفهم، ولولا تجارة النصارى لدار في الأسواق يستجدي قوتَ يومه. لكن ذلك ذنبه هو، ذنب الأب الذي رحل يحلّي عقله ويزينه بأغلى المعارف، وولده ينشأ في السوق يكتسب أخلاقه وعوايده من الدلالين، فصار كل شيء عنده بدينار أو بكسر، حتى بات يضيق بحياة أبيه ويستطيلها، وكذا أولاده إلا فاطمة نزعت إليه في عرق، وإلى أبيها في عرق، ولعل موسى إن بنى بها أن يخلصها من شُحّ أبيها.

جاء على ذكر موسى فأجفل. زادت نظرات حفيده اللائمة له، يعرفه من لحظ عينه كما يعرف نفسه. يعرف أن لا أحد غيره يريد حجبه، ولا أحد غيره يصر على حيلته الساذجة، وكم رأى عبد الملك من ابنه وأقرانه نظرات الاستهزاء والاستهانة بفساد منطقه، وربما اتهموه في غيبته بالخرف، ولا يعلم موسى ولا غيره أن السلطان لا يكف شره عن أحد لقوة حجتهم وحيلتهم، بل لمرأى الخوف منهم. فأي حيلة مهما أُحكمت لا تلبث أن تنكشف، فتورث عندها في نفس السلطان

خوفًا، ولا يخشى السلطان إلا من الأذكياء، ولا يسكن خوفه منهم إلا بالولاء أو الدماء، فإذا كان الذكي خصمًا للسلطان وله في المُلك مثل نسبه وسهمه لم يبق إلا الدماء، فكم رأى من سفك بني الأحمر دماء بعضهم البعض، حتى صارت كل امرأة وكل ولد من بني الأحمر وبينه وبين السلطان نسب وثأر. سيرى السلطان وعامله على المرية وبنو سراج أن عبد الملك شيخ خرف، لكنهم سيوقنون أنه لا يريد وحفيده أن ينافسوا السلطان فيحفظوا لعبد الملك حياة حفيده وهو عين المراد. ليته استطاع أن يضع موسى بين أهدابه لا أن يحجبه في الخضراء. هو الوحيد الذي يرى فيه سلواه وصورة صباه، ولو ندم على شيء في الدنيا، لندم على حرف تعلمه ولم يعلمه موسى. وهاهو يبلى على سريره ويموت لا يلوي على شيء راضيًا أن حفظ حفيده من نفسه حتف أنفه، وليلطف به الله بعد موته. يا ليتهم يسلمون بحجته ومنطقه، ويتعلمون من شيبة رأسه التي عركتها السنون.

***

أنت

مرحى يا موسى!

أشعرت بالحزن لما كتبت لولدك عن صباك أيام الحجر؟ لعله أمرٌ جلل ٌأن تتذكر معاصيك؟!

يا إلهي كيف لناسكٍ مثلك أن يعصيَ، كيف لواعظ مثلك أن يزل؟

تظن نفسك تسير على الدرب وقد سقطت. هل من يوم بت فيه لم تعص الله؟

هل من يوم أمسك فيه ملكاك عن كتابة آثامك وأوزارك؟

منذ بلغت الصبا والحجب، والشوق يحدوك لما خلف جدران الخضراء، لليال ملهيات طالما سمعت عنها من أقرانك، ولما جسرت لأول مرة وتسلقت جدران الخضراء، هويت من فوقها ولم ترتق.

في كل ليلة يصرف مليكك قلب الدين شهواته من الصدر المحاط بالضلوع كجدران الحمراء. تخرج الشهوات ودخان الشيطان يتبعها بعدما قضى وطره. يشير الملك واهنًا لربض الندم بالدخول، وقد اسود ثوبه وخارت قواه، والصمت مطبق إلا من دقات خافتة لخطوات الندم الوئيدة. تعلمَ الملك منذ خط الزغب فوق شفتيه كيف يسكت قاضي الجماعة حين تطرق أرباض الشهوات على ضلوع قصره، لم يعد قلبك يخاف من صورة أمك على رايات الخوف والتقوى، لكنه جرَّب شعورًا جديدًا لم يألفه طفلا؛ جرَّب الخذلان. ربما لأن الخذلان من طبقة

الشعور بالكرامة والواجب، متولد عنها وملازم لها، وتلك المشاعر بنت الصبا لا يدركها الأطفال، شعرت أنك تخذل أمك وتشفق عليها إن عرفت، لكن لم تعد تخشاها. وبعد المعصية يصير الملك واهنًا مثخنًا بالآثام، يتوق إلى غسل ثوبه مما علق به من السواد، كما تتوق أطرافه للغسل مما علق بها من أدران وجنابة. يسمح لقاضي الجماعة بالحديث لأول مرة منذ استبدت به لذاته، فلا يقصر القاضي عن البيان، يستعين بدفاتر الوزير ابن لبابة:

-«إن العبد إذا تاب إلى الله، جُعِل بين العبد وبين المعصية بابٌ كلما حاول العبد فتحه أغلقه الله في وجهه بتصاريفه العلية. حتى إذا ما أصر العبد على المعصية كُسِر الباب ونُزِع عنه حفظ الله له، ثم إذا تاب رجع الباب إلى سابق عهده، وهكذا حتى يأتي الأجل والعبرة بالخواتيم».

تُتلى في رأسك آيات من القرآن، حفظتها يومًا ودندنتها كما يفعل الصغار بالأراجيز، حتى إذا بلغت الصبا والشباب وفهمتها صارت حجة، وألما! وأشعرتك بشعور جديد لم تألفه طفلا، أشعرتك بالغمّ، بالذنب مما مضى، وأشعرتك بالهمّ مما هو آت.

تبا لابن لبابة! فلولا معرفتك بالجنة والنار وأهوال الحساب، لولا معرفتك بعاقبة المعصية وشؤمها، لما فكرت بغلك ولا تهمّمت به. وفوق الشعور بالهم والغم والخذلان، لا يشق قلبك نصفين منذ الصبا إلا الشعور باللعن!

نعم، ربض مهيب يرفع كتاب التوهّم للمحاسبي، يدخل على ملكك برجه، يرمقه القوم بلحاظ الوعيد، ثم ينصرفون بأردية سود تسمع

حفيفها محرقا بين جنبات صدرك. تستبد بك الذكرى، تذوي مملكتك وأجزاؤها، تلتحم كلا واحدًا يعين أحزانك عليك.

تذكّر كيف كنت تتسلق شماسة الجيران عائدًا من جولاتك في الليل. تقفز فوق الأسطح المتلاصقة، تخشى العسس والدرابين والجيران المتيقظين، بمرور الوقت عرفت أسلم الطرق، وأخف الأحذية، وأسلم الوثبات، والأهم أفضل الأوقات لمغافلة الأم العاملة بالليل. تنسل تحت الدثار. رأسك مازال يقطر ماء من الغسل بالماء البارد في الخلاء. وبعد الاطمئنان على سلامة الوصول تبدأ حصة التوبة!

تُكرِه نفسك على الشعور بالندم. تحبس الهواء داخلك لتوهم نفسك بالشعور بالضيق. تحني رأسك لتوحي بالذلة. تجحظ عيناك لا تطرفان حتى يحتك الهواء البارد بمقلتيك، فتبلل أهدابك ببعض الدموع لتتظاهر بأنك نادم. تتمتم ببعض كلمات لا تتجاوز حلقك ولا تنقش حرفًا في جدار صدرك. لقد حطمت الباب يا موسى وجعلته عقيمًا لا يلد بابًا يحفظك من جديد.

هذه هي الحقيقة؛ أنت لم تكن نادمًا يا موسى، لم تكن تائبًا؛ تريد أن تشعر نفسك بنار الحسرة وهي برد عليك كنار إبراهيم لكن شتان شتان! كنت تشعر ببرد من استمرأ المروق.

عزيت نفسك في تلك الأيام أن الله قادر على ديمومة المغفرة يا موسى، ولم تك تدري أن الإنسان غير قادر على ديمومة التوبة.. على ديمومة الندم. إنها الفتنة يا مسكين! في البدء تُسكب العبرات وتلفح الهواء الزفرات ويُعتصر القلب وينحني الظهر، ثم تجدب أنهار الدموع وتخمد بركان الآنات ويجف ضرع القلب من الندم، ويتخشب الظهر من طول جفاء السجود.

ولاتدري ما يحدث لك يوم العرض على الله غارقًا في عرقك واقفًا عند العرش، والله يذكرك بإحسانه إليك ويذكرك بذنبك، ترى ما يقول لك يا موسى؟ أيقول لك سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك في الآخرة، أم يقول وعزتي وجلالي لا تذهبن بها مني!

لهذا كان يجب أن يحدث ما حدث، أن تخسر ما خسرت، وأن تُبتلَى بالنكبات واحدة تلو الأخرى لعلك تتضرع إلى الله، فهل فعلت؟

تأتيك ذكرى فاطمة كبِدَ العزاء، تذكر مشاعر أخرى وعلامات أخرى لم تألفها إلا في الصبا والشباب؛ أولها أمر مليكك لعريف العين أن يقف كالدرابي منتبهًا لا يشغله إلا إدمان النظر إلى فاطمة، والميل معها كما تميل الحرباء في الشمس. وثانيها جلوس قلب الدين إلى ابن لبابة يكدّس دفاتره يطوف بين صحائفها، وكلما انتهى من دفتر دون فائدة ألقاه في سأم، وإذا بلغ مراده ألقاه طربًا، فيحشد الكلام شعرًا وطرفًا وحكمًا كالسلطان يحشد جنده ليفتح قصبة الأعداء. يخرج عيون معارفه كما تخرج النحل عسلا. يُجلس الملكُ عريفَ اللسان بين يديه ويمليه مشفقًا ألا ينسى حرفًا، لتصرف إلَيك وجه فاطمة؛ وجه القمر بعيد المنال.

وأم تلك العلامات جزء نبت في مملكتك في قلب قلبك لم تعرفه ولم تألفه قبلا، يصرف قلبك، وهو الملك صاحب الإرادة، حيث يشاء دون الاستعانة بربض شعور أو شهوة أو دخان شيطان. وجدت نفسك دون إرادة منك تهفو إلى سماع اسم فاطمة والالتذاذ بأخبارها، وطلب الجلوس إليها، والتثاقل في القيام عنها، واستراق النظر إليها بين الناس، والسفر في عينيها عند اختلاس الانفراد.

فكأنها في نحول جسدك وفتورك عن شهوة الطعام داء، وفي سرور القلب وراحة النفس وطول الأمل دواء. وكأنها في إدمان النظر وعناقها في الأحلام فتنة وإثمٌ، وفي الخوف عليها ورجاء الوطر منها في الحلال طوق العفاف. فعجبا لقلب قلبك، ذلك الركن الجديد من أركان نفسك، كيف يصرفك بين الأضداد والأهواء، وكيف ينضج ذلك الركن أشواقك ولواعجك كاللحم ينضج على حار الرماد، لكن لما عرفت اسم ذلك الركن تيقنت أن لكل من اسمه نصيبًا، فما ذلك الركن الذي أيقظه الهوى، الركن المصرّف لقلبك وأخص ما فيه؛ إلا الفؤاد.

***

الفصل الرابع

إبريل

أنا

ذكر إظهاري نسبي:

بعد موت جدي رحمه الله، أرادت أمي أن تبقيني محجوراً في الخضراء. تعجبت منها وهي التي كانت تشاركني الغضب من جدي وتنكر عليه حجبي، بينها وبين نفسها. لكن موت الأحبَّة حجاب العقل يا ولدي؛ فكم من محب مات ولمنا أنفسنا أنّا لم نبرِه بما يحبه، فنكفر عن تقصيرنا باعتقاد مذهبه واستحسان رأيه، حتى لو كنا نكرهما عليه في حياته، فنعوض التقصير بالتقليد، ويضيع علينا ثواب البر ونحرم أنفسنا من اختيار يصلحنا. لأجل ذلك لم أطق أن تكمل أمي ما بدأه جدي، فأغلظت لها القول ولم أفعل من قبل؛ فقد كنت في الخضراء بين صيام وقيام وطلب علم وبر. لكن ضقت ذرعًا بهذا الحجر، ولما خوفتني بإخوتي قلت: ما الفارق بين حجر هنا وحجر في الحمراء أو في قصبة مالقة أو الحَمَّة. وكانت الحرب خبت بين أبي الحسن وأبي عبد الله فرَضِيَ كل منهما بما تحت يده، ولم يتطلع لما في يد الآخر. أما العدو فما رضي وصار يقتنص من أطراف البلاد حتى وصل إلى قلبها، وها قد صرنا في الحصار والموت يكتنفنا من كل جانب ولله عاقبة الأمور.

غاية القول أني صح عزمي على إظهار نسبي واستعنت بخالي على ذلك لما رأيت ميلا منه لمناصرتي. تعجبت أول الأمر للجفوة بيننا، حتى أنه ما كان يرسل أبناءه للخضراء إلا لمامًا حتى لا يجلسوا معي. غير أن

عجبي مالبث أن زال لما علمت أنه يريد إظهار نسبي حتى لا أقاسمه وأمي في ميراث جدي!

ولما رضيت أمي مغضبة، ذهبت مع خالي للمسجد الجامع، وغشيت معه السوق، وكلما سأل أحدهم عني قال: ابن أختي ليلى، ثم يفتل لحيته ويقول مختالا: الأمير ابن السلطان! تسامع الناس في ألمرية كلها بخبري فاصطنع بعضهم الذهول وقالوا في العلن: «أو عاد من العدوة» وفي السر يقولون ها قد انتهى حجره في الخضراء! وآخرون ذكروا عقل جدي بسوء؛ كبني سراج الذين عجبوا لجزع جدي أن حجبني خوفًا منهم، وقد مضت السنون وعاد بنو سراج إلى سابق عزهم بعد أن نكل بهم أبي. أما والي ألمرية فأرسل إلى خالي يسأله عني، ولما كان خالي من وجوه الناس وأكابر التجار في السوق خشي أن يكون داعية دولتي والمنفق على أنصاري! فطمأنه خالي بمعسول الكلام، وبما نُقل عن شحّ نفسه!

ورغم كل هذا ظلت نسوان الزنقات يدعونني بابن أبي غسان كما دعتني أمي أمامهم أول مرة لما نزلنا الخضراء. وإذا بدا عليّ الضيق قلن مازحات: «أليس جدك من رباك وعلمك؟ ثم إن موسى بن أبي غسان كان شيخ الغسانيين عمَّار ألمرية!» فأخجل من أمي وأتركهن وأمضي لشأني. ولاتحسب أني كنت مكثرًا من مجالسة النساء؛ فذلك لما كنت طفلا في حجر أمي، غير أني بعدها تجنبت مجالستهن في دارنا، وضقت بحديثهن في سير الأولين والآخرين، وأمثالهن التي تضارع أزجال الصعاليك، ولازلت أعجب من ولعهن بالحديث مهما تكرر في الأسواق والحمامات والزنقات والدور. ثم صرن يهبنني ويخشين إغضابي لما

علمن أني اعتدت الذهاب مع أترابي إلى خندق موسى في جوف البلد، وقد كان معموراً قبل الطاعون الوافد، ثم هجره الناس مع هجرهم للحوض، وظلوا يمنعون الناس من وروده، ويحكون الحكايات عن عزيف الجن المسموع فيه بالليل، ولما ذهبت مع أترابي أول مرة هناك، دعونا بالأشقياء، ومن يومها ونحن مهابون بينهم، محقّرون في حديثهم، وكذا أي أحد يخرج عن العرف في بلده؛ يهابونه لأنه لم يبال بخوفهم، ويحقّرونه لأنه فضح جُبنَهم.

ذكر موسى بن أبي غسان شيخ الغسانيين:

وفي أول ليلة في الخندق سألت أقراني من الأشقياء عن صاحب الخندق، فأخبروني أنه موسى بن أبي غسان شيخ الغسانيين، فزاد فضولي في السؤال عنه، لما شبهتني به النسوة، وقضينا ليلتنا حول الكانون نسمع من ابن فطيمة حكاية موسى بن أبي الغسان شيخ الغسانيين؛ وهم من العرب القضاعيين كبني سراج أنزلهم بنو أمية في بجانة لحراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل. ولما عمر الغسانيون بجانة طمع فيها البحريون، وهم قومٌ من المولدين ذوو بأس على قلة عددهم، وهم من أنشؤوا تونس وعمروها. زُيِّنت لهم بساتين بجانة وعيونها ومجاشرها، فنزلوا بها من مراكبهم وأظهروا أنهم يريدون الميرة، ثم أخرجوا السلاح من متاعهم ونازلوا الغسانيين وعليهم يومئذ موسى بن أبي غسان. ورغم أنهم أخذوا القوم على حين غرة، إلا أن الغسانيين ثبتوا لهم وأخرجوهم من السوق حتى نهر أندرش، فأرسلوا إلى عمرو بن الأسود صهر موسى وبذلوا له الأموال والجواري من سبي البحر، فمكنهم من بني قومه ودلهم على طريق آمن لا تكشفه المحارس حتى

يبلغوا القصبة، وبجانة يومئذ لم يضرب عليها سور. أغار البحريون في الليل من الطريق المذكور على رأسهم الرياس الكركرني، وفزع الغسانيون إلى دورهم التي جاس فيها البحريون وتركوا المحارس، وموسى يدعوهم للثبات والصبر دون مجيب حتى ظفر به الكركرني وضرب عنقه. ولما أصبحوا كان البحريون تغلبوا على بجانة كلها، وحفظوا حياة من بقي من الغسانيين وقالوا أنها مكرمة لحليفهم عمرو بن الأسود، لكنهم كانوا يتحاشون نفرة بني حمدون المحاربي في ألبيرة ليهبوا لنجدة أبناء عمومتهم وهم من العرب الغسانيين، فخشي البحريون أن يحاط بهم لقلة عددهم، فأرضوا الغسانيين وحصروهم في جوف بجانة وضربوا السور حولها، إلا أن أكثر الغسانيين يومئذ خرجوا إلى ألمرية وعمروها، ولما أمر الناصر فتاه خيران العامري ببناء ألمرية وقصبتها ودار السفن فيها؛ هُجرت بجانة وعمرت ألمرية وما كان فيها يومئذ إلا المحارس والأربطة ومجاشر متفرقة. ويقال أن عمرو بن الأسود ندم على فعلته، فبنى مسجداً في بجانة التزمه حتى مات، ولم تنفعه السيادة على قومه ولا مال البحريين وجواريهم، وقد رأيت أطلاله لما ذهبت إلى رابطة رأس القبطة السوداء، فتأمل.

ذكر إقبالي على الدنيا:

بعد أن أطلقتني أمي من الخضراء، أقبلت على الدنيا، كما كنت أقبل عليها من برج قمارش محمولا على عاتق أبي عبد الله. تنقلت بين المسجد والسوق، عفت طعام أمي ورغبت في شواء الدكاكين

والمجبنات، وأنفقت على اللطائف وخيال الظل، استبدلت الحكايات والطرف بالعلم وسير الأعلام، فأدمنت النظر في الحياة وهجرت الكتب. ومثلما أتقنت إسناد كل قول لقائله، ووزن الكتاب من خطبته؛ وعيت أحوال الناس وغش التجار، ولكاعة النسوان، وحيل الصعاليك، غير أن إدمان النظر في الكتب يبصّرك ويرقيك في المدارج، ومراقبة الناس تفسد عليك صدرك وتودي بك في المهالك.

وقر ذلك في قلبي لما نزلت السوق أول مرة مع خالي، وكنت قد حذقت مسائل الأموال والحسبة في الكتب، فرأيت الناس تستحل الربا والغرر، ويرسل أكابر التجار بالدلالين عند ظاهر البلد يستقبلون الركبان القادمين من البر والبحر، فيغشونهم في الأسعار ويشترون منهم بضاعتهم بثمن بخس، ويعزلونهم في الخانات، فيشترى تجار البلد من الركبان قبل أن يقفوا على حقيقة الأسعار في السوق، والركبان يردون الحيلة بالحيلة؛ فمنهم من يأتي معه بالنُّجّاش يزيدون السعر على تجار البلد يوهمونهم بإرادة الشراء، حتى إذا اشترى التجار من الركبان، اقتسم الراكب والناجش! وكان من تجار البلد من يبيع ذمته ويخون إخوانه كأسامة بن قبرون؛ كان يذهب للتجار الوافدين سراً ويعرض عليهم أن ينجش على إخوانه، وكلما نجش على أحدهم ثم عاف الشراء، زادت ريبة التجار فيه، حتى عُرف أمره، فدُعي بأسامة الناجش! ثم أجمعوا أمرهم على استخدامه عينًا على الركبان وأهل الخانات ليعرف التاجر الحق من الناجش! ثم إذا فرغت الركبان من بيع بضاعتهم وعادوا إلى ديارهم، باع تجار البلد ما اشتروه في السوق بضعف الثمن ولا حيلة للمرأة والمسكين واليتيم من إدراك تلك

الأثمان. أما المحتسب القائم في خطته بالنظر الشرعي في الحلال والحرام، السائر للعصاة بالزجر السلطاني من ضرب وجلد وحبس؛ إذ هو يقتسم مع الجميع ما غنموه، ويختم أوزانهم ومكاييلهم المغشوشة، والوالي والسلطان من فوقه كل يحمل نصيبه من الغنم في الدنيا واللعن في الآخرة، والمراقب لتلك الأفعال إما أن ينكر على الناس حتى يبغضوه ويبغضهم فيعتزلهم، أو يخالطهم فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فتأمل!

غير أن أباك لم تلبث أن أبعدته سورة الشباب عن مصاحبة التجار وقبيح أفعالهم؛ فكرهت النزول مع خالي في دكانه. استبدلت اللهو والتبطل بذلك كله! فتوسطت بين إنكار المنكر أو اعتزال الناس، بالسير على غير هدى، وراء اللهو واللذات، وأصحاب الكاس والطاس، فكأني استبدلت آثامًا هوتها نفسي بأُخَرَ أبغضتها، وكأن الشرع لم يكن حاكمًا في عزوفي عن حيل التجار، إنما الهوى!

ذكر برق أول جيادي:

واشتريت جوادًا يدعى البرق، وماكان برقًا ولا ذبالة سراج! خُدعت فيه لجهلي بعلامات الخيل العتاق، فاشتريته أرجزَ؛ وهو اضطراب في الرجل للثقل، ولغفلتي لم أجرب جري الفرس قبل شرائه، أعجبني شعر ناصيته ومعرفته، وغرة بيضاء في وجهه الأدهم كالبرق في الليلة الظلماء، فانظر إقبال الصبيان وسذاجتهم.

عاتبتني أمي يومها لما فضحني خالي، وعرفت بعدها أن الخيل لا

يشـتـرى في إبريل؛ فـهـو شـهـر إطلاق فـحـول الخيل على الرمك[1]، والسلطان والولاة والسـراة يرسلون عـمـالهم لشـراء الخـيل يملؤون بهـا الأواري قبل شهـر، فلا يبـقى إلا شر الدواب ومـعـيـوبها. عـرفت ذلك وأتقنته بعدما عملت بالوثائق، وكلما كتبت عقدًا لبيع جواد، حاكت غفلتي في صدري.

ذكر عملي بصنعة الخط:

لما أقبلت على الدنيا كما تقدم أخذني أمل الشباب وغفلته، ونفد مالي الذي ادخرته من عطاء جدي في حياتي، كان خالي؛ جدك رحمه الله يضيق بذلك ويدعوه حيفًا؛ إذ كيف يعطي الجد لحفيده المحجور مالا يساوي عطاياه لباقي أحفاده. غير أن خالي لا يعرف شيئًا عن مواساة القلوب وتأليفها. تفرق عني عندئذ الأصحاب والخلان حتى جلساء جدي لما وجدوا أني قصرت عن حياة الدعة التي عشتها، وفي ذلك فائدة في حسن اختيار الصحبة الصالحة التي ما وجدتها إلا في عين الصقر ولوشة من بعد.

فكرت فيما ينبغي أن أعمل، فلم تكن لي حرفة، وكرهت نزول السوق مع جدك وعياله، وكذلك كرهت أن أسأل أخويّ ولم أرهم منذ وثب أبو الحسن على أبي، وطلب العلم يتطلب النفقة والانقطاع، ولأمي وللخضراء نفقتهما، فآثرتهما على نفسي بعد طول جفاء من بعد موت جدي، فصرفت الناسخين وعملت عملهم، وعلمت حينئذ

---

(١) فرس متخذة للنسل.

أن تعلم الخط على الألواح غير عمله للناس؛ فما تكتبه لنفسك إنما تسبغ عليه صورة الجمال من ذهنك، أما ما يراه الناس في الخارج، فهو ما خطته يداك منزوعًا عن كل زينة زينتها نفسك. وقديمًا قالوا: الناس تعشق الخط المبين حروفه منثورها ومنظومها، مفصلها وموصلها، بمداتها وقصراتها، وتفريحاتها وتعريجاتها، حتى تراها كأنها تبتسم عن ثغور مفلجة، أو تضحك عن رياض مدبجة. وهذا ما يعم الحروف كلها عمًا، ولكل حرف مقام وعمل؛ فإقامة الحاء والخاء والجيم حتى تكون كالأحداق المفتحة. وإدارة الواوات والفاءات. وتفتيح وجوه الهاء والعين والغين. ولو أن أثقل عليك لزدتك من صنعة الخط علمًا، غير أن هذا يكفيك، وحفظ الحروف من مزاحمة بعضها لبعض، وملابسة أول منها لآخر ليكون كل حرف منها مفارقًا لصاحبه بالبدن مجامعًا بالشكل الأحسن، وحفظ استقامة سطورك، لهو يغنيك عما قصر عنه قلمك. واعلم أن الخط يُقرأ بكل مكان وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان ولا يعم الناس بالبيان، ولولا الكتاب لاختلفت أخبار الماضين، وانقطعت أنباء الغابرين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضي والغابر بعدك، فصار نفعه أعم، واعلم أن عقول الرجال تحت أسنان أقلامها كما يقولون.

ذكر سليمان الناسخ وفتنته:

ولما ذاع صيتي في ألمرية وقصدني وجهاء القوم، سعى إليّ سليمان الناسخ؛ شيخ نساخ الأندلس في زمنه؛ ناسخ مصاحف السلاطين وكان

كاتبا لأخي أبي الحسن، ثم لأخي أبي عبد الله. وبلغ من حسن خطه أن طاغية الروم يحفظ رسائل أخي، المكتوبة بخط سليمان، ويخرجها لقومه في أعيادهم. وكان صاحب عطف وبرّ على النساخين، فإذا بلغه ذكر أحد منهم سعى إليه وضمه إلى مجلسه، وإذا سأله أحدهم حاجة قضاها حتى لا يسألوا الناس، ولا يعملوا من الأعمال ما يفسد صنعتهم، وكان يتمثل بقول علي بن جعفر: لا شيء أنفع للخطاط من أن لا يباشر شيئا بيده في رفع ووضع خاصة إذا كان ذلك الشيء ثقيلا، فإن الحركات إذا تمثلت بالحروف، والحروف إذا اندفنت بالحركات كانت الصور الخطية والحروف الشكلية محفوظة الأعيان بامتلائهما بهما، محروسة الأبدان بانتسابهما إليهما، فإذا قام الخطاط بشيء من هذه الأعمال تغير خطه، وصدق ابن جعفر، فقد كنت أؤدب برقًا المشؤوم هذا بالسوط مرارًا فتغير خطي مدة.

وكان سليمان كثير الفخار بنفسه، وذلك كان مقتله؛ وكان، كما وصفه القائل، ممن يعظمون هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء يحسبونها علمًا، ويضعونها في الكتب، فضيعوا فيها الزمان وملؤوا بها الصحف مدادًا والقلوب سوادًا، حتى صرح كثير منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقينًا ولا علمًا، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذّن بها بين أظهرهم حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه. وكان يصاحب الجهال من الصوفية ويقول بقول الباطنية، وكان يشبه الناس بالخطوط، ويزعم معرفة الطالع من

الخط، ثم غالى في القول بالخط وترك الفرائض وصار ينسخ الآيات بخطه ويقول «تلك تجب عني»، ثم فتنه خطه فصار يكتب بالفحم على ثيابه وجدران داره وسواعد مريديه قرآنًا وزجلاً من أزجال الششتري، فلما عرفت حقيقة مذهبه استوحشت مجلسه وهجرته، ولم يبق معه إلا طلاب المال والوجاهة، ثم رفع الفقهاء أمره إلى الوالي، فردهم بمعسول الكلام، وكانت له مع سليمان صحبة، فابتدره العوام وطلبوه في دروب ألمرية يرجمونه بالأحجار حتى قتلوه وحرّقوا داره، وتلك عاقبة العجب والكبر والسير في طريق الشيطان.

ذكر حالي في الصنعة:

لزمت الخضراء بإرادتي حينئذ وعمرت مجلس جدي وقمت بعمل النساخ وحدي كما تقدَّم، لكن جدك لم يدعني على حالي، فتطوع أن يشتري لي دكانًا للوراقة في السوق، وظل يحسن ذلك في عيني وأنا آبى عليه؛ فلا يغشى تلك الدكاكين إلا طالب بدرهيماته، أو شيخ رقيق حال، فما حاجتهم إلى التذهيب والكتابة بالذهب والفضة؟

وعجبت، كما في كل مرة، لحماسته، ثم زال عجبي لما علمت بعد ذلك ما كان يعتمل في نفسه من خطط للخضراء، وقد تركها لنا نقيم فيها لما رأى حزن أمي، فآثر أن يتركها في الخضراء، حتى حين، عزاء لها على موت جدي. غاية القول أني أصبحت وأمسيت محني الظهر إما ناسخًا، أو أعمل حبرًا أو مدادًا، أو أمحو أغلاطي وأجبر سهوي، وكان طلابي من أكابر ألمرية وسراتها، ممن يشترون الإجازات بمالهم، ويخلع فيها الشيوخ عليهم أفخم الألقاب ويكيلون لهم المدح والثناء

(١) نافورة.

على حذق لم يؤتوه وفهم لم يرزقوا منه بنصيب. رحم الله مؤدبي المالقي حين قال: «إذا صحت الإجازة بطلت الرحلة!» فأين شرف العلم إن كانت الإجازات تمنح بالمال! وما عرفت ذلك وأنا محجور أمسي وأصبح أفكر في أحاجي المالقي ومسائله، وبعض السراة يشترون الإجازات من ألمرية وغرناطة وغيرها، بل إن بعضهم دفع لشيخ من مصر حتى يجيزه ويجيز أولاده وامرأته! وذلك عندهم مما يضاف إلى جملة مفاخرهم وأسباب مباهاتهم أمام الناس، جوار بيلة[1] عجيبة في الدار، أو برج على الفحص مشحون بالفرش والمتاع، أو مكتبة عامرة ومن ذلك كان رزق أبيك، فمنهم من يريد الكتابة بالذهب، فيأتي بمثقال من الذهب الخالص، فأضربه صفيحة رقيقة ثم أقرضه صغارا، ثم أصب عليه بورقا وأدلكه، ثم أدخله النار وأنفخ عليه حتى يذوب، ثم ألقيه على بلاطة أدلكه بحجر حتى يصير مثل الزبد، ثم أجمعه وأعصره حتى يخرج منه البورق ويبقى الذهب، ثم أرده إلى البلاطة وأدلكه بماء شب الصوق والملح الأندراني وملح الطعام وزاج رومي، فإذا أرضاني لونه أضفت إليه صمغًا وكتبت به، وذلك صفة المداد الذي كتبت لك به خطبة رسالتي.

وأشق ما نسخت كان صحيح مسلم بن الحجاج، وكان طالبه أبا الفرج إسماعيل بن عاصم الليثي محدث ألمرية، وبذل لي مالاً كثيرًا في نسخه، وكان يرهقني في النقط والشكل، وكلما تبرمت وقلت: «لا أشكّل إلا المشكل» أجابني: «إعجام[1] الخط يغني عن استعجامه، وشكله يغني عن اشتكاله»، ثم روى لي ما يقع من خلاف على الحديث لأجل إعرابه،

---

(١) نقط الخط.

وأن النسخة التي أنسخ منها ضبطها في مجالس السماع على شيوخه، فإذا ثبت خطأ في كتابه كان يلعقه بلسانه أو يمحوه بثيابه، إذ كان يكره الضرب على الورق ويرى من المروءة أن يكون المداد على شفتي الرجل وثيابه.

أما أبوك فكان عديم المروءة! غاية ما أصلح من الخطأ كان الضرب خطا رقيقا على الورق لا يسوده، منعطف أوله وآخره كالباء المقلوبة، وإذا خرجت شيئا سقط سهوا جعلته في الحواشي، وكرهت التخريج بين السطور لما فيه من تضييق السطور وتغليس ما يقرأ، وللضرب والتخريج عند النساخ مذاهب عدة، يا ليتك معي يا بني لأعلمك إياها كلها.

وأطرف ما نسخت كان لكبير تجار ألمرية، لما طلب مني حبراً عجيباً لم يعمل مثله، فعملت له حبراً يكتب به، في السواد يجيء أبيض وفي البياض يجيء أسود، ثم طلب مني وضع الأسرار في الكتب التي يرسلها للتجار، وكنت مؤتمنا عنده، فكنت أكتب له بماء العفص، ثم أعطيه زاجا مسحوقا إذا ذر الزاج على الورق ظهرت الكتابة. وكان لي مع ذلك التاجر أخبار طويلة، غير أني عجزت عن ذكر اسمه، غير أني أذكر ثيابه المترفة وجوده على المساكين أيام العيد، ومهابة التجار والدلالين له، حتى خالي كان يخشاه ويتقيه، وكانت له أخبار في البيع والشراء واكتساب الأموال ما عجزت عن إدراكه الأفهام، وحارت فيه العقول، وقد امتدت تجارته عبر البر إلى قشتالة وأراغون، وعبر البحر إلى مصر وجنوة وفاس، ثم قطع النصارى البحر فكان في ذلك كساده وبوار تجارته ولله الدوام.

ذكر عملي بالوثائق:

ساقني القرب من التجار والأعيان والعلماء إلى العمل بالوثائق، جنبا إلى جنب مع النسخ؛ فكتبت عقود النكاح والوكالة والمساقاة والمغارسة وسائر العقود، وجاء وجوه المرية إليّ في الخضراء أكتب لهم عقودًا أو يشهدون عليها، وكنت أنفق على ضيافتهم في مجلس جدي فوق ما آخذ منهم! ولطالما حذرتني أمي أن أدخر من غناي لفقري، لكني لم أطعها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومما علمته من العمل بالوثائق أن المال أربعة أقسام؛ صامت من ذهب وورق، وعرض من أمتعة وبضايع وجواهر، وعقارٌ صنفان: بيوت وحوانيت وفنادق وحمامات وآخر مزدرع من بساتين وكروم ومراعٍ وآجام، والرابع الأنعام مال ناطق من خيل وإبل وغنم وحمير وغيرها. ولكل قسم عمل في نفس صاحبه؛ فصاحب الصامت جليل مهاب، لا يخشى الارتحال بين الأقطار أن يرده الناس؛ ففي كل بلد صيارفة لا يردون ماله، وهو في ارتحاله وألفته بالأغراب كالذهب والورق تنتقل من يد إلى يد وفي تنقلها مطلوبة مرغوبة. وصاحب العرض يخشى النقل والتلف، ويخشى إذا نزل منزلا غير منزله أن يجحده الناس كمن يجحد القرمز[1] من لا يعرف صبغ الثياب، فلا يصفو لغريب إلا أن يكرمه ويعرف فضله، وهو في تقلبه في الدنيا بين إكرام وجحود؛ كالثوب يجلو الأبصار إذا ما كسا بدن الكريم وينفّر النظار إذا قر على بدن القطيم، والجوهر يجلب الحساد إذا ما قيدته عنق عجوز فانية، ويخلب الأبصار إذا

---

(١) صبغ لونه أحمر يُستخدم لصبغ الثياب.

طوق جيد الغانية. وصاحب العقار ثاو لا يبرح عقاره، وهو في علائقه بالناس مشدود كالبنيان لا يتركهم ما تركوه، يحيا كأنه يعيش أبدًا، ولكثرة إقامته ووفود الناس عليه اعتاد الفراق والاختلاف، فلا يعكر صفوه شيء، كالمنزل والبستان يخلف أهله بعضهم بعضًا.

وصاحب المال الناطق يخشى المرض ويكره السفر، ويرى ما لا يراه أحد، وهو يتفرس في الناس تفرسه في أنعامه، فيعرف أحوالها من حركاتها وسكناتها، ويعرف باطنها من أبوالهها وألبانها، ولا يأبه بالناس ما خلوا بينه وبين حاجته، كالأنعام لا تبالي بعد الشبع أرضي صاحبها أم سخط، ثم هو يكتسب بعض صفاتها كأهل الغنم أصحاب السكينة والوقار، وأهل الإبل أصحاب الفخر والخيلاء كما جاء في الحديث.

ذكر أطرف ما وثقت:

وأطرف عقد كتبته كان لأبي يحيى الزجال، وكان الزجال متسولا واسع الحيلة، منحوسًا متلفًا للمال، يتكسب من رواية الأزجال والمقامات في الأفراح ومجالس الكبراء، يُعجب به الصبية لما يبتدعه في أزجاله من غريب الكلام ويتلقفونه في مجالسهم، فكل زجل لأبي يحيِي محفوظ عند الصبيان والنسوان في الزنقات، منكر عند الخاصة والعلماء. جاءني ذات يوم قبل العيد وقد أقسمت عليه زوجته ألا يبيت معها إلا أن يشتري أضحية كجاراتها للعيد، وكانت لنا صحبة، فجاءني والقصّاب يوثقون عقد بيع بالأجل لتيس، ولما حمل الحمال التيس فرَّ منه وجرى في الطرقات كالعفريت، ودخل في دهليز الفخارة فكسر ما فيه، ولما قدروا عليه حملوه معززًا مكرمًا إلى البيت، وحملوا أبا يحيى إلى الشرطة!

فلما عرف صاحب الفخارة أن التيس لأبي يحيى رق لحاله وتركه بعد أن دفع ما قدر عليه، ثم خرج أبو يحيى الزجال ينظم ذلك في مقامة يتسول بها عله يعوض ما دفع!

ذكر مرض أمي:

ظللت على عملي بالنسخ والوثائق حينًا من الدهر، حتى شعرت أمي بألم في صدرها، ولما جاءها الطبيب وصف لها عدة عقاقير، وبعد أن استبدَّ بها المرض، نصحني أن أخرج بها إلى مكان طيب الهواء بعيدًا عن رطوبات ألمرية وزنقاتها، فارتج علي الأمر وضاقت بي الأرض؛ فذلك يستلزم ترك الخضراء وما فيها، فإلى أين المفر؟ وم أتكسب بعد اليوم؟ تذكرت بيتنا وأرضنا المهجورين بالحوض، وما أن عرف خالي بالأمر حتى طار إلينا فرحًا، فقد أهديت إليه الفرصة التي طالما حلم بها. جاءني يشكو ضيق الحال ونيته تزويج العيال، وليس لديه مالٌ ليبني دورًا لعياله ولا شوارًا لفاطمة. والحل عنده أن نهدم الخضراء ونبني أربع دور مكانها لي ولأبنائه، وفرنًا في وسطها، ودهليزًا نؤجره لمن يريد من التجار، ورهنَ موافقتَه على زواجي من أمك برضاي بهدم الخضراء.

ولولا ماكان لرويت لك عن منزلة أمك مني، عن علامات الحب مذ كنت طفلا، ولحدثتك عن إدمان النظر، والإقبال بالحديث، واختلاج القلب بين الضلوع لمرأى الحبيب، وبذل ما يعجز القدرة لرضاء المحبوب. وتلك الأخيرة أرقتني لياليَ طوالاً؛ فإما أن أوافق على هدم

الخضراء لأتزوج أمك، أو آأبى على خالي فيقطعني منها، وكنت مازلت أرجو أن تبرأ جدتك ونعود للخضراء مرة أخرى.

ثم استخرت الله وشاورت أمي، فهدانا الله للعودة إلى بيتنا القديم بالحوض وترك المدينة بأسرها، وكنت في تلك الفترة أحاول التطبب لأراعي أمي مع ابن زرقون الطبيب، ووقعت تلك الصنعة في نفسي، غير أن الذهاب للحوض قطعني عنها، ثم يسَّر الله لي إكمالها وكان فيها لذتي وشقوتي، وكل شيء يجري بمقادير الله.

***

هو

لاذت نجوم البطين برداء الشمس الساطعة، نالت ما يكفي من سباب المتطيرين قبل نزول القمر بها؛ فعلى عكس جزيرة العرب حيث تطلع البطين «فيسدد الدين ويظهر الزين» تصحب البطين في الأندلس ريح شرق التفاح، فتتلف الزرع وتعطب السفن. ثلاثة نجوم كالأثافي يضرب بها المثل في تتالي المصائب، وعموم البلوى، لكن لطف الله لم يشأ لهذه الريح أن تصنع شيئًا هذا العام؛ انعقد العنب البكير، ونور الزيتون، وخرجت الشاذانقات البلنسية من بيضها تستشرف العالم الجديد، والنخل يذكّر، والخيل يطلق على الرمك، وتبيض الطواويس. تبسمت السحب من ترقب النجمات، صفقت مرحًا مسقطة مطر النيسان الذي يسكر العجين فيختمر بلا خمير، أما الأثافي فتنفست الصعداء وشرعت تثرثر مع القمر بعد طول صمت وهَمّ، كما الرجال إذا زالت همومهم، خرجوا من كهوف أنفسهم وتباسطوا بعد طول قبض، مقبلين بعد طول جفاء، لكن أنّى للنساء بحكمة كحكمة القمر؛ تترك اللوم والتأنيب وتستمتع بمنزلها منه، قبل أن يحين السير إلى منزل جديد.

***

جلست فاطمة على السرير تحت القبة المنقوشة، زفرت علّها تخرج ما بصدرها من ضيق، لم يفلح قضاء النهار في الشكوى لأمها وجاراتها السابقات في ألمرية، بل زادتها هما على هم؛ فأمها ما لبثت تطلق المثل

وراء المثل استهزاء به وتضحك النساء، فتغضب له وتخشى بلوغ الكلام إلى غرفة أمه المريضة، فتنافح عنه، تخفي أنه لطمها لأول مرة منذ تزوجا، ثم تذكر أنها لم تخرج ما بصدرها بعد، فتعود للشكوى!

كل يوم لا يفتر يذم أباها وإخوتها، يتهم أباها أنه غشه في بيع هدم الخضراء، وكراء الدهليز والفرن، ويرمي إخوتها بالجهالة وقلة العقل. أو يسخر من أمها وأمثالها وفضولها. وهي ما عادت تتحمل أنفة «الأمير». تتحسس بطنها، وتحصي في ذهنها دنانيرهم؛ بالكاد تكفي لقادم الأيام.

ما أكثر إسرافه وتبذيره! لا يكاد يقضي دينًا حتى يغرم نفسه آخر، وأبو إسماعيل اليهودي، جاره في الأرض، يعطيه، وتخشى أن يشتري منه الأرض بثمن بخس ليضمها إلى أرضه الواسعة بالحوض، مستغلا تطير الناس بالسكنى فيها منذ الوباء الفارط.

لاتدري لماذا يتقرب من هذا الخبيث ويصاحبه، ويقبل منه فطيرَ عيد الفصح، ثم هو يأبى أن تنزل عند أمها وتحتفل مع أترابها لأن العيد عيد نصارى وهو بدعة وكفر! ألمرية والأندلس كلها تحتفل بالفصح وتمد الموائد وتضع النسوان الجرار تحت الفرش لتزويج البنات، ويأتي ابن ليلى ليحرمه!

الآن صار كفراً، وهو الذي طالما خرج بعد موت جده يتسكع في الطرقات يوم العيد، ويرمي الخضار والفاكهة على الصبيان والنسوان في الزنقات، ويشرف على الكنائس يسترق النظر للنصرانيات، وكانت الفصح والعنصرة والميلاد أيام سعده!

أما يكفي ما عانته معه الشهر الفارط، لما برّح الناس يحذرون الجراد المنتشر. وأتلف مزروعاتهم، ولما خرجت تساعده بالقرع على الأواني مع الفلاحين نهرها أمامهم. وهي تكتم كل هذا وتغض الطرف عنه، ثم يأتي اليوم ويلطمها، ويغادرها مغاضبًا إلى المدينة عند صاحب الحمام!

تعسًا لك إذن أيها الأمير ناكر الجميل.

***

قطعت أم موسى مدخل البيت جيئة وذهابًا تفكر في شجار ولدها مع زوجته، تسعى كأنها استعادت بعضًا من نشاطها القديم، ثم فترت وآبت إلى خمولها الحادث وجلست على عتبة الباب المشرع تتطلع إلى جواريها. تذكرت أقوال أبيها في وجوه الجواري، تبسمت بزاوية فمها، تلك البسمة التي كان يتبسمها أبوها ولم تدر أكانت شفقة أم ازدراء، أم حياء أم سأمًا من الحياة، ثم كبرت هي في سنين معدوادت خمسة وعشرين عامًا لتصل إلى عمره وتعرف أن هذه البسمة تسع تلك المعاني كلها. كانت مثل أبيها، عندما سئمت من الناس مرضت. سئمت من نساء لا يحفظن معروفًا، ولا يفترن يزلقنها بأبصارهن، ويؤوّلنَ كل كلمة من فيها كبرًا؛ إذا أفصحت كان ذلك كبرًا بعلمها، وإذا جارتهن في اللحن لم تسلم من استهزائهن، وكل إشارة من يدها ترفعًا، وكل سذاجاتها في الحياة مضرب المثل في غفلة أم الأمير زوجة السلطان! رغم كل هذا أحست بالوحشة لما عادت للحوض، ثم استبدلت بتلك النسوة جواريَ جددًا، ثلاث صبايا وياسمين؛ الجارية العجوز، صارت تشكو لهن بفصحى الكتب دون لوم أو تأنيب. تحكي لهن عن حياتها وحوادثها، تبثهن أحزانها ووساوسها.

كانت شابة لما قدمت ألمرية مع زوجها بعد خلعه، كانت قادرة على عمل عشر نساء؛ تطحن وتعجن، وتخبز وتربي وتذبح، رغم البون الشاسع بين حياتها في الحوض وحياتها في الحمراء، لكنها استطابت بعدها عيش المدينة وشراء الدقيق الريون والذبائح من السوق، وكنتها اليوم ليست مثلها. كم تشفق على فاطمة! لم تتزود في بيت أبيها بأي علم أو فضل؛ أطلقها أبوها للحياة كما أطلق إخوتها، وكما انطلق هو مع الدلالين والنجاش والجلاس في السوق والبرطة، فأورثهم خفة عقله، وسعيهم على الزينة والملاهي وعشق الصور؛ فبها يكتسبون المعاني ويحققون السعادة. مصمصت الجواري الثلاث شفاههن أسفًا، ثم تساءلت أم موسى: «لكن أنّى لولدها أن يجاريهم وهو الذي لبث صباه محجورا لا هم له إلا العلم؟»، لكن ياسمين العجوز قالت: «بل ربما العلم مع قلة العمل سواء مع الجهل، فإذا أُطلق الجاهل والمحجور كانت أفعالهما واحدة. غير أن ابنك لم يعشق صور المتاع، بل عشق صور الحياة؛ حيوات عدة يتنقل بينها، كلما أعجبته حياة عاشها، وهو في ذلك يبدل الأثواب على بدنه، لا يقر عليها شيء، ولا يسترها شيء، وبين تبديل ثوب وثوب يكون عريانًا يحتاج لمن يستره من قلة المال وكلام العذّال، وستر خفته ورعونته». أعرضت أم موسى بوجهها ألما من كلام ياسمين، ويحها كيف تقول الحق وهي رفيقتها وكاتمة سرها! هي الباقية معها بينما الجواري يتتابعن عليها كل شهر يجئن ويذهبن، كيف تصرح بما في نفسها ونفس ولدها. فما أشق على النفس من كاتم سر لا يتغافل!

نعم، صدقت العجوز؛ كم سترته! كانت بينه وبين أبيه، تمنعه عنه أن يهتك بسذاجة الأطفال أحزان سلطانهما المنكوب، وتمنع السلطان أن يرمي طفلا، لم يع بعد، بالجحود، ثم كانت بينه وبين جده تمنعه عنه أن يتبرمك بنزق الشباب على كبيرهما في شيخوخته ومرضه؛ فليس أشق من محاجة شيخ في عقله، ثم كانت بينه وبين خاله تمنعه أن يتكبر بعلمه، وتمنع عنه عذل خاله كلما ترك صنعة خرج خالي الوفاض منها، فلا هو أحكم العلم ولا الخط ولا الطب ولا الفلاحة، بل نال من كل صنعة حظ البيْن بين.

لكن أليس ذلك هو حظها أيضًا؟ لم تبق زوجة السلطان، ولم تصر كزوجة أخيها، كأنها وولدها كُتب عليهما حظ البين بين طول عمرهما.

حاولت ياسمين أن تسرّي عنها، صفقت للجواري أن يغنين، فأنشدن شعرًا لابن زيدون، مالت أم موسى برأسها يمنة ويسرة، طردت من جوفها الخطرات والظنون، ولما هدأ روعها قامت عائدة للدار تفكر في صلح ابنها على زوجته، وقبل أن تغلق بابها المشرع على الدنيا، ألقت السلام على صاحباتها؛ شجرة ياسمين عجوز، وثلاث نجمات كالأثافي في السماء.

❋❋❋

شلح موسى ثيابه وعلقها، تبسم لحامد، القيم على الثياب وحافظ أغراض أهل الحمام، ونفحه درهمًا. ناوله القيم المئزر ليلبسه. غادر المشلح إلى الغرفة الباردة وجلس على حافة الحوض ودلى رجله. شعر

لوهلة بالوحشة وسط الأعمدة والعقود المحيطة بالحوض، والظلال المتراقصة على ضوء القناديل المتشرة حوله في كوات الجدران. رمق القمريات في السقف المقبى، مط شفيته في أسى؛ ليست في بهاء الحمراء. تريده فاطمة أن ينسى ما كان، وهل يقدر؟

منذ حجبه جده وهو يبحث عن نفسه، عن الأمير ساكن الحمراء ابن سلطان وأخي سلطان. واليوم هو ساكن الخضراء، واحة وسط صحراء العوام والسوقة. فكر أن يرسل لأي من أخويه ليلحق بأي منهما، لكن ما أدراه ما يفعلان به إن تغلب أحدهما على الآخر، أو حتى ما يفعلان إذا وشى به واش، أو دبر له حاسدٌ يروم قتله. لم ينس فزعه لما بلغه خبر أبي عبد الله مع المطّرف؛ داعيته الذي جلب له كل الأمراء والقادة النافرين من أبي الحسن، خرج الزغل عنهم ذات يوم من القصبة زاعمًا تفقد الرعية، ثم ضرب عليهم الحصار وفتك بهم! قد أغراه أبو الحسن بالأمان وبسط سلطانه على أكثر مما يطمع، على أن يفتك بهؤلاء المتنزين الذين أطالوا الحرب بينهما، فأظهر الزغل الندم وصالح أخاه، ولازال كلٌ منهما ينتظر من أخيه خنجرًا غادرًا أو سمًا موديًا.

عزى موسى نفسه في حجابه أنه ازدان بالعلم والحكمة، ومهد الطريق أمامه ليتصدر المجالس وتلتف حوله الحلقات في قادم الأيام، لكن موت الجد قطع عنهم كل نفقة، وصار عليه أن يعمل بعد أن قسم ميراث جده وأعطاه خاله بدل ميراث أمه من العقار والأرض مالاً سرعان ما أتلفه.

كان العلم يستلزم الرحلة، والمشقة وحرمان النفس من اللذة، لكن موسى استوحش الطريق وفرح بما جاد به النسخ من أموال. ثم مالبث أن

نافسه المنافسون وقلدوه، وصار لهم عند السراة مثل سهمه، حتى مرضت أمه ووجب عليه الرحيل. واليوم صاحب أرض تعصف بها الديون كعصف ريح شرق التفاح، ومعها حوائج فاطمة التي دللها أبوها وبخل على سائر الناس ليحمله مالا يطيق، وفوق ذلك مرض أمه وما اعتادت عليه من أطايب الطعام والشراب وأسفها مثله لعز ذاهبٍ ومقام لم يعد، والناعورة المكسورة، التي كانت تروي الأرض، تمدّ فيض البلاء، فإذا أغلق عليه باب الصمت منشغلا بتلك الهموم، ملأت فاطمة رأسه بثرثرتها وترهاتها، ولما ضاقت بصمته، أرادت تركه والذهاب للعيد!

مد كفيه في الماء ومسح وجهه. هتف بالحمامي أبي المحارب أن يسرع.

- «الصبر يا مولاي باش أجيب الأغراض، أين الصابون والدهن، قاتلك الله يا حامد اللكع! تتركني وتخرج للفحص ترقص».

الكل بالخارج يحتفلون بالعيد، ولولا صحبته لأبي المحارب، لتركَه أبو المحارب كذلك وخرج يحتفل في الفحص ويرقص مع الراقصين حول الموائد العامرة، هاهو وحيد الآن مثلها، علها تكف عن التأنيب. أغمض عينيه وأشاح بوجهه لما تذكر شجارهما. تعرف بغضه لأهلها؛ لأبيها وما كان بينهما، لعمرو الجهول الذي لمزه بأنه صار من أهل البراري، وأمها التي سمعها تقول عنه «وزير بقرارط». لا يطيق غير هشام كثير الأسفار، وعبد الملك الذي يذكره بنفسه قبل الزواج بإقباله على العلم واللهو في آن. لا يمنع فاطمة من زيارتهم ولا يمنعهم من

زيارتها، فمابالها تحمله على مجالستهم والمزاح معهم! ترميه بالظلم وسوء الظن، وهي لا تفتأ ترمي أبا إسماعيل اليهودي بالباطل، رغم بر الرجل وإحسانه إليه وتقريبه إياه، ثم تنطلق إلى أهلها تشكوه وتعرض به. ألا قاتل الله النساء!

في مجالسهن تباري فاطمة العجائز في الفضول واللكاعة، وبين الرجال تسلك مسلك الأطفال في السذاجة والوداعة؛ فعندما نزل الجراد بالبلد خرجت وسط الأحداث والفلاحين تقرع آنية لتفزع الجراد إلى الخندق لحرقهم. دبت على الأرض بخلخالها وتوثبت مرددة:

«الأرض كـــانت جنة   فـــالآن ترمى بالشـــرر
بالليل يكفـــر بالنبـــا ت   فـــإن بدا فـــجـــر فـجـــر
لما استـمـر على الفســاد   بقـــتله أمـــر صـــدر
دقـــوا الطبـــول لرقـــصه   بالزرع لما أن زمـــــر
وأتت بأجـمـعـهـا زبانيـة   العـــذاب إلى ســقـــر
وتتـبـعـــوا آثاره حـــتى   خـــفي ذاك الأثـر»

ضحك موسى رغمًا عنه ورجلاه تنثران الماء على لحن الشعر الموهوم. زجر نفسه وقطب جبينه صارفًا بسمته؛ أما لها أن تكبر وتكف عن التصاغر فتشمت به الفلاحين الأجلاف. رآهم يزلقونها بأبصارهم، يتهمونه بالعجز وقلة الحيلة أن تعينه امرأته وهو السيد صاحب القرارط!

نادى مجدداً على أبي المحارب، واستلقى على حافة الحوض وذهنه لا يتوقف عن التفكير.

***

في المطبخ قطعت الفلفل بالسكين على الصحن، ثم قامت لتأتي بصحنها الزهري. لم تجده؛ كان على المائدة يرمقها متعجبًا. تنهدت في ضيق لشتات عقلها وجلست. لماذا تنسى يا موسى ما فات؟ لماذا تغلظ عليها وأنت كل ما ترجوه؟ تراه نسي نظراتها إليه من بين فرجات الحياء، اضطرابها يوم لمس يديها عرضًا عند رفع الكانون بعد الشتاء، وورود الياسمين مشدودة إلى قضبانها أشعار الغزل.

لقد غفرت له ما في حياته من لعب ولهو، تركت المدينة بأسرها لتعيش معه تخدمه وتعود أمه في هذه البراري خارج الأسوار، لكنه لا يقدّر هذا.

وكلما رأته مهمومًا وأرادت أن تسري عنه نهرها كاليوم؛ يوم العيد.

كم أنت قاس أيها الحبيب، تتداعى على رأسها أمثال أمها، وتعريض أبيها، وسباب عمرو. تختنق العبرات في عينيها، ثم تنحدر على الوجنتين.

تحاول طرد تلك الوساوس بسالف الذكرى، يوم حل عليها وأمه في المطبخ ورفع إناء الشراب إلى فيه، قالت أمه مازحة، وهي تعلم أنفته؛ أن فاطمة شربت من الإناء، رمقت يده التي سكنت بالإناء، ثم شعرت بالظفر حين جرعه مرة واحدة عله يلحق بما علق بالشراب من عسل!

ألقت السكين ألما وامتصت دماء أصبعها. كادت تلعنه على جرحها، غير أن قلبها فضل أن يسكر بخمر الذكرى.

جاءتها أم موسى وصرفتها لغرفتها بقبلة حانية، كم تحب فاطمة عمتها وتعشقها، كأنها مؤنث ابنها، غير أن فيها من الإشفاق واللين ما يسع حتى الجمادات. وهي تشفق على عمتها وترق لها؛ تعجب منها أن تلتذ بعلة صدرها وأحزانها، كأن عمتها تقيم صلبها من الغم والشقاء وسعال يشرخ الصدور والآذان، تسجن نفسها في ذكرى أبيها وزوجها، تهمل عافيتها وتعكف على الطعام والشراب حتى صارت مشيتها كتهادي هودج يوم عرس. تصبح وتمسي مشغولة الذهن بموسى وهو وحيدها، وأم فاطمة خالية البال من جيش الأبناء والأحفاد، بل خالية البال من كل أمر، لا تهتم إلا لطعامها وشرابها وأمثالها ومجالسة الجارات، فكأن أم فاطمة وهي أسنّ من أم موسى صبية إذا وقفت جوارها. تفكرت فاطمة فيما بين أمها وعمتها من اتصال وانفصال، ترى إذا تقدم العمر وشاخت إلى أي المرأتين تصير؟ صعدت الدرج هاربة من أفكار الشيوخ إلى حاضر الشباب، طارت على الدرج فتذكرت يوم رفرفت بين جناحي موسى؛ يوم حملها ودار في البيت كالمجاذيب أصحاب الرايات التائهين في الطرقات.

لولا أن تأتي فتعتذر يا موسى!

❊❊❊

انهمك أبو المحارب الحمَّاميّ في تدليك موسى. حكى له، وهو يعتصر جسده بأصابعه، حكاية من حكاياته مفرجًا هم صاحبه. قال من

بين أسنانه: «وكذا يا سيدي، همَّ الفتى بالخروج من بيته بالليل، فقالت لُ أمه يا ولدي السلطان برّح في قرطبة اللي يلقها بالليل راح يغنيه عن راسه، فلم يسمع الفتى الكلام وخرج. حتى إذا وصل لحمام خربة غلبه النوم، وقال: أنا في ضيافتكم يا أصحاب الحمام. ولما جا جماعة من الجن من بغداد للحمام ولقوا الفتى قالو لأمير الجن..».

ذهب ضوء سراج من السرج فجأة، أجفل أبو المحارب، وضحك موسى ملء فيه وارتج جسده وقال مستلقيًا على بطنه بين يدي أبي المحارب يغسله: "قم يا بلمحارب أمير الجن وصل!» جاوبه أبو المحارب في الضحك، وواصل تدليكه وتليين أوصاله.

ظل موسى مبتسمًا بادي النواجذ وأبو المحارب يواصل حكايته، حتى يصل الفتى محمولا مع أمير الجن للعرس في بغداد، فيتركونه عند بنت السلطان في سريرها، فلما رأته نائمًا أكبرته، وأوقظته. دعته إلى نفسها وقالت له «يا عبد الله علي بحسنك وجمالك، ولا نريد أن يتمتع بحسني وجمالي في هذه الليلة إلا أنت، ونفك ختام مختوم»، فقال: «معاذ الله أن أجامعك في الحرام، إلا بمهر وفريضة وسنة النبي ﷺ».

جاء عند ذكر الختم ففترت بسمته وتذكر ليلته الأولى؛ يوم تدثرت به، واستدفأ بها. شعر فجأة بالشوق إليها، لكن كيف يمحو عار لطمته، إن فعل زادت في عنادها، وعايرته كلما ثار نزاع.

لولا أن تنسي هذا اليوم يا فاطمة!

***

انتبهت فاطمة في الثلث الأخير من الليل، تناهى إلى مسامعها صوت خطواته. سمعت من وراء الباب نداه. افتعلت جلبة ليعرف أنها استيقظت. سمعت اعتذاراته، شرعت الباب عاقدة ذراعيها. ثم شرعتهما لما دخل مطرقا رأسه في اعتذار، وبين يديه سراج منير سرعان ما خجل من سنا نورها، وخبا بين يديها.

***

تناولت أم موسى عقارها السرمدي، سعلت، ثم جلست على فراشها، ولما سمعت أصوات الوصل من فوقها تمددت، وباتت تجتر حكايات الماضي حتى الصباح.

***

حكايات موسى وفاطمة

أنت

تثاءب الوزير ابن لبابة متعبًا. طلب قسطًا من الراحة فنهره قلب الدين الملك. يالعجلة هذا الملك وغفلته! منذ وصل قلبك سن الشباب وعرف حساب الدرهم والدينار، وهو لا يفتأ كل ساعة يحسب أرباحه وخسائره. وكأنك في فترة الغنى عن الناس في حجر جدك، لم تتهمم إلا بشهواتك، متأرجحًا بين لذة اجتراح الإثم، وعذاب الندم عليه، عاش مليكك مهمومًا بنفسه؛ بدخان الشيطان الصاعد في سماء مملكته ينكت في ثوب الملك نكاتا سودًا، بأرباض شهواته الرائحة والغادية عليه تصرف إرادته إلى حيث تشتهي، والوزير في كل هذا أحقر من أحقر غلام لا يوثق برأيه، ولا يلقى بال إلى معارفه؛ بل هو خادم مطيع يضع علمه بين يدي رغبات مليكه المحمومة المستبدة بإرادته. يصرّف عرفاء الأطراف إلى ما فيه سترك من العيون، يختلق لك الحجج والأكاذيب تلقي بها إلى أمك، وفاطمة تبرر فعالك، يدون الشعر والنثر لزوم الغزل والمراودة. لعلك لم تنس قصيدة دونها لك الوزير كان مطلعها:

مساك بحق عيساكِ　　مريحة قلبي الشاكي
فإن الحسن قد ولا　　ك إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبانِ　　ورهبانٍ ونُسَّاكِ
ولم آت الكنائس　　هوى فيهن لولاكِ

تحفظ هذه الأبيات من أيام التسكع أيام الكنائس في الأعياد، أو مع خرجيرات الفنادق من النصرانيات، ولو كانت يهودية، لبدلت موساك بعيساك، أما المسلمة فكنت تنأى عنها بتقواك وورعك، وتطغى عليك عندئذ عفتك!

كانت تطغى عليك في كل حين مع فاطمة في أقل حركة أو سكنة، تخشى أن يكون الوصل بينكما جُنُبًا يستنزل اللعنات حتى يغسل بالطهور. لما لمستها عرضًا عند رفع الكانون، رأيت اضطرابها وفرحة أخفتها. أقلقك ذلك وساورتك الشكوك، ثم لعنت روحك أن أفسدتك نجاستك. خشيت أن تسلك فاطمة مسلكك وكما تدين تدان.

تحاور الملك مع أبي الضمير مرارًا، وأبو الضمير لائما عاتبا يقظا، حارا كالشهوات، لكنه لا يلقى تأييد الملك، إلا في لحظات الندم. ثم خرجت من حجر جدك في الخضراء، تهممت بالرزق، ويوم أفنيت مالك من ميراث أمك، صرف مليكك شهواته إلى حين، أغلق دونها الباب، ومع إفراغ كيسك من المال صار صدرك خاويًا من الرغبات والشهوات؛ فكيف تتحصل على اللذة وأنت خالي الوفاض صفر اليدين من المال. جلس مليكك يومها نادمًا يموت كمدًا، وأبو الضمير يسلقه بلسان الحديد، يومها جلس الوزير متبطلا، سئما لعله ينتظر أمرا جديدا بحيلة أو مراودة، لكن وياللعجب علم مليكك أن ابن لبابة يحسن التفكير والتدبير، وأنه يجدر طلب مشورته في كل حين! يحسب نفقة تجارة أو عمل، ثم يحسب لما يجب إنفاقه على أمك أو فاطمة، أو تسديد بعض دينك أو إصلاح أرضك، حتى إذا رأيت ثوبًا أو فرسًا في السوق

اشتريته بكل ما معك من مال أو دعاك داعي الدعة والخمول فقصرت عن العمل والجهد، لتضيع كل أعمال الحساب تلك سدى. وما أن تنفرج الحياة قليلا حتى يركل الملك وزيره إلى سابق ذله ويدعو أرباض الشهوات ليدخلوا قصره!

ثم عشق الملك الصنائع التي تنقلت بينها وصورها على صورة الرجال، كما عشق صور النساء، وغلبت شهوة اللسان والمتاع شهوة الفرج، عشق الخط في صورة سليمان لناسخ وأقلامه، والعلم في صورة ابن عاصم الليثي المحدث ودفاتره ووجهة الملطخ بحبر أغلاطه، وعشق الطب في صورة ابن زرقون ومباضعه، وعشق صاحب القراريط في صورة أبي إسماعيل اليهودي وسوطه الذي يؤدب به غلمانه، وانطبعت صورة كل منهم على راية مخصوصة لكل صنف من العمل، وكلما تنقل بين صنعة يدخل ربض العُجب مزهوا إلى قصره، والوزير ابن لبابة لاهثا كالثور مربوطًا في الساقية يكتسب المعارف من كل صنعة على عجل، لا بالقدر الذي يحققك بمعانيها، بل بالقدر الذي يصدّرك فيه بالمجالس.

ففي البدء يأمر الملك بدخول صنعة غير عارف بانعدام قدرته على تحصيلها، فإذا وعى ذلك، علم أن لاكتساب الصنعة طرقًا ودروبًا، فصار عالما بانعدام قدرته، ثم بعد الدربة والائتلاف، علم الملك بقدرته على الصنعة بل البروز فيها بعد الكد والبذل، وابن لبابة آملا في الاستقرار على عمل حتى يتقنه ويفرغ له جهده، ثم يسأم الملك وتفتر همته، وتغريه صورة جديدة من العمل فيأمر وزيره بالتحول إلى صنعة جديدة، وسأم جديد!

وأبو الضمير لا يلقي بالاً لترهات الكسب والرزق تلك، جل ما نصح به الملك أن لا يسرف في حوز المتاع، كان يهتم بصدك أكثر عن فتن النساء ونزعات العُجب والخيلاء، حتى علم أن في الأموال فتَنًا، وأن الهم بالرزق وخوف الفقر يُكسب من الشؤم والكآبة ما يضعَف إرادة الملك ويسيء ظنه بالله، فتتلاعبَ به رغباته وخطراته، ويضحى أسيرًا لدخان الشيطان.

صاح ربض اللوم مذكرًا الملك الناسي: «لماذالم تخبر ولدك عن أخبث الحيل والأسرار؛ عما أودعت في كتب كبير التجار؟ هل نسيتها كما نسيت اسمه؟ أكنت كاتبًا غافلا لا تدري ما أملاه عليك من لسان التجار وألاعيبهم؛ تلك التي ذممتها واحدة واحدة لولدك! أم لم تنزل بك مصيبة يومئذ تشعرك بالحاجة إلى الله، ليدخل عليك ربض اللعن يرتدي السواد يدعوك للتوبة؟».

-«تستر عن ولدك عيوب الصبا وآثام الشباب، ثم تذكرها له في عجالة الحكيم المعتبر من الأيام؟ أتدري يا ابن الأحمر.. يأيها الملك الثاوي على عرشه: ربما لم تكن نكبتك غضبًا من الله عليك، أو إشارة منه لتتضرع إليه. ربما كان جزاءً وفاقًا لما فعلت فحسب، وفي الحياة التي لم تتهمم بسواها؛ العاجلة».

***

الفصل الخامس

مارية

أنا

ذكر موت أمي رحمها الله:

وبعد مقامنا بضعة أشهر في الحوض، توفيت أمي رحمها الله بُعَيد عيد الفصح. وجدناها ميتة في فراشها، يغشى وجهها السكينة، وتفوح من يديها رائحة الياسمين، فاعتبرناها بشارة خير على حسن الختام.

وكانت رحمها الله كريمة النفس. مستغنية بنفسها عن الناس، متعففة عن سؤالنا لقضاء حاجاتها رغم اشتداد علتها. كثيرًا ما آثرتني وأمك على نفسها، وأنفقت إرثها على حاجاتنا وملاهينا، ولما قصرت نفقتها عن الحج، كتمت دموعها وقالت يكفيني الدعاء، وأرسلت مع الحجيج رسالة إلى النبي ﷺ تبثه شوقها إلى زيارته والحج إلى بيت الله الحرام، وتلك عادة أهل الجزيرة لمن حبسه حابس عن الحج لا يكتبها إلا من قصرت به النفقة وأيقن دنو الأجل واستحالة السفر وقد أملت على رسلتها فانقطع عنها داء صدرها في تلك المدة وتلك بركة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وقد روى لي من لا أتهم أنه لما زار قبر النبي ﷺ وجد رسائل أهل الجزيرة معلقة بالقبر لا يمسها أحد بسوء. وأردت أن أسافر إلى مكة وأجاور لأحج عني وعنها، لكن حدث ما تعلم، ولما توفرت النفقة أحاط بنا النصارى في البر وقطعوا علينا البحر، ولله عاقبة الأمور.

وأحسبها ماتت راضية عني، رحمها الله، فما نمت يومًا حتى جثوت جوار فراشها وقبلت يديها ورجليها، ولم أتركها حتى تدعو لي، فتدعو أن يمتعني الله بالرزق والعافية، ثم تردف بالدعاء لأمك وأخوالك

وجدك، فكنت أغبطهم أن تدعوَ لهم في فرشهم وأنا الجاثي جوارها، فتضحك وتضمني إلى صدرها. وكلما تذكرتها خاليًا استعبرت، وما يزاحمها على خلوتي إلا رؤياك يوم الفراق.

كذا كنت لأمي، وكذا كن لأمك، ولعل الله يجمع شملنا فأصيب شيئًا من برك.

ذكر أبي إسماعيل اليهودي:

بقيت أياما معتزلا عن الناس. اختليت بنفسي في غرفتي وأغلقت بابي. وفد على بيتي رجال كثر لمؤاساتي وقضاء حوائجي، منهم جاري في الحوض أبو إسماعيل اليهودي، وكنت قد غفلت عن ذكره لك. كان أبو إسماعيل طبيبًا شاعرًا مكرمًا عند بني جلدته، عالما بشريعتهم ولسانهم، وكان من الشيوخ السبعة الذين ترجع إليهم اليهود في ألمرية، معظمًا عند أهل ألمرية كلها لا يقصدون غيره في المارستان حتى النساء، ولما اشتد المحتسب على اليهود في لبس الغفارة الصفراء وشد الزنار[1]، أبى أبو إسماعيل عليه، وخرج راكبًا معممًا عليه جبة خضراء نكاية في المحتسب، فأخذ المحتسب بعنان فرسه واشتد عليه، فنهاه الوالي لمنزلة أبي إسماعيل عنده ومعرفته بمكانته بين قومه من اليهود. غير أنه مالبث أن حدثت الوحشة بينه وبين قومه، فتركهم وترك البلد كلها، والتجأ إلى الحوض مع أزواجه وابنته. وسبب ذلك أن واعظًا من وعاظهم، يدعونه الحزَّان؛ عشق ابنته، وكانت جميلة ذات عقل راجح، فضنَّ بها أبوها على هذا الحزَّان الفقير، فحقد عليه الحزَّان وسرَّها في نفسه، حتى إذا تقرب من قاضي اليهود في ألمرية أبي

(١) حزام يُشد على الوسط كان يميز أهل الذمة.

الوليد بن مروان، وأصبحت له حظوة عنده؛ اتهم أبا إسماعيل أنه أبى عليه أن يزوجه ابنته لا لفقره، بل لأنه من القرائين، وهي من الفرق المبتدعة عندهم، وكان القاضي أبو الوليد ينقم على أبي إسماعيل كذلك أنه لم يزوجه ابنته؛ لأن القاضي كانت له زوجة وعُرف بغلظته مع النساء ككل غلاة اليهود، فحتى ذوو اليسار منهم كان يحجب نساءه عن الناس ويمنعنهن من العلم، ويجبروهن على خدمتهم بأنفسهن مهما كان عندهم من الغلمان والجواري؛ ذلك أن بطالة النساء عندهم تؤدي إلى الفساد.

أما بنت أبي إسماعيل فكانت قرة عين أبيها وأحب الناس إليه. لم يرزق بغيرها من أزواجه، فعني بتعليمها وتأديبها حتى صارت آية في الجمال والكمال، ولها أشعار رواها لي أبوها؛ فذات يوم دخل عليها وقال أجيزي:

لي صاحب ذو مهجة قد قابلت نعمى بظلم واستحلت جرمها

قالت:

كالشمس فيها البدر يقبس نوره أبدًا ويكسف بعد ذلك جرمها

فقام مختبلا وقبل رأسها وقال: «أنت والعَشْر كلمات أشعر مني!».

غاية القول أنه لما شنَّع عليه الحزان والقاضي واتهماه بالكفر، وأراد الأخير سجنه في سجن اليهود وحرمانه. استنجد أبو إسماعيل بوالي ألمرية وبشيخ الطائفة، وكادت تقع الفتنة بين اليهود بين مناصر لأبي الوليد ومناصر لأبي إسماعيل، فأمر شيخ الطائفة أن يرحل أبو إسماعيل عن ألمرية؛ فأرضى أبا الوليد أن أبعد غريمه عن المدينة، وحفظ

لأبي إسماعيل مكانته أن أبقاه في الأندلس، فخرج بمتاعه من جماعة اليهود، ويدعونها القاهال في لسانهم؛ وابتنى داراً بالحوض الغربي بالقرب من ألمرية نكاية في قومه، واشترى أرضًا حوله وأصلحها وجلب لها الماء الجاري وأقام عليها النواعير، وأوقفها على ابنته وعقبها نكاية في جماعته؛ لأن اليهود تورث الابن الأكبر ولا تورث النساء، فلما عدت إلى دار أبي وجدته جارا لي فتزاورنا وتوثقت العلائق بيننا. جمعتنا الوحشة بعيداً عن البلد، وهي على مرمى حجر منا؛ فدوني الأرض والأهل وما يحتاجه المقام في المدينة من النفقة، ودونه الشقاق بينه وبين قومه.

ذكر تعلمي الطب:

وذات مرة كنت جالسًا معه نتذاكر أحوال الأرض والبيت، وأخبار الفلاحين ونوادرهم، ونبني في أذهاننا الصوامع الجديدة وأبراج الحمام، ونمتحن الأرض من حولنا لإصلاحها؛ فبعدما قطع النصارى عنا البحر احتاج الناس إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها، وذلك بمواد من التزبيل وغيرها، وجُعل ذلك في السعر، فعم الغلاء، وربت الأموال وإن ربت معها ديون أبيك!

حدثني في ذلك المجلس عن الطب والمارستان ونوادره مع المرضى، فداعبته أن يعلمني وذكرت له بداية طلبي للصنعة على يد ابن زرقون الطبيب، ثم توقفي لرحيلي للحوض، فأخذ الدعابة على محمل الجد، وليته لم يفعل!

بدأ معي بفصول أبقراط الذي بدأه بقوله : العمر قصير والصناعة طويلة، والوقت ضيق والتجربة خطر، والقضاء عسر.

وبيان ذلك أن عمر المرء قصير على تعلم الصناعة وحذقها؛ لأنها تتغير بتفنن تغيرات أبداننا، والتجربة في المرض خطر لأن خطأها يفسد أبدان المرضى؛ لذلك لا يجوز أن يعالج الأطباء أمراض السوء لئلا يقال عنهم أطباء سوء. أما القضاء فهو القياس، أي أن تحكم على المريض أيؤول حاله إلى الصحة أو إلى العطب قياسًا، وهو عسر، ولا بد من الحكم عن تجربة، وهي خطر! وذلك الفصل عمدة الصناعة، فافهم.

فائدة:

ومن عادات الناس الانصراف عن الطب والأطباء إلا لعلة، وذلك مذهب خالي وأبنائه وهذا خطأ؛ فإن معالجة الصحيح في المأكل والمشرب أخف من معالجة السقيم، ولأبقراط الحكيم رسالة في ترغيب الطب قال فيها: «اعلموا رحمكم الله أن ثلاثة أشياء تنقص من عمر الإنسان: دخول الحمام على شبع، والجماع على امتلاء، وكثرة أكل القديد، فلا تأكلن إلا لحم شاة، وتطأن من النساء إلا شابة، وإذا تغذيت فتمَدَّ واستلق ولو على الأسنة، وإذا تعشيت فامش ولو على الجمرة».

ذكر حال العلاج والمرض:

والحرب بين المرض والعلاج دائرة ما دامت صنعة الطب، ساحتها البدن، وسلاح الطبيب فيها الدواء والغذاء، وغايته إعانة الطبيعة على استفراغ المرض من البدن من المواضع التي هي إليها أميل، بالأعضاء التي تصلح لاستفراغها.

فمادة الغثيان تستفرغ بالقيء، والرمل بالإدرار، والمغص بالإسهال، وإنما كان كذلك لأن استفراغ المواد من الجهة التي إليها أميل، وأقل كلفة على الطبيعة، لأن المواد تكون بالطبع متحركة إلى حيث توجه بالدواء.

وشبهها المتقدمون بالشطرنج، فقالوا هي اللعب على رقعة البدن بالأعضاء والأدواء، وخير الشطرنجيين من غلب خصمه وأخرجه من الرقعة دون خسارة مليكه أو وزيره أو فيله وسائر القطع الشريفة، وكذا الطبيب الماهر يستفرغ المرض من البدن دون تضرر عضو رئيسكمثل ميل الصفراء في الحمى إلى الدماغ، فتمنع من ميلها بالحقن والإسهال، ولا يطلب استفراغها بالترعيف[1] والتعطيس لئلا يتضرر الدماغ.

ودون تضرر عضو شريف، فلو مالت نزلات الرأس إلى جهة الصدر، جذبناها من الأنف ولا نطلب استفراغها بالتنفيث، خوفا من تضرر الرئة، ودون تضرر عضو قوي الحس، فلو مالت مواد الرأس إلى العينين جذبناها إلى النقرة بالمحاجم وغيرها، ولا نطلب استفراغها بالدموع خوفا على العينين.

والمداواة يا بني تبدأ بالغذاء، ثم بالدواء المفرد فالدواء المركب، كالشطرنجي يبدر خصمه بالبيادق فالفرزان فالأفيال وهلم جرا، وقد رأينا ما يعمله العطارون من غش الناس وخداعهم، فينفقون على أحداث الأطباء ويقاسمونهم أرزاقهم إذا وصفوا للناس دواء لا يشترى إلا من عند أولئك العطارين، ولهم في أسماء الأعشاب والأدوية مذاهب وحيل لا تخلو من سوء طوية وتدليس على العوام.

---

(١) إخراج الدم من الأنف.

ويروى أن المأمون أراد امتحان العطارين في بغداد، فأرسل غلامًا لكل عطار يسأله عن الشقطيثا، وهي ضيعة قريبة من بغداد، فجاءه غلمانه بحجر وعشب ووبر كل يدعي أنها الشقطيثا!

فهذه كلها فوائد أسوقها لك لئلا يخدعك طبيب أو حجام جهول أو خبيث النفس، فاعمل بذلك وفقك الله.

ذكر بعض ما درسته على يد أبي إسماعيل:

ومن جملة ما درسته على يد أبي إسماعيل كُنَّاشه الذي كتب فيه مجرباته وقد دون على حاشيته أرجوزة ابن طفيل، وهي أرجوزة ماتعة جامعة لكثير من العلل وأدوائها، يقول فيها:

الجسم مخلوق من الأمشاج ... مختلفات اللون والمزاج

من بلغم ومرة صفراء ... ومن دم ومرة سوداء

وأخذت عن أبي إسماعيل فنون الطب كلها، حتى جرد الأسنان وقلعها، وربط الأسنان المقلقلة بشريط الذهب، وقدح العين وسائر أعمال الكحالة، وجبر الكسور وفصد العروق، وكنت أداوي معه الفلاحين وأهل البراري فأتقنت الصنعة لذلك وحذقتها، وعرفت حينئذ لذة خالد بن يزيد الأموي لما ترك الإمارة وطلب الكيمياء؛ فللعلم لذة الاستغناء بالنفس والترفع عن الشهوات والملاهي، والبعد عن ذوي الجاه والسلطان لاسيما الظلمة منهم، فإنهم لا يتركون طبيبًا زُين لهم إلا اختصوه لأنفسهم، وإذا نصحهم الطبيب على المائدة ألا يسرفوا في مأكلهم ومشربهم، قالوا «علينا الإفساد، وعليك الإصلاح»، وإذا اعتل

الملوك رجوا البرء في الساعة دون النظر للمرض أحاد هو أم مزمن، ويتحرون امتحان الطبيب في المعجز من المسائل، والويل لمن لا يحضر ذهنه وتبخل قريحته بطرائف الأجوبة ونوادر الحكايات، فإذا ما سئموه ساموه سوء العذاب، ومن ذلك قصة إسحق بن عمران مع زيادة الله بن الأغلب.

ذكر قصة إسحق بن عمران:

وهو مسلم النحلة وكان بغدادي الأصل، ودخل أفريقية في دولة زيادة الله بن الأغلب التميمي، وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة وكان طبيبًا حاذقًا متميزًا بتأليف الأدوية المركبة، بصيرًا بتفرقة العلل، أشبهَ الأوائل في علمه وجودة قريحته. ودارت له مع زيادة الله بن الأغلب محنة أوجبت الوجدة بينهما حتى صلبَه ابن الأغلب؛ وكان إسحق قد استأذنه في الانصراف إلى بغداد فلم يأذن له، وكان إسحق يشاهد أكل ابن الأغلب فيقول له كُل هذا ودع هذا حتى ورد على ابن الأغلب حدثٌ يهودي أندلسي، فاستقربه ابن الأغلب وفضله على ابن عمران لما كان يسهل عليه طعامه، فكان إسحق إذا قال له اترك هذا هونّها عليه اليهودي، وكان بابن الأغلب علة النسمة وهي ضيق النفس فجي إليه يوما بلبن مريبا فهمً بأكله، فنهاه إسحق وسهل عليه اليهودي فوافقه بالأكل. فعرض لابن الأغلب في الليل ضيق النفس حتى أشرف على الهلاك، فأرسل إلى إسحق وقيل له هل عندك من علاج، فقال قد نهيته فلم يقبل مني ليس عندي علاج، فقيل لإسحاق هذه خمسمائة

مثقال وعالج، فأبى حتى بلغ إلى ألف مثقال فأخذها، وأمر بإحضار الثلج، وأمر ابن الأغلب بالأكل منه حتى تملأ، ثم قيأه فخرج جميع اللبن قد تجبن ببرد الثلج، فقال إسحق أيها الأمير لو دخل هذا اللبن إلى أنابيب رئتك ولجَّ فيه أهلكك بضيقة النفس، ولكني أجهدته وأخرجته قبل وصوله، ثم جحد ابن الأغلب فضل ابن عمران عليه وأمر بقطع رزقه، فلما قطع عنه الرزق خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان، ووضع هنالك كرسيًا ودواة وقراطيسَ فكان يكتب الصفات كل يوم بدنانير، فازداد حنق ابن الأغلب عليه من محبة الناس له، فأمر بفصده في ذراعيه جميعًا وسال دمه حتى مات، ثم أمر به فصُلب، ومكث مصلوبًا زمانًا طويلا حتى عشش في جوفه طائر. وكان مما قاله ابن عمران لابن الأغلب لما أشرف على الموت والله إنك لتدعى بسيد العرب وما أنت لها بسيد ولقد سقيتك منذ دهر دواء ليفعلن في عقلك، وجُنَّ ابن الأغلب من هذا الدواء في آخر حياته ومات به.

ذكر ذهابي للمارستان:

وتاقت نفسي إلى الذهاب للمارستان وأخذ العلم عن غير أبي إسماعيل، فغشيت مجلس ابن زرقون الذي تقدم ذكره، وهو شيخ الأطباء في ألمرية، قد بلغ يومها الثمانين من عمره، وهو ممن شهدوا الوباء الفارط، وكان له مجلس في المارستان يعلِّم فيه الطب، ويقرأ عليه الطلاب ويحاورونه، ثم يطوف بهم في أروقة المارستان بين فُرُش المرضى يفسر لهم العلل وأدواءها، ويدون ذلك في كُنَّاش مجرباته، ثم يأتي

المطبخ، فيريهم كيف يطبخون الأغذية والأشربة وأي تدبير يصلح لأي مرض ولأي مريض، ويريهم كيف تركب المعاجين والأكحال، ولما كف بصره رحمه الله كان يحكم على المريض من هيئة بوله كما يصفها له طلابه، فكان يستغني بذلك عن بصره، وهي ملكة لا تكون إلا للحذاق من الأطباء. وجل من يزعم لنفسه أنه يعرف العلل من صفة البول دون النظر إلى ما أكل المريض وشرب، وإلى سهره ونومه وأوجاعه، فذلك مخرق جاهل فاسد الرأي، ولا يخلو منهم زمان يدلسون على العامة ويزرون بصنعة الطب وأهلها.

ذكر عودتي لألمرية:

لزمت المارستان كما ذكرت لك، ونزلت مع أمك بدارنا التي بناها لنا جدك مكان الخضراء مع دور عياله، وأوكلت بالبيت والأرض إلى أبي إسماعيل، ورغم أننا نزلنا من السعة إلى الضيق، غير أني انشغلت بتحصيل لذة العلم والتفنن فيه، وأجازني ابن زرقون، واكتريت دكانًا في السوق لأطبب الناس، فامتحنني المحتسب وأخذ عليّ عهدَ أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء؛ أن لا أركب سما، ولا أذكر للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وأن أغض من بصري عن المحارم عند الدخول على المرضى، وألا أفشي الأستار ولا أهتك الأسرار. ولا أكتمك أن لذتي هذه ما تلبث أن تتعكر بحسد الجهال من الكحال والفصادين، أولئك الذين يجترئون على أبناء الناس بالشق والفصد، وكثيرًا ما يأتونني أمام

الناس يسألونني في مسائل بسيطة، لكني لا أذكرها، فإذا عجزت عن الرد عرضوا بي أمام الناس، وقد غفل هؤلاء أن الحدث قد يجيب عما يعجز عنه العالم النحرير، فالخطأ والنسيان مما يجوز في حق الإنسان، ولا يستلزم أن يتطبب الرجل أن يعرف كل شيء ويجيب عن كل مسألة ويداوي كل علة، لكن أنَّى لهم أن يفقهوا ذلك؟ وقد اعتادوا الدجالين وحيلهم، ولم يألفوا العلماء وصدقهم. والويل لك لو وصف مريضٌ لأخيه دواءً وصفته للأول لعلة أصابته كما أصابت أخاه، فلم يبرأ الثاني واشتدت عليه العلة، فأنت الملوم مهما سقت من حجج أو ألقيت من معاذير!

أما أمك فقد سعدت برجوعنا إلى البلد، لما رأته من بعدي عن الملاهي ومجالسة المتبطلين، وانشغالي عن ذلك كله بطلب العلم وتحصيل الصنعة، وسعدتْ كذلك بالقرب من أمها وإخوتها ونسائهن لما قربت أن تضع حملها.

ذكر مولدك:

وكان مولدك يا بني في شهر جمادى من عام أربعة وثمانين وثمانماية للهجرة، كان يوم ابتداء حصاد الساحل في ماية، فأتانا رزقك وكسوتك منَّةً من الله وفضلا، وبشارة منه سبحانه وتعالى، وعوضًا عن جنين سقط قبلك، أطال الله عمرك وأبقاك لي ولأمك.

وقد سميتك عبد الملك على اسم جدك وعلى اسم خالك الذي مات من حمى أصابته قبيل مولدك، وكان من أحب أخوالك إلى نفسي، فقد كان رحمه الله دينًا حميد المذهب، طاهر السيرة نقي السريرة، ومن هوان

الدنيا على الله يا ولدي أن يهلك فيها الصالحون ويبقى لنا شرارُ الناس بأذاهم وظلمهم.

وقد خفقت خفقتك الأولى بين يدي لما أخرجتك من رحم أمك مخضبًا. كنت قرة العين ومهجة القلب يا عبد الملك! كم سهرت حول مهدك أرقب حركاتك. أهمس لك في أذنيك أعيذك من الحاسدين. أدس إبهامي بين أصابعك الدقيقة، وأحرك أصابعي أمام عينيك أنتظر أن تبصر. قد تظنني مغاليًا في قولي، لكن الله يعلم أنك مذ ولدت وأنت عزائي في هذه الدنيا، عزائي عن أب مات مكلومًا، وأم ماتت قبل أن تراك، وإخوة جافوني، وآخرون حسدوني، وأخدان هجروني. كنت أنيسي وجليسي في كل وقت، أتعجل الأيام أن تمضي علّك تكبر وتفهم ما كنت أبثك من شكوى، وتضحك مما أقصه عليك من النوادر، وتقرأ عليَّ الكتب التي ادخرتها لك، كنت أتعجل الأيام مللا وليتها لم تمضِ! وكانت لي معك طرف وحكايات، أتذكر يوم أخذتك معي إلى الحمام والرجال يستهزئون بي وأنا أحممك وتنثر عليَّ الماء، وأمك خارج الحمام تولول على زوجها المخبول الذي أورد رضيعه مورد الهلكة بين أجساد الرجال! ألا تذكر حكايتك مع درجات الدَّرَج؟ لعلك لا تذكر، كنت تزحف على يديك وركبتيك من الغرفة قاصداً فناءنا الصغير، فإذا ما بلغت العتبة وقفت، وأشفقت على نفسك أن تقع من حافتها على الأرض، تقبل وتدبر ثم تؤثر السلامة. ذات يوم تجاسرت ووضعت يديك على أول درجة وركبتيك على الأرض. أدبرت، ثم وليت الدرجات ظهرك، ثم دفعت نفسك بيديك لتنزلق على الدرج، ولما

وصلت لوحت بيديك في ظفر وأشرق ثغرك ولم تكن فيه سوى سنة واحدة!

وخرجت بك إلى الفحص وأنت ابن شهرين، وصنعت لك عرائس من قماش على شكل جوار وفرسان، وأركبتك أمامي على غارب، وقد شددتك إلى ثوبي، ألا تذكر غاربًا؟ ذلك الجواد الأسود ذو الغرة البيضاء، صفته كصفة البرق، غير أني لما اشتريته هذه المرة أحضرته، فرأيته ساميًا قد ثبت رأسه واجتمعت قوائمه وكأن يديه في قرن ورجليه في قرن، يملخ بيديه ويضرب برجليه في اجتماع، وقد رحبت منخراه واشتدت نفسه.

ثم هانت نفسي وهانت نفسه، وحدث ما تعلم ولله عاقبة الأمور!.

***

هو

هبت رياح ماية حارة تبشر بقدوم القيظ. هيجت النبات، فجف واصفر، لمع كوكب الدبران الأحمر في السماء، يرعى أغنامه؛ نجومه الخافتة. يتبعه كلبان متلألئان منتصبة آذانهما، يسترقان السمع للقمر يهمس للثريا، أيأتي القمر الراعي بالبُشرى رغم سعيه بينهما منذ الأزل؟ رمق الراعي آثار الثريا على أديم السماء، كانت على مرمى حجر منه، يضرب الشعراء المثل بالقرب بينهما. يجهلان عذاباته ولوعاته. يسترق السمع دون جدوى. ينزل القمر عليه، يستوضحه، يدير القمر وجهه صامتًا من تربيع إلى حدب ناقص. تفهم الكلاب أن طلب الراعي قد رُفض، لكن ما يفهمه الدبران دومًا أن عليه الانتظار عامًا آخر حتى يخطب الثريا من جديد.

حجب الدبران أحزانه بأستار الأمل البالية، صمَّ أذنيه عن سُجَّاع وشعراء يرمونه بالنحس، يرقب بأسى تلك الكتب الخارجة في الحرير للطراز يُوشَّى ويُرقَّم بالذهب، ود لو وافقت الثريا، إذن لبعث كتبًا مثلهم، ثم يرسل القمر للثريا محملا بالديباج والأصبهاني والخمر شوارا، علّها ترضى وتكف عن تحقيره وتسفيه شأنه، أو يقطف لها من العنب والزيتون المعقود على الشجر، أو يسوق جرارًا من عسل فرغ النحل للتو من صنعه، علَّ حلاوته تذهب مرارة الهجر، لكنها رحلت وانسلت من بين يديه كريش البزاة الثاوي في الليل متقرنسًا[1] على فرع

(١) تبديل الطير لريشه.

شجرة يستجدي قُوته بعد ما كانت خفقات جناحيه تشيخ لها الأفراخ في أعشاشها.

فكم في الدنيا من دبران يحدوه أمل، وثريا تأبى على الوصل أن يصل.

***

خطا موسى متثاقلا إلى الآري محني الظهر. قميصه ينضح بالعرق. أنضجت شمس خواتيم ماية الملح على عنقه. شعره أشعث ولحيته كأعشاش الطيور. نزل منْ غرفته عند أبي إسماعيل بعد طول إلحاح أن ينزل المدينة عند أبي المحارب كي يفرج عن نفسه. أمر غلامًا أن يخرج له غاربًا. جلس القرفصاء متعبًا ينتظر. صرخ الغلام. هرع إليه موسى. وقف مبهوتًا أمام غارب لا يصدق. صاح في الغلام أن يسرع إلى البيطار. حدق في عيني غارب وهو يحمحم كأنما يكره أمرًا، مقلبا عينيه حتى بان بياضهما. لفحته أنفاس الجواد. اقترب منه ومسَّ وجهه. أعرض غارب عنه ونفحه بيده. خطا إلى الوراء خطوتين ولازال يحمحم. ناداه موسى بصوت متهدج داعب أذنيه المنتصبة حتى هدأ، وحمحم حمحمته المحببة وأرخى ذنبه. أحاط موسى عنق غارب بذراعيه واستعبر. ها هي المصائب تترى؛ زوج وولد، وثالثة الأثافي جواد. لم يعد بحاجة للبيطار ليعرف ما حل بغارب.. لقد عَمِي.

***

الرجل الذي لف الجرح فقتل صاحبه! مبتدأ لا يستلزم خبرًا. مضى موسى إلى المسجد يداري رجفته. نادى عليه كاتب القاضي والحلقة

معقودة حوله. سمع شهادة ثلاثة أطباء عدول أن علاجه للمتوفى بشد الجرح على الكسر أحدث الموت خطأ. أردف واحد منهم أن ذلك ما يفعله الجهال من الأطباء، وهو ما قتل موسى عمدًا.

هز القاضي رأسه أسفًا. عاتب موسى أن لولا الشهود له بالطب، وإن كان شاديًا فيه، لألزمه الدية وحده دون أهل أبيه. ألف دينار ذهبًا تسلم إلى أهله قبل انقضاء ثلاث سنين من هذا اليوم، أول ماية، وعتق رقبة كفارة الذنب. ساق لنفسه الحجة تلو الحجة دون جدوى، ألقى اللوم على الجميع حتى المريض القتيل! عاد أدراجه إلى البيت ممتطيا غاريا مطأطئ الرأس. يحاول أن يبصر طريقه من ثنايا عبرتين انعقدتا على عينيه.. لقد عَمِي.

❁❁❁

لم يمهل غاريًا الوقتُ فسحةً يعي فيها شيئًا. فجأة أظلم كل شيء. لن يرى الشمس بازغة في خروجه من الآري. لن يرى العشب الأخضر، والماء الجاري. لن يرى سيده المعطر بالمسك، والمدينة الغاصّة بالدواب والبشر. لن يرى رَمَكَه التي ركبها شهرًا.. أمهاره الجديدة، وتلك التي في أرحام الأفراس. تحولت كل الصور إلى أصوات؛ فالنهار صرير الآري يُفتح، والعشب في صحراء ظلماء لا يعرف منها قدر ما يأكل بفيه ويداعب بأنفه ويطأ بحوافره.

والماء لديه مشروط بجذب لجامه ليمد عنقه للمجرى، وصفير غلام يعزيه عن فراق الصور. أما سيده، فكان الصوت حاضرًا منذ البدء مع

اللمس وصورة الوجه، والعطر طالما سبقهم طربًا إلى أنفه. بيد أن الصورة ولت، والعطر استحال عرقًا. انعقدت حياته حول الصوت واللمس؛ فالطعام والشراب صفير يسبقه جذبة العنان إلى ماء أو عليق، وتحية السيد «هلا» يتلوها طوقٌ من ذراعين على العنق، والنقر والتربيت على الظهر للتسكين. يومًا بعد يوم يسكن لما حلَّ به. يدرك الدنيا بصفاتها الجديدة. غير أن ما فتَّ في عضده ما حدث يوم الرعي؛ كان فيما مضى فحلَ قطيعه في السهول، يترك القياد لرمك ركبها، ويخطر على أطراف القطيع يسبغ حمايته على الأمهار والأفلاء، وأترابه ممن كبر بهم السن ورقت عظامهم.

لكن ذلك اليوم عرفوا ما به من خوفه.. من إقباله وإدباره، من دورانه حول نفسه. عرش الفحولة صار شاغرًا، خلعوه برمحة ونفحة ونطحة، ثم تقاتلوا. رثا نفسه للعمى الذي أصابه دون جرم منه ولا اكتساب. حُجب عن الباقين حوله، وبلغه في الظلام أصواتٌ لم يظن قبل العمى أن تبلغ أذنيه؛ حمحمة جائع أو صليل ظامئ أو نحط بغل من كثرة الحمل والجر! حتى خفاق الرمك بعد جماع الفحول!

كذا أمضى غارب أول أيامه في الظلام، غير عالم أن مازال لديه بقية من بصر سرعان ما ستخفت، لكن البيطار غطّى عينيه قبلها.. لأن الأمل قتّال.

***

لم يظن موسى أن يخسر كل شيء بهذه السرعة. لما عاد من عند القاضي اعتكف في غرفته في بيته بالمرية. حاولت فاطمة أن تحدثه، أن تعزيه، لكنه أغلق بابه دون الجميع. مكث شهرين لا يخرج إلا لقضاء الحاجة. كان يفكر في الدية.. في عاقلته من بني الأحمر؛ أيرسل لأبي الحسن وأبي عبد الله؟ أو لو كان أميرًا لمَثُل أمام القاضي؛ فلا يبيت يومًا إلا ويسمع عن سفك أخويه الدماء، آخرها ما فعله أبو الحسن لما انتزى أهل البيازين، كعادتهم، نصب عليها المجانيق وهدم دورًا فوق رؤوس أصحابها، والنصارى يعيثون في الثغور، يقتلون الرجال، ويسبون النساء والذراري وينتسفون الزروع. ارتجت الأندلس كلها، وظنوها حملة أخيرة لملكي قشتالة وأراغون اللذين تزوجا منذ خمس سنوات وأقسموا ليستردن الأندلس قطعة قطعة، كما ذهبت منهم منذ ثمانية قرون!

لكنهم عادوا هذه المرة، ربما لم يعدوا للأمر عدته بعد، لكن الناس أيقنوا أنها النهاية. سبَّهم موسى ساخطًا ملهيًا نفسه بأحوال الجزيرة عن حاله، ثم دخلت عليه فاطمة. نام على جنبه وأولاها ظهره؛ ظنها ستسأله سؤالها المعتاد أأرسل لإخوته أم لا. لم تحسب أن تصل أنفته لهذه الدرجة؛ فإذا لم يساعدوه سيبيعون الأرض والدار في الحوض، ويبقون هنا في بيت ضيق بالمرية؛ زوج متبطل وزوجة مترفة، وابن مازال يحبو. ظنها ستحثه مجددًا على العودة للوراقة مرة أخرى عله يخرج من عزلته، تعلم كم أحب هذه الصنعة وكم تفنن في رسائله إليها. بيد أنها لا تفهم عجزه عن العمل بيديه في صنعة هجرها بضع

سنين، حتى لو حاول، سيرى الدواة مملوءة بالدم، والقلم مبضعًا، والرقوق جبائرَ. لما ذهب لصلاة الجمعة أحس كأنه غريب؛ الأبصار تزلقه، والوجوه تشيح عنه، حتى المارستان الذي كان ينفق فيه جل يومه أحس أنه ينكره، لقد مات حيا، وفاطمة لا تفهم، وأنى لها أن تفهم؟ كلما حاول أن يصبغها بصبغته طغت عليها تجارة أبيها وأمثال أمها ولجاجة أخيها عمرو الشامت؛ في كل يوم يدق اللحم ويخبز العجين، يستقدم المداحين والزجالين لتدوي أصوات شماتته في أرجاء البيوت الخمسة المتلاصقة. لم يعبأ يوما بقرب البيوت لهذه الدرجة التي لم يعتدها في الحمراء أو الخضراء أو بيته بالحوض. هذا الشحيح الجاهل صنو أبيه يحيي الليالي بالطرب نكاية فيه، محدث للنعمة يأتي أضيافه باللحم والفاكهة والخضر والشراب والحلوى دفعة واحدة ليملأ المائدة فلا يقدم ولا يؤخر!

ضاقت فاطمة بسوء ظنه وحدة سمعه. منذ جاؤوا لهذا البيت كان يقسم وقته بين المارستان والحمام عند أبي المحارب، وإذا مكث جالسها والصغير، أو يقرأ أصول الصنعة وفنونها. وبعد التبطل والخلوة في غرفته صار يصغي السمع لكل شيء حتى الأنات في الفُرُش، ألا يكون في جلد أخيها هشام الذي خسر في أسفاره أكثر مما كسب، أرجل هو أم امرأة؟ أم رجل نشأ في جب امرأة، فلم تلفحه الشمس، ولم يبله المطر أو تغبره الرمال. فيما مضى أحبت فيه رقة لم تجدها في أبيها وإخوتها، لكن اليوم تتمنى لو تأسًّى بهم. كيف يفعل وهو دائما ما يشعر أنه فوقهم منذ كان طفلا؛ يوم كاد لعمرو عند شيخه المالقي حتى لا يقبله وينازعه الخضراء وحب جده. أحيانا تتصور حالها لو كانوا فعلا من العوام الجهال الفقراء

ماذا كان ليفعل. منذ تزوجا وهي تبيت ليالِيَ باكية من لسانه وأمه تواسيها. ها قد ماتت الأم وخفت الحب وبقيت أنفته وأذاه. ظنت أنها اعتادت، غير أن نكبته بلغت بالسيل الزبى. إلى متى تتحمله قبل أن يذهب عقله؟

تمالكت نفسها وألقت بكلماتها على ظهره المولى لها:

-«اشحالك لو سافرنا كلنا على فاس؟».

-«شكون[1] كلنا؟ واش نعمل بفاس؟».

-«أنا وأنت وأبي وأمي وإخوتي.. كلنا. نسافر ونترك ألمرية».

اعتدل على الفراش وحدق فيها مستوضحًا، فتابعت مغالبة اضطرابها:

-«بعد غزوات النصارى قال أبي لس لنا عيش في الأندلس، نبيع الأرض وبرج الفحص والديار والدكاكين ونسافر على فاس».

تعجب.. لم يدر بماذا يجيب: «وزوجك اش يبيع؟».

-«نبيع البيت والدكان في المدينة، والدار والبساتين في الحوض، ندفع الدية ونسد أبو اسماعيل، ولو طلبت المال من خوك السلطان لس يردك».

-«أراك خططتي لكل شي».

-«لم أخطط شي عاد... يا بو عبد الملك، علاش نبقى في الأندلس؟ اش بقى لنا فيها؟ والله ما لنا فيها غير عظم التربة».

---

(٤) مَن.

-«لنا فيها الصحبة والأحبا. . لنا فيها. . واشحالك لو أسرتنا أجفان أرغونة؟».

-«لا تخاف، هشام رياس الغيلوطة وراجع بعد عشر ايام، بيدم يرجع نبيع كل شي، عمرو قال إنه معه مشتري للدور والبساتين».

-«ونعم الصحبة! واحد يبيع في مالي ويكركره ف حجره، والثاني صاحب الكاس والطاس يبحر بينا عند النصارى» قالها، ثم عبس. وجمت لوهلة، ثم احمرّ وجهها ورمع أنفها غضبًا. وبخته أن يهين أخويها. العذر يابن الأكرمين يا سيد الأمرا. نعم! أنا أمير بن سلطان بن سلاطين بألزز ولا بالرضا. . مولاي! لا ترفعي حاجب وتكلميني يا مرا. المرا صابرة والصدر حفيل يا موسى. ترفعي صوتك يا فاطمة؟ اش جرى للدنيا؟ إذا شاخ الباز تلاعبت بيه العصافير؟ لاعصفور ولا باز، أنا عند أبي خلال ما تراجع نفسك. لو خرجتي تكوني طالق يا فاطمة. همت بالخروج. جذبها من ذراعها. صرخت. لم يدر بنفسه إلا وهو يضربها وإخوتها وأبوها يحولون بينه وبينها، وضربه عمرو على رأسه فشجها. . وانتهى كل شيء.

رحلت. . طلقها في سورة الغضب والدم يسيل من رأسه. شعر بالوحشة عن دنياه. تعجب كيف تحمل هؤلاء الجهال طوال هذه السنين. ظل كبره يذكي النار بداخله حتى حانت الساعة. وعند باب المرسى ألقى نظرة على الغيلوطة من بعيد. هوى قلبه فجأة في جب اللوم والندم. ود لو عدا على البحر ولحقها يحمل إليها سراجًا وجرة من الياسمين. سيتعلل

بكيد أخيها، وثرثرة أمها التي باعدت بينها وبينه، وجرح المريض الذي قتله. يلقي اللوم على كل شيء سواه. تذكر فجأة ولده، لن يراه مرة أخرى، وربما في الرحم من لا يعلم. فغر فاه وأنَّ مُدركًا خسارته. ربت على كتفه أبو المحارب وظل معه طوال الليل يواسيه قبل أن يأتي اليهودي ويأبى عليه إلا أن يضيفه في دار من دوره بالحوض. ودعه الحمامي حزنًا، وكان قبلهايريد التوسط بين الأصهار قبل الرحيل، لكنه عرف أن مسعاه سيخيب كما خاب من قبله لحقد أخيها ونفور أبيها ولجاجة أمها، وكأنهم جميعًا انتظروا هذه النهاية، فأحجم أبو المحارب عن عرض العون.. لأن الأمل قتّال.

***

سمع غارب «هلا»، أحس بطوق الذراعين حول العنق. أسلم نفسه لسيده وهو يلجمه ويسرجه بنفسه. خطا بضع خطوات حتى شعر بسيده يضع يدًا على منكبه الأيسر. سمع «أق» فثبت انتظارًا لقفزة على السرج. بعدها شحذ انتباهه كله في كتفيه استعدادًا لغمزات العقبين. غمزه موسى غمزًا رفيقًا، ثم سار به برفق، ثم توسع يسيرًا. سمع غارب «أهب» فاستعد لصعود تل بأناة، و«أهن» فنزل برفق وعلى مهل مهما غمزه موسى وحثه على الخبب. استمر موسى في الغمز ولم يقنط. امتن للبيطار في سره أن ألح عليه أن يزور غاربًا في الآري لئلا يذبل ويموت حسرة في معزله. كان البيطار يريد موسى أن يلامس غارب ويداعبه، وحسب ذلك عزاء. لم يخطر ببال الطبيب أن ينفق الفارس وقته في سياسة جواد أعمى. لا يدري الطبيب أن غير الجواد يحتاج للعزاء. كان

يريد الشعور بالغلبة في شيء، حتى لو ساس جوادًا لا رجاء فيه وقد انتهى به الأمر بلا أرض ولا بيت ولا دكان، هانوا في عينيه بعدما رحل قلباه عنه. باعهم ودفع الدية دفعة واحدة. قضى ديون أبي إسماعيل، وبقي معه بعض المال اكترى به دار أبي إسماعيل التي ضيفه فيها. صرف فكره عن قرب نفاد المال، وغمز عقله للمضي بعيدًا عن الالتجاء لأخويه.

كل الأرض ضيقة عليه، كل الماء حنظل في فيه، والطعام يأكله ولا يسيغه. كل الوجوه تعاديه، والفُرُش أسنّة.

أفاق من شروده ليجد غاربا قاده على مقربة من رابطة رأس القبطة السوداء؛ رابطة بنيت على أطلال بجانة.

كاد يلوي عنان غارب ويعود إلى الحوض وإلى شجونه، يبحث عن منجاة أو ملهاة، لكن جمدت ملامحه أمام الرابطة، بلغته أذكار المرابطين الرتيبة كأزيز النحل. برق عقله فجأة. مال برأسه وزوى بين حاجبيه متأملا الرابطة. خفق القلب كمن وجد المنجاة أو كاد، كخفقة جناحي باز في قرنسته؛ يمتحن ريشه الجديد، هل بلغ حاجته للتحليق، أم ينتظر إنبات المزيد؟

سيقضي أيامًا يفكر قبل أن يمضي، تهزه الفكَر بين إقبال وإحجام. إلا أنه في ذلك الموضع، في مرية بجانة التي بنيَت مرأى على البحر، في ساعة الغروب تلك، حين توارت الشمس الحاجبة تفسح المجال للقمر؛ ظن موسى أن عاده البصر.. لأن الفرج غفّال.

***

أنت

-«تستحضر الكلام عن البلاء في كل وقت. تتصنع الصبر. لم تحتج مصيبتك كل هذا الجزع؛ فهمت ذلك بعد فوات الأوان. أهي سابقة أن يزل طبيب؛ أن يموت بين يديه مريض وعملهم في صيانة الأبدان معروف خطره؟».

كذا هتف ابن لبابة في أذن مليكك الفارغ من الإرادة، المتكوم كالجنين في بطن أمه. أنّ الملك ولم يرد.

-«ما بالك بكلام القاضي في جامع المرية يفت في عضدك، وأحقاد عمرو تفسد عليك بيتك، إنهم أصابوك عالمين بمقاتلك؛ عُجبك وكبرك. لقد أخطأ الطبيب ابن الأحمر أوحد زمانه وأعجوبة عصره وأوانه، كذا كتب ابن زرقون في إجازتك، وكذا صدقت نفسك، فكانت هلكتك».

كثيرًا ما تفكرت في سر البلاء، أمنّة من الله لتلجأ إليه من غفلتك، أم جزاء وفاقًا لسابق الأعمال؟

ثم تفكرت في صورة البلاء؛ لماذا وقع في أحب الأعمال إليك؛ الطب.. أحبه مليكك ورأى في سلطان العلم على المرضى وأبدانهم عوضًا عن سلطان الأمير على رعاياه وأرواحهم، وبارك أبو الضمير تلك الصنعة الشريفة التي تشغل الملك والوزير والجواسيس والعرفاء، فالجواسيس يلحظون بدن المريض وعلامات الصحة والسقم عليه، والوزير ابن لبابة يعقل ذلك ويشير على الملك بالتدبير، والملك يصرف

إرادته على الوجه الذي يرتضيه الوزير، فيقوم عرفاء الأطراف بالتدبير كتابة لدواء أو أمرًا أو نهيًا باللسان، أو تجبيرًا لكسر، أو قلعًا لسنّ. وبذلك الشغل خمدت أرباض الشهوات وانحاز ربض العُجب إلى ركن خفي تطرده معانٍ شريفة كالواجب والبذل والوفاء، كلها أرباض عليها صورة ابن زرقونٍ الطبيب الضرير، تدخل على الملك تستحث إرادته عند أنّة مريض أو استغاثته، فيأمر بما يلزم حتى شغفته تلك الصنعة حبا، وزهد في الملاهي كلها إلا الصاحبة والولد، ودوّن حبه ذلك في ديوان الفؤاد، مع حب فاطمة. ثم زال الطب وفاطمة من الخارج، وإن لم يزولا في نفسك.

لم يكن ذلك البلاء كبلاء الأطفال والصبيان، فتلك أعمار تكثر فيها العثرات ويكثر المقيلون؛ فهذه هي مجاري العادات في تلك الأسنان. أما عثرة الخبير فهي بألف، ولا مقيل لها بل شامت وحاسد ولائم!

لماذا ابتُليت من دون الناس في صنعتك، وفي أعز الصفات لديك، العجب والأنفة؟ أتعزي نفسك بتفسير شيخك السلجماسي لمحنتك؛ اصطفاء من الله لك وتجهيزًا لجلائل الأعمال!

«كأبيك آدم، الذي خلقه الله وكرمه وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الخلائق، ثم عصاه واتبع سبيل الشيطان. أبدى له الله سوءته، وابتلاه في علمه الذي علمه، فلم يجد كلامًا يستغفر الله به، فتلقى من الله كلمات فتاب عليه، وهبوطه إلى الأرض في ظاهره العقاب والشقاء، وفي

حقيقته اصطفاء من الله واستخلاف، فاعلم يا بني مهما عظمت مصيبتك، فاحمد الله أنها في الدنيا؛ لأن الدنيا زائلة».

يعيد ابن لبابة على الملك كلام الشيخ محاكيا مدته وإمالته للألف بصوته الواهن في «زائلة». فرَّج هذا عن نفسك قليلا. تفزع إلى الله بالدعاء والصلاة. تخوض الأهوال، ثم تنتظر جائزة الصبر الجميل عودة الزوج والولد.

-«مازالت تستحضر نفسك العاجلةَ الزائلة!» هتفها أبو الضمير مستنكراً، ومملكة نفسك تزيغ أمام عينيك تروح صورتها بين أركان مملكة بقصبتها وأرباضها وسكانها وحكامها، وبين كلٍ، نفسٌ صارت نفساً خالصة للحزن، تتلاشى صورة قاضي الجماعة أمام عينيك، بيد أن صوته مازال مستمرا:

-«ولو لم تستحضرها لِمَ تبيض الصفحات وتسودها عن حياتك ومعارفك لولد لا يكاد يعقل كل هذا؟ أم تريدها هي أن تقرأه؟

وماذا بعد أن تفعل؟ إذا كانت تجنبتك لما عبرت لرؤية ولدك، أتحن لكلماتك وتصل ما انقطع؟».

-«ولماذا لا تكون محجوبة قسراً، ولربما هي من كتبت لعبد الملك رسالاته إليَّ».

ترد عن نفسك ثم تعجز، ألا تكف عن ظنونك وأوهامك؟ ألا تكف عن الرثاء لنفسك؛ ألا تقول نعم، أنا الأمير ابن الأحمر، الطبيب الذي اجتهد فأخطأ، ربط الجرح فقتل صاحبه!

أنا الأمير الذي يئس فضيع زوجته وولده، وترك ماله ليهودي، ثم رحل يبحث عن العزاء في الجهاد يومين ثم سئم!

نعم، كم من نيات أحبطها السأم، فعادت عزائم لا قول ولا عمل. ثم عملت ما عملت فخلطت حسنًا بسيء، وبعدما قتلت خطأ قتلت عمدًا، فهل يغفر الله لك؟

***

الفصل السادس

يونية

أنا

ذكر حالي بعد رحيلك:

لبثت عند أبي المحارب في ألمرية يومين بعد رحيلك. هانت الدنيا عليّ؛ بعت البيت في ألمرية والدكان في السوق، ثم نزلت على أبي إسماعيل، وقد أقسم علي أن أسكن في منزل من منازله، وعلمت أنه ذهب إلى المارستان واشتد على مَن شهدوا عند القاضي بخطئي ونافحَ عني، وألح عليَّ في الرجوع إلى التطبب، لكني أبيت. لم تكن بي قوة أن أمسك بالمبضع، أن أفصد عرقًا أو أشد عظما. كأني عدت شاديا في الطب تميد به الأرض إذا رأى عمل الجراحين في الأجسام. ومما قوى عزمي على هجر الصناعة ما علمته من تطير الناس بي وتحذيرهم بعضهم بعضا من وصلي؛ فما أكثر العاذلين والشامتين يا بني إذا رأوا منك عثرة، وما أكثر الذين يقتاتون على مصائب الناس، يزعمون لأنفسهم حكمة وبصيرة ليست لهم، فيتمحّلون في جمع أشتات الحوادث ليرموا صاحب المصيبة بالشؤم والغفلة منذ وُلد، فزعموا أني كنت فأل سوء على أبي بضياع ملكه، وعلى جدي بعلته حتى مات، وعلى أمي بداء صدرها، ثم على من مات بيدي لما لفقت جرحه، ثم يختمون فريتهم بألم نقل؟ ووالله ما قالوا ولا أبصروا إنما شهوة تصدر المجالس وصرف الوجوه!

وما وجدت كلامًا في بيان فساد الزمان وذم أهله إلا ما قاله منصور بن عمار، قال رحمه الله: تغير الزمان حتى كَلَّ عن وصفه اللسان. وأمسى

خربًا بعد حداثته، شرسًا بعد لينه، يابس الضرع بعد غزارته، ذابل الفرع بعد نضارته، ناحل العود بعد رطوبته، بشع المذاق بعد عذوبته، فلا تكاد ترى لبيبًا إلا ذا كمد ولا ظريفًا واثقًا بأحد، ولا أصبح حليفًا إلا جاهل، ولا أمسى به قرير العين إلا غافل، فما بقي من الخير إلا الاسم، ولا من الدين إلا الرسم، ولا من التواضع إلا المخادعة، ولا من الزهادة إلا الانتحال، ولا من المروءة إلا غرور اللسان، ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حمية النفس والغضب لها، فيطلع الكبر منها، ولا من الاستفادة إلا التعزز والتبجيل والتحلي، ولا من الإفادة إلا الترأس والتجلل، فالمغرور المائق، والمذموم عند الخلائق، والنادم من العواقب، المحطوط عن المراتب، من اغتر بالناس، ولم يحسم رجاؤه باليأس، ولم يطلب قلبه بشدة الاحتراس، فالحذر الحذر من الناس، ذئاب عليهم ثياب إن استرفدتهم حرموك، وإن استنصرتهم خذلوك، وإن استنصحتهم غشوك، وإن عاملتهم غبنوك، وإن غبت عنهم اغتابوك، إن كنت شريفًا حسدوك، وإن كنت وضيعًا حقروك. وإن كنت عالمًا ضللوك وبدعوك، وإن كنت جاهلا عيروك ولم يرشدوك، وإن نطقت قالوا مهذار حديد، وإن سكتّ قالوا عيي بطيء بليد، وإن تعمقت، قالوا متكلف متعمق، وإن تغافلت، قالوا جاهل أحمق، فمعاشرتهم داء وشقاء، ومزايلتهم دواء وشفاء، ولا بد أن يكون في الدواء كراهة ومرارة. فاختر الدواء بمرارته وكراهته، على الداء بغائلته وآفاته. والله المستعان.

غاية القول أني ضقت بطول مقامي عند أبي إسماعيل ونفقته عليّ، فبعت له البيت الكبير والأرض لأدفع الدية، ثم اكتريت منه داره التي

أنزلني فيها على كره منه، ونقلت إليها كتبي وآلاتي. ثم جاءني أبو المحارب من ألمرية يريد أن ينزلني عنده وأن أشاركه حمامه، فأبيت وشكرت له سعيه، فما كرهت من الأرض وقتها قدر ألمرية. قضيت الأيام في القراءة والتنسك وركوب غارب وتعويده بالأصوات على ما اعتاد عليه من الإبصار والإشارة. ثم أني تفكرت ذلك الوقت في حياتي وسيرتي، وسر البلاء الذي حلّ بي من فراقكم، فأبصرت عورات أخفتْها عني الغفلة، وانتبهت لآراء فاسدة رأيتها قد زينها العُجب والخيلاء، وحياة كانت محض خبط عشواء من طلب العلم إلى الوراقة إلى الفلاحة إلى الطب، خبط أغشاني عنه زعم الحكمة والتبصر بتغير الأحوال. عدت طفلا أستقصر نفسي لذنوبي وغفلاتي. فكم من أموال أتلفتها، وأوقات أنفقتها في غير مقصد. أقبلت على الحياة بنفس ساذجة قضت عمراً محجورة في الخضراء. وصلت لئامًا، وقطعت كرامًا، وانتهى بي الحال غريبًا عن كل أحد إلا يهوديًا جافاه قومه، وحماميًا عجوزًا رأى فيّ ولدًا لم يولد له.

ذكر ذهابي للرباط:

ثم انشرح صدري للرباط في سبيل الله، فذهبت لرابطة رأس القبطة السوداء؛ وهي رابطة بالقرب من الحوض على ساحل البحر. وكان ذلك يوم عيد للنصارى في ألمرية مات فيه راهب لهم، فآثرت ألا أغشى المدينة ولا الفحص وليتني لم أذهب للرباط! فبعد كسرتنا في البحر أمام النصارى، صارت أجفانهم تجوب البحر تقطع عنا الميرة دون أن يملك أحد لمدافعتها شيئًا. وأضحت الأربطة على الساحل مأوى للمتبطلين

يعيشون على أحباسها، ويرقبون مراكب النصارى بقلوب غافلة، وفي الأعياد تبز الأربطة فحص المرية؛ فيتقاطر عليها أهل البراري على رؤوسهم الخبز وفي أيديهم طواجين الأدام، ونحروا الخراف ونصبوا النيران يقفزون فوقها كعادتهم في العنصرة، يحيون لياليهم في السمر والغناء في أبراج الأربطة وساحاتها وكأنها أبراج الفحص!

ولا تخلو من أبناء الأشراف يأتون للخلوة وتغبير الأقدام وتسهيد الأعين في المحارس ظنًا أن ذلك يغنيهم عن اجتناب المعاصي والآفات، ومنهم من انكسرت قلوبهم من العشق فأتوا يبتغون السكينة والسلوى، داعين الله أن يرزقهم بوصل الحبيب ورضاه، حتى أن برج الرابطة على الساحل سموه برج العشاق، وزعموا أن من يقيم فيه ثلاث ليالٍ يدعو الله رد إليه محبوبه وزينه في عينيه!

فنفرت من ذلك كله وعدت إلى داري. نظرت في كتبي فلم أزدد إلا زهدًا فيها، وتقطعت بي أسباب الأنس والسلوى، وأيقنت أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن ابتغاء الراحة في نفس السبب دون التوكل على الله غير متحقق حتى لو كان السببُ رباطًا في سبيله.

ورأيت في عالم النوم مؤدبي المالقي، وقد توفي قبل محنتي بشهر، جاءني عليه جبة خضراء وقميص أسود اللون، لكزني في صدري وأشار إلى الجوف وقال: «من هنا يأتيك الفرج». فصحوت من نومي على أذان الفجر. يومها زارني أبو المحارب على غير عادته، وفي ثنايا كلامه خبرني عن حصار النصارى لمكلين واستيلائهم على الحَمَّة، وكانوا قد استولوا على قصبتها في الظلام، والقصبة رقيقة الحال حصانتها؛ خشية أن

يعتصم بها أحد من الأمراء الذين يعيشون بين جنباتها ويتزي على السلطان، ومع طلوع الفجر دهموا المدينة وانتهبوها وفيها جمع من أمراء بني الأحمر؛ فالحَمَّة مجتمع قصورهم وحماماتهم وبساتينهم التي يلجؤون إليها في الصيف، وسيق كثير منهم عرايا من الحمامات لا يسترهم شيء، وأعملوا السيف في الجند بعد تسليمهم، وسبوا كثيراً من أهلها، ومن نجا هام في الطرقات لا يلوي على شيء، فنزل بعض منهم على ألمرية ليجوزوا العدوة منها، فانتهز التجار سوء الأحوال وبالغوا في أسعارهم ولم يفلح معهم والٍ ولا محتسب، وكان أبو المحارب قد عرج عليّ في طريقه لأبي إسماعيل حتى يشتري منه طعامًا وعلفًا لبعض أقاربه ممن قدموا من الحَمَّة، فعلمت أن زيارته تلك إشارة من الله، وعزمت على الذهاب للثغور، فجمعت ما بقي من مالي وآثرت السفر وحيداً. ودعت أبا إسماعيل على كره منه، وركبت غاربًا لا أحمل إلا مالي وميرة ومتاعًا تكفينا حتى تخوم الحَمَّة.

ذكر رحيلي عن ألمرية:

ارتحلت لأول مرة وحيداً، وأنا الذي لم يخرج من ألمرية إلا إلى الحوض. استعنت بالله وعزمت على بلوغ مرادي. وهكذا مرت عليّ الأيام راكبًا على متن السرج بالنهار، ومتوسداً إياه في العراء بالليل؛ فالنوم في الخيمة لا يحتمل في هذا القيظ، وإن اضطررت للبيات فيها عند المرور بدغل أو بستان وقاية من الهوام. تبَلَّغت من الميرة التي معي، ومما جادت به الأشجار في الطريق، فقد علمتني سنون الفلاحة التمييز بين الطيب والخبيث منها. استعدت في تلك الأيام شغفي بالأسطرلاب،

وكان رفيقي في تحديد وجهتي ومواقيت الصلاة، وكنت أقضي الليل أتأمل قبة السماء صانعًا من صور الكواكب والقمر شخوصًا وحكايات كما اعتدت يومًا أن أفعل أيام الصبا. وتبينت مواضعَ للجمال خفت عني؛ زقزقة العصافير التي تنبئني بمشرق الشمس، وخرير الماء وأصوات الهوام يقصان عليَّ قصة من قصص أمي، ألج منها إلى عالم النوم، وفسحة من الأحلام أراكم فيها، فيستبد بي الشوق، وأشعر في النوم بدمعة تنحدر من عيني. أصحو أكفكفها، وأشكو حزني إلى الله. وكان غارب صاحبي في السفر وعزائي في غربتي. علمته لكل حركة صوتًا ولمسة، فإذا نفدت الأصوات التي أعرفها من الغلمان وأصحابَ الأواري، صنعت أصواتًا مخصوصة له وكان يستجيب، ويتوكل عليّ في إبصار الطريق، حتى لو نزلت به جرفًا أطاعني. لكنه كثيرًا ما كان يجفل بالليل من أصوات الهوام والدواب، فكنت أشده إلى السرج تحت رأسي وأعوده على النزول بعنقه نحو وجهي، فإذا ما رهب شيئًا أحنى عنقه وهزني، فكم من ليال سهّدني كرضيع يأبى على أبويه سِنَةً من نوم!

ثم نزلت بمدينة القصر، وهي أول مدينة أنزل بها بعد طول سير في البراري، ظننت أنني سأجد مواكبَ الحداد، وخيلا تسرج، وسيوفًا تشحذ، ورماحًا تقوّم، ومنابرَ تدعو للجهاد، لكنني وجدت حالها كحال رابطة العشاق!

كانوا يبصرون الأندلس كما كنت أبصرها أيام غفلتي؛ سوقًا عامرة وفحصًا ناضرة، وموائد حافلة، والرقص والغناء في الساحات والزنقات يعلو ذلك كله. بينما هي اليوم شريط رقيق من الأرض حاضرتها في

الشرق غرناطة عليها سلطان يكنز المكوس للذاته، شاخ حتى تلاعبت به زوجته وجاريته؛ كلتاهما تريد ولدًا من أولادها خلفًا لأبيه، وفي الغرب مالقة عليها الزغل منكفئًا بين أسوار قصبته، ظنا أنها تحميه. والآن قضم النصارى قلب الأندلس بأخذ الحَمَّة معززين فصل الشرق عن الغرب، وما بينهما غفلات كالموج يركب بعضه بعضًا.

ومما زاد الطين بلة قوم يلبسون الخرق ويرفعون الرايات ينهرون الناس ألا ينجدوا أهل الحَمَّة؛ فهم قرابة السلطان أصل الظلم والفساد، وما نزل بهم إلا عقاب الله جزاء وفاقًا على أكلهم أموال الناس بالباطل واغترارهم بالحياة الدنيا وقد كُتب ذلك في اللوح المحفوظ! فكان أولئك الدجالون يخذّلون الناس ويخرجون بهم في الخلوات، ثم إن قومًا من السوقة ضجوا بهم وسبوهم ورجموهم حتى أخرجوهم من البلد، فسبحان الله الذي قيض لنصرة هذا الدين فجارًا لم يركعوا لله ركعة، واستبدلهم بجهال ضلال يصدون عن سبيل الله، فتأمل!

ذكر وصولي للحمَّة:

عفت النزول بالمدن بعدئذ واقتصرت على النزول بالقرى في الطريق، حتى وصلت قرب الحَمَّة أسأل الناس عن الأربطة هناك، فوجدت جمعًا من الناس جاؤوا من غرناطة ووادي آش والبشرات وغيرها، نفروا لاسترجاع الحَمَّة من العدو وسبقوا جيش السلطان، فعسكر كل قوم على الجهة التي جاؤوا منها، ؛ عسكر أهل غرناطة ووادي آش في شرق وجوف، وعسكر أهل شلوبانية وبلش مالقة في غرب وقبلة. فألقى الله الرعب في قلوب النصارى ولم يظنوا أن تسرع النجدة إلى أهل الحَمَّة

وظنوا تلك الجماعات طلائعَ جيش لجب فأغلقوا الأبواب واعتصموا بالأسوار، وما يدرون أن تلك الجماعاتِ نفرت دون اتفاق، ووراءها جيش السلطان يتلكأ به ابن رضوان الحاجب لحاجة في نفسه الخسيسة!

ثم طال الحصار، ولغيبة السلطان وعُمّاله عن القوم، تطلعوا إلى رؤوسهم من التجار وذوي الأسنان، فتطلع كل من هؤلاء للرياسة، لكن هيبة الرباط أدبت في كل نفس ما شمخ فخضع كل لصاحبه، ثم إنهم بعد الخضوع والتآلف لم يجد الناس عندهم حلا ولا عقداً إلا انتظار جيش السلطان؛ فهم لا يقدرون على نقب أسوار الحَمَّة ودخولها، ولا يملكون فك الحصار وترك النصارى، ثم إن الأيام طالت بالناس وهم في تبطّل فتجاورت المحلات، وأحاطت المحلات بالحَمَّة إحاطة السوار بالمعصم، واتسعت وأوى إليها المتبطلون والمتسكعون وتشاغب الناس ونزغ الشيطان بينهم فغش من غش في البيع، وسُرق متاع وتطلع الفساق على العورات، والنصارى يرقبوننا من فوق الأبراج يحسبوننا على شيء، ثم هطل المطر فقوّض كل تلك المحلات، ففزع الناس إلى الأشجار وتركوا مواقعهم والعدو لا يقدر كذلك على الخروج من الحَمَّة ليحمل علينا من شدة المطر، ولما وقف المطر أرسل العدو طليعة من الفرسان فتك بهم أبو العباس يحيى الشلوبيني مع قومه، وأبو العباس هذا من أصحاب علي العطار، أمير لوشة، وشهد معه جل معاركه وأثخن غير مرة في العدو، كان قد كمن مع قومه للنصارى بين ركام المحلات، فعاد العدو مدحوراً وانتظر النجدة من بلده، ولو علم أنه لو جرد تجريدة أخرى لفتكوا بنا إذ لم يكن وراء أبي العباس وجنوده إلا أشتات هدَّهم الرعب والمرض من البيات في العراء والمطر!

ثم فزع الناس إلى رؤوسهم مرة أخرى، فلم يجدوا حلا ولا عقداً حتى قام فيهم بنّاء صرّفهم إلى قطع الأشجار وبناء بيوت من خشب وشدها بالحبال، فتعاون الناس وتآزروا حتى عادت المحلات أفضل مما كان، فخط لهم العريف المنازل والأواري للخيول، وأحاط كل ذلك بسياج من خشب كأنه معسكر، ومهد الأشجار في بقعة للخلاء وقضاء الحاجة، وخط السوق وسط المعسكر يأتيه من يريد البيع والشراء، والقوم طوع بنانه يأتمرون بأمره، ثم فُتن عريف البناء بمنزلته وطاعة الناس له فتبرمك وتطلعت نفسه إلى السيادة عليهم فنفروا منه وائتمر به رؤوس القوم فطردوه، ثم فرغ الناس من الشغل وعادوا سيرتهم الأولى!

فاجتمعت رؤوس القوم مرة أخرى ورأوا شغل الناس عما هم فيه من التبطل؛ فنصب أبو العباس ميدانًا لركوب الخيل والرمي والعمل بالميادين، وقسّم الناس على أنسابهم فرقًا؛ فشق لهم الثياب ورفعها على أعواد من خشب كأنها البنود، وجعلهم يغدون ويروحون يدخلون علينا من جهات متفرقة فيظنهم النصارى مددًا من السلطان. ثم تطاول بنا الأمد وجاءت أمداد للناس من بلدانهم فجلبوا للسوق ما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلف والزاد وغير ذلك، وحاصروا العدو حصاراً شديداً، والقوم على قلب رجل واحد يجتمعون في خيمة الشلوبيني بعدما أمّروه عليهم وقد أثبت كفايته في غير موضع، وكان سيداً واسع الحيلة عالي الهمة رفيقًا بالناس ثاقب الذهن، ولو أراد الله بالأندلس خيراً لكان له شأن، لكنه مكر الليل والنهار!

وكنت في أثناء ذلك متخفيًا بين الناس، ولم أظهر لأحد نسبي بعدما سمعت منهم أقوالاً قبيحة في السلطان وبني الأحمر كلهم، وحاجبه نعيم بن رضوان. وأيقنت أن الناس ضجت بهم وإنفاقهم المكوس الجائرة على ملذاتهم؛ فقصرت النفقة عن إقامة الأنفاط والمجانيق على المدينة، رغم إحكام القوم للصناعة، واقتصر الحصار على التهليل والتكبير والدعاء على العدو، ورفع الرايات وقرع الطبول، وكانوا يرجفون لأقل حركة من العدو كإشعال النار على الأسوار بالليل، أو استعراض الرماة عليها بالنهار، فيهرع الرجال الذين بيننا وبين الأسوار يهللون ويكبرون ويفزعون الناس من نومهم، فتضطرب المحلة كلها ويموج الناس في بعض، ويفر بعضهم لا يلوي على شيء، ثم يعود لما يعلم خطل النذير، وكأني في ذلك الصخب أرى بعين الوهم قائد جيش النصارى يضحك منّا ومن سذاجتنا ويقول بلسانه أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا! ولا حول ولا قوة إلا بالله. وأبو العباس يرفق بالقوم ويسكن خواطرهم، وفي قلبه ضيق بهم وبسذاجتهم إذ لا يعرفون من عمل الجندية إلا خفر مزارعهم ومجاشرهم من قطاع الطرق، وشذاذ الآفاق من النصارى يغيرون على المسلمين كل حصاد ينتسفون زرعًا أو يسوقون بغلا، ثم يعودون شامخين كالغزاة!

ذكر من لقيتهم في الحصار:

اعلم يا بني أن الناس معادن وكما أن النار تنبئ عن المعدن النفيس، تنبئ المحن عن دخائل النفوس، وقد رأيت شيوخًا يفرون عند الزحف وفساقا يُقبِلون ولا يدبرون، رأيت سيدًا يكنس بيديه أقذار الناس،

ووضيعًا يستنكف أن يحمل متاع ضعيف. وما رأيت أحدًا إلا واستحكم في قلبه حب الرياسة حتى على اثنين، ولله در القائل هي آخر ما يخرج من قلوب الصالحين.

وقد كنت في ذهول عن الناس أجول بينهم ولا أجالسهم، أرقبهم من طرف خفي، حتى إذا جنّ الليل أخذت بعنان غارب ونمت في ركن بعيد.

ثم عُقدت حلق الذكر ومجالس العلم على أطراف المعسكر، فوجدت فيها سلامة الصدر بعيدًا عن شغب السوق ومجالس الغيبة كل قوم يغتابون شيوخهم وينعون عليهم خضوعهم للشلوبيني. ومن بين تلك المجالس كنت أغشى مجلس أحمد بن إبراهيم الخباز، وهو رجل من أهل العلم والسلوك، كان يشرح الحديث، ولما شرح حديث إنما الأعمال بالنيات بات كل من حضر المجلس يجافيه النوم يراجع نيته، ومنهم من بلغت به وساوسه أن عاد إلى بلده وهجر الرباط! وتلك آفة شغل الناس بالوساوس والخطرات، وليس ذلك علم بأعمال القلوب إنما ذلك نصف علم؛ فالعلم بمراد الرحمن نصف، والعلم بمداخل الشيطان نصف، فمن أوتي الأولى لم يسلم من الغفلة عن حيل الشيطان، ومن أوتي الثانية لم يسلم من اليأس من رحمة الله. وإن الإخلاص في النية كما قال الجنيد لا يعرفه مَلَك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا صاحبه فيدعيه. غاية القول أني غشيت مجالس العلم والذكر تلك، حتى نزغ الشيطان بين رؤوس تلك المجالس فبدَّع بعضهم بعضًا، فجافيت تلك المجالس كلها، وأويت إلى ركني. ثم إني لقيت قاطع طريق يُدعى الشفرة، هاله نفير الناس بمتاعهم وجودُهم بنفوسهم وسمع بثبات الشلوبيني ورجاله لفرسان

النصارى، فجاء لحصار الحَمَّة حمية وعصبية وقد قضى رحمه الله بسهم رماه رومي من أحد الأبراج فلقي الله مقبلا غير مدبر في حملة من تلك الحملات التي كان يصيرها الشلوبيني على الأسوار لشغل النصارى داخل الأسوار وإحكام حصارهم.

وكان ممن لقيته شابٌ يدعى حنيزة كان طالب علم يدمن النظر في التراجم والأثبات، وإن كان يخفي علمه عن عامة الناس، وكان يحكي لي عن شيخ له كان يكثر من المديح والثناء عليه، حتى أنه أرسل إليه يحثه على النفير، وكان يدعو شيخه هذا ببهجة الدنيا وأنس الأيام ولا يقض مضجعه كل ليلة إلا شوقه إلى شيخه ورغبته في لقائه وأن يجمعهما الله في الرباط، وكان حنيزة هذا حاضر الذهن سريع البديهة له نوادر وطرف، فإذا رده بائع لقلة ماله قال: "وكان رحمه الله شحيح النفس غليظا على طلاب العلم وقضى بسهم في استه» فيضحك منه البائع ويقضي حاجته، وكذا كان يتندر على كل أحد يلقاه بأن يترجم له حتى كان حنيزة هذا أول من قضى في معسكرنا بسهم، فكان قضاؤه آخر نوادره! رحمه الله وأعلى منزلته. وعرفت في هذا الحصار يا بني غير واحد من الأتقياء الأخفياء، وكان اجتماعنا في سبيل الله وطاعته، وبعد لأي وافانا ابن رضوان بجيش أخي السلطان بعد طول انتظار، وليس كل ما ينتظر المرء خيراً، وليس كل ما ينتظر المرء يقضي حاجته، والحمد لله على كل حال!

❀❀❀

هو

تبدل حال المناجل على شعاع الشمس بين اللمع والخفوت، تحصد بها سواعد قوية تسابق النهار، تطلب قمحًا لا يصيبه السوس؛ فأهل التجربة قالوا إن الحصيد محفوظ في يوم ميلاد النبي يحيى في يونية، توزن في الخيال المكاييل وتُنسج أكياس القطاع[1]: عُزل الخيل عن الرمك بعدما أدى ما عليه ولقح، وانتظر أصحاب الخيل أمهارًا صحاحًا لا تُعاب. وعلى متن الخيول المنهكة من النكاح خرج الرجال يطلبون الأفاعي في البراري يريدون من ترياقها العافية والشفاء من كل داء، فتهرع الأفاعي إلى الجحور، وكذا الأيائل، تهرب من أحلام الأمراء بقوس من قرونها يحاكي قوس الجوزاء في السماء. أما عساكر الأمراء أنفسهم، فقطعوا أوتار القسي عائدين إلى أوطانهم شوقًا للظل والثمر بعد طول حبس في الرباطات، وفوقهم القمر ينزل بذراع الأسد المقبوضة نحو الشام، فتحسر الشمس قناع السحاب من غد ويترقرق السراب في كل قاع، تعظ الناس أن كل الصور التي يطلبون تزول؛ قمحًا ومهرًا وترياق أفعى وقرن أيل، ورجاء الخير منها كرجاء ابن آوى من ذراع أسد مقبوضة في السماء.

❊❊❊

«هذا ما أملاه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرزاق الحضرمي السلجماسي في رسالته الكتب المؤمّلة للسلجماسي». زفر الشيخ

(١) المال.

بعدما أنهى كلامه، دعا في سره ثم مسح وجهه بكفيه. رمق تلميذه الجالس عند قدميه يكتب، وقد انتهى واضعًا القلم جوار الصحيفة. نثر التلميذ الرمل بالمرملة على الحبر ليجف فضوله فلا يبقى إلا ما تشربه الورق. تلمّظ السلجماسي بشفتيه وعدّل طيلسانه فوق رأسه، ثم اتكأ على أريكته التي في منزله. صدرت طقطقة خافتة من عظامه، استرخى ودعا تلميذه أن يأتيه بالشراب الذي عمله الطبيب، فأتاه به على عجل، ولما جف الحبر ضم الفتى الورقة الجافة إلى أخواتها. ساد الصمت، ولما أذّن المؤذن صرفه السلجماسي إلى الصلاة وبقي وحده. لم يعد يتعجب التلميذ من قعود شيخه عن صلاة الجماعة ومن قبلها الجنائز وصلاة العيد، وحسب شيخه من الإجابة عند السؤال أن الرجل لا يلقي إلى كل أحد بمعاذيره. وأي معاذير يلقيها السلجماسي؛ الإمام العالم فارس المعقول والمنقول أوحد زمانه، صاحب علامة سلطان تونس فيما مضى، المحكم لأمر الكتاب، القائم بالحديث، الممعن في استنباط الأحكام.

تنهد السلجماسي والهواء يخرج من صدره كشق الخناجر. كيف يبين عن هجرانه الجماعات وعزلته؟ أيخبرهم أن كل ما تآلفوه وعرفوه، وورثوه كابرًا عن كابر إنما هو من البدع والضلالات. لولا فساد الزمان وأهله لصدع بالحق، لكن أي زمان هذا؟ زمان الغربة والوحشة، لو بيّن لهم فساد بعض الذي عملوا لنصبوا له العداوة ولرموه بسهام القطيعة؛ فلو قال لهم لحنهم في القرآن لا صواب له، لاحتجوا عليه بالأولين والآخرين وأنه قد ثبتت ولا يتهم ولقدموا على

العلم أقوالَ الرجال يصيّرون لحنهم هو الحق، بدعة جارية فيهم إلى أن يشاء الله، أو كإمام المسجد ينوّن الأفعال وليس تنون، فإذا احتج عليه بالنحو لج وكابر، ولما قال يا أخي إني قرأت على أشياخي من النحو مصنف كذا وكذا فأنصت، فلم يزد ذلك الإمام إلا عزة بالإثم. وحتى إذا أنصت للحن في الصلاة وهو الذي كان يصلي بالسلطان وأهل تونس، فكيف باجتماع الناس بالذكر عقيب الصلاة على صوت واحد في أوقات مخصوصة يضاهون بها سنن رسول الله بدعًا محدثة. أيشهد هذا ولا ينكر؟ تبسّم بمرارة لما حدثته نفسه ذات مرة بنصحهم، لم ينج من افترائهم وافتراء غيرهم، كأن الناس ضاقت حتى بشبهة النصح، بل يجب عليه إذا سمع قولا أن يوافق عليه صاحبه ليسميه موافقًا، وإن وقف في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماه مخالفًا، وإن ذكر في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد، سماه خارجيًا، وإن قرأ عليه حديثا في التوحيد، سماه مشبهًا، وإن كان في الإيمان سماه مرجئًا، وإن كان في الأعمال، سماه قدريًا، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر، سماه ناصبيًا، وإن كان في فضائل أهل البيت سماه رافضيًا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم يجب فيهما إلا بهما، سماه ظاهريًا، وإن أجاب بغيرهما، سماه باطنيًا، ثم يقال له لم لا تأتي الجماعات فيجيب ليس على كل أحد أن يلقي معاذيره، قالوا استزله الشيطان بما كسب فأقعده عن التزام السنة وأورده مهالك البدعة! كذلك شكر الشاطبي أهل زمانه يوما، فما أشبه الزمان بالزمان!

ويْلهم لو أخرج كلمة مما يكتمها، بيد أنه هكذا كما كان دومًا، يكتم حجته وينتصر لنفسه في صدره. أخذ على نفسه عهدًا يوم انتصر لنفسه من ابن هارون القاضي أن لا ينتصر لنفسه بعدها أبدًا بحق أو بباطل، فكما إذا قُذف الحق على الباطل فيدمغه، فإن أصحاب النفوس الخسيسة يريدون الباطل من وراء الحق، يجعلونه مطية لأطماعهم.

خرج السلجماسي إلى فناء البيت، سار إلى أريكة قرب حوض الماء وتمدد عليها، حسر ثوبه عن ساقيه علَّ شمس يونية تدفئ عظامه البالية. يوما ما كان شابا نجيبا صاحب علامة السلطان، وجيهًا مقدمًا بين ذوي الأسنان، وأبوه مدبر أمر السلطان ومن أعاده لُملكه بعدما انتزى عليه ابن عمه. كان ساذجًا غافلا لا يستشرف الرياسة ولا تحدثه نفسه بها، لا يروم إلا نظرة رضا من السلطان، وأمر أن يكتب تحت البسملة على الظهير بخطه الكوفي المليح: «صح هذا»، لكن عُجب العلم كان منه متمكنًا، فلما زل ابن هارون القاضي في مسألة أمام السلطان ألقمه السلجماسي حجرًا، فأسخط السلطان عليه وعزله، حتى أصيب القاضي بالفالج!

- «تقتل القتيل وتحضر الجنازا» كذا أخبره القاضي متتعتعًا لما جاء يعوده، ثم مر يومان ومات. ساعتها أنكر السلجماسي نفسه، وأنكر من حوله؛ أنكر أباه الذي أثنى عليه إهلاكه لابن هارون وإزاحته من طريقه. أنكر الجميع ورحل. تعلم وعلَّم، وكلما قُدّر عليه أن يناظر أحدًا أجفل وانعقد لسانه إذ يذكر ابن هارون، فيرميه الناس بالجهل والعي وينفضّون عن مجلسه فيرحل، وكأن العلم ومناظرة الحجة بالحجة كنقر الديكة أيهم نقر عيني صاحبه غلب. حتى حل به المقام في فاس فوجد العلم فيها

بضاعة تباع وتشترى، وجلُّ الأكابر هلكوا في الطاعون الفارط، واتخذ الذين من بعدهم العلم حرفة لكسب المعاش، حتى يكون منهم الرجل يحمل في رأسه جبالاً من العلم ولا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا الذي يبقيه في مرتبته ويديم عليه عطاءه، ومنهم الرجل الذي غلب على هوى السلطان وحذق مناظرة اليهود والنصارى حرفة حتى كان يتنقل بين السلاطين يجلبون له القساوسة والأحبار فيفحمهم، ويحوز لقاء ذلك العطايا والهدايا، وقد امتحنه بعض تلاميذه فوجدوه لا يصلي! والرجل يزعم أنه ولي من أهل السلوك فيسقط عن نفسه الفرائض ويسحر الناس بالحيل ويأكل أموالهم. ثم ها هو قد وقف على بدع أهل زمانه، وكلما أوغل في العلم وكتب الأولين زاد في إنكاره، حتى تأثّم أن يخالطهم في جماعة أو عيد أو جنازة!

وكلما اعتزل أمرًا في الحياة زاد في تسويد الصحف، فإذا اعتزل الخاصة وأهل السلطان كتب عن السياسة وأخلاق الملوك، وإذا اعتزل السوق كتب في الحسبة، وإذا اعتزل نابتة الصوفية كتب عن البدع، وإذا تجنب أهل الأهواء صنف في الرد عليهم والذبّ عن السنة، وإذا ائتمر ملوك المغرب وتونس ببعضهم أمعن النظر في كتب التاريخ وسير الأولين، حتى كتب في العمران وأحوال السلطان وما تقوم عليه الدولة وما تزول به، فبز ابن خلدون صاحب المقدمة، حتى عُرف بأنه ما أن توصف له حال الدولة وعمرانها حتى يخبر عن ميعاد زوالها، وما أن يُخبَر بحال المعتركين حتى يُخبِر بالمنتصر، وكلما نزل بلدًا وعُرف عنه ذلك اجتمع الناس إليه كأنه ينجم أو يضرب بالرمل، فيخزن التجار

غلالهم أو يزيد أهل المدينة في تحصين قصبتهم، وفوق ذلك طمع الملوك فيه؛ إذ يرسل الواحد منهم حاجبه يتزلف إلى الشيخ ويسبل عينيه ويقول: «إن مولاي يريد أن يتخذك شيخًا له»، أف له ولمولاه! إنه يعرف تلك الألاعيب جيدًا، فصَّلها الغزالي ودبَّجها؛ في البدء يمد السماط وتهش الوجوه، ويستفتح العالم كلامه بـ"حدّثنا» وكأنه يقول أوسعوا لي، ويدخر غريب كلامه ودقائق علمه لخاصة الناس، فيغلب على هوى السلطان فيثنيه عن الشريعة المحمدية، وينعم عليه بقصور قيصرية وبيوت كسروية، وأثواب ظاهرية، وأخفاف جالوتية، ومراكب قارونية وأوانٍ فرعونية ومآثم جاهلية ومذاهب شيطانية، ثم إنه يكتسب الأعداء وتنبت الأحقاد والدسائس، وكلما ظهر نابغ جديد في مجلس السلطان غار منه على العلم والسلطان كما تتغاير النساء، فإما أن يأتمر به أو يؤتمر به، وينتهي المآل بالسلطان أن يمله فلا يجد منه إلا ذكاءه وقربه منه واطلاعه على سره، فيخشى منه على عرشه فيسجنه أو يقتله بعدما يكون باع دينه ودنياه بدنيا السلطان. فما أن يأتيه رسول ملك في بلد حتى يهرب ويتخفى، ثم إنه فرغ من التصنيف في مسائل زمانه وكتب في الأرَأيْتيّة[1]، حتى صنف آخر رسائله فيما يأمل أن يكتبه في حياته ودعاه الكتب المؤملة.

اعتدل السلجماسي على الأريكة فجلس، ثم قام لما احتذت الشمس والتمس الظل، ذرع الدهليز المفضي لخزانة كتبه بتؤدة، استند على الحلقة التي في باب الغرفة، قطب جبينه وذرع الغرفة بعينيه غير مرة. يكاد يخبر عن ظهر قلب بكل موضع كتاب وعنوانه، حتّامَ يبقى بين الورق؟ حتى لما

(١) المسائل الافتراضية التي لم تقع.

أراد تبيان فضل العلم والعمل به صنف ذلك في رسالة! قد جرب صحبة السلطان، وصحبة أهل السلوك، والعلماء، وكان الخيار واحدًا؛ إما أن يبرز بينهم ويصرف الوجوه إليه فيبقى، أو يصمت فيعتزلهم، فلا خيار إلا الكلام وقد فرغت أيدي الجميع من العمل، فلا يحيا بينهم إلا الفصيح المبين، ولا يعتزلهم إلا العيي البليد، وما كان بليدًا ولا عييًا ولا ينعقد لسانه إلا من ذكرى قاض مفلوج. فكأن الإخلاص قد خُلق في نفسه على صورة ابن هارون يلجم لسانه في كل وقت أن يناظر حتى ضاق به الذهن وضاق به الخارج، ضاقت به الحياة وضاق بالورق، فلو كان ما فيه حق أيبقى كذلك دون استخدامه من أهل الباطل في أهوائهم؟ وأي سعي للخير يبلغ المراد وسط هذه الفتن المتلاطمة؟ فمازال ينظر في حال كل شيء ومآله حتى صار ذلك شهوته وشقوته؛ شهوته لما فيه من التأله ومحاكاة الصانع في معرفة الغيب، وفي كل نفس استشراف لمضاهاة الخالق، وشقوته لأنه ما أن ينظر في المآل حتى يجد الفتن والخراب. حتى أنه حاول تخذيل تلميذه الذي تركه وعبر العدوة للجهاد في الأندلس، ما يحسب نفسه يفعل في أرض مضيعة ومخافة؟ يزيد هو وأترابه يومًا أو يومين في عمر بني الأحمر وهم ودولتهم إلى زوال، فأي نصر يرومون بعد حصار البحر وأخذ سبتة، وهلاك العصبيات في الأندلس والمغرب بالحرب، وقد تنقل الملك في المغرب بين لمتونة والمصامدة وغيرها، وفي الأندلس بين القيسية واليمانية ثم سائر الطوائف كل عصبية تفني سالفتها أو تفنى بسيوف النصارى، وأفنى الطاعون ما بقيَ فلا تقوم تلك العصائب جميعا بأمر الجهاد، فكيف تقوم به وهم أشتات يقتل بعضهم بعضًا؟

- «يظنهم يلقوه بلبس البياض ونشر الطيب، لا والله يقولون غازيا ياكل بالدين ولا يعمل إلا الشين، إذا أعطوه القطاع قر، وإذا هجم الروم فر».

أخبره بكل هذا، وبما يراه له من نبوغٍ في العلم إن لازمه، لكن لم ينصت، ترك أهله، وعند العدوة أرسل إليه..

«ربي قال نسعى! ولا يكون الرجل من أهل العلم يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به، وإني امتحنت نفسي مع العلم فوجدتني أرضًا سبخة من ذوات الملح إذا نزل عليها القطر من السماء لم يجد فيها عذوبة، وذاك لأني علمت ولم أعمل، وحُببت إليّ الدنيا فتعلمت منها ما أشيع به ذكري، ونسيت الآخرة فلم يزدني العلم مثقال ذرة من خشية، وإني رأيت المسلمين في الجزيرة بين لحيي الروم، انخلعت قلوبهم وضاقت صدورهم، وظنوا بالله الظنون، ثم إنهم استنجدوا بإخوانهم فما أجابهم إلا قليل، فآثرت النفير وامتحان نفسي تحت سحائب السهام وظلال الرماح، وأرى إن كان ينفعني علمي، فما فيه لله ثبّتني، وما فيه لغيره لا ينفعني، وإذًا لاستبدلته بالذي يرضي الله ورسوله، وإن لم أخط بالقلم حرفًا، ولم أرفع بالحديث رأسًا».

لم يعد، ترك في قلب شيخه جرحًا لا يندمل ورحل، كل من عابوا عليه فيما مضى عابوا عليه عيه وكان لا يبالي بهم، كان يرى في ذلك مكرمة له وعلامة التقوى، لكن لم يَرْمه أحدٌ بالقعود والخذلان قبلا، لعل ذلك الفتى الآن يستقصره ويستحقره وقد كان من قبل يوقره ويجلس تحت قدميه. رمق السلجماسي كتبه مرة أخرى، ما نفعُها وطلب التأنق

والإتقان فيها إذا لم يعمل بها، بل لعلها حجة عليه، أرتضى الله له القعود والخذلان؟ ما يضمنه إن قال كلمة ألا يحصدها طامعٌ، أو سل سيفًا يقتل به ظالمٌ، أو سعى سعيًا يبلغ به الفاجرُ حاجته.

- «ربي قال نسعى!».

نعم، ها قد كتب رسالة في كتبه المؤملة، إن مد في عمره كتبها، وإن قُبض فقد ترك للمسلمين رؤوسها، وليمتحن اليوم علمه ما كان فيه لله.

أفاق من شروده على نحنحة تلميذه العائد من المسجد، نظر إليه نظرة خاوية من معنى، أطرق برأسه قليلا ثم قال ببطء:

- «جهّز الركايب وحمل المتاع.. وبعدها تعال باش نصلي الفريضة»، زفر السلجماسي مرة أخرى، خلى الهواء من صدره لهواء المنزل الجديد، المنزل الأخير.

***

رعى الأيل الشارد بين الأشجار بطمأنينة، ظن أنه بين تلك الأشجار آمنٌ من صياديه. تعلق به بصر الصياد، ظن أنه بين تلك الأشجار مستورٌ عن حذر فريسته. توهم الصياد بعينيه دوائر مركزها الأيل، كدوائر النارود التي ترسم على الميادين لتعليم الفرسان. قاد فرسه بتؤدة من الدوائر الخارجية الواسعة حتى الدوائر الضيقة التي تليها. تفصد جبينه عرقًا من شمس يونيه، وتفصد ساعداه فانسابت حبات العرق عليهما كسير الهوام. شمر أكمام القباء الأبيض عن ساعديه، تحسس بأنامله الدبوس(١) المثبت بحلقة في السرج تحت ركبته اليمنى. وجواده يتنقل من

(١) عصا من حديد أو خشب كروية الرأس تتُخذ سلاحًا.

دائرة إلى أخرى كأنه جُبل على ذلك دون إرادة منه. خلع الدبوس من حلقته في السرج، اعتصره بيمناه ومر بإبهامه على رنكه[1] المحفور على قبضة الدبوس؛ دائرة بيضاء يشقها سيف أحمر من البياض الفوقاني في اليمين إلى البياض التحتاني في اليسار. ياله من رنك ملعون؛ يوما ما كان سلحدار السلطان الأشرف قايتباي، واليوم مطلوب شريد يطارد أيلا وكل ذلك بسبب رنك! أفاق من شروده الخاطف والجواد مستمر في دورانه حول لاشيء.. اختفى الأيل كأنما الأرض ابتلعته فجأة، تمامًا كأحلامه الضائعة.

أعاد الدبوس إلى سرجه وعاد بجواده إلى دائرة أوسع علّ الأيل لم يتجاوزها. دار بخطى حثيثة هذه المرة حتى رآه على مرمى بصره. تخلى عن عزمه تهشيم رأس الأيل بالدبوس. استوى على فرسه ولزمت ركبتاه وساقاه جانبي الفرس. قبض بكل كفه على قوسه بيسراه، وأمسك العنان بالوسطى والبنصر حتى يفوق[2] السهم، ثم نهض قائمًا مع ميل يسير. أحنى وسطه حتى صارت سرته على أول السرج. قبض على السهم بيمناه، وجعل يشده إلى الخلف، والنصل أمامه، وهو يتقدم في سيره المتعرج نحو صيده، حتى إذا فاق السهم فسكن فُوقَه في الوتر، ترك العنان من يديه وسمّى الله ثم رمى بسهمه في وقت واحد. نشب السهم بين قرون الأيل، صارع الموت برهة، ثم استسلم وخار بين العشب ودماؤه ترويها. ترجل شرف الدين الظاهري واستل خنجره من غمده

---

(١) شعار مرسوم للملوك والأمراء.

(٢) فاق السهم: وضع فُوقَه، شق في آخر السهم، في الوتر.

المعلق في زنده، وأحنى على الأيل ليطمئن أنه مات ولا يحتاج تذكية، ثم شرع في سلخ قرونه وجلده، بعدما نزع سهمه الذي صار قرنًا ثالثًا للأيل الصريع. رفع شرف الدين رأسه وشهق. أكان يجب على محظية السلطان أن تنقش رنكه على صدرها! وما ذنبه إن أعجبها رنكه على ثيابه في حلقة الصيد، فجارت النسوان الخواطي ونقشته؟

وما يدريه إن فعلت المحظية ذلك حقا، وليست فرية افتراها قايتباي سلطانه، وخشداشه[1] من قبل عند الظاهر، ليرميه بالزنا ويستحل دمه؟

لماذا رفعه ليحمل سلاحه، بعدما كان قانعًا بمكانه أستاذًا في طباق القلعة للمماليك الكتابية، معززًا مكرمًا، انتهت إليه الرياسة في الرمي دون منازع. لماذا رفعه سلحدارًا إن كان ينوي شرًا؟

لن يعلم أبدًا. سر جديد يضاف إلى أسرار أخرى لن يعرفها حتى موته، لم يعرف أباه ولا أهله، لم يعرف نفسه إلا صبيًا في السابعة جالسًا على دكة المماليك في السوق، وعين المحتسب على دكته تكاد تخرمه ورسول السلطان يستعرضهم، حتى إذا اشتراه وآخرين ضمهم إلى طباق القلعة، فلم يغادرها منذ دخلها مملوكًا حتى أعتقه الظاهر وصار فيها معلمًا للمماليك الكتابية والجلابية، ثم رفعه قايتباي وغدره، ثم هو اليوم في الأندلس يسلخ أيلاً. لم يسعه الذهاب إلى الشام رغم أن خشداشيته الظاهرية أكثر نوابها، لكنهم عاجزون عن إخفائه؛ فالمملوك المطلوب إما سلطان أو مصلوب؛ فإما أن يقودهم ويثب على الأشرف، أو يحز

(١) الخشداشية: زمالة المماليك في خدمة سيد واحد.

الأشرف رؤوسهم ورأسَه. وهو الأستاذ الذي لم يخرج من الطباق إلا سلحداراً، لم يداخل الأمراء ولم يصنع على عينه حزباً أو جماعة من المماليك يتعصبون له ويدفعون عنه. ربما هذا سر ترفيع الأشرف له؛ إذا أبقاه أمن مكره، وإن سخط عليه لم يخش حزبه. ولم يسعه أن يلجأ لابن عثمان في القسطنطينية وخشداشية شرف الدين ذُبحوا بيد إنكشاريته وجند علاء الدين بن ذي القادر. وليس من المروءة أن يلجأ إلى عدو المماليك وعدوه. ثم أعيته الحيلة وجند السلطان يطلبونه من محلة إلى أخرى، وهو يفر بحريمه وولده وقد ترك لهم بيوته وموجوده إلا جواهر نفيسة تغنيه وعقبه عن السؤال. حتى إذا وصل ثغر الإسكندرية لم يجد بُدّاً من ركوب البحر المالح في شواني البنادقة لينزل إلى حيث ألقته الشواني في ألمرية بعيداً عن بلده، وما يدري أن النصارى يغلبون على البلد ويأخذون من أطرافها وقلبها، وكان يأنف أن ينزل عند البربر وقد كان يزدريهم ويتجنبهم في القاهرة، ولا يذكر من أهل الأندلس إلا حسن صورتهم وطيب عيشهم، فإذا به لغفلته ينزل في أرض مضيعة وهوان!

فرغ من جمع لحم الأيل في بقجته، وعلق قرونه في السرج. نفر من الشحم ورائحة الدم على يديه، ماله وأعمال الخدم. لكنه رغم هذا سُرَّ بقرب مغيب الشمس، وقد داوى الصيد همومه وأزال عن جسده ما تولد عنه من رطوبة وفضلات. يوم آخر مر دون السأم؛ فليس له غير ذلك إلا الجلوس بين الحريم ومداعبة ولده، وقد استوحش أهل ألمرية وآيس من مخالطتهم ولسانهم العربي يخالف لسانه، وقد آيس من قبل أن يصل إلى السلطان ويسلكه في خدمته، وقد علم أن البلد

مشطورة بين السلطان وأخيه، وأنهم كالمماليك لا يأمنون من واثب ولا يأمن غدرهم صاحب، وإن كانوا أحراراً من نسل واحد. وصل داره فألقى بقجته إلى الخدم، وسار إلى الحمام يخلع ثيابه ويزيل ما علق به من دم الأيل وشحمه. لاحظ أن يديه وقدميه تزدادان نعومة وبطنه تتدلى. سبَّ ساخطًا؛ لم يعتد حياة الدعة تلك. اشتاق إلى حياة الطباق. وهل في الأندلس قلعة أو طباق؟ توجد تلك التي يسمونها قصبات، لكنها لا تخلو من غدر وشر. اشتاق إلى تعليم المماليك الضرب والطعن وركوب الخيل، اشتاق إلى لعب الصوالجة والبرجاس في القلعة بعد صلاة العيد، ولعب الرماحة مع فتيانه. أين السبيل إلى ذلك كله الآن؟

إنه يخشى على نفسه أن يمسي في حياته الناعمة تلك ويصبح قد صار أنثى! لعن في سره رنكه ومحظية الأشرف وصدرها.

غطس برأسه تحت الماء مطبقًا أجفانه على عينيه يرسم في ذهنه دوائر النارود، ويغرز الرماح في الميدان، ويصنع الأقواس والقداح، ويسقي السيوف.

- «يا الله!».

أخرج رأسه من الماء وشهق فجأة! كيف لم يهده عقله إلى تلك الفكرة من قبل؟ تبسم بعد طول عبوس وأشرق وجهه؛ لقَدَ وجد طباقه.

***

أنف موسى رائحته فجأة، كأنما فقد أنفه ثم استرجعها، رأى فضول عرقه ملحًا يلطخ ثيابه فاستبشع نفسه. قاد غاربًا حتى النهر القريب. ربط

لجام الجواد في جذع شجرة، ثم أدنى رأس الجواد من الأرض حتى تشكه رؤوس الأعشاب فبدأ يقضمها بتؤدة. خلع موسى ثيابه وعلقه على الشجرة إلا سرواله، شعر بجسده يبعث بخاره في السماء. خاض النهر ليطفىء ناره، ويفرك جسده بالليف علّه يزيل عنه شيئًا من الأوساخ التي علقت به. تذكر أبا المحارب ويديه اللتين كانتا تفركان جلده فتجعلانه كالشمع، وتنقله بين الماء الساخن والبارد، والثرثرة مع أترابه مؤتزرين بالمناشف يزدردون الفاكهة وسير الأولين والآخرين، كأنهم حين يخلعون ثيابهم ويحسرون رؤوسهم ويرسلون شعورهم يكتسبون شيئًا من أخلاق النساء وثرثراتهن. أما الآن فهو في ماء كدر تلتف الطحالب حول ساقيه وتتخلل أجمته حبات الرمل السابحة في النهر. خرج من النهر بخطوات بطيئة وسرواله مثقل بالماء. ثم خلع سرواله وعلّقه ليجف، وارتدى سروالا آخر هبط به حتى ضفة النهر مرة أخرى ليغسل باقي ثيابه. وملأ زجاجة عطره الفارغة من مياه النهر ثم نثرها على جسده، علها تعلق بفضول العطر فتطيب رائحته وتغنيه عن افتقاد الصابون.

عاد موسى إلى غارب واستلقى جواره على العشب. ارتخى كتفاه وساعداه بعد فرك الثياب. شعر بأسنان العشب كأسنان الرماح تشك ظهره، لم يعد يضيق بهذا ويشتاق لفراشه الوثير. مر بإبهامه على باقي أصابعه يتحسس ندوبها بإشفاق؛ في أول يوم أراد فيه فرك ثيابه الخشنة، فركت الثياب جلد أصابعه حتى سلخته وأدمته! وفي كل مرة كانت تدميه ثيابه حتى تبدل جلد أصابعه فصار عصيًا على السلخ. تعجب كيف كانت تطيق أمه وزوجه ذلك. نفض رأسه لئلا يستبد به الشوق للأحياء والأموات. مرر إبهامه هذه المرة على أصابعه بفخر، وكأن في جلدها

سيرته ومحنته، سلخته الأيام والشهور، فهل صار كذلك عصيًا على السلخ؟

أخذته سنة من النوم حتى أيقظه غارب بهزة من رأسه. قام متثاقلا إلى السوق في الحصار ليبتاع طعامًا، وهناك سمع بالخطب الجلل: لقد صلب ابن رضوان أبا العباس الشلوبيني!

كادت تميد به الأرض من الصدمة، استند على غارب حتى انزوى عن الجمع في السوق. لم يظن حظوظ النفس تبلغ هذا الحد بين الرجلين؛ فمنذ وصل ابن رضوان بجيشه بعد طول تلكؤ، لم يبال بمن قضوا، ولا بالحَمَّة التي انتزعها النصارى من أيدي المسلمين. لم يخش ابن رضوان إلا نفوذ الشلوبيني وطاعة الناس له! فأمر بعطاء لرؤوس القوم وجاء بعرفاء البناء في جيشه يهدون المحلة ويقيمون أخرى على هواه رغم أنف الشلوبيني وإنكاره؛ لأن وقف الحملات على الأسوار وتحصين المعسكر سيجعل العدو في فسحة، ولربما وجد فرجة في الحصار يجلب المدد منها، وإن استمرار الحملات وبناء المجانيق والعرادات أولى، لكن ابن رضوان أخذته العزة بالإثم وأصر على رأيه. وما بين استحمام موسى وسنة نومه جاء ابن رضوان بقوم شهدوا بنية الشلوبيني الخروج على السلطان واللجوء للنصارى في الحَمَّة طلبًا للعون، ليجلده ابن رضوان على مشهد من الناس ويصلبه!

حتى هنا في الرباط يتفشى المكر والحسد، وتستجل الحرمات! إلى أين المفر؟

جلس موسى والدموع تتساقط من عينيه كالطل، سار كالمسحور بين الناس متوشحًا سيفه، ينتظر أن يغضب للقتيل أحد، أن يسمع صيحة العصيان فيهب معهم إلى خيمة ابن رضوان يذبحونه، لكنه فوجئ بمن في السوق يخوضون في الشلوبيني ويلمزونه!

زعموا أنه واطأ النصارى ليسود المعسكر ويمنع الناس من دخول الحَمَّة حتى يحصنها العدو ويمتنع بها، فلم يهزم فرسان النصارى يوم المطر ولا ردهم بل مكر الليل والنهار، وصدقوا وهم الكاذبون!

كلما تنقل بين حلقة وأخرى سمع ما هو أنكى، سمعه من قوم قاتلوا مع الشلوبيني فأنكروا أنفسهم حين أنكروه، شعر بقدميه تسوقانه إلى غارب يسير على غير هدى، ثم لم يلبث أن عاد إلى المعسكر مرة أخرى، يخشى أن يتركهم وإن أنكرهم وضاق بهم، يخشى الوحدة وقطاع الطريق، والشوق إلى أحياء وأموات ومنزل بعيد. جلس بينهم يستعير منهم الأمن بالاجتماع ولا يعيرهم إلا سمعه، وبصره يرقب كالمسحور نهاية حصار الحَمَّة؛ فقد شاع ذلك الخوض في الشلوبيني وسعد به ابن رضوان حتى انقلب عليه. ألح الناس عليه في الدخول على العدو وانتزاع الحَمَّة منهم، إلا أن الأخير الذي جاء بجيش السلطان على عجل ووقف في مقدمة الصفوف يحول بين المسلمين وبين أسوار المدينة ظل يمنيهم ويعدهم بالدخول، وأنه يتحيل على القوم بقطع الماء والزاد عنهم، حتى إذا خرجوا خروج اليائسين أعمل فيهم السيوف، وظل يلح في ذلك ويماطل الناس حتى ظنوا به وبسلطانه ظن السوء، وعادوا يترحمون على الشلوبيني ودعوه بالمظلوم! وبينما الناس في ظنونهم إذا بكتب تأتي من

علي العطار أمير لوشة أن الطاغية ملك النصارى قد جاء بجيش لا قِبَل لهم به وأن عليهم الرجوع وادخار طاقتهم في الحصون لئلا يأتيهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، ويتركون بيوتهم عورات للكافرين، فانصاع الناس له وقوضوا خيامهم ومحلاتهم وقفلوا إلى بيوتهم بعدما بعدت بهم الغربة عن بلدانهم ونفدت نفقتهم وأقواتهم.

قضى موسى ليلته الأخيرة بين قبور من قضوا، تسامر معهم وقبل الأرض بين يدي قبر الشلوبيني المغدور، ثم سأل عن أصحابه حتى وجد بعضهم وسألهم عن وجهتهم فقالوا رابطة عين الصقر، فسار من غده يتبعهم يتحسر على ما فات؛ على بقائه في حصار النصارى سدى وهم في منعة من الأسوار، ولم يدر أن كتب العطار تلك كتب زور كتبها ابن رضوان ليصرف الناس عن الحَمِّة. وقد استنقذ ابن رضوان النصارى بأن رفع الحصار، وباع لهم ما فضل من قوت المسلمين الراحلين لقاء افتكاك بعض خاصة السلطان من الأسارى، ولم يدرِ ابن رضوان نفسه أن النصارى، لطول الحصار والجوع؛ كانوا قاب قوسَين أو أدنى من التسليم!

***

أنت

- «فما فيه لله ثبّتني، وما فيه لغيره لا ينفعني».

ذا ما كتبه حنيزة لشيخه، فكم فيك لله يا ابن سعد.. كم لله فيك يا ابن أبي غسان؟

لم تخبر ولدك بفرارك، بل إن شئت بقرارك؛ اختبأت تحت الأمتعة مع رجال أبي العباس يوم كمنوا لفرسان النصارى بعد نزول المطر. وقف قاضي الجماعة أبو الضمير يخطب من أعلى قمارش في أرباضك، ومليكك يدعو وزيره أن يحشد كل عرفاء أطرافك، أن يشحذ هممهم ليكونوا على أتم الاستعداد للنزال، أن يحركوا جسدك فيتبع أبا العباس ورجاله إلى حيث تدثروا بالمتاع المفروش على الأرض فتتدثر مثلهم. دخل ربض التقوى حمراء صدرك عليه صورة المالقي، وربض الشجاعة بلا صورة انطبعت عليه بعد؛ ربض رقيق لم يشتد عوده، وما كانت حاجتك إليه قبلا أيام الخط والطب والزرع؟

حاول قلب الدين الملك أن يتصبر بكلام قاضي الجماعة. يمنع نفسه أن ينخلع من مكانه ويهوي من برج قمارش. استحى في هذا الموقف أن يعرض عن قاضي الجماعة، فلو أعرض عنه ليدخل أرباض الشهوات لحقَّر نفسه وقال ضعيف استزلني الشيطان بدخانه الأسود ينكت في ثوبي الأبيض المرقط بسالف الآثام، أما أن يدخل ربضي الخوف والجبن خالصين من دون الأرباض فالموت دونه.. وربض الكبر دونه.

دعا مليكك ابن لبابة يحدثه، أمره أن يصور له معرفته بالحرب وفنونها. يطمئن نفسه إن امتلك ماهية الفعل قدر على صورته. وصف له ابن لبابة حركات السيف وعملها، وقرّبها له بشهوده المهند يوم الحمراء يذود عن أبيه. رتب عندئذ مع ابن لبابة كل حركة وحفظها عن ظهر قلب؛ سيأمر عريف الأذن أن يرهف السمع لإشارة أبي العباس بالخروج من تحت المتاع، ثم يأمر اليد اليمنى أن تزيح عنه المتاع، واليسرى تقبض على الرمح، والبصر يرشده إلى اتجاه العدو الراكب، والقدمان تتبعان إشارات البصر، حتى إذا دنا من أحد الفرسان طعنه أو جواده، حتى إذا كبا الجواد انقض الجسد بكل ثقله على غريمه، ثم تستل يمناك الخنجر المعلق في زندك الأيسر وتجهز به على الفارس الجريح.

-«تظن كل ذلك سهلا يا ابن لبابة!» شعر الملك بالدوار ومادت به الأرض، ثم دب برجليه على الأرض لما نقل إليه ابن لبابة من عريف الأنف رائحة المتاع المبتل المنتنة، فأمر عريف اليد في الظلام أن يتحسس الأرض من تحته فإذا هي زلقة قذرة.

- «كأنه ينقصني هذا!» أمر عريف الأنف غاضبًا أن يكتم عنه تلك الرائحة المنتنة التي تسربت إليه في برجه، حتى كاد يأمر بالقيء ليطردها.

طال الانتظار تحت المتاع، وقاضي الجماعة يخطب بلا انقطاع بعد أن وضع تحت يده ابن لبابة كل دواوين الوعظ والرقائق والحكم، فأمره الملك بإشارة حازمة أن يخرس ويرحمه من ثرثرته.

ثرثرة! نعم يا ابن أبي غسان، فما وقع تلك الأشعار والحكم والمواعظ والآيات والسنن على قلبك إلا كوقع الثرثرة تصرف إليك الوجوه، لكن

لا تثبت مليكك ولا تعضده، فما أشربتها في قلبك ولا تمكنت من فؤادك.

ربضا الجبن والخوف يزحفان خلسة، يحاولان التسلل من بين أسوار الصدر. يوجههم الملك إلى ثغرات لا يرقبها الكبر، يرفعون راية الحكمة بدلا من راياتهم؛ حتى إذا دخلوا الصدر أخرجوا الكبر منه. بينما وقف ربض الشجاعة يتيمًا؛ فلا راية له تقع في نفس الملك، ولا عدد له فيملأ الصدر ويستبد بإرادة الملك دون الآخرين، فبقي في مؤخرة الكبر ينتظر ما يفعل، وكأن الكبر وحده الربض الأصيل في نفس الملك يمنعه من الفرار. ثم جاء ابن لبابة يبلغ عن عريف السمع، يلقي إلى الملك ما خاف وقوعه؛ لقد جاء فرسان النصارى..

أمر الملك عرفاء الجسد كله أن يجتمعوا عنده، جاؤوا يسرون في الدم على عجل، ثم أسقط في يديه لا يدري ما يعمل، وأوامر ابن لبابة تشوش عليه، ولا تزيده إلا خوفًا. وعرفاء الأطراف حبسهم عنده ينتظرون أمره ولا يحير جوابًا، حتى انحبس الدم عن أطرافه وغشيتها البرودة. ثم جمع الملك عزمه وأراد فرارًا، لولا دخول ربض التقوى إلى البرج، وفي إثره ربض الكبر.

- «أتتولى يوم الزحف؟».

جلس الملك على الأرض لا يلوي على شيء. صرف عرفاء الأطراف كل عريف خائف مضطرب يقبض طرفه حتى صار الجسد في وضع الجنين. وتنازع الملك الجبن الذي ولد خوفًا، والكبر الذي ولد تقوى.

- «فر!».

- «لا تفر!».

كل يشد الملك إليه من أحد شدقيه ودخان الشيطان الأسود ينتشر في البرج يعمي الفريق الثاني حتى يستولي الأول على الملك ويغلب على إرادته. هنا ضقت يا موسى بكل أجزائك المتناثرة تلك، أطبقت على أجفانك، ومعها أطبقت على كل تلك المملكة بقصرها وأرباضها، ثم سكنت تحت المتاع سكونك في بيت أبي إسماعيل اليهودي، قراراً لا فراراً حتى كسر أبو العباس فرسان النصارى وقمت بعدها تحتفل معهم بالنصر. ثم اشتد عود الشجاعة في نفسك بعد ذلك، فأخذتْ صورة أبي العباس شارة لها، ثم عليّا العطار، ثم إنك أتقنت القتل فقتلت لله ولغيره، بيدك وبلسانك، فلا غفر الله لك!

***

الفصل السابع

يولية

أنا

ذكر سفري مع أصحاب أبي العباس:

بعد أن انفض حصار الحَمَّة واستتب الأمر فيها للعدو، سرت مع أبي يحيى بن إبراهيم الشلوبيني، ابن أخت أبي العباس وأصحابه؛ أنوي الرباط معهم في الثغور، وقد فجعهم ابن رضوان في صاحبهم ولولا خشيتهم غلبة النصارى أو أن يفتك بهم ابن رضوان وجنده، لكانوا احتزوا رأسه في خيمته.

فانتظمت في جملتهم وسافرت معهم أبغي الرباط في رابطة عين الصقر بالقرب من لوشة. وكان ذلك أول سفر لي في جماعة، ومن قبل كان سفري فردًا من ألمرية حتى الحَمَّة، وسفر الفرد يا ولدي يسفر عن نية المرء وعزيمته وصدق حاله مع الله؛ إذ أن الرجل في الجماعة يخشى أن يُرى محجمًا أو جبانًا أو مقصرًا في حقوق الله، لكن سفر الجماعة كذلك يسفر عن أخلاق الرجل وحقيقة معدنه؛ فالمسافر وحده عابر سبيل يستحق العون من كل أحد ينزل عليه، أما المسافر في جماعة فيعين ويُعان، ويسود ويخدم، ويحرس ويُحرَس، ويقتسم الزاد والمال مع مثله، وفي ذلك تأديب لما يشمخ من الرجل، وعلاج لشح نفسه، وتعويده على حمل الأمانة والتهمم بأمور الجماعة، لهذا كانت الرحلة أول إجازة لطالب العلم قبل السماع على الأشياخ، وليست الإجازة تلك الورقة التي يمتدح فيها الشيخ تلميذه بما ليس فيه حتى إذا عاد إلى بلده

اكتسب بها واستطال على الناس، ولهذا قال المتقدمون إذا صحت الإجازة بطلت الرحلة، فتأمل!

لكن سفر الجماعة ذلك شق على غارب إذ نفرت منه جياد القوم حتى عزلته عنهم في المقام والرحيل. ثم إن القوم سألوني عني وعن نسبي فقلت موسى بن أبي غسان صاحب زرع في المرية، ولم أشأ أن أخبرهم بنسبي ودم صاحبهم سُفك بيد حاجب أخي. عجبت من نفسي يومها أن أحببت خمول الذكر وخفاء السيرة، وكنت من قبل أنأى باسمي عن اسم جدي وأجادل أمي في الخضراء عن إعلان نسبي، واليوم أدثر نفسي باسم أبي الغسان لأمنع عني لجاجة السؤال عما آل إليه حالي، ولئلا يصيبني بغض الناس لأخي. ثم إني في شرودي عن الجماعة تفكرت في سيرتي وفي سعيي لإثبات صلتي ببني الأحمر، ثم إني رأيت نكبة بعضهم في الحَمَّة، وغدر أخي وحاجبه بالمسلمين في حصارها، فحمدت الله أن وثب أخي على أبي فأوردني السلامة ومنعني من التشبه بهم والسير بسيرتهم، فأحببت اسم موسى بن أبي الغسان، وكأنه يعصمني من الزلل، غير أن دوام الحال من المحال، وكتمان السر في الصدر أشق من أكل الحنظل، وما كنت لأكتم سراً في صدري وأنا رجل قد ربته النساء!

ذكر نزولي بلوشة والدخول على عليّ العطار:

نزلنا بلوشة في الطريق إلى عين الصقر، وأذهب مرأى مروجها أحزاننا وهمومنا وحملت عنا وساوسنا؛ فهي كما قال عنها ابن الخطيب: «مرأى بهيج، ومنظر يروق ويهيج، ونهر سيّال وغصن ميّاد ميَّال، وجنَّات وعيون». غير أنا لما جسنا خلال المدينة أنفنا من أزقتها

القذرة وكذا كرهها غارب لتعذر السير في مسالكها الحرجة. ثم نزلنا على الشيخ علي العطار في القصبة، وهو والي لوشة وحاميها، ومَحمدة يتيمة لأبي الحسن أن ولاه إياها. رجل حميد السيرة من أهل الخير والعفاف والطهارة، عارف بأمور السياسة وتدبير الملك، عالم بالحرب وفنونها، وبضبط الجند وسياستهم. وكانت له صلة بأبي العباس وابن أخته أبي يحيى وقاتلوا معه النصارى غير مرة، ثم إنه علم ما حَدَث في حصار الحَمَّة، فأنكر إرساله كتابا إلى السلطان، واسترجع وترحم على أبي العباس ودعا باللعن على ابن رضوان، لكنه أوصانا أن نكتم قدومنا عليه لئلا يتغير عليه السلطان، فيعزله عن لوشة ويولي عليها من لا يقدر على ضبطها، وهي أقرب للنصارى من الحَمَّة وهم أكثر طمعًا فيها من سواها من القرى والكور، فانصرفنا من عنده وقد أخذ علينا مواثقنا بالكتمان، وزودنا بالمال والمتاع ما يبلغنا عين الصقر ويكفينا فيه مدة، ثم نازعتني نفسي إبان الرحيل؛ أأعذر الرجل وأقول حكيم يقدر كل ولاية بحسبها، أم لئيم يخشى سخط أخي ويطلب الدنيا؟ ثم إن الأيام ألجأتني إلى لوشة بعدها فداخلت العطار وخبرته وعلمت منه مالا يعلمه عنه خاصته، واستغفرت أني يومًا ظننت فيه ظن السوء، وكانت لي معه أخبار طوال من وصل وقطع، وسعادة وحزن أرويها لك في موضعها إن شاء الله.

وصف رباط عين الصقر وذكر وصولنا إليه:

بعد مسير يومين من لوشة بلغنا عين الصقر عند الغروب، رآنا الناظور من البرج فأرسل صاحب الرباط إلينا ثلة من الفرسان يستوقفوننا عند ظاهر الرباط.

ثم تعرف أحدهم على أبي يحيى فرحب بنا وصحبنا مع فرسانه إلى الرباط، وهو رباط فسيح يطل على نهر شنيل، تحده الأسوار من كل جانب وفي كل ركن من أركان سوره الأربعة برج يحرسه ناظور يرقب القادمين، ووراء ذلك السور سور أقيمت عليه غرف ومساكن كثيرة للجند تحف ساحة الرباط الكبيرة عدا جوف الرباط؛ فعند الركن الذي بين الجوف والشرق يقبع المسجد الجامع وبجواره الصوامع والأواري حتى الركن الذي بين الجوف والغرب؛ فيه حمام كبير وجدر للخلاء، وقصبة الرباط في القلب من ذلك كله، وحولها ميدان الجند يتعلمون فيه ركوب الخيل والرمي والمثاقفة[1]. استقبلنا عند باب الحصن عبد الواحد بن يعقوب أمير الرباط، وهو رجل من زناتة[2] اجتاز العدوة للجهاد منذ عشر سنين لم يبرح فيها عين الصقر، وهو رجل صاحب نجدة وحمية، مستمسك بالعدل والرحمة بين جنده عفيف عن الدماء، وقد أكرم وفادتنا ودعا غلمانه فقادوا الخيل إلى الأواري، ثم حملوا عنا متاعنا وأنزلونا غرفة من غرف القصبة فرشها الخدام على عجل بالبسط والوسائد، وما أن تركونا حتى غشانا النعاس ولم نقم حتى صلاة الصبح.

ذكر نزولي سكن المرابطين:

ظللنا يومين في القصبة يغمرنا ابن يعقوب بكرمه وفاء لأبي العباس وابن أخته أبي يحيى، وضمنا إلى مجلسه فقضى القوم بضعة أيام يتسامرون ويتذاكرون أخبارهم مع النصارى، ثم شعرت أن القوم

---

(١) المبارزة بالسلاح إظهارا للمهارة.

(٢) قبيلة من البربر.

جافوني وبت غريبًا بينهم رغم صحبة السفر، وكنت كلما رغبت في مشاركتهم الحديث تغافلوا عني، وكذا يا بني ما عقده السفر يحله الحضر، فإذا ما لاقىٰ كل رجل قومه استغنى عن أخلاء الطريق، وفي ذلك فائدة في قطع الرجاء من الناس ووصل الحاجات برب الناس، فتأمل!

غاية القول أني حملت متاعي واستأذنت القوم أن أنزل مساكن الجند عند السور، وشكرت لهم ضيافتهم وصُحْبَتَهم فلم يأبَ ذلك منهم أحد! فحمدت الله يومها على نعمة الفراسة؛ فبها يحفظ الرجل كرامته ومروءته ويجتنب بها سماع ما لا يرضيه. أنزلني ابن يعقوب يومئذ غرفة يسكنها ثلاثة رجال من ألمرية علّ بعضنا يأنس إلى بعض، فتوجست خيفة أن يعرفوني ويفضحوا أمري، لكني عرفت أنهم من سكان الكور حول المدينة لم ينزلوها إلا لمامًا. حمدت الله على ذلك، وقد تلقاني القوم بالبشر والترحاب، وإن كان بهم ما بأهل البراري من الغلظة وخفة العقل، إلا أن لسانهم كلساني يقلبون التاء طاء كعادة أهل ألمرية، وتسامرنا ليلتنا الأولى نتكلم عن الزرع والفلاحة، وعن ألمرية وأهلها وبرطتها، ثم تذاكرنا قطع النصارى البحر من جهتها، فكأن ألمرية في تلك اليوم ماثلة أمامنا نقلبها وأرجاءها حيث نشاء، وكنت عنها في شغل إبّان سفري وحيدًا ثم حصار الحَمَّة حتى بلغت عين الصقر، فلما استقر بي المقام اشتقت إليها، وإلى قبر أمي وجدي، وإليكم، وبدا كل ذلك بعيد المنال، يحول بيني وبينه ألف حائل من بشر وحجر وماء، فاسترجعت وبكيت أمام القوم، فمازالوا يواسونني جاهلين بمصابي،

حتى فرشوا لي بساطًا حقيرًا ووسادة من ليف فراشًا نمت عليه أكفكف دمعي، وإلى الله المشتكى.

ذكر يومي في الرباط:

وكنت في تلك الأيام أزور غاربًا في الآري بين الفينة والفينة، وعرفتُ البيطار والصبيان في الآري على حاله فرقّوا له واهتموا لأمره، وكنت أقضي وقتي يومئذ مع الجند مثاقفًا بالسيف في النهار، مسامرًا بالليل، أو حارسًا لما يأتي الدور على غرفتنا لنحرس برجًا من الأبراج، أو نحرس فحص الرباط المزروعة بين السور الشمالي والنهر، أو نحرس الرباط عند القبور من الجهة الأخرى، وما كانت تلك الحراسة إلا نقلا لسامرنا هناك؛ فقد كانت الحراسة بالتناوب بين غرف المرابطين في أيام معلومة في الشهر، ومن يحرس في ليلة ينام بالنهار ويُعفى من المثاقفة أو الخروج للزراعة والصيد، وتوطدت العلائق وقتها بيني وبين الثلاثة الذين ذكرتهم، فكنا نقضي يومنا كله سويًا لا نفترق إلا للخلاء أو الحمام، وكنت مكثرًا من الذهاب إلى الحمام كعادتي حتى ظنوا بي الظنون، ولما نفدت بضاعتي من الكلام ورددت بضاعتهم وضقت بلجاجتهم، أمسيت أنام وسراج الغرفة يضيء وحديثهم يدور مكرورًا كدوران السواني، أو يجافيني النوم جراء ذلك فأقبع في زاوية من زوايا الغرفة وأنظر في الكتب التي أخذتها معي من ألمرية، فحسدني بعضهم وصار يسفه قولي متى هممت بالحديث، وكان يظنني لعلمي بالأرض والفلاحة من أهل البراري مثلهم لا علم لي إلا بالضرع والزرع، ثم ظهر لي أن القوم يغتابونني إذا تركتهم، والحق يا بني أن الغيبة تسري في الإنسان مسرى

الدم، وأن النجوى عصا الشيطان يشق بها الجماعة، فما اجتمع ثلاثة حتى وسوس الشيطان لكل اثنين منهم أن يتناجوا ويغتابوا صاحبهم، وما صحبت جماعة من الناس منذ خرجت من ألمرية إلى اليوم إلا وفرقتهم النجوى، فكان بعضهم يخلو إلى بعض في غفلة عن صاحبيه ويذكرهم بما يكرهون، ولازال القوم يتناجون ويتفرقون حتى يناجي الرجل نفسه، وكلما تلازم الرجال صاروا كشرّ النساء؛ يتغايرون على صرف الوجوه إليهم في الحديث، ويذكرون الزلات ويركمونها بعضها فوق بعض غلًّا في الصدور، ولو أحسن أحدهم دهرًا ثم رأى الآخر منه الشيء الحقير قال ما رأيت منك خيرًا قط، ولو ألقى الرجل بالكلمة وجدوا لها ألف وجه، وليس يفضي كل تلازم بين الرجال إلى ذلك، ما لم يجتمع بالتبطل وفراغ الأيدي من الشغل، وإن التولي عن إصلاح الحال مع الله والاجتهاد في الطاعات، وملازمة القول للعمل؛ لمن أسباب سخط الله على الجماعة، فيسلط الله عليهم ألسنتهم ما يفسد عليهم خلوتهم واجتماعهم.

قد تعجب يا بني أن يسري ذلك في الرباط، فاعلم أن الرباط في القلب وأن الاجتماع في طاعة الله معقود في الصدور لا بظاهر الأعمال وإن اغتر بها الجهال والمساكين، وما أُتيَ المسلمون إلا من رباط صار سوقًا تباع فيه الأعمال وتشترى رفعًا للمنازل والرياسة، وأصبح المسجد ناديًا يتخذ فيه دين الله سامرًا، والقصر جنة كجنة صاحب الجنتين يظنها تغنيه عن الله. ولما عزفت عنهم تنقلت بين الغرفات، قلت أصاحب غريبًا من زناتة آنس به، فكلما صاحبت غريبًا جاء مجاهدًا بنفسه وماله في سبيل

الله، وجدته ينفق ليله ونهاره تعريضًا بالأندلس وأهلها ورميهم بالجبن والخنوع، أو أن يقارن العريف من غرناطة بالعريف من زناتة وإذا تغلب الزناتيون على أهل الأندلس في المثاقفة في يوم صار عيدًا، وإذا مزج ابن يعقوب الصفين في المثاقفة لئلا يتعصب كل رجل إلى قومه قيل ما انتصر هؤلاء إلا للزناتيين فيهم، وكذا في الرمي وكذا في الركوب، حتى صارت المثاقفة لعب صبيان لا عمل جند في الرباط، ثم إنك إذا تحملت قول الزناتي وسلمت للحق الذي قاله بغى، فما تجد نفسك بعد فترة إلا وأنكرته في قلبك ونفرت من صحبته. ثم قلت أصاحب طالب علم في مثل عقلي يفهم عني وأفهم عنه، فما نلبث بعد أن اجتر كل منا مواطن الإجماع وتذاركنا القليل من الصحف التي معي ومعه، حتى تُفرِّقنا آحاد المسائل وعزة النفس بالظهور على الأقران.

ذكر ذهابي للقبور:

ثم إني أنكرت الناس جميعًا وعزمت على مفارقتهم، وأبيت العودة لألمرية وقد شرح الله صدري للجهاد، فاخترت أن أقوم بحراسة الرباط جهة القبور لا أبرحها، وكانت تلك الحراسة من أشق المواطن على الرجال؛ فإما يتطير البعض بها أو تذكرهم بحبيب قضى، فارتاح القوم لذلك وبنيت غرفة لنفسي وظلة لغارب، وأنفقت وقتي في التنسك والتفكر والقراءة، وقد جاءني رجل بكتب طلبتها من شلوبانية في صناعة الطب والدواء، وأخذت عليه عهدًا أن يكتم ذلك عني؛ فإن علم الرجال أني أتطبب جاؤوني أفرادًا وجماعات كلما توهم الرجل منهم ألمًا، وظن السوء في طبيب الرباط أقض مضجعي، وإنما هربت للقبور وحشة منهم أفأبلي نفسي بهذه البلية!

ولا أظنني تفكرت في الموت أكثر من خلوتي هذه، وأبصرت الموت قد أصاب أول ما أصاب آدم أبا البشر، وكل أبنائه في ذلك تبع له لا يتخلف منهم أحد؛ فنوح عُمِّرَ ما عُمِّر ونجا من الطوفان وبنوه ولم ينجُ أحد منهم من الموت، وسليمان لم يستنقذه من الموت ملكه ولا نبوته، وأبقراط الحكيم لم يسعفه علمه، وكم من أمم بادت بعدما ملأت السمع والبصر، ثم تفكرت في أبي وأمي وجدي ومؤدبي، وكان مؤدبي علمني كلما تملكني الحزن لفقد أبي أن أذكر المصاب في فقد النبي ﷺ، فإنها تذهب الهم والحزن. لكن ما يلبث المكوث بين القبور أن يعيد أحزاني أكابدها وتكابدني، ومع الموت أذكر محنتي وفراقكم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وانقضت الأيام الطوال وأنا على حالتي تلك حتى سئمت الكتب وفترت عن النوافل وكرهت التفكر، فكلفت عندها بشواهد القبور وهيئاتها المتباينة، ومعرفة حكايات أصحابها وتقصي أخبارهم.

ذكر أبي خرقة:

وكان ممن عرفت حكايتهم أبو خرقة؛ مجهول لا يعرفه أحد من أهل الرباط، أقبل عليهم منذ عامين مع ولد له وقال إنه من رندة. وكان رحمه الله شديداً في مقاتلة النصارى، شديدَ البر بولده ملازمًا له فلا يكاد يفارقه إلا للخلاء، فلما عوتب في ذلك قال وُلد لي وكانت امرأتي عاقراً ثم توفيت أمه في النفاس، فكرهت النساء من بعدها وعزمت على الرباط، فلا ينزل بعد كل فصل كما يعود المرابطون إلى أهليهم، وقد وجدت شعراً له يناجي فيه زوجته بخط حسن، ويبدا من نظمه أنه كان طالبَ علمٍ

شاديًا، وبلغ من كلفه بولده وملازمته له أنه كان يجلسه أمامه على الفرس ويذود عنه برمحه كما يذود الأسد غن أشباله.

حتى كانت واقعة مع النصارى رموا فيها الأنفاط على المسلمين، وهي آلات حرب عظيمة ترمي بالنار والحديد، فطار الرجل من على جواده ومُزِّق ولده والجواد كل ممزق فلم يبق منه إلا خرقة من ثيابه كان يمسكه منها أبوه، ودُعي لهذا أبا خرقة؛ فقد ظل ممسكا بها لا يتركها كأنها تغنيه عن ولده، واعتزل الناس، وآثر الصمت وظلت تعاوده الحمى مرة بعد مرة حتى قضى بعد ولده بأشهر معدودات، وأوصى أن يُدفن بجواره وأن يوضع على قبريهما شاهد واحد مكتوب عليه: لعلنا نلتقي في روضة أنف نفوز فيها بتخليد وتمكيث.

ذكر أبي مروان اليحانسي:

ثم إن ممن عمروا هذا الرباط أول مرة كان أبو مروان اليحانسي صاحب الكرامات، وكانت بينه وبين جدي الأكبر أبي عبد الله بن الأحمر حادثة مشهورة؛ فقد اتفق في عام من الأعوام أن ملك قشتالة اشترط على جدي سفرة في العام يؤديها له في أي بلد يطلبها، وقد حدثت الفتنة بين ملك قشتالة هذا وبين ملك برجلونة، فطلب من جدي أن يرسل له من خيرة جنده مَنْ يغير على برجلونة فيعيث فيها ويسبي، فخشي جدي على عسكره القليل من جموع الروم فاعتذر إلى ملك النصارى بمائتي ألف دينار، فأبى ملك النصارى إلا خمسمائة، فلما حل الكرب بجدي سعى إلى الشيخ وداخله وسأله الدعاء، فأشار عليه أن يعود إلى إلبيرة آخر بلاده وأن يرسل لملك النصارى أنه سيوافيه في عساكره، فأرسل ملك

النصارى للبرجلوني حينئذ يخوفه فارتدع واصطلح حاله، فأرسل الملك إلى جدي أن يعود بجنده من حيث أتى، فلم يرسل له مالاً ولا سفرة! وتلك من كرامات الشيخ رحمه الله.

وكان الشيخ يجاهد النصارى في جملة جيش المسلمين في الفنتيرة، فلما يئس أمير الجيش من حصارها، وأزمع حرق العدة والإقلاع، استحيا أن يخبر الشيخ بأمره، وعندما مر قافلا من الحصار تلقاه الشيخ وسأله عن وجهته قال له أنزل للوضوء والصلاة، فقال له الشيخ أن يبقى حيث هو وسيصعد الماء إليه ويصلي في مكانه فلا ينزل حتى يفتح الله عليهم، ففُتح عليهم الحصن عند المغرب بحول الله وقوته.

ومن كراماته رحمه الله أن شكا إليه رجلٌ ظلمَ ابن بكرون أحد عمال جدي وحبْسَه لأخ الرجل دون ذنب أو جريرة، وعزم ابن بكرون أن يسير بالرجل من مالقة في النهار إلى غرناطة فيسجنه في سجن السلطان، فكلم أبو مروان ابن بكرون في شأن الرجل البريء فأبى وأغلظ له القول وكاد يهم بضربه، فعاد أبو مروان إلى أصحابه وصمت ساعة ثم قال: «ومازال باب الفرج مفتوحًا، يصبح ابن بكرون من غد مذبوحًا!» فوجدوه في الصباح مذبوحًا من الوريد إلى الوريد، نسأل الله ألا يغير قلوب أوليائه علينا، ويجعلنا ممن يرضي صدورهم ويقر لهم عينًا.

ثم إن أبا مروان هذا أول من عمر رابطة عين الصقر وبها قبره، وقد مكث فيها بقية عمره مرابطًا في سبيل الله، ومما يساق في تسمية الرباط بعين الصقر أنه في سياحته في البلاد نفد زاده وماؤه فلم يجد إلا

السراب، وسقط شعره وأنتن وأشرف على الهلاك، فأنزل الله صقرًا دب برجليه على الأرض حتى أنبت الماء من تحتها فشرب أبو مروان وبرئ، وتلك من أساطير أهل البراري والعوام، إذ كيف يفقد الماء وشنيل جواره، وما تلك إلا مغالاة الناس فيه، ولهم في كراماته من القصص ما لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع، وذلك من تلبيس الشيطان على العوام، نعوذ بالله من أن نتقول على أوليائه أو نفتري عليهم.

ومازال قبره في جملة قبور الرابطة قد كتب على شاهده:

قلت لا تجزعوا عليَّ فإني ... حُسن الظنِ بالرؤوف الرحيمِ
ودعوني بما اكتسبتُ رهينًا ... غلق الرهنِ عندَ مولى رحيمِ

ذكر قدوم شيخي السلجماسي:

مكثت في الرباط بضعة شهور أراوح بين المسجد والقبور والحمام، وأركب غاربًا بين الفينة والفينة ندور حول حمى الرباط، ثم نزل بنا شيخ، يُدعى السلجماسي، من أكابر العلماء بفاس ممن يؤثرون الخفاء وخمول الذكر، جاءنا يطلب الرباط في سبيل الله مع بعض طلابه، فأكرم وفادته ابنُ يعقوب وأنزله وأصحابه بالقصبة، ولما رأيته أول مرة في المسجد يخطب الجمعة أشرق في نفسي وشعرت كأن مؤدبي المالقي قد بعثه الله من موته، ثم حاولت أن أداخله فحجبني عنه تكاثر الناس حوله طلبًا للفتيا واستئثار ابن يعقوب به في مجلسه، ثم قدّر الله أن نفد دواؤه الذي عمله له الطبيب بفاس، واشتدت عليه أوجاع النقرس، وزاد الطين بلة أن الطبيب صب عليه الماء البارد ليسكن وجعه، وهو إن سكن الأوجاع بالتخدير، فإنه يضر المفاصل ببردها ويغلظ موادها ويمنع

سرعة تحللها، ومن المنقرسين من تصب على أقدامهم الماء في آخر علتهم لا في أولها، واشتدت العلة على الشيخ، فذهبت إلى ابن يعقوب في القصبة وأعلمته أنني أتطبب، وعالجت الشيخ بالأدوية المسهلة والفصد والأطلية والضمادات، فعجب القوم من عملي وتبين لهم جهل طبيب الرباط وقلة بضاعته في الصنعة، فجعلني الله سببًا في شفاء الشيخ وزاد صلتي به، ولم أبالِ حينئذ بتزلف ابن يعقوب إليّ وسائر جلسائه!

ذكر مسجد السبت:

وداخلت الشيخ أثناء مرضه وسرت أخلو به أكثر من أصحابه، وقص عليّ شيئًا من سيرته، وعن اعتزاله الناس وانعقاد لسانه عند المناظرة، وهربه من الملوك وانقباضه عن الجماعات، وأسررت إليه بنسبي ونكبة أبي، وسيرتي في ألمرية ورحلتي منها إلى الرابطة، ووقع في قلبي حب الشيخ كأب لم يلدني وكذلك عدني الشيخ ولدًا لم يولد له، وصرت أقرأ عليه من الكتب التي صحبها معه، وصار يمليني من محفوظه كلما خطر له خاطر، حتى إذا برئ الشيخ من علته وقام من فراشه دخل على الناس في يوم سبت فوجدهم قد خصوه دون سائر الأيام بتلاوة القرآن والذكر وإنشاد الرقائق وتعبير الرؤيا، فنهرهم الشيخ وعدّ ذلك من البدع، فجادلوه فارتج عليه وانعقد لسانه، فنافحت عنه وناظرت القوم وألزمتهم الحجة، وكنت من قبل أتحاشى المراء معهم وأعتزلهم في ذلك اليوم لما كنت أستوحش من صحبتهم أول قدومي، فعدني الشيخ يومئذ من خاصته وخصني بحديثه وخدمته وصحبته، ورتب لي ابن يعقوب غرفة جوار غرفة الشيخ في القصبة لكي أكون بجواره وأطبب الناس، ومازلت أتردد بينها وبين الآري

أركب غاربًا وأدور به حول الحمى كعادتي، وتركت أسباب الخدمة والمثاقفة وعدت للقلم والمبضع حتى جاءنا شرف الدين الظاهري المملوكي، فانقلب حال الرابطة من بعده ولم يعد كما كان.

ذكر قدوم شرف الدين الظاهري:

في صبيحة يوم من أيام يولية، أبصر الناظور من جهة الفحص غبارًا كثيفًا يصعد في السماء، فخرجت ثلة من الفرسان يستطلعون الأمر فإذا بموكب كبير يتقدمه فارس مهيب عليه قباء أبيض تمر حاشيته من اليسار إلى اليمين، يدعونه القباء التتاري وحوله نطاق مطرز بالذهب المرصع بالجواهر، وعلى رأسه عمامة عظيمة، يشد سيفه إلى جهة اليسار ويضع خنجره جهة اليمين، وعلى جواده عباءة بيضاء من الحرير، وكنبوش[1] ولجام من الفضة. وقد ظنه القوم أميرًا من بني الأحمر حتى علموا أنه كان مملوكًا لسلطان مصر وخازن سلاحه، ثم سخط عليه وطلبه ففرّ منه على سفن الفرنجة ونزل بالأندلس، ثم نوى الرباط في سبيل الله فجاء بحريمه وعياله إلى الرابطة بكتاب من علي العطار أمير لوشة، فخرج ابن يعقوب وأصحابه لاستقباله على ظاهر الرابطة، وقد بدت من الرجل أنفة وغلظة سرّها ابن يعقوب في نفسه، ولم يبق في الرباط حديث إلا عن شرف الدين الظاهري وعدته ومتاعه، وقد ظنه الناس بالرجل الهين اللين جاء يغبر قدميه يومين ويعود، إلا أن الرجل ما أن زال عنه أثر السفر حتى صحت همته وعزيمته على ترسيم الأمور في الرباط على هيئة طباق القلعة في مصر، وكان قبل توليه خزانة سلاح السلطان معلمًا

(١) كساء أو ثوب يُوضع على الفرس.

للمماليك. ولما رأى تدبير ابن يعقوب في تعليم الرجال المثاقفة والعمل بالميادين استقله وحقره، وكانت للظاهري هيبة جعلت ابن يعقوب يطلق يده فيما يريد.

ذكر ما نصبه الظاهري في الميدان وما اتخذه من تدابير:

كان أول ما بدأه الظاهري أن خط على الأرض دوائر حول بعضها البعض يدعونها النارود، فيركب الفارسُ الرمَّاحُ في النارود، والرمح معلق في آخر السرج خلف الفخذ الأيمن، حتى يكون صدر الرمح مشرفا للأمام قرب أذن الفرس اليمنى، وعجز الرمح بينه وبين الأرض ذراع. ويتدرج الفارس في دوائر النارود معالجًا رمحه حتى يجعل صدر الرمح بإزاء الركاب الأيمن، وعلى الجانب الآخر فارسٌ يطلب كلّ منهما صاحبه، ويغيّر كل منهما وضع رمحه خفضًا وارتفاعًا، يمنة ويسرة حتى إذا كسر أحدهما على فرسه طعنه الآخر قبل أن يستوي هجومه، وفي ذلك حيل كثيرة يتعلمها الفارس يضيق المقام عن ذكرها، ويتعلم الرماح رمي حلقة على سارية من خشب يدعونها البرجاس تنصب في قلب النارود، فيرميها مستويًا على فرسه مرة وقافزاً به مرة. وكان القوم قبلا يتثاقفون بالفطرة كيفما اتفق، فأراد أن ينصب لهم ميادين مثل تلك التي تنصب لعساكر أخي السلطان.

ثم إنه خصَّ وقتًا من اليوم للرمي بأقواس اليد، وهي أقواس الرماة الأغزاز(١) الذين استعملهم ملوك العدوتين من زمن الموحدين إلى يومنا هذا، وتلك غير أقواس الرجل التي نتعاهدها في الأندلس. وفرّق

---

(١) الغز قبيلة من الترك، وقوس اليد هي قوس خشبي بأشكال مختلفة مشدود من طرفيه بوتر، أما قوس الرجل قوس صلب مركب على قطعة خشبية مزودة بزناد، تعد الصورة البدائية من البندقية وتُدعى بالانجليزية crossbow.

الأقواس ذوات الأوتار اللينة على الجند حتى يتمرسوا الرمي بها، فإذا حذقوا ذلك فرّق عليهم أقواسًا أغلظ حتى بلغت خمسة أقواس، وكنت في انعزال عن ذلك كله لأني أتطبب، فاتفق في يوم أن حضرت الرمي مع الشيخ في الميدان، ودعاني ابن يعقوب للرمي معه فظهر فسادُ رميي أن شددت وتر القوس على اللحم دون المفصل، فعقر الوتر إبهامي، ثم أخذتني الحمية لنفسي فشددت القوس مرة أخرى وتهممت بإصابة العلامة فأدخلت رأسي حتى سطع الوتر أذني حين أفلته، فاستلقى الرجال على أقفيتهم من الضحك حتى أصابني غم شديد، فنهرهم الظاهري ومازال بي يعلمني الرمي في الليل والنهار حتى أتقنته، وكان رجلا محبا للدعة والخمول والتأنق في الطعام والشراب والثياب، حتى إذا نزل الميدان عفر رأسه في التراب وكانت يده بيد الجند والغلمان يصنع السلاح والآلات بيده، وينهى عن اللهو واللغو في الميدان؛ فقد كان يعده مسجدًا، وما من مرة رمى فيها إلا سمَّى وكبَّر قبل الرمي، وصلى على النبي بعده. وكان يعاني من آلام البطن والقولنج، فكنت أدبر له غذاءه وأصنع له الدواء، ثم أرادني أن أعلم أولاده الفقه على مذهب أبي حنيفة من كتب استصحبها معه ألفها أحد المماليك الفقهاء للمماليك الأجلاب في طباق القلعة، فكرهت ذلك وصرفتهم لتعلم مذهب الإمام مالك، وأفردت لهم درسًا من الفجر إلى الضحى ومن المغرب إلى العشاء، فحمدها لي وخصني بالقرب منه وتعليمي فنون الحرب؛ وكنت من قبل لا أعلم إلا مثاقفة الصبيان ومصارعتهم في الفحص، وما حملت السيف إلا أيام الحصاد ترقبًا لغارة عدو أو قاطع طريق، فصنع الظاهري جدارًا

من الطين أضربه بالسيف ومازال يزيد عليّ الضربات في اليوم الواحد حتى بلغت ألف ضربة في الوقفة الواحدة، وكان ذلك عنده حد إدمان الراجل حتى هدمت الجدار!

ثم غرس أعوادًا من القصب في قامة الفارس وأحضر فرسه أمامي فجعل ينفح منها ما يحاذي منكبه بضربة، وكلما قصرت الأعواد كلما شق ضربها إلا على الفارس المغوار، حتى إذا فرغ من ذلك نصب خمس نشابات[1] على اليمين وعلى الشمال وجعل ينفحهم فوق الريش يمنة ويسرة وهو يجري بفرسه، فانخلعت لمرأى ذلك قلوب الرجال وسلموا له بالرياسة والاتباع، وحمدوا الله أن لم يؤتَ النصارى رجلا مثله!

ذكر حالي وغارب في عمل الميادين:

وكلف أبوك بعمل الميدان منذ قدم الظاهري حتى استغنى عن الكتب والآلات، فصار ينفح معه الأعواد والنشاب ويرمي على العلامات وفي الفضاء، ثم يرمي الرمح على البرجاس، وشعرت في ذلك بلذة لم أشعر بها قبلا، حتى غارب كأنه بُعث من جديد، والظاهري يعوِّده على أصوات الضرب والطعن بأن يقرع السيوف جوار أذنيه ويرميه بالأقداح، وينخسه بعجز الرمح وأنا عليه ليعتاد الطاعة والانقياد رغم الصليل والنخس، ثم قدته لطلب الفرسان بالرمح والرمي من فوقه، وخرجت به للصيد والظاهري يعوده على أصوات الوحوش، وكم كبا غارب بي ورفس الظاهري!

---

(١) أسهم.

رأى الظاهري في غارب سلوى أحيت عزيمته، بعدما كان يعاوده الفتور بين الفينة والفينة لما طال عليه الأمد في الرباط. ثم إن الظاهري حثني على ركوب غارب دون سرج أو لجام، وقال إن ذلك أصل الفروسية، فركبت غاربًا لأول مرة عريا، وشعرت بحركات عظامه وعرقه ونبضه، فأشفقت عليه وتوهمت نفسي مكانه، ثم أدركت أن السرج غفلة الفارس عن فرسه؛ فلا يشعر بالإثم لركوبه وتسخيره، كما يشرب قلب العاصي الإثم فيدمنه ولا يجد في صدره منه حرجًا.

وكذا قضى أبوك أيامه في الرباط بين الأبراج والقصبة والقبور، راكبًا راميًا متطببًا، ممسكًا بالكتاب والمبضع والسيف، وكما أن الحياة غير الكتاب، فكذلك عمل الميدان غير الحرب، ولا يُنبئكَ مثل خبير!

***

هو

باتت حقول القمح عرية عن سنابلها في ضوء القمر؛ فما نجا من حصاد يوم العنصرة في يونية، حزّتهم مناجلُ صاحب الزرع في يولية ليدرس ويطحن ويخبز طعامًا للجنود المتوارين في الآكام. صفَّرت ريح السموم بين جنبات الحصيد، ترمي حبات الرمال نبالا تؤذي عيون الرماة، والسحاب غَلّتْ مراجلها تمطر الحميم. والتفاح والكمثرى أريقوا عصيرًا في كؤوس المنتصرين، والعنب معقود في كرومه يتحسس رأسه مترقبًا ذات المصير. وفراخ الحجل في أعشاشها مثخنة بجراح الصيادين. والرمك تئن في زرائبها حنينًا لأمهارها؛ وهم عنها محجوبون؛ مفصولون ويُفصلون، والخيل أُلقيت عليها الكنابيش وأُسرجت، والسيوف سُقيت والرماح امتُحنت والدروع أُسبغت، والأقداح توجت بأنصالها، والأوتار شدت على قسيّها، والأنفاط أُعُدت بحديدها، والرايات نُسجت؛ لاغالب وصليب، والأسد المليك يطل من السماء بجبهته يستشرف الحرب بين الوجود، فكل موجود محصود حَبّها ورأسه، مراق دمه أولبنه، وليس الحي يذبح مثله إلاشهوة نفس أو مرضاة لإله أو طاعة لمليك.

***

قاد رودريجو جيرون جواده بتؤدة؛ المعلم الأكبر لفرسان قلعة رباح؛ أخويّة الفرسان المسيحيين العابرة للممالك كسابقتها فرسان

المعبد، جنود يسوع الذين يحيون حياة الفقر والتنسك والحرب، لأجل التتويج بالتاج الأعظم في الآخرة. أحكم على دروعه رداءه الأبيض الطويل، الذي تخطى الركاب. يزين الرداء على موضع الكتف الأيسر صليب أحمر قان تنتهي حوافه بزهور الزنبق، ويحفه التوريق؛ شعار فرسان قلعة رباح. مسّد لحيته القصيرةِ بسبابته وإبهامه. جال ببصره في فرسانه الأربعمائة الحافين به، وطقطقة الدروع والحوافر ملأت أذنه. تنفس ببطء حتى لا يملأ صدره برائحة القيظ. خلع خوذته الحديدية ومنّى رأسه بلفحة من الهواء ترطبها بعد طول حبس بين الحديد. زفر بأسى لما نظر لخوذته، هي بالأحرى خوذة أبيه، بدرو جيرون؛ كان المعلم الأكبر قبله، وتنازل له عن المنصب وهو ابن ثماني سنوات، جلس على كرسي أبيه كأنه أريكة، والفرسان ينحنون يقبلون يده ويقسمون له بالولاء، كاد يضحك وقتها فرحًا بلعبته الجديدة، لكن نظرات أبيه جعلته واجمًا صامتًا. كان أبوه يطارد حلم العرش؛ فإنريكي الرابع ليس له عقب وهو خاتم الذكور في بيته، وبما أن لأبيه أياديَ بيضاءَ على الملك في حربه على أراجون، طلب يد أخته الصغيرة إيزابيلا. كان قاب قوسين أو أدنى من الزواج بها ويصير الملك بيدرو ملك قشتالة وليون، لكنه مات فجأة!

-«قالوا مات فجأة وهم الذين نشروا خبر موته قبلها بثلاثة أيام!» همس رودريجو لنفسه، واعتصرت أهدابه عينيه. قالوا مات مسمومًا وساقوا له ولإخوته إرث أبيهم. بقي هو معلمًا أكبر لفرسان قلعة رباح، طفلًا لم يبلغ بعد مبلغ الرجال، وعليه وصي. كلما أهمّه أمرٌ ارتدى خوذة بيدرو، كانت كبيرة ومضحكة على رأسه، لكن في الفجوات التي

بينه وبين الحديد؛ كانت الريحُ تلقي إليه كلمات من أبيه. كان عليه أن يغمض عينيه ويقف فوق تلة قريبة من قلعة رباحٍ، ويستمع لأبيه فينفذ دون إبطاء. وكلما كبر به العمر ضاق ذرعًا بنصح أبيه، وضاق الهواء بين رأسه وبين الخوذة، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال وملأ رأسه ما بين الحديد، لم يعد يسمع شيئًا!

في الثانية عشرة من عمره تخلص من وصيه وانفرد بالأمر وحده. حكم مائتي ألف نفس وأربعًا وستين قرية، قبض على زمام الأمر وحده؛ كان يقاسمه في الماضي سلطة ملكي قشتالة وأراجون على أبدان فرسانه، بحكم أن الأخوية تقع في أرضهما، وسلطة الرهبان الفرنسيين على روحه وأرواح فرسانه كذلك بحكم أن الأخوية نشأت بمباركة البابا في روما وتحت رعاية رهبان دير موريموند الفرنسيين. قاتل مع الجميع ضد الجميع؛ قاتل مع ألفونسو ملك البرتغال وابنة إنريكي الرابع ضد فرناندو وإيزابيلا، في صراعهم على العرش بعد وفاة إنريكي، وبعد هزيمة ألفونسو صالح الملكين ودخل في خدمتهما لحرب المور[1]، واليوم يسير في ركابهم هو؛ المعلم الأكبر، دُون رودريجو جيرون؛ غازيًا للوشة.

صعد بمشقة تلة على أطراف لوشة، يحفه فرسانه، وفرسان ماركيز قادش وماركيز فيلينا. قد عهد إليهم الملكان بنصب معسكرهم في تلك الربوة وتحصينها. ظهرت أسوار لوشة من بعيد، وكذا معسكر الملك على التلال القريبة، تناثر قطعًا بين الوديان. لعن رودريجو قادة قشتالة في سره على غبائهم في اختيار مكان المعسكر، هؤلاء الحمقى لم يخبروا

(١) اسم أطلقه الأسبان على المسلمين.

قتال المور مثله، ولم يعرفوا طريقتهم في الحرب، خاصة الخينيتا[1]. رمق في أسى تلك الجداول الصغيرة التي تحتل سفح معسكر الملك المتناثر، رأى بعين خياله الخيول تضيق بأجسادها، والرجال يضيقون بسلاحهم إذا ما اضطرهم المور للمناورة في تلك المخاضة.

ترجل وفرسانه وجلس تحت ظلة نُصبت خصيصًا له. شرع الجميع في نصب الخيام وترتيب الحراسات، ومن بعيد جاء رسول من معسكر الملك يستدعي المعلم الأكبر والماركيزيْن على عجل؛ لقد قرر الملك عبور النهر من فوره لينصب على لوشة الحصار الآن.

***

-«لو كنا كالذباب لهزمنا النصارى داب!» تنبه موسى لسجعه ثم ضحك، كان يحكم قبة البرنس على رأسه والذباب يناوره في هذا القيظ يبغي رأسه دون كلل. تنهد موسى في سأم، منذ عبروا النهر في الليل وهم ثاوون بين الأشجار قد ابتلت ثيابهم وأوحلت. شدوا الرحال من عين الصقر إلى لوشة على عجل لما علموا بنية النصارى غزوها، واستخلف ابنُ يعقوب أبا يحيى الشلوبيني على الرباط. لم يكن للرجال من حديث في سفرهم إلا عن الحرب والنصارى، وسرد كل رجل في جلسات السمر حول النيران وقائعه معهم لا سيما مرابطيهم من فرسان شنت ياقب والقنطرة وقلعة رباح. وراح رجل يصف ثيابهم وسلاحهم وزهدهم وشجاعتهم، حتى قال إنهم يستبشرون بميلاد شنت ياقب في يولية؛ وهو ابن يوسف النجار وأخو المسيح ويدعونه في لسانهم

(١) التسمية الأعجمية لـ «زناتة».

سانتياجو، وهو حاميهم من دون الأمم بزعمهم، وكنيسته في شنت ياقب يحج إليها النصارى في كل عام، لم يمسها أحد من المسلمين إلا المنصور بن أبي عامر غزا أحوازها ولم يقربها، ومن يومها يتظاهرون على المسلمين بأن قديسهم مبارك لا يقدر عليه أحد، ويزعمون أنهم سيدخلون لوشة ويعلقون رايته عليها، وظل يعظّم في أمرهم حتى نهره آخر ورماه بالتخذيل. أيخوض أولى معاركه اليوم أو غدًا؟

عبر النهر من مخاضة وهو يغني لغارب ويربت على عنقه لئلا يخشى الغرق ولدغ السمك، والتفاف العفن على قدميه في النهر، لكنّ غاربًا نفر وحمحم، فترجل موسى وخاض في النهر حتى صدره، ومتاعه فوق رأسه، يشد غاربًا من لجامه، والقوم يعجبون ألا ينفر ذلك الفارس إلا على جوادٍ أعمى!

ولما وصل الضفة الأخرى بدل ثيابه ونشر المبتلة تلك على أغصان الشجر، ونام هاربًا من خيالات الحرب التي ملأت عينيه حتى تطارده في أحلامه، ألم يأتِ لهذا؟

ليت السلجماسي في عافية إذن لكان معينًا ومطمئنًا له في هذه الأيام. حاول موسى أن ينفق وقته ويهرب من خوفه بتنظيف غارب من أوحاله، لكن لم تفارقه تلك الرعدة التي تسري في أوصاله منذ ترك الرباط، وكذلك الخدر في جبهته وعينيه، واليوم آلام الكاحل. ظن الخوف قاتله قبل سيوف النصارى.

ثم تهمم بعلاج شرف الدين من القولنج الذي عاوده فجأة. وكلما خلا بنفسه ألقى رمحه وسيفه وقوسه وكنانته على الأرض، وخلع زرده

من على جذعه، ووضع خوذته ذات المغافر، وخلع ريحيته من رجله، وجلس ليس عليه إلا قميصه؛ فلم يرض أن يبيت في سلاحه كالباقين واعتزلهم تجنبًا للسخرية والمراء، فزعم أنه سيحرس ظاهر المعسكر. أطال النظر إلى عدته بعدما نشرها أمامه؛ أهؤلاء ما يصنعون منه فارسًا!

جلس موسى تحت ظل شجرة بالقرب من غارب تأكله الفكَر. سمع صوتَ ركب يأتي من بعيد، ورأى غبارًا يتصاعد في السماءِ، نهض إلى عدته يلبسهاَ، فتصلبت أوصاله، ارتج عليه فلم يدر ما يفعل، حث نفسه على السرعة فأصلح نفسه وجرى على عجل، ثم تنفس الصعداء لما رآهم فرسان العطار قادمين من لوشة لموافاة ابن يعقوب. ثم إن القوم حدّقوا فيه وضحكوا منه حتى استلقوا؛ كان يرتدي الخوذة على رأسه وأمسك بالسيف وركض بقميص واحد حافي القدمين تاركا غاربًا وباقي العدة تحت حوافره! سبَّ في سره وعاد إلى عزلته من جديد، ثم سمع الداعي يدعو في المعسكر أن يستعد الجميع للرحيل، فقد رأى العطار أن يعودوا لعين الصقر، فيعبروا النهر مرة أخرى وها قد زودهم بالمزيد من رجاله!

ضرب موسى أخماسًا في أسداس على فرصه الضائعة كأن المعارك تتجنبه دون سواه، ففي يوم أبي العباس في الحَمَّة لم يره أحد تحت المتاع، وعين الصقر التي طالما أغار عليها النصارى لم تمس منذ نزل بها، وها هو العطار حين يسير إليه ملوك النصارى برجالهم وعدتهم يعيد رجال عين الصقر إلى حيث كانوا، بل يمدهم بالمزيد من جنده ويقول إن الزغل في الطريق إليه! شد موسى غاربًا من لجامه آسفًا، خاض في النهر مطأطئًا رأسه كما يليق بغاز معلّق لا تفعل الحروب إلا تجنبه.

***

شرع السلجماسي في الصلاة قاعداً في مسجد الرباط، مازالت تشتد علاته يومًا بعد يوم، كأن جسده أنفق ما به من عافية حتى يأتي الرباط، فلم يعد لبدنه إلا الأسقام والأوجاع. قرأ الفاتحة وما تيسر، ثم ركع وفي سجوده سأل: أيدعو الله أن ينصر عساكر المسلمين؟

أي عساكر هؤلاء الذين يدعو لنصرهم، بل أي قوم هم أهل الثغور حتى يدعو لهم؟ وإن دعا أيستجيب الله؟

وكيف يستجيب الله وفيهم من هو بعيد عن الإسلام بالجملة، ولا يدري من دينه شيئًا إلا وداخله مثله من دين النصارى من كثرة المخالطة والتجارة والمجالسة والمؤاكلة، ففسد اللسان وفسدت الديانة. تذكر كيف كان يؤم الناس في يوم فدخل المسجدَ فلاحٌ يسأل في أي ركعة هم فالتفت من المصلين مَنْ قال له دُشّ!

ضحك جمعٌ وخرجوا من الصلاة واستلقوا على أقفيتهم، وصارت طرفة يتداولونها بينهم، وأكمل الصلاة وحده ومعه نفر قليل ملكوا أمرهم. سأل نفسه ولم يَزَل: أينصر الله مثل هؤلاء؟

إذا فرحوا طربوا ولم يتركوا صنفًا من اللهو إلا أتوه، وإذا حل بهم القحط أو الجراد أو غير ذلك فزعوا للمنجمين والكهان، وجاؤوا بحيض عذراء ودفنوه في التراب، أو جعلوا تلك العذراء الحائض تطوف والديك حول الزرع ليسلم من الآفات، فإذا عصف بهم ريح قالوا كان طلسمًا يحميهم وكُسر، أما إذا علموا أن أحدًا اشتغل بالفلسفة أو التنجيم رجموه قبل أن يصل أمره للسلطان لأنه حرام وكفر! حتى لو كانوا أتقى الناس، لازالت الأسباب تعاندهم؛ فأين عددهم وعدتهم من عدوهم؟

هذا عقبة بن نافع قض بسيف كاهنة أوراس والغافقي والسمح بن مالك قضوا بسيف الفرنجة، الأولان كانا من التابعين، وكلهم حافظ للسنة والكتاب، والمنصور بن أبي عامر الطاغية ما هُزِم في رقعة ولا كُسِرَ له جيش. أنَّى ينتصرون إذن وهم شر الناس في الطاعات والأسباب؟

ما يبعدهم عن مصير بني إسرائيل أن يضرب عليهم الذلة والمسكنة أبد الآبدين؟ أو ما يعصمهم من مصير الأمم السابقة أن يحل عليهم لعنة وغضب من الله؟ أيهلكون وأهل الرباط فيهم؟ ذلك ما يقوي أمله، كلما تكالبت عليه الهموم نظر في وجوههم، فيهم ما يسري في البشر من غبطة الإخوان أو حتى حسد الأقران، لكن لازال يحسبهم على خير، ولم يعمل فيهم سوء ظنه كما يعمل في غيرهم من أهل القرى حولهم، ويلجم نفسه كلما رامت النظر في معايبهم، إذن لماذا لم يلزم رباطًا في المغرب أو تونس، ربما لأن تلك الرباطات أصابها التبطل من البعد عن العدو، أو أنه يشتاق في هؤلاء لتلميذه حنيزة ويشتمُّ فيهم ريحه، لعله عاد فيه فرح الصبا أن يثبت لتلميذه أنه ليس بالقاعد ولا الخانع، فرح الصبا ذلك الذي جعله يفحم القاضي في مجلس السلطان، فيعقد لسانه ويميت في قلبه كل رغبة، فمازال الله يعوضه في كل منزل بتلميذ يقوم مقام لسانه ومنهم كان حنيزة، تراه أين هو؟ لا ريب في رباط آخر يفعل كما هؤلاء، أو لعله قضى قبل أن يعرف بنفير شيخه، لو رآه لما سعد به أحدٌ أكثر منه. لكن الله عوضه برجل بمثل قلبه؛ ذلك الأمير المتطبب المنكود. مازال في نفسه استشراف لعظائم الأمور وكبار الهموم كبني جنسه من الأمراء، بيد أنه يكابد ذلك بالعزلة والخمول، وهو بعد يتفكّر في نفسه وحاله ومآله، ولعله بتفكره واتهام نفسه يفتح الله له ما يعوض رغبته في الملك الذي طُبع فيه. هاهو ذهب للغزو بعيدًا عنه كالآخر، أيعود مثله أم يغيب؟

شعر بالآلام في كتفيه من طول السجود، اتكأ على كفيه وقام من سجدته بتؤدة بعد أن دعا، ومازال السؤال يلح عليه لا يبارحه؛ أينصرهم الله؟

***

سار شرف الدين الظاهري متقدمًا الركب في جملة أصحاب ابن يعقوب عائدين إلى عين الصقر. كان يشد ظهره وصدره، راسيًا على جواده كالطود العظيم، لو قيل لمن يراه على هيئته هذه أنه كان عليلا ملازمًا للساقة يحفه غلمانه منذ يومين فحسب؛ لأنكر ذلك وما صدقه. وكيف يدركون أن العودة دون غزو أعادت للظاهري عافيته، وأنه كان يهاب الخروج كالنساء، ولولا منزلته في القوم لتخلف غير آسف. جبن أن يخبرهم أنه شرف الدين الظاهري سلحدار سلطان مصر، الرجل الذي علمهم الرمي بقوس اليد وامتحن رماحهم وسقى سيوفهم، وعمل معلمًا للمماليك عشرين عامًا؛ لم يشهد في حياته معركة واحدة، ولم يخرج من طباق القلعة إلا في المواكب والأعياد، ثم هاربًا من مصر خائفًا يترقب بطش سلطانها! لم يضرب أو يطعن في حياته إلا رؤوسَ الأنعام وجدرانَ الطين وسواريَ من خشب، ولم يتهمم بحرب إلا حروب مصر وسلطانه، كيف يضرب رجلا مثله، والأنكى أنه يريد قتله كما يريد هو! ومما زاد الطين بلة أنْ علمَ أنَّ النصارى كما أهل غرناطة يرمون بالبندق كبني عثمان، وهو الذي يكره الرمي به ويراه من هوان الفروسية في هذا الزمان، فقد كان يستهين بمن يرمي بقوس القدم حتى رأى البنادق؛ فما أهون أن يمسك بها رجل عيي فيفقأ عينًا أو يفت عظمًا! لعن في سره اليوم الذي أفتى فيه للبنادقة أن يأخذوه للجزيرة،

لو أنه سار إلى تونس أو فاس لكان خيرًا له، أو حتى بقي في المرية بطَّالا، قانعًا بالصيد والجلوس مع حريمه وعياله. ظن أن عمل الميادين سيحييه بعدما كادت البطالة تميته، فإذا هو يرسله إلى حتفه! لكن لطف الله به جعل العطار يعيدهم إلى عين الصقر مرة أخرى، وسيجعله يحتمل عبور النهر وأوحاله مرتين. لكنه راوده شعور بالإثم من زهوه وتورد وجهه بعدما علم بخبر الرجوع؛ فقد رأى رجالا كأنهم عائدون من جنازة؛ مطأطئين رؤوسهم، وقلوبهم ملأى بالحسرات. كذلك الطبيب موسى معلم صبيانه. داخله عندئذ شعور بالزهو أنه صنع من ذلك الرجل فارسًا على لين فيه وقلة صبر على المكاره، وضيقٍ بمخالطة الناس والصبر على مزاح الرِّجال.

ترى كيف ينظر إليه لو علم أنهما، أستاذًا وتلميذًا؛ كانا على وشك الاختبار في أول معركة لهما معًا! بيد أن الأخير، كما قيل له، كان له باع في حصار الحَمَّة وثبت للنصارى يوم خرجوا عليهم من الحصن يوم المطر، حتى في هذه فاقه فتى الجزيرة. تنهد الظاهري من تشعُّب الفكَر التي أحنت ظهره، فشده باعتداد، ثم انتبه لما رأى رجالا يتهامسون ويحفون بابن يعقوب يسألونه أسئلة لا يتبينها، وابن يعقوب صامت لا يجيب، ثم تعالت همهمات الرجال حتى تبينها الظاهري أخيرًا؛ كانوا يسألون عن وجهتهم، فهم يسيرون منذ ساعات في غير طريق عين الصقر!

❊❊❊

كقفزة صبي في الماء البارد؛ كذا رأى رودريجو الحرب دومًا. في البدء ينظر خائفًا لسطح الماء، ثم يقفز برأسه لأسفل ويرى الماء يقترب منه مسارعا دقات قلبه، حتى إذا صفعه ثم غمره شع منه لهيبًا، وبعد النجاة

من الصدمة الأولى يشعر بالدفء والانعتاق، حتى يطيل المكوث في الماء ويرجو ألا يخرج أبدًا.

على ذات المنوال نخس رودريجو جواده، وقد قطع عليه المور نصف المسافة أن خرجوا من لوشة للقائهم عند النهر، لاحظ أنه وفرسانه أسرع من باقي الجيش، فلم يُبارِهم إلا فرسان تخففوا من دروعهم كالخينيتا. تجاوز بجواده جماعات من الفلاحين جمعهم فرناندو من الحقول لمساعدة الجيش في السلب والنهب وجمع الغنائم، رمق رودريجو بازدراء أجسادهم الهزيلة وضاق بانعدام نظامهم ومزاحمتهم الخيول، ولما جاوزهم بفرسانه أطلق لجواده العنان وأنفاسه تلاحق وقع الحوافر. اقتربت منه صورة المور القادمين على صهوات خيولهم، صارت لوجوه الجياد تفاصيل، واستطاع تبين ألوان الغرر في وجوهها، ظهرت ملامح الوجوه الشائهة تحت العمائم والخوذ؛ جباه فحواجب وعيون ولحى، ثم جباه مقطبة وحواجب منعقدة وعيون متقدة وشفاه في قلب اللحى تتمتم، والرماح التي كانت نقاطًا بعيدة صارت نصالها أدق وأوضح، رفع رودريجو رمحه للأمام متحفزًا، ولما رأى رماح المور كاملة أغمض عينيه. صاح صيحة الحرب: «يا سانتياجو أمِت!»، والتحم الحديد بالحديد..

صمَّ الحديد أذنيه لوهلة، وبعدما تجاوز بجواده خصمه، شعر برمحه وقد علق بلحم فتركه، ثم لوى عنان الجواد واستدار ليرى الرمح ناشبًا في كبد خصمه، أخفض رأسه لبرهة ليطمئن على دروعه، ولما أيقن سلامته برقت عيانه جذلا، فأدار رمحه في جسد الفارس الميت حتى أخرجه وطفق يبحث عن فريسة جديدة، ثم تكاثر الفرسان فنحى رمحه وامتشق سيفه من غمده وفرسانه يكتمل اجتماعهم حوله مثخنين في

عدوه، ثم رأى المور ينهزمون نحو لوشة، فزاد في عدوه وقد تقدم عليه هذه المرة قطعة من جيش الملك يريدون اللحاق بالمور لقطع الطريق عليهم، حتى إذا جاء جل الجيش أحكموا الحصار حول لوشة وجلبوا الأنفاط من المعسكر على مهل. وفي غمرة النشوة برق بصره فجأة، وتوقف عن العدو وأشار لفرسانه بالوقوف، كأنه تخلى عن لهو الصبيان الذي استبد به من أول المعركة، واستعاد صورة الفارس الذي خبر قتال المور في عشرات المعارك؛ كرّ يعقبه فرٌّ، حتى إذا دنا العدو منهم.. طوقوه!

فغر فاه من أفكاره ولم يكد يغلقه حتى رأى اضطرابًا في جيش الملك من بعيد، وسمع الرجال ينقلون لبعضهم بعضًا غمغمات لم يتبين منها سوى «خينيتا».

***

- «يا خالد يا ابن الوليد!» صاح شرف الدين وفاق سهمه الأول من فوق جواده ورماه؛ أوهم نفسه أنه في الدغل يصطاد أيلا، أو أنه يرمي أمام السلطان. نشب سهمه في حلق رجل، ثم تنكب قوسه ورفع دبوسه من تحت ركبته وهوى على رأس ثان. صاح حتى ارتج الهواء حوله، كان منظره مهيبًا وهو يصعد تلة المعسكر من خلف مع رجال ابن يعقوب والمدد الذي أمده به العطار. لما توقف بهم ابن يعقوب قبل حين عند ظاهر التلة وأخبرهم بأمر العطار أن يكبسوا على النصارى معسكرهم كاد القولنج أن يداهمه مجددًا، لكن تكبير الرجال وحبورهم أشعره بالخزي من نفسه، ثم قوى أمله ورآهم كالمماليك،

كالعساكر المنصورة وهم خارجون لقتال ابن عثمان. رفع رأسه للسماء ودعا واستغاث، ثم استعان وها هو وسط الحرب؛ شرف الدين الظاهري معلم الرمي سلحدار السلطان!

امتشق الظاهري سيفه وصار يطوف برؤوس الرجالة من النصارى، توهم رماحهم بلا نصال، فتفاداها غير هياب، والمرابطون حوله يملؤون المعسكر حتى أسقط في يد النصارى فتراجعوا وتعثروا عند سفح التلة الضيق على ضفة النهر، فأوقع بهم المسلمون قتلا وأسرًا وحازوا أنفاطهم، وهم بعيدون عن باقي جيشهم الذي استدرجه العطار بعيدًا نحو لوشة. وموسى وسط كل هذا يسير بين الجموع فلا يصله رمح ولا سهم، ولا يطوله سيف، ثم راح يتبع أستاذه الظاهري وهو يثخن في العدو فلا يثبت له أحد، حتى إذا كان عند سفح التلة، رأى سرية من فرسان النصارى عائدة من ناحية العطار تكر عليهم، فارتجت صفوف المسلمين ووجد نفسه في المقدمة. خفق قلبه وتسارعت أنفاسه، نظر إلى السماء مستجديًا، ثم تخيّر فارسًا من فرسان النصارى وتقدم نحوه، قرأ في ذهنه ما علّمه الظاهري من أصول اللعب بالرمح فشغله ذلك عن خوفه، ثم رفع رمحه بين أذني غارب الذي عودته جلبة الظاهري في الرباط على أصوات الحرب فلم يتوقع شرًا وانقاد لصاحبه. دقق النظر في الفارس القادم نحوه فرأى الفارس موجهًا رمحه نحو يسار موسى وبدا ساذجًا بلا حيلة، فأمسك موسى رمحه بيسراه وطرحه على ساعده الأيمن ثم خرج إلى يسار الفارس الذي طمع فيه، فحبس موسى غاربًا فجأة ونقل الرمح إلى يمناه، ثم شد على الرمح بيمناه ويسراه ووجّهه يسرة، فطعن خصمه بين عينيه فأرداه.

كبَّر عاليًا حتى كاد ينخلع قلبه، كبَّر والدمع يملأ مقلتيه، لم يظن يومًا أن يمنَّ الله عليه بغزو، ولم يظن أنه إذا غزا ثبت. ظل صدره يعلو ويهبط، وهو يحاول تسكين خاطره، ويستشرف الفرسان القادمين. أراد نزع رمحه كأنه غرسه في جوزة، لكن الرمح نشب بين العظم وكاد موسى يكسره وهو يخرجه، لهث ظافرًا بعدما نزع الرمح سالمًا، ثم انتقى خصمه الجديد فألقى الرمح على جواده ولم يمهله، حتى إذا كبا جواد خصمه الصريع رفع موسى سيفه وهوى به على خوذة خصمه، فأنشبها فيها وانبجس الدم منها، ثم عاد إلى رمحه فانتزعه بمشقة حتى كاد يكسره لما نشب بين العظم والحديد، كاد ييأس منه ويتركه، ثم اشتد عزمه على نزعه وانتقى خصمًا آخر، وتناول كل منهما رمحه يمنة ويسرة؛ كل يناوش غريمه حتى اخترق النصراني سهمٌ في رقبته، فخرّ من على الجواد. ذهل موسى لوهلة، وكأنه لأول مرة يدرك أن في الحرب غيره وغير خصمه!

انخلع قلبه لما رأى كل تلك السنان مصوبة إليه، وكل تلك الجياد حافة به، وسحائب السهام من فوقه تقصده. شعر أن الخناق يضيق عليه وعلى جواده، وتمنى لو أن له ألف عين يرى بها من كل جهة، ولم يفق إلا وضربة سيف تعاجله على رأسه، رفع درقه المعلقة في يسراه فجأة فصدت عنه الضربة وإن شعر بساعده يكاد يُكسر، ثم أعادته تلك الضربات ليذهل عما حوله عدا خصمه، وتناوبت يمناه بالرمح ويسراه بالدرق ينازل بهما عدوه، حتى إذا رأى النصراني من موسى غفلةً هوى على يمناه فجذبها للخلف بسرعة ملقيًا رمحه، ثم صار موسى يتقهقر بغارب متلقيًا ضربات السيف على الدرق، وغارب لا يدري سر صياح صاحبه وهياجه، يظنها جلبة الميدان في عين الصقر، ثم لوّى موسى عنان

غارب قافلا، وظل يتقي ما يظهر من جسده بالدرق حتى كادت تبلى تحت ضربات السيف، فلما تراخى موسى عن عدوه ألقاها، وتناول قوسه وسهمه فرمى النصراني مرة واثنتين يبغي رأسه فلم يصبه، فطمع فيه الفارس النصراني ونخس جواده نحوه، ثم صوب موسى سهمه على صدر الجواد ورماه، فلما طاش السهم لأعلى نشب في درع الفارس فلم يدر أأدماه أم لا. ومازال يقترب منه، وموسى يفوق سهمًا رابعًا، والسَهم عصيّ أن يفوق في الوتر، فتارة يفلته بيمناه من الوتر، وتارة يفلته بيسراه من كبد[1] القوس فيدور في يده، والفارس يقترب منه ذراعًا فذراع. حمحم موسى كحمحمة الفرس، ويداه متصلبتان، حتى إذا دنا منه الفارس أسقط في يده؛ فلو ألقى قوسه وسهمه لم يسعفه الوقت أن يخرج سيفه من غمده، ثم رفع الفارس سيفه في الهواء وجعل فرسه يقف على قائمتيه حتى علا موسى بسيفه ورأى موسى شعاع السيف في عين الشمس، فلم يدر موسى إلا بيديه قد انحلتا، والسهم فُوق وأُطلق، فألقى الفارس سيفه متألما والسهم اخترق إبطه حتى الريش، فصرخ موسى وفزع إليه بسيفه فاخترق درعه وأنشبه في صدره وفارت دماء النصراني على يديه. زفر زفرة كأنما هو الذي يشرف على الموت، ورأى عدوه وهو يسقط على جنبه الأيسر، فتخلخلت خوذته من فوق رأسه، ونزل موسى من على جواده يريد الإجهاز على ما بقي فيه من روح، لكنه وجده يحتضر، ورأى فيما كُشف من وجهه كأنه يسمع شيئًا ويشير برأسه في وهن، ثم نام على ظهره وأسلم الروح، وبدا على ردائه الأبيض الذي فوق دروعه صليب أحمر قان تنتهي حوافه بزهور الزنبق، ويحفه التوريق.

---

(١) ما بين طرفي مقبض القوس ومجرى السهم منها.

رفع موسى رأسه عندئذ فرأى اضطرابًا هائلا في صفوف النصارى وسمع صيحات بالعجمية لم يفسرها، وأبصر لأول مرة أنه ترك ضفة النهر وراءه بعيدًا في تقدمه مع شطر من رجال ابن يعقوب، ثم إن النصارى فرّوا، واقترب منهم العطار برجاله وجاء إخوانه في الرباط يعانقونه ويهنئونه، ثم فهم بعد لأي أنه قتل رودريجو، أو لذريق سيد قلعة رباح؛ أحد فرسان قشتالة الصناديد! أشرق وجهه وتبسم، ثم التمس غاربًا فسار يبحث عنه كالمجنون حتى وجده يحمحم ويدور حول نفسه. عانقه وبكى، فلمعت عينا غارب كأنه يجاوب سيده البكاء، ثم علا نشيج موسى حتى أنكره إخوانه. ثم ربّت عليه ابن يعقوب والظاهري يهنئانه، وقال له ابن يعقوب إن العطار يريده أن يذهب إليه.

عانقه العطار وَدَعَا له، وقال إن النصارى قد فت في عضدهم موت لذريق فكان من أسباب فرارهم، ثم ترحم على أبي العباس وسأله عن أبي يحيى ابن أخته، وعن أحواله في عين الصقر، وموسى يجيبه ذاهلا عنه، ثم أبصر رجلا أتى من خلفه للعطار يحفه الغلمان من كل جانب، يشبه أباه سعدًا بجبهته العريضة وعينيه السوداوين ولحيته السوداء التي خالطها بعض الشيب. عاد إليه انتباهه، وحدّق في الرجل الغريب، حتى قطع العطار الصمت لما حيا الرجل وقبّل يده، ودعاه «مولاي بوعبدللي». أجفل موسى برهة، ثم أدرك أن الرجل كان غافلا عنه، ثم لما تبين وجهه أجفل وحدّق فيه بدوره حتى أنه لم ينتظر من موسى أن ينحني ويقبل يده؛ نظر إليه متشككًا وسأله زاويًا ما بين حاجبيه: «اشكون الفارس؟»

***

أنت

-«موسى بن المستعين بالله سعد بن الأحمر النصري . . لم أصر شحاذًا في الطرقات يستجدي الناس بعدما وثبتم على أبي. لم أخن ولم أداهن، ولم أصل بعد المدلهمات أقطف الثمر، بل فارس مجاهد قتلت لذريق سيد قلعة رباح بيدي هاتين!». كذا صاح الملك قلب الدين، صيحة مدوية ألزمت المملكة جميعًا بالصمت. كانت المملكة في حالة عجيبة من الاختلاط لم يحدث لها مثيل؛ فقد فتح الملك أبواب الصدر ابتهاجًا للأرباض جميعها، فتقدم ربضا العُجب والإخلاص على اليمين والشمال يتنازعان إرادة الملك ليصرف عرفاء العينين والوجه واللسان حسب رغباتهما؛ فإما الإخبات وقصر الطرف وجمود الوجه واحمراره وشغل اللسان بالشكر، أو اتقاد العينين وانتفاخ الأوداج والتبسم حتى تبين النواجذ، ثم إن ربض العُجب أراد أن يحتال على الملك بأن امتزج فريق منه بربض الإخلاص وأراد من الملك أن يأمر عرفاء الرجل بالسير بين المرابطين، فتنظر إليهم بطرف العين تنال ثناءهم، لكن القاضي أبا الضمير نهر المندسين وأخرجهم إلى حيث وقف أصحابهم، وظل التنازع بين الربضين قائمًا حتى سألك الزغل من تكون.

نعم، من يكون الفارس؟

هدأ الملك بعد فترة. أدرك من نظرات وزيره ابن لبابة أن ذلك الجواب ليس بالذي يُلقى على عجل. هَبْ أنه أظهر نسبه أيصدقه الزغل وقد باعدت بينهما السنون؟ وإن صدقه واصطفاه لنفسه ألهذا خرج؟ وإن رفض وطلب أن يتركه بين الجند ألا يخشى بعد أن يغدر به؟ كم كانت

عين الصقر رحبة على أسوارها، واليوم ما أضيق الدنيا عليه! جلس الملك على عرشه، وصرف الأرباض كلها من قصره. سئم تناحرهم وشجارهم على إرادته.

اختلى بالوزير والقاضي، وأمر بإحضار كل عرفاء الجسد. تجمعوا أمامه صفا واحدًا، يظللهم البند الكبير الذي علقه على قصبة الصدر:

«الله ربي

الإسلام ديني

محمد - ﷺ نبيي

اسمي موسى

سعد أبي

لكن أبا الغسان من أنتسب إليه».

كذا عرّفت نفسك دومًا وارتحت. حتى لما أظهرت نسبك ظل بعض الناس يدعونك لجدك اعتيادًا وألفة، أو خوفا من السلطان، أو ربما غيظا لك وحسدًا. ثم لما خرجت للحَمَّة اخترت نسبك لأبي الغسان طوعًا. واليوم يأتي الزغل ليسألك من تكون.

-«من أنا؟» نظر الملك إليهم متسائلا. لم ينتظرهم أن يجيبوه.

-«أنت يا عريف اليد، أخبرني من أنا؟ خطاط طالما طبعت فيك حركات الحروف والخطوط فصرفت يدي بين الأحبار والورق وطبعت فيك معرفة الورق من مسه، أم صاحب زرع يمسك بالسوط يؤدب الدواب ويقرع الحديد ليصرف الجراد عن أرضه، أم طبيب طبعت فيك حركات

المباضع والمحاجم، فأوغلت يدي في أجساد الناس ودمائهم ومياههم، أو خضت بها في الدهن والأعشاب، أم فارس تضع عرى الأمداس وأوتار القسي على أصابعه علاماتها، وتطبع فيها حركات اللعب بالرمح والضرب بالسيف وتفويق السهام.

أنت يا عريف العين أخبرني من أنا؟ كنت طفلا محجوراً في الحمراء يرى كل ركن بلونها أتشوق للسماء. أرى غرناطة ثاوية تحتي من فوق برج قمارش، ثم نزلت إلى الأرض ورأيت الدنيا من على ظهر حمار يحملني من المرية إلى الحوض، وبعدها حُجِر عليّ في الخضراء فلم أرَ إلا الكتب، أو أجساد خرجيرات الفنادق خفيَة، أو نزق الشباب بعيداً عن العيون. ثم رأيت فاطمة ورأيت ولدي، ثم نزلت بي البلية فلم أعد أرى إلا رجالاً في لأمة الحرب.

أنت يا عريف الرجل أخبرني من أنا؟ كنتَ عاريًا أو في شربيل أمي في الحمراء محمولا على السواعد، ثم حملتني أنت في خفك على الأسوار بين أرباض المرية أغافل الدرابين سعيًا وراء ملذاتي، ثم رفلتَ في بُسُط التجار، ثم وحلتَ في طين الحوض تارة وعاريًا على فراش فاطمة تارة، واليوم ترتدي السروال والريحية[1] أبدًا، فإما مقوسا حول السرج وفي ركاب غارب أو بين تراب القبور.

وأنت.. أنت يا عريف اللسان أخبرني من أنا؟ في حجر أمي كنت تصيح بَلكة بَلكة، وبين يدي المالقي كنت تتلو القرآن وتنشد الشعر وتقرأ طبقات الأمم، وبين ذراعي قسمونة تقول فحشًا، وعلى أبواب البِيَع

(١) حذاء عسكري ثقيل.

والكنائس تقرض غزلا، وعند فاطمة تسيل عشقًا ولا تزال، واليوم تكبر وتهلل في النزال.

يا عرفاء جسدي أخبروني من أنا؟

يا وزيري وجامع علومي ائتني بمتن من متونك يخبرني من أنا. يا قاضي الجماعة ائتني بآية أو حديث أو أثر يخبرني من أنا؟

أنا الذي جرب كل شيء فلم يحذق أي شيء، أنا الأمير المنكوب، والزوج المهجور والأب المقطوع، وصاحب الزرع المحصود، والفارس الشادي، والطبيب الذي لف الجرح فقتل صاحبه!

بكى الملك وأبكى جميع مملكته. عركته السنون والخطوب، واليوم يأتي الزغل سبب نكبته ليسأله من يكون.

حبس الملك جميع عرفائه ولم يحر جوابًا. جلس على عرشه منهكا من الفكَر. نظر إلى بنده المرفوع، ثم توجه إلى عريف اللسان يأمره..

وكذا يا موسى لم يبد منك لأخيك سوى صمت ووجوم لوهلة قطعته بقولك: «موسى بن أبي غسان».

***

الفصل الثامن

أغشت

أنا

ذكر حالي بعد وقعة شلوبانية:

بعدما أفاء الله علينا بنصره على النصارى كما تقدم، انتظمت في جملة الأطباء أداوي جرحى المسلمين؛ أضمد جروحهم وأجبر كسورهم وأخرج الحديد وأنصال السهام من الأبدان، فكنت أسرعهم عملا بالمباضع حتى دعوني موسى الشفرة! فتعجبت لما سمعت كنيتهم تلك أول مرة لأنها ذكرتني بالشفرة قاطع الطريق الذي لقيته بالحَمَّة، وشتان بين شفرة وأخرى! ثم إني نهضت للقيام بشئون المرضى وترتيب أحوالهم فكنت آمر الخدم والعبيد بضرب الأخبية عند ظاهر المدينة وفرشها بالبسط والحواشي لنقل الجرحى، والسعي بينهم وبين الأطباء أوجه كل طبيب لمن يحتاجه، وأضع رقعة عند رأس كل جريح أبين حاله وتدبيره من الدواء والغذاء. ولا تتعجب يا بني من ظهور شأن أبيك على من هم أسنّ منه؛ فالناس في وقت الشدة ينسون مراتبهم وتمايزهم، ولا يملكهم إلا الرغبة في النجاة والسلامة من المضار والآفات، فأيما رجل ظهرت نجابته واتقاد ذهنه، وبادر إلى أمر ونهض به؛ سمعوا له وأطاعوا وخلّوا بينه وبين ما يريد. ولعلك قرأت في غير موضع عن وقعة أو محنة وقعت بقوم وحلّها رجلٌ من مجاهيل الناس آتاه الله العلمَ والبيان فخضعوا له، حتى إذا انجلت المحنة حفظ له صنعَه الكرامُ وجحده وتنكر له اللئامُ. وقد كان العطار كريما رفيع الخلال، وكان قد عرفني لما قتلت لذريق صاحب قلعة رباح، فحفظ لي صنعي وشكر لي همتي، وأرادني

لمجلسه، فودعت ابن يعقوب وإخواني من عين الصقر وشكرت لهم صحبتهم، وودعت شرف الدين الظاهري وقد أزمع الذهاب إلى مالقة مع الزغل، وكان الزغل قد وافانا عند ملاقاة الروم لعله يستميل تلك الناحية إليه بدلا من طاعتها لأخيه، بيْد أن العطار كان ينأى بنفسه عن حروب بني الأحمر فهشّ له وبشّ ولم يطمعه فيما دون ذلك، فأيس منه الزغل ورحل عنه، وكان الزغل قد اطلع على حال الظاهري، فطمع فيه ورغبه بصحبته وجعله مقدمًا على رماته الأغزاز، فسرّ شرف الدين بإقبال الزغل عليه ورغب في صحبته، فاستودعته الله وأخذت عليه العهود والمواثيق أن يكتم ما يعرفه من أمري عن أخي، وإني أسأل الله له السلامة من كل إثم والنجاة من كل غدر. غاية القول لما استتب أمر الجرحى على خير ما يرام، أجزل العطار لي العطاء ووعدني بدار في المدينة، وخلع علي ووجهني إلى عماله أتعلم منهم إحصاء الغنائم وحصرها أن يغل منها غالّ، وقد أمر وقتها ألا تدخل الغنائم لوشة إلا بعد تفريقها، فلا يدعي شهودَ المعركة أصحابُ الحيلة والصعاليك، أو يطمع بها تاجر أو عامل، فتحل بنا اللعنة من الله ويُنزع عنا النصر والتأييد، وكذا ينزل بالقواد الظالمين، ففرق العطار الغنائم على مشهد من الناس لم يفرق فيه بين شريف وضعيف، بل زاد منها عامة المسلمين وأرقهم حالا، وكنت بين الحُسّاب وأخبية المجروحين حتى إذا جمعنا من الغنائم خُمس السلطان دخلنا لوشة، ثم تجهز العطار ليرسله مع رجاله، لكن سبق إلينا خبر غرناطة وما وقع فيها بين أبي الحسن وبنيه.

ذكر حال غرناطة وما آل إليه أمر الحمراء:

وكان الشيطان قد وسوس لأبي الحسن فاشْتغل باللذات والانهماك في الشَّهَوَات وَاللَّهْو بالنسَاء المطربات وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات، وغرناطة من حوله تمور من جور المكوس واستعمال الظالمين وظهور النصارى الكافرين، ووزيره ابن بنيغش يجمع المغارم ويثقلها وَيجمع الْأَموَال ويأتيه بهَا ويعطيها لمن لَا يَسْتَحقهَا ويمنعها عَمَّن يَسْتَحقهَا، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفَرسان وَيقطع عَنْهُم الْمَعْرُوف وَالْإِحْسَان، حَتَّى بَاعَ الْجند ثيَابهمْ وخيلهم وآلات حربهم وأكلوا أثمانها، وَقَتَلَ كثيراً من أهل الرَّأي وَالتَّدْبِير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها، كما فعل بأبي العباس الشلوبيني في حصار الحَمَّة، واستبد الوهن بالسلطان وانحلت عزيمته وكان فوق ذلك ألعوبة بيد جاريته الرومية ثريا تولي من تشاء وتعزل من تشاء، فكان لا يقدر على جفاء جاريته ويعتذر منها بالمال والجوهر، ومن ذلك ما أُثر عنه في ليلة أنها غضبت عليه وهجرته، فصار يدق عليها بابها فلا تفتح حتى سَدَّ بابَها بباب من أكياس القطاع فلما فتحت الباب انهار ذلك الباب تحت قدميها، فاستولت الجارية على إرادته وطوعت له حبس زوجته الأميرة عائشة وولديها محمد ويوسف، واصطفاء ولديها نصر وسعد، فهاج العامة لذلك ووقعت الوحشة بين أبي الحسن وبني سراج، فتواطؤوا على خلعه وهم الذين رفعوه على العرش من قبل. فأخرجت عائشة ولديها من محبسهما سراً بمالها، ووجهتهما إلى وادي آش فقام الناس في الوادي وفي غرناطة بدعوتهما، ثم إن بني سراج فرقوا الأموال في أهل

البيازين فاجتمعت لهم من ذلك عصبة إلى عصبتهم، وانضم لهم السوقة من كسرة الأغلاق ومخيفي السابلة، أما ابن رضوان الحاجب فاستعفى السلطان لما رأى الدائرة تدور عليه، والتزم بيت صهره الأمير يحيى النيار بألمرية وترك سلطانه يحصد صنيعه وحده.

ثم تخيّر القوم يومًا بات فيه السلطان في جنة العريف وسكن الناس في القلعة للطمأنينة وأضاعوا الحزم لغيبة السلطان، فأعد المتنزون آلات الحرب والمشاعل وقصدوا سور الحمراء من ناحية نهر حدرة، وكان قد تهدم بعضه وتراخى العمال في إصلاحه، ولم يكن عليه إلا حارس واحد، فكبسوه وانساحوا في القصر وأحدثوا جلبة ولغطًا، وكبسوا مخازن السلطان وقتلوا خاصته في دورهم في الحمراء، وأخرجوا طبول السلطان وراياته وشاراته وصحبوا معهم أبا عبد الله محمدًا ابن أخي فأركبوه فرس السلطان وساروا به بين الناس عند الفجر يحفهم العوام، ولاذ أبو الحسن بالفرار بجاريته قبل أن يصل إليه أحد، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وجرع من نفس الكأس التي سقاه إياها أبي ولا حول ولا قوة إلا بالله، فصار يتنقل من قرية إلى أخرى وجند ولده يطلبونه حتى أعيته الحيلة فذهب إلى أخي الزغل في مالقة.

ذكر لزومي للعطار:

أنزلني العطار الدار التي وعدني إياها من قبل، وهي دار فسيحة تبز الخضراء كُسيت جدرانها بالزليج، وفي فنائها بركة يحفها أشجار النارنج[1]، وفي ظلها مجلس مبسوط بالوسد والطيافير، وجهزها عمال

(١) البرتقال.

العطار بالأتوار والأنوار والأسرّة وسائر المتاع، وأتيت بكتبي وآلاتي من عين الصقر، وأنفقت على إصلاح البيت واشتريت بغلا وثيابًا وغلمانًا، وقد رزقني الله مالاً وفيراً من غنيمتي بوقعة لوشة وسلْب لذريق صاحب قلعة رباح، فقد اشترى مني العطار عدته بأضعاف ثمنها، وكنت حينها لا أراه يكرمني إلا لصنيعي بقتل لذريق ومعاونتي للأطباء بعد الوقعة. لكن كذا يا بني سنة القواد الحكماء؛ فهم من وجه يأتلفون المجهولين النجباء ويستكثرون منهم حتى إذا أكلت الحرب بعضهم، بقي من يدبر شئون الرعية ويُستشار في الملمات، وينهض للأمور الجسام. ومن وجه يضمن الانقياد وحسن الطاعة؛ لأن الجديد الوافد على أهل الخاصة والسلطان، لا يجد في نفسه ما يطمعه في مجالسة هؤلاء القوم، بله أن يقربوه ويصطفوه وينفقوا عليه، وهم يطمعون فيه لأنهم لا يبالون بظاهر حاله، وإنما ينظرون لرجاحة عقله وملكاته، ويستشرفون مآله، فيجد الوافد في نفسه حبًّ مَن قرَّبه واصطفاه وطوق عنقه بجميله أبد الدهر، فيحصل للوالي والسلطان بذلك القوة والمنعة بالرجال، فإذا هلك القديم أو تبرمك استبدل الجديد الوافد به ولا يألو، وكذا اصطنعني العطار لنفسه، وكذا اصطنع الزغل شرف الدين الظاهري. وإن السلطان الغافل من ينافس قواده فينافسونه ويحسدهم فيتقونه، وبذلك يفسدون دينهم ودنياهم ويُطمعون فيهم عدوهم وكذا فعل أبو الحسن، فكان فيه هلاكه وضياع ملكه، فتأمل!

وكنت مذ خرجت من الخضراء بعد موت جدك شاديا أتنقل بين العلوم والحرف، لا أقنع بالتزام شيء منها؛ فمن الفلك لصنعة الخط

للتوثيق للفلاحة آخذ من كلٍّ بطرف، إلا الطب تلك الصنعة الشريفة الخطرة؛ وهي شريفة بجعل صاحبها مهوى الأفئدة ومحط الأنظار، وجعله في غنى عن الناس يحتاجون إليه ولا يحتاج إليهم بذات المقدار، وقد قطعت في صنعة الطب باعًا يجعل طلب المزيد منه ترفًا، ولا تظنن أباك طبيبًا حاذقًا فمازالت بضاعتي فيه مزجاة، غير أنها رائجة في سوق خاوية على عروشها، وبين ظهراني أقوام ازدروا العلم وفضلوا عليه المال والتجارة تحميهم إذا نزل بهم جابٍ ظالمٌ أوطاعون وافد أو رومي غاز، فيزنون الرجال بأموالهم وصنائعهم، فإذا رأوا الطبيب ازدروه وخلطوا بينه وبين الدجاجلة، حتى إذا توعك أحدهم دعا أن يحضره الطبيب!

وتلك الصنعة خطرة لأن الزلل فيها يتلف الأعضاء ويزهق الأرواح، ويجلب سخط العامة والسلطان وجفاءهم، وذلك سبب نكبتي وفراقكم، فمهما جلبت إليّ من المنافع ورفعتني منازل فلن يعزيني ذلك في فراقكم من شيء، والحمد لله على كل حال. الشاهد أنني كنت أسير على غير هدى، ولا أدري أين أجعل قوتي وهمتي، حتى لازمت العطار، فأشرقتْ نفسي واتقد ذهني وانشرح صدري، فوجدت ذلك النزر اليسير الذي حزته من كل فن يغني ويفيض على حاجة العامل في مراقبة الرعية وضبط أمورها؛ فحد الخط عند العامل الإبانة ولا يلزمه من حسن الخط فوق ذلك، وحد العلم بالأسواق والتجار الوقوف على أحوالهم ومعرفة البضائع وتقدير العشر المفروض عليهم ومحاسبة التجار ومعرفة الخائن منهم والأمين، ولا يلزمك أن تكون تاجرًا مجربًا يشار إليك بالبنان، وحد الفلاحة تعيين الأرض الحسنة من الردية، والوقوف

على طرائق ريها، وتقدير الخراج المفروض عليها مع العلم بما يعرض لها من الآفات والتلف.

فيسَّر الله لي الخير في هذه الأعمال الشريفة. ولا تعجب يا بني لقولي، فلطالما كنت أذم السلطان وأهله حتى لقيت العطار واستعملني في ديوانه، فوالله ما انتفعت بصحبة أحد مثلما انتفعت بصحبته، وكنت في ذلك الموضع منذ عشر سنوات أرى كثيراً من الأضداد بين العلم والعمل، والمال والفهم، والولاية والأمانة، والإنكار على الناس ومخالطتهم. حتى رأيت اجتماع ذلك كله في العطار؛ كان يقوم الليل وبعد الفجر يأتي بمن يقرأ له الأخبار، ثم يصعد إلى مجلسه بالقصبة عند الضحى يرفع إليه العمال أعمالهم، فإذا فرغ منها ركب مع خاصته في البراري في أي وقت شاء حتى الظهر يمتحن خيلهم وسلاحهم ويقف على أحوال أهل البراري ويسمع شكواهم، فإذا اعتاد خواصه ذلك الخروج هان عليهم الجمع والنفير عند الخطوب، وقد رأيته في غير مرة في ليل أو نهار يوقظ خاصته من دورهم أو يرسل لهم من عمّاله فيوافونه بعد هنيهة في خيلهم وسلاحهم كأتم ما يكون، ومن يتخلف منهم يقطع من عطائه بقدر ما فرط، وذلك من حفظ العزم وضمان اليقظة. ثم إنه إذا صلى الظهر خلا إلى أهله ونام حتى العصر، فإذا صلى غشي السوق يقف على أحوال الناس، ويعزر البغاة والظلمة بيديه، ثم يسير إلى مغيب الشمس على شط شنيل يرقب حركة التجار ويقف على أحوال الصيادين. ثم يجلس إلى الفقهاء في المسجد الجامع بعد المغرب يتذاكرون حتى العشاء، فإذا صلى نام ساعة ثم قام ودعا بالبريد واختلفت إليه عيونه

وجواسيسه في ثغور النصارى، ثم سار خفية في بعض خاصته يتفقد أسوار لوشة ويمتحن يقظة النظار على الأسوار. ثم ينام ساعة لوقته ويقيم الليل بعدها أو يصل نومه إلى الفجر. فاجتمع كل أمر حسن في العطار ولولا صحبته ما ظننته بشراً، وما ظننت رجلا يعمل عمله في مثل سنه، وكلما سُئل عن ذلك قال إن الله حفظ عليه جوارحه بدوام الجهاد، فما أن نبتت له لحية لم يترك الجهاد البتة، ورزقه الله ثروةً وجاهًا وكان يحب أن تُرَى نعمة الله عليه، فيلبس أفخر الثياب ويضع على رأسه غفارة حمراء من قطيفة، وكان يلبس في الشتاء صوفًا مجلوبًا من الأنتكيرة، وتزخر موائده بما لذ وطاب من طعام وشراب، وهو في سيرته مع أبي الحسن في غاية الحرص والحذر، فينسب أمام الناس كل فضل لأبي الحسن، لئلا يحسده ويتغير عليه، واعتزل القتال الذي بينه وبين الزغل، وتعلل بالوقوف على الثغور قبل النصارى، فأعفاه أبو الحسن ورضي عنه وعظم عنده قدره ومنزلته؛ لضبطه الثغور والحصون، وعزوفه عن التطلع للملك ومنافسة السلطان. وزاد العطار في حرصه على رضا أبي الحسن أن صاهره بتزويج ابنته مريم من ابنه أبي عبد الله محمد، وغض الطرف عن فساد أخي ووزيره ابن بنيغش وحاجبه ابن رضوان ونزع يده من أعمالهم فبقي معهم لا عليه ولا له، وكلما أرادوا الاستعانة به تعلل بالنصارى، وكلما أرادوا مالاً فوق حاجتهم أعطاهم من ماله، أو أدى إليهم خُمْس الغنائم من وقعاته مع النصارى ولا يدرون أنه قاتل وإن دروا ما يعرفون ما غنم، أو يردهم خائبين ويتعلل لهم ببناء الأسوار وشراء السلاح والآلات للجند. واحتاط العطار في كل عمله ألا يندس بين

عماله عينٌ لابن بنيغش، ومن يعرفه منهم كان يرسله إلى ديوان السلطان يظهر ترفيعه، ويبطن الخلاصَ منه، وربما جاء إليه عامل يعتذر منه بالعذر الواهي فينخدع له كما ينخدع الصبيان، وينسج له الناسج أكاذيب يعرفها من خائنة الأعين، فيظهر صدقها، ثم يسوس صاحبها بما تقضيه مصلحة الرعية، ولما حدثت الفتنة بين أخي وولده حبسَ الخمسَ عنده ولم يرسله حتى يتبين إلى من يؤول الأمر، وله في حيله وكتمانه لأمره ما لو اطلعت عليه لما ظننت أنه يجتمع في قلب رجل مؤمن، لكنه العطار نسيج وحده، ما رؤي مثله ولا رأى مثل نفسه!

وكان يعهد إليّ بمختلف الأعمال فلا يعهد إلي بعمل واحد لئلا يصيبني السأم، فلم أكن أطمع في مرتبة بعينها من الرياسة أو الجباية أو الكتابة كما يطمع متزلفوه، فألقى الله عليّ محبةً منه، فتخير لي من الأعمال ما يشحذ همتي، وما ينتفع فيه بملكاتي، حتى صرت أقرب الناس منه مجلسًا ألازمه في حله وترحاله، وأكتم سره وكنت أطوع إليه من ولده، وكان يقربني ويصطفيني ولا يبالي بحسد الحاسدين ولا سعاية الواشين.

ذكر شيخي السلجماسي وما آل إليه حاله:

لما استقر بي المقام بلوشة وأصلحت الدار التي أنزلنيها العطار، أرسلت لشيخي السلجماسي أن يوافيني بلوشة فأبى عليّ، فصرت أختلف إليه في الرباط بين الفينة والفينة أتنسم عبير مجلسه، وأبكي بين يديه أسأله الدعاء، ولعلها نعمة كبيرة يا بني أن يجد الرجل رجلا يبكي بين يديه يذكره بالله، ولم أعرف تلك النعمة إلا بعد قبضه رحمه الله،

لشهر خلا من وقعة لوشة، وكان رحمه الله قد ابتلي في جسده بلاء شديدًا بالنقرس وغيره، فكان لا يزيد عن الصلاة مضطجعًا في آخر أيامه، وقد لازمته في مرضه الأخير أيامًا أحكي له عن حالي مع العطار فيدعو لي ولا يزيد، وكان يخاف عليّ من الفتن، ويحذرني من الرياسة وتصدر المجالس، ثم انقطع في آخر أيامه عن ذلك. وكان رحمه الله أسعد الناس بنصر الله في وقعة لوشة وتنكيلنا بالنصارى وفرار مليكهم وخاصته، فما كان يظن أن ينصرنا الله أبدًا، فانشرح صدره وطابت نفسه وصار يحسن الظن بكل أحد ويدعو لكل أحد، حتى لما أخبرته بما وقع بين أخي وولده استعبر ودعا لهما بالهداية! وظل يترنم بالأبيات التي كتبها أبو مروان اليحانسي على قبره حتى قبضه الله صائمًا يملي عليّ بعضًا من رسائله المؤملة، وكان قد أوصاني بحفظها وإعطائها لرجل من أهل العلم والفضل ينتفع بها، فيفصِّل ما أجمل فيها ويزيد، فمازالت معي حتى لقيت ابن الأزرق فأعطيتها له، فكان يدمن النظر فيها، ولعلها رافقته في سفره إلى مصر، أعاده الله سالما غانما، وبجيش من المسلمين معينًا وناصرًا.

فائدة:

اعلم يا بني أني تفكرت دهرًا فيما بين العطار والسلجماسي من الفصل والوصل، وكنت لخفة الشباب أفاضل بينهما بهواي، فإذا أغلظ لي أحدهما فضلت عليه الآخر ونافحت عن مسلكه في نفسي، وكنت أحار فيما بينهما من تباين من إقبال على الدنيا واعتزالها، ومن مخالطة السلطان والفرار منه، ومن استعمال الحيلة والمداراة إلى الجفاء والغلظة،

فأظنهما أبعد رجلين عن بعضهما، فإذا خلوت إلى كل منهما وسمعت ما يقوله أحدهما عن فساد الناس والزمان والأحوال وما يعتقده في الحلال والحرام، ظننتهما الرجل نفسه، ولبثت في حيرتي دهرًا حتى لقيت ابن الأزرق فنقل لي عن ابن خلدون نقلاً ما ظننتني قرأت المقدمة قبلا لما أوقفني عليه، قال رحمه الله: «أن العلماء، من بين البشر، أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك: أنهم معتادون النظر الفكري، والغوص على المعاني، وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أمورًا كلية عامة، ليحكم عليها بأمر العموم، لا بخصوص مادة، ولا شخص، ولا جيل، ولا أمة، ولا صنف من الناس؛ ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات، وأيضًا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها، بما اعتادوه من القياس الفقهي.

فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية، والأنظار الفكرية، لا يعرفون سواها، والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج، وما يلحقها من الأحوال ويتبعها، فإنها خفية؛ ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.

ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء، لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام، وقياس الأمور بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة، أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم، ونوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط كثيرًا، ولا يُؤمن عليهم؛ ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس، من أهل العمران، لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء، من

الغـوص على المعـاني، والقـيـاس، والمحـاكـاة، فـيـقـعـون في الغلط. والعاميّ، السليم الطبع، المتوسط الكيس، لقُصُور فكْره عن ذلك، يعني الغوص في النظريات والاقتصار على ما في الأذهان، وعدم اعتياد ذلك العامي طريقة النظر تلك، يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعـميم، ولا يفـارق في أكثر نظره المواد المحسوسة، ولا يجاوزها في ذهنه، فيكون مأمونًا من النظر في سياسته، مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه، فيحسن معاشه، وتندفع آفاته ومضاره، باستقامة نظره».

ذكر من لقيت بلوشة:

ولقيت بلوشة أقوامًا لم ألقهم في غيرها، هم في اختلاف مشاربهم وأعمالهم آية في التباين والاختلاف، وقد تعلمت من نكبتي ومن سفري مخالطة الناس والائتناس بهم، والصبر كذلك على فراقهم وهجرهم، والناس في دنياي بعد رحيلكم كالشمس من مشرق إلى مغرب، لا تقر على حال، فالحمد لله أني لم أعدم صاحبًا يومًا وإن زال عني بعدها.

وممن عرفتهم بلوشة داود الكاتب، كان كاتب العطار وموضع أمانته، وكان زري الهيئة منكرها، إذا دخلت عليه مجلسه وجدته غاصًا بالدفاتر في غير انتظام ولم يلزم نفسه بأي من عوائد الكُتَّاب لا في هيئة كتبه ولا خطه ولا ترتيب مجلسه، فلا يعرف مكان كل سجل إلا هو؛ يغيب في مجلسه ويخرج بالسجل المراد قبل أن يرتد إليك طرفك وكأنه عفريت من الجن، وكنت إذا رأيته يكتب ويحسبُ، حسبْتُه مجنونًا من حُسَّاب كسرى الذين سمى الديوان على اسمهم، وكان رديَ الخط لا تتبين من

أوراقه شيئًا، وخطه أردى شيء إذا جاء السلطان ورُفع إليه شيء من أعماله، فيحمل ذلك داود على المثول بين يدي السلطان يبين ويفسر له ما خط وينال من عطاياه، وكلما أخذ عليه آخذٌ خطه قال: حيا الله خطًا غشانا ذلك المجلس! بيد أنه كان حسن الخط في الباطن وقد وقف العطار على كتاب له سها فيه فكتب بخط حسن، فعرف أنه ما أراد بسوء خطه إلا الحظوة ومنع الأقران عن منزلته، فأسرَّها له العطار في نفسه وتغافل عنها حتى احتاج يومًا أن يرسل للسلطان شيئًا من حسابه فأمره أن يكتب بخطه الحسن الذي يعرفه! وأسقط في يد داود وكتب بخط أحسن ما يكون خشية عقاب العطار، وكتب ذلك على ورق أحمر وطواه طيا عريضًا في نحو ثلاثة أصابع كما يعمل كتبة السلطان في الحمراء، ثم كسره وطواه نصفين، ثم ربطه بدسرة من الورق وختمه بختم العطار على ختم من الشمع الأحمر، فما رُفع ذلك إلى العطار حتى استلقى على قفاه من الضحك وأجزل لداود العطاء، وقد أقلع داود من يومه عن عادته تلك، فصارت نادرة من نوادر لوشة، فيقول الناس: «كتغافل العطار عن خط داود».

وكان رحمه الله أمينًا حازمًا مع كُتَّابه يقفو آثارهم بالدرهم وما دون ذلك، خبيرًا بلسان العجم وحسابهم ولهذا قربه العطار وآثره على من سواه، وكنت أختلف إليه في ديوانه يعلمني فانتفعت به أيما انتفاع، ولما رأى إعراضًا مني عن منازعته منزلته تبسَّط معي وصار يأتيني بالفاكهة والشراب كلما غشيت مجلسه، وهو المعروف بشح نفسه، ومات رحمه الله ولم يترك لعياله إلا عطاءه، وقد حفظ له العطار أمانته ورعاهم حتى

حلت بالأندلس الخطوب، وصار أهل الجزيرة كلهم عيالاً لا كفيل لهم وإنا لله وإنا إليه راجعون!

وممن لقيتهم بلوشة عرفة المَيَّار، وكان أبوه نجارًا مدجنًا من أشبيلية ممن له معرفة بالحيل الهندسية والآلات الحربية، عاف صنعة أبيه وعمل بالتجارة واتخذ بيتًا في لوشة، وسارت تجارته بين غرناطة وقشتالة، يجلب الماعز والضأن من قشتالة ويبيع إليها الكستبانات والحرير. ثم صاحب التجار الجنويين وعاونوه على مداخلة القند[1] المتولي أعمال البحر للنصارى وقاسمه رزقه، فصار يبحر ببضاعته على سفن الجنويين ويجوز العدوة، يجلب الحبوب ويبيعها للمسلمين وللنصارى على حد السواء، ويركب البحر خمس مرات في العام لا يمنعه إلا موج البحر إن اشتد. ومازال عرفة هذا رسولي إليك وهو الذي حملني إليك يوم جزت العدوة أول مرة، وهو أول الصلة التي بيني وبينك، أسأل الله أن يديمها. وقد عرفته ليِّن الجانب حسن المعشر، يعرف حق الصحبة ويؤديها على أتم ما يكون، وقد سجنه صاحب الشرطة ظلمًا، ثم وقفت على حاله قدرًا ورفعت أمره إلى العطار فأطلقه، فكنت يومئذ أحبَّ أهل الأرض إليه فلا يرد لي طلبًا. وقد انتفعت بمجالسته أيما انتفاع وعلمت منه أخلاق النصارى وعوائدهم وطرفهم، وهو من مخالطته لهم وعلائقه بأشرافها قد وقف على حقيقة القوم وعلم سذاجتهم وجهالتهم، وأنهم قوم أجلاف لا يحسنون إلا الفلاحة وأعمال الجندية، أما العمارة والصناعة في بلدتهم فهي من أعمال المسلمين واليهود. وإن بأسهم بينهم شديد،

---

(١) تعريب كونت.

وقبل أن يتزوج فرذلند ملك أراغون بابنة عمه أزابلا ملكة قشتالة كانت الحرب بين البلدين على أشدها، ثم الحرب بين الأشراف والملوك، ثم بين بيت الملك نفسه بين الأبناء وأبناء الزنى، ومنازعة حبر دينهم، في رومية، لهم في مُلكهم، ثم صار حالهم إلى الوحدة والاتفاق، وكبير دينهم هذا في رومية صار يمدهم بالجند والمال ويحث ملوك النصارى على نصرتهم، وصار حالنا إلى التفسخ والشقاق، وحال العدوة ما تعلمُ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأهل لوشة في الجملة أهل نجدة وسخاء، وهم كسائرِ أهل الجزيرة يميلون للرقة واللين، ولكثرة ما حل بهم من الخطوب وما شهدوه من الحروب قصروا عن تعمير مدينتهم، وجعلوا جل النفقة في أبراجها وأسوارها، فأزقتها ضيقة قذرة يعسر التطواف فيها. وهم قوم إذا أقبلت الحرب اقتسموا الزاد في البيوت وفتحوا الحوانيت، فإذا شذ منهم رجل حَرَّقوا عليه دكانه، قبل أن يبدر إليه صاحب شرطة أو محتسب، وعمروا المساجد والزوايا وضجت المنابر والمآذن بالدعاء، وحمل الرجالُ السلاح وركبوا الخيل عن بكرة أبيهم لا يتخلف منهم أحد، وصبيانهم يتعلمون المثاقفة والرمي قبل أن تنبت لحاهم، وهم خير أهل لغريب وضعيف، حتى إذا كادهم أكلوه، وهم أسرع قوم إلى الملاهي إذا انجلت الحرب، فيحيون الليالي بالطرب ويبسطون الموائد بطول المدينة وعرضها، وهم أكثر الناس نكاحًا لما تخلفه الحرب من الأيامى والأرامل، وهم أكثرهم عيالاً لما يضم الرجل إلى ولده أولاد أخيه أو صاحبه ممن قضوا، وهم أحرص الناس على الخيل والأنعام وأبعدهم عن العقار؛ فالأول مالٌ

يسهل حمله ونقله إذا دهمهم عدو، والثاني لا يسلم من تحريق سقف أو نهب زرع. وهم كغير أهل غرناطة، أبعد الناس عن العصيان والثورة، وإذا ظهر بينهم متنز سلموه، وهم أطوع الناس لعامل الوالي وإن كان غريبًا، ومازال الرجال يقصرون عن حاجة الخطط والمراتب لقضاء كثير منهم في الحرب أو للهجرة إلى غرناطة وغيرها، يدورون بين الوظائف مادامت السواني تدور على شنيل! ومازال العطار يسوسهم عشرين عامًا حتى رفعوه على أعناقهم فلا يعدلون به سواه، وهو بينهم ثابت راسخ كالطود العظيم لا يهزه شيء، وقد لبثت بينهم بضع سنين فكانوا عوضًا لي عن فراقي ألمرية، وإن لم يعوضوا فراقكم، رحمهم الله جميعا! وجمعني الله بك على خير ويسّر لنا اللقا.

ذكر لقائي بالسلطان أبي عبد الله حفظه الله:

بعدما استتب أمر الملك لأبي عبد الله محمد ابن أخي في غرناطة وأحوازها، وبقي أبوه لاجئًا عند الزغل في مالقة يترقب الحوادث ويراسل أنصاره في غرناطة سرًا، أزمع أبو عبد الله المسير إلى حميه العطار في لوشة، فتلقاه العطار بالبشر والترحاب، وسعد بلقيا ابنته بعد طول غياب، وهو في حديثه عن الأولاد والأحفاد منبسط أشد الانبساط حتى إذا ذكر أبو عبد الله أمر أبيه انقبض العطار وصار يزن كلامه بالمثاقيل، فطمأنه أبو عبد الله أنه لم يأت ساعيًا لخمس الغنائم وقد علم أن العطار يحبسها عنده، بل أطلق يده في إنفاقها على الجند وبناء الأسوار وشحن القصبة بالطعام والآلات، ثم تذكر حال غرناطة من الضعف وتسلط الروم عليها، وغفلة أبيه وسفهه والعذاب الذي

سامه لأخيه يوسف وأمه، فبكى حتى أبكى جميع من في المجلس، وعاهدنا على السير بالكتاب والسنة وإبطال المغارم والمكوس، وأجرى ما قطعه أبوه من عطايا الجند، وأظهر الزهد والتقشف وكان يجالسنا وعليه شملة مرقعة وغفارة مغبرة من أثر السفر. فوالله ما كان رجل آيس من بني الأحمر مثلي حتى رأيته؛ شابًا مليح الوجه له مزية السن على إخوته، واسع الدربة والحنكة، فصيح البيان، متوسطًا في مجلسه بين الجفوة والانبساط، سخي اليد مهذب الخلق. فقَوِي به أملي وقد لاقينا من الخطوب عشر سنين وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وهو وسط كل ذلك مالك لنفسه، ثابت الجنان، عظيم الصبر. وليس فيه إلا حب الرياسة، وليس ذلك بالشيء الكثير، وهو أمر جُبل عليه بنو الأحمر منذ قامت دولتهم، وليس السلطان مذمومًا في ذاته، بل إن سطوة السلطان وقهره وازع للناس عن العدوان الذي جبلت عليه طبائعهم. ولما انفضّ المجلس اختلى بي وزيره يوسف ابن كماشة، وصاحبه أبو القاسم بن عبد المليك وظلا يكلمانني في سيرة الرجل وكبسه بيوت الظالمين وإقامته للعدل وجلوسه للرعية عند باب الشريعة على عادة أبي بعدما أبطل ذلك أبو الحسن، فرققتُ لهما، وحثثت العطار على أن يدفع له شيئًا من الخمس ولا يحبسه كله ففعل، ثم انصرف أبو عبد الله عنا بحشمه راضيًا وما دريت وما درى أن الله سيكتب لنا صحبة معقودة حتى يومنا هذا، وأسأل الله أن يجمعنا في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وأن يوفقه ويسدده ويثبته وينصره على القوم الكافرين.

هو

تلفت الظليم حوله ورمق الأفق من فوق عنقه الطويل حتى سكن لوحدته. ذكَرُ النعام الذي يُضرب به المثل في الشرود والنفور، فلا يأنس لمخلوق رآه من قبل أم لم يره. عبث بمنقاره في الأرض ثم التقم حجراً أسلمه إلى نار جوفه تصهره. ثنى عنقه الطويل حتى استوى على ظهره وحث السير بخفيه كخبب الفرس، بل إن الفرس هو الذي يشبه به. تنفس ريحَ أغشت مهتاجًا إلى السفاد. انطلق إلى حريمه يذرع الأرض بساقيه الطويلتين. يركب الريح وجناحاه يحميانه من السقوط، ربما اعتذاراً منهما عن عجزهما الطيران به. تذكر الظليمُ عجزَه متألمًا فزاد في عدوه. منذ خرج من بيضته وامتحن جناحيه كالطير من حوله وأخفق، ركن إلى حياة البين بين؛ لم تجعله رجلاه وخفاه ومُسَنَّمُه إبلاً، ولم يجعله المنقار والريش والبيض طيراً. بقِي كما هو.. بين بين. حتى إذا امتحن ساقيه لم تخذلاه أبدًا، فكان في عدوه بهما العزاءُ، وكلما سبق مخلوقًا زادت نشوته، حتى إذا أدركه أحدٌ ظن ساقيه تلحق بجناحيه؛ بالبين بين، فيظل يعدو ويعدو، حتى إذا وصل وحيدًا أيقن بانتصاره، وفي غمرة عدوه تولدت وحشته من كل أحد سواه وبني جنسه. ثم امتحن ساقيه في الركض حين هاجمه ذئبٌ فقتله، حتى إذا رأى ظليمًا آخر يرفسُ أسدًا فكسر ساقه، ولم تنفعه ساقه الأخرى عدواً، ولا استه زحفًا، فقرّ مكانه حتى قضى نحبه. ومن يومئذ كلما هاجمه وحش ادعى الظليم موته، وافترش الأرض ودفن رأسه، حتى إذا رآه عدو لم يره إلا هملا بين

جنبات الأرض، فإذا عرفه العدو ركب الظليم الريح وسبقه، ولا يثنيه تغنّي الشعراء بجبنه وخوفه، إنه لا يأنس لهم حتى يريد منهم مدحًا! وكذا دعوه ظليمًا حين زعموا أنه طلب قرنين يومًا فلم يعطَهما وقطعت له أذناه فهو إلى يوم الدين في صمم. لا يعلمون أنه يصيخ السمع لكل شاردة وواردة عله يسمع في كل وقت زمرَ حبيبته..

وصل إلى حريمه، وجال النظر أين سيدتهن؟ تراها رقدت حاضنة البيض البعيد أم رحلت تزمر خلف ذكر جديد؟ سمع زمرها من بعيد فرجع البصر كرة.. لم ير إلا السراب. عبث بمنقاره تارة أخرى. ذهل عن التين الملقى على الأرض من جمع البكور، والتقم حجرًا عله يطفئ نار جوفه السرمدية. أهاجته ريح أغشت فطردت أحزانه، افترشت نعامة من حريمه الأرض فاقترب منها. ثنى عنقه حتى لامس ظهره تماما كهيئة عَدوه يركب الريح، صرخ من النشوة حتى سمع الناسُ صوتَه من بعيد. ضحكوا وألقوا مثلا عن ظليم أغشت في عز سفاده. لا يعلمون أنه في حلِّه وترحاله ظليم، يثني رأسه على ظهره يركب نعامة أو يركب ريحا، ووجهه يستقبل شاردًا قمرًا ينثر فضته على البلوط المعقود وفول الخريف. نزل القمر هذا الشهر بمنزل الصرفة يفصل بين برد وحر، فلا غرو أن سموه في فصله ناب الدهر.

***

«وقالوا إن الجماع من أكبر أدوية السوداء لسرور تلك الساعة؛ ودخول الحمام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فيه. من سره أن تقر عينه حياته، فليتمتع ما وجد سهولة شهوته؛ ومن اغتنم ساعة لذته؛ فقد غنم؛ ومن أخَّرها فقد عدم، فإن الإنسان ابن الآن!

وقالوا في الجلوس على المياه والرياحين مما يسلي العاشق ويتداوى من أحزانه به. وأما أنا، فأقول إن ذلك يزيد في تذكاره؛ ونقيم البرهان على ذلك أن النفس لا تولع إلا بما استحسنت؛ فكل مستحسن تراه يخرجها إلى ذكر الأسنى في خاطرها، وكل حديث إنما يسوقه إليه؛ وكل ما زيد تذكارًا زاد شوقًا، فأعقبه سهرًا وقلقًا. والشيء لا يعانى إلا بضده: فكيف يشغف بحسن ويسليه حسنٌ؟ بل يوقظه ويشغله! ألا ترى أن المكروب يتفرج بالسرور، والسرور يضمحل بالكدر؟».

رفع الزغل رأسه عن الكتاب، تمطى حتى سمع طقطقة عظامه، ثم اتكأ على أريكته مفكرًا: ما أشبه بني الأحمر ببني زيري!

كأن عبد الله بن زيري، ملك غرناطة زمن الطوائف؛ ينطق بلسانه ويبين عن مكنون صدره، رغم ما بينهما من قرون، لا عجب أن سمى ابن زيري كتابه هذا التبيان، فهو تبيان عن الملوك، كل الملوك. . لو فقهوا! تنفس ريح البحر الصاعد إليه في قصر قصبة مالقة، داخله ريح بهو النارنج منسابًا إليه في بهو البركة.

ما أشبه ذلك البهو ببهو بركة الحمراء، بحوض الماء الذي يتوسطه، والأروقة المحيطة به، والغرف المطلة عليه، بل إن الأخير بُني على صورة الأول على رقعة أعظم وبنيان أكبر، فغدا الأصل في قصر مالقة عجوزًا تغضنت ملامحها من آثار الزمن.

أرسل إلى حاجبه تاسعًا يسأله هل وصل أخوه أم لا؛ فمنذ جاءت رسل أخيه السلطان تسبقه تنبئ بوثوب الابن على أبيه، وعلى قدوم الأخ لاجئًا معتلا مستغيثًا، والزغل معتزل في بهو البركة عن عياله وحريمه

وندمائه. يطالع أخبار السابقين ممن ملكوا الجزيرة وحوت أخبارهم وأيامهم، حتى ينتهي به المطاف لكتابه الأثير، تبيان عبد الله بن زيري ملك غرناطة ومالقة. لعله في يوم من الأيام كان جالسًا مكانه في ذلك البهو يشم ذات الريح، بل لعله كتب ذلك الكلام في مجلسه هذا، يدمن النظر في سير الأقربين والأبعدين، يطلب الحكمة والطرفة ويحوي رأسه بكل ما تقع عليه عينه لئلا يخدعه عامل أو يصرف إرادته حاجب. جال النظر في العمد التي تحفه، والأبواب المغلقة حوله، في صفحة الماء المترقرقة تحته، وضع الكتاب من يده ثم اتكأ على أريكته ناظرًا إلى السماء وقد تسلل لبصره سطح البرج المواجه له المغطى بالقرمود. أية حوادث حلت بهذا البنيان منذ خمسة قرون؟ تحت طبقات هذه الأرض قواعد وضعها بنو حمود، ثم خلفاؤهم والمتغلبون عليهم من بني زيري وأبناء عمومتهم. تملكوا زمن الطوائف، ثم نكب كل أولئك الملوك جميعًا، بكيد بعضهم بعضًا، أو بسيف النصارى، ومن نجا منهم نفاه المرابطون فمات ذليلا في أغمات يجرع سم الأيام، تطارده الذكرى. شعر الزغل بالخوف من ساعته، فقام كالملسوع ينظر إلى جدران قصبته المنيعة، يلتمس الطمأنينة من الصخر والآجر لقلبه المجزوع، من الأبراج المنتشرة في سور القصبة، يمشي غير عابئ بجنده وحشمه المنحنين له حتى يرى الطريق المسور الصاعد من قصبته إلى حصن جبل الفارة، الثاوي فوق الجبل صامدًا شاهقًا لا يطلبه عدو إلا رجع عنه، مشحون بالمقاتلة آلاف من أغمات ومن الأغزاز لا يفت في عضدهم الحرب، وتحتهم الآبار تسقيهم إذا ما طال حصار.

- «ولا نفاطة ولا عرادة . . ولا مسلم ولا نصراني» طمأن الزغل نفسه وقد تقاطعت أنفاسه من الفكَر. نعم، لا يقدر على قصبته شيء حتى تلك الأنفاط التي رآها في لَوشة. تملكه الغضب لما أتى على ذكر لوشة؛ لعن خبث العطار ولؤمه، وحب أهل لوشة له وملكه هواهم. ليته بكَّر إليه فشهد معه قتال النصارى، إذًا لقاسمه غنائمه وعاد بشيء من تلك المثاقيل العظيمة التي غنمها. عاد منها بخفي حنين، لا طاعة ولا غنيمة. وأبو الحسن شاخ في قصره يتلاعب به الصبيان والنسوان كالبازي الهرم تلهو به العصافير، حتى غلبه ابن أخيه وسميه؛ أبو عبد الله الصغير!

لا يذكر أنه رأى ابن أخيه قبلا، آخر عهده بالحمراء كان في حياة أبيه سعد، يغشاها من حين إلى حين، قد يئس من أن تكون له الحظوة عند أبيه في حياة أبي الحسن وأبي الحجاج، فما وسعه إلا المكث في غرناطة على فترة ليعرفه العمال والعوام ورؤوس القوم، كان يمني نفسه بنشوب الحرب بعد أبيه بين أخويه، فيأكلان بعضهما البعض فيتغلب على الضعيف الناجي منهما، فالتزم مالقة يأتلف أهلها بعطاياه وهداياه، ويتخذ من أخواله وأصهاره عصبية ومنعة، وكان ذلك تحت عين المطرف عامل أبيه. كان المطرف هذا ساذجًا خالي البال من كل ظن سيء، فلا غرو أن أوتي أبوه من قبله؛ لم يبلغه بوثوب بني سراج إلا بعد فوات الأوان! ذهبت بتدبيره المقادير إذن وهجر الحمراء بعد تملك أبي الحسن وموت أبي الحجاج بعلّته، وظل تلك السنين يمنّي نفسه بالعودة إليها إذا مات أبو الحسن وترك وراءه فرخًا لا يقدر على منعه إذا طلب مُلك أخيه. لكن ها هو الموت يفسد تدبيره مجددًا ويسبقه الوثوب، وقد نبت للفرخ

ريش فوثب على أبيه وتملك، وياللعجب أن اسم الفتى كاسمه أبوعبد الله الصغير!

أرسل إلى حاجبه عاشراً يسأله عن أخيه، وقد عاد إلى بهو البركة مجدداً، فأجاب الحاجب بذات الجواب ليصرفه الزغل من حضرته من جديد، انحنى الحاجب متقهقراً حتى غاب عن ناظره ثم أولاه ظهره من بعيد ورحل يسأل نظار الأبراج من جديد. ضحك الزغل لما تذكر ذلك المملوك الذي عاد به في رحله من لوشة، كان يقبل الأرض بين يديه كلما مثل في حضرته، ويكثر الحلف ويعقد الأيمان كلما رفع شيئًا من أمره أو أمر الأغزاز في جبل الفارة. لعلها خير ما في خروجه للوشة الظفر بذلك المملوك الشارد الباحث عن سلطان يخدمه، فلطالما عرف من نظرة الرجال من يعاديه ومن يناصره، ومن يرى في نفسه نقصًا لا يكتمل إلا بخدمة الملوك، وكان ذلك المملوك أحدهم، غير صاحبه الألمري الذي ألقى باسمه وتوارى عنه كمن رأى مجذومًا، هنيئًا للعطار بالفتى الغر، وهنيئًا له برجل من خارج القصبة يدين له بالولاء وحده، يجعله على رجال من بني جلدته مردوا عليه، كلما أمَّرَ عليهم رجلا منهم تبرمكوا وزادوا في الطلب، حتى أخذ بناصيتهم ذاك الرجل فملك لبهم وخضعوا له وقد رأوا مقدرته وكفايته، ولم لا يفعلون وأصلهم واحد، وقد جاء من مصر أصلهم ومنبتهم الذي جاء منه أجدادهم قبلا أيام الموحدين، يرومون مع زعيمهم الأشرف شعبان غزو المغرب والأندلس بزعمهم! ثم آل أمرهم إلى قبيل من الرماة يستعمله الملوك من الموحدين حتى بنو الأحمر! وقد تقوى بخدمة ذلك المملوك واشتد ساعده به، وكلما بلغته

علل أخيه زاد أمله، حتى وثب الابن على الأب وصار أبو عبد الله سلطان غرناطة أمير المسلمين، ليس أبو عبد الله الزغل، بل أبو عبد الله الصغير!

همَّ أن يرسل إلى حاجبه في نفاد صبر وقد أزمع أن يفتك به إن لم يأت أخوه، لكن سبقه حاجبه مهرولا يشير إلى أسفل يقول إن ركب أبي الحسن صاعد القصبة إليه مع جاريته وعياله وحاشيته ممن نجوا معه من جنة العريف. هرع الزغل إلى أقرب برج يستشرف منه الركب الصاعد إليه، والحاجب وغلمانه يتكفؤون خطواته، قد سبق بضعهم لموافاة الركب بالأسفل وحمل متاعهم وسوق دوابهم، وعسكر الزغل حافُّون بالركب منذ دخل مالقة يحملون أبا الحسن على محفة بعدما كان يحمله أصحابه في عباءة لم يدبروا غيرها في هروبهم من عساكر الصغير.

هوى قلبه بين ضلوعه لما رأى أخاه محمولا على المحفة، كان يعرف من قبل بمرضه، لكن ليس الخبر كالعيان. كلما اقترب الركب صاعداً ظل يتنقل هو من برج إلى برج يقطع الطريق إليهم وعيناه معلقتان بأبي الحسن لا تفارقانه، حتى كاد يتعثر غير مرة، والحاشية من حوله تبسمل وتحوقل؛ هل أصاب سيدهم مس من الجنون؟ عدا الزغل الطريق المنحدر ولم يطق صبراً على انتظار الركب ليكمل صعوده، تقاطعت أنفاسه وتلاحقت. لا يدري ما الذي أصابه لما رأى أخاه. كأنه شاخ فجأة، كأنه شعر بالهرم وفوات السنين، وأي سنين؟ لعلها مائة عام أو يزيد تلك التي تجعل أبا الحسن فارس بني الأحمر وسلطانهم عظمًا يتدلى منه بطن يحمله أربعة على محفة! هذا الذي منى نفسه بوراثته وخلافته، حلمه الذي ظل يطارده، أبو الحسن، قدوته الذي ظل يقتدي به منذ وعى عليه فارسًا،

وكان بعد شابًا أمرد يتعلم المثاقفة والرمي وركوب الخيل، وآداب الملوك حتى يصير مثل أبي الحسن، واتخذ الأشياع والأتباع وهادنَ وحاربَ وعاهد وغدر، وجبى المال وأنفقه، وسود الكتب وشيد المعاقل لا لشيء إلا ليبز أبا الحسن. وها قد شاخ حلمه وذبل خصمه، فكيف لا يشيخ معه ومصيره معلق به؟

أيأتي زمان على عياله يفعلون به كما فعل محمد بأبيه؟ أشاخ جيله وآن رحيله، وصار ذاك الزمن طالع أولئك المردان!

-«اشكونوا. . اشكونوا؟» زعق بها وهو يهرول إلى أخيه وريح البحر يصفع وجهه، وشمس أغشت تشويه، أجل، من يكونون؟ أطفال صغار يلهون بصولجان المُلك ويتقاذفونه فيما بينهم، ولا يعلمون أن لولا الكبار الذين وثبوا عليهم لكانوا يستجدون العطاء والمراتب في بلاط فاس أو قشتالة! أو يبقون في الحَمَّة ينتظرون لحظة شك من السلطان يتبعها حز الرقبة في جوف الليل!

ماذا يعرف أولئك المردان عن الدنيا! عن اللعب على حبال فاس وقشتالة وأرغون، والطواف على أمراء بني الأحمر في أقبية قصور الحَمَّة؛ هذا يُقطع ألمرية وهذا المنكب، وهذا مالقة، فيجتمع لهم بضعة جنود خلف آخرين كاليهودي يجمع قروشه في دكانه بصبر وأناة، الحلم على طمع بني سراج، والتغافل عن انزواء بني الثغري بما تحتهم، وتجارة بني بنيغش مع النصارى حتى ساعة الجهاد!

ماذا يعرف أولئك المردان؟ أو لعلهم عرفوا ذلك وتعلموه جيدًا، وشبوا عن الطوق. . ووثبوا! قبض الزغل على أجفانه وأرسل الدمع

حاراً لما أدرك ركب أخيه، أمسك بيدي أبي الحسن المعروقتين، وقد رق الجلد عليهما ونتأت عظام الكفين حتى يكاد الزغل يتبين أصل كل إصبع بارز فيهما. نظر إليه أخوه أبو الحسن وعيناه جاوبت عينا أخيه بالدمع، كأن ما بينهما من تنافس قد خبا تلك الساعة، ولم يبق لهما إلا سنيّ العمر، وشيبة الراس واللحية.

❊❊❊

خطر الجنود الثمانية صفًا وراء رمح الناظر ذي العقد المعقود. تبعتْ خمسة رماح معقودة متجاورات بندَ العريف المنصوب. انتصبت خمسة بنود على استحياء أن تطاول لواء النقيب المنشور. تهادى الجواد أمام خمسة نقباء يظلله علم القائد المرفوع. نظر القائد أبو القاسم بن عبد المليك إلى قواده الخمسة مسروراً. هز رايته في الهواء ثم همز فرسه ليسير الجمع وراءه متقدمين نحو تل السبيكة بالحمراء حيث مجتمع العوام، ومع كل قدم يُسْرَى تدب على الأرض، تُقرع الطبول وتتمايل معها غبطة رأسُ السلطان أبي عبد الله بن أبي الحسن وهو يستعرض جيشه أمام أهل غرناطة. جال في عيون رعيته. ضحك سراً لما تخيل وجوههم لو عرفوا أن ذلك المهرجان الذي يستعرض فيه الجيش ليس إلا توطئة لزيادة مغارمهم تعللا بنفقة جيشه الكبير والجهاد ضد قشتالة!

راح زمان أبي الحسن الطيب! حتى متى كان سينتظر موت أبيه؟ كان سيذوي في الظل حتى يبلى كعشرات من أمراء بني الأحمر الذين يملؤون قصور شلوبانية والمنكب بعدما كانوا يملؤون قصور الحَمَّة وحماماتها يثرثرون في مدينة الأمراء حول الماء والبخار حتى غلب عليها النصارى،

كلهم ابن سلطان أو حفيد سلطان أو أخو سلطان، جلهم يجمع دم سلطانَيْن أو أكثر، وإذا كان الملك واحدًا والأمراء عدة، أليس من طبائع الأمور أن يتعارك الجميع!

تبسّم ساخرًا مما قرأه من الزهرات المنثورات على مؤدبه؛ إن الحكمة لما زادت اختصرها الحكماء الأولون في أربعمائة ألف كلمة، ثم تلاهم جيل اختصرها في أربعة آلاف كلمة، ثم أربعمائة كلمة، فأربعين، فأربع كلمات هن: أطع الله على قدر حاجتك إليه، واعصه على قدر طاقتك على عذابه، واطلب الدنيا على قدر مكثك فيها، واطلب الآخرة بقدر بقائك فيها. وها قد اختصرها السلطان الجديد في كلمة واحدة: ثِب على أبيك!

نعم! فقد وثب أبوه على جده لأدنى شبهة في أن الجد سيولي عمه المُلك، فماذا يفعل وقد تيقن من ميل أبيه لأبناء ثريا؟ هو السلطان ولا رادَّ لحكمه وقضائه، ثم إن أباه أخطأ بعداء بني سراج، ظن مماليكه وابن بنيغش وابن رضوان يغنونه عن عصبية بني سراج، ولو لم يضع يده في يدهم لفرقوا بضع أكياس من الدنانير على صعاليك البيازين يحاصرونبهم القصبة، ولأخذوا ابنًا من أبناء الأحمر ببرنسه من الحمام ووضعوه على عرش الحمراء!

يومها سيذّكر بنو بنيغش أن أصلهم نصارى وعصبيتهم لا تصمد لعصبية العرب، فلن يقووا على بني سراج؛ فبيت شعرٍ يهجو أصلهم ويهجو صلتهم بطاغية الروم، حتى يبدرهم العامة بالرجم في الطرقات كما فعلوا باليهود في غرناطة أيام بني زيري، وها هم قد تبرأوا من

وزيرهم وطووا صفحة العداء مع بني سراج. أما بنو الثغري فسيلجؤون إلى رندة ومالقة، أو يتحالفان معًا فيتقاسمان ما يرضى به بنو سراج من العطايا والأرض، وسيرضون جميعًا في النهاية والسلطان بينهم كالمحلل؛ يلعنونه ويحتاجونه، فإن اختلافهم ونبذهم للسلطان يعني أن يغلب عليهم الغزاة القادمون من العدوة أو جند طاغية الروم، وله في سيرة جده أبي عبد الله الفقيه عبرة؛ فقد تنقل بين حلف يعقوب المريني وأذفنش القشتالي حتى احتفظ لهم بالعرش خالصًا لهم من دون الناس لما يربو على قرنين من الزمان، رحمه الله من فقيه! وأي فقه كفقه السلطان!

زوى ما بين حاجبيه مدققًا في الفرسان القادمين؛ أنجاد غرناطة وفرسانها من أمراء بني الأحمر، اللاهين بين الحمامات والصيد واستعراض الجند.. أي كرسي يسع كل هؤلاء! كان يظن بلوغه الأمان بعد فرار أبيه، ما أشد فحولتكم يا أبناء الأحمر؛ أن تنجبوا كل أولئك الملوك، وعقمتم أن تأتوا بكرسي أكبر من كرسي غرناطة؛ كلقمة أفلتت من فم لب الروم الهصور!

نظر السلطان الصغير إلى السماء الرائقة من فوقه: تذكر السيل الذي جرى يوم استعرض أباه الجند في السبيكة، لم يعد أبوه لمثلها أبدًا خشية الشؤم وسوء العاقبة. يومها عاد أبوه مرتجفا وزمَّله خدامه بعشرين رداءً، ولما جف السيل دعا بصاحب شرطته وأمره بإبطال الملاهي وتطهير البلاد من الخمر والحشيش، ووصف له بيوتًا يكبسها فعدَّ كثيرًا من بيوت الأشراف والصعاليك والصناع والأوغاد، ورسم مكامنهم ونسبها نسبة الأصمعي لبطون العرب وأفخاذها! فلما سار صاحب الشرطة لم يجد ما

يخالف الوصف، وتحادث الناس بهمة السلطان ودرايته. لا يعلمون أنه غَشِي تلك البيوت كلها، ولما أمن العذاب والوعيد بانقطاع السيل دهرًا أعادَ لتلك البيوت هيئتها الأولى.

- «أطع الله على قدر حاجتك إليه!» تمتم السلطان هازئًا بأبيه، ثم جلس على كرسيه تحت الظلة، فجلس رؤوس القوم والجند واقفين بإطراق في أرض الميدان قد جارتهم خيولهم فكفت عن الحمحمة وتحريك رؤوسها. رمق السلطانُ أبا القاسم بن عبد المليك واقفًا بين الجند في مهابة من لم يكن عاريًا بالأمس إلا من سرواله في جلسة السمر، ثم التفت إلى يسار عرشه ليطلع إلى سمت وزيره ابن كماشة الوقور كأنما لم يمسك بالشبابة يضرب عليها للجواري ويعبُّ من كؤوس الخمر حتى ابتلت لحيته. ها هما أبو القاسم ويوسف بن كماشة صارا عضديه في المُلك، طالما كرههما أبوه وخيره إما أن يستعملهما أو يجالسهما؛ فلا يطيع السلطانَ بالنهار مَن اطلع على عورته بالليل. ما أحكم أباه وأفصحه! كأن حاجبه ابن رضوان ليس قوَّاده، وثرية حليلته ليست مالكة أمره تطلعه على عوراتها بالليل وتكتب الظهير باسمه في النهار، ولم يفعل ذلك إلا لعلمه أن الصحبة الحاصلة من تلازم الندماء تقوم مقام النسب، وإن أخا اللهو يظل أخًا طالما مالٌ في الخزائن وشرابٌ في الدن، فإذا زال ذلك زال كل المُلك وانفض الناس شريفهم ووضيعهم فليست مصيبة عندئذ أن ينفض عنه إخوان اللهو والفرح!

أسبل السلطان الصغير عينيه وقبض على لحيته بيمناه ثم أطلقها تتفلت من بين أصابعه ببطء وهو يتطلع إلى قومه، يحسبونه حييًا مؤثرًا للصمت

يطرق بين يدي جالسيه، ليجعل لكلمته، إذا تكلم؛ هيبةً لها وقعها في نفوس سامعيه. ثم يقوم عنهم ليبين عنه أبو القاسم وابن كماشة يذللون له الصعاب. لكل الناس ميل لطاعة السلطان؛ فهم بين أهل نقص لا يكتملون إلا بصحبة الملوك، وأولئك لهم مراتب الوزراء والحجاب والخدام، يرومون الخدمة ودوام الصحبة لينعموا بفتات السلطان، وبين أهل كمال ومروءة يرقّون ويلينون إذا رأوا في السلطان نقصًا فيسعون لخدمته حنانًا من لدنهم كجبر الأم لكسر وليدها، وأولئك هم رؤوس الجند والولاة والفرسان. أما إذا ولّى السلطان كل صنف مراتب الصنف الآخر حجبه الوزراء والحُجَّاب وائتمر به الخدم وهم في جمعهم بين الكمال وعلو الخطة ولزوم كرسي السلطان أكثر طمعًا في الرياسة والملك، وخذله الفرسان والولاة أمام عدوه، فلا يثبت للمحن والحروب أهل نقص.

وليس أدل على مذهب السلطان الجديد من العطار؛ منع أباه المالَ زمنًا فلم يقدر على حمله على شيء حتى ذهب هو إلى العطار بنفسه وأخفض له جناحه وأبان له عن نقصه. لم يسلِّم له أحد من حاشيته قبل سفره إلى لوشة أن يرجع بمثقال واحد من الغنائم فإذا هو يرجع بجل خُمسه! ولم يتم له ذلك حتى داخل نديم العطار الألمري المتطبب وعمل معه ما عمل مع العطار؛ ينثر وده في الصدور والقلوب ويترك الولاء له ينمو في صبر وأناة، حتى يحين القطاف ويجد له في كل قصبة عزًا ومنعة. من يدري؛ لعله يستميل العطار أخيرًا ويسلكه في خدمته معينًا له على ضبط الثغر، فيحبط تدبير عمه ويضيق عليه الخناق فلا يبقى على

طاعته إلا مالقة وبلش ووادي آش، يداخل أهلها ويستميل سوقتها ويتربص به وبأبيه ريب المنون. شعر بجذبة من كمه فانتبه لولده الصغير الجالس على يمينه قد ضاق بغفارته الكبيرة ذرعًا، وهي تحجب شعره الكثيف لتحمي رأسه في شمس أغشت الحارقة. ضمه إليه بساعده وأدناه منه حتى لمس طرف غفارة الصبي أنف أبيه. اشتم ريح الصبي يريد أن يطرد خيالات الزمان القادم ومخاوفه من رأسه، يثبّت صورة ولده صبيًا على حالتها في ذهنه، فلا تتحول لهيئة رجل تحمل معها مخاوف الوثوب الموروث بين الأبناء والآباء والأجداد. طمس بصيرته عمدًا يستبقي متعته الحالية بملكه. جال ببصره في جنده يحصيهم ويلهي نفسه، حتى إذا لمح بارقة سيف في أقصى الميدان قام فزعًا. صاح بالجندي الذي شهر السيف دون إذن في ميدان الضبط والطاعة، يحسب لحظ السلطان لا يدركه، تعلل بالمزاح مع صاحبه، ثم بهت لصياح السلطان وانتفاخ عروقه غضبًا، ثم نزل السلطان إلى الجندي وعلى مــرأى من ولده أطار عنق الجندي بسيفه غضبًا وأمر بالطواف برأسه والنداء بذنبه، ولما لمح الذعر والخوف في عيني ابنه عادت صورته صبيًا في ذهنه، فطمأن رعدة الصبي بين ساعديه ومسح على رأسه ثم احتمله عائدًا إلى الحمراء والجند يعجبون لشدة السلطان وهيبته، ثم رقته لولده!

***

اضطجع موسى على الأريكة. مرر أصابعه على بشرته الناعمة من عرك الجواري، لم يكد يتصور حمامًا في داره يبز حمام أبي المحارب. اشتم من كفيه رائحة الصابون والعطر، ثم رفع كفيه ومررهما على شعره

الطويل المندى المرسل على كتفيه، ثم عقصه معتصراً قطرات الماء، ثم أرسل شعره مرة أخرى، واشتم كفيه مجدداً. أي نعمة صرت فيها يا موسى؟ مد ساقيه ثم حسر قميصه عنهما، لعل نسيمًا تفلت من حر أغشت يمر عليه في مجلسه فوق سطح الدار. لو كان في ألمرية ما وسعه نسيم الساحل ساعتها. تطلع إلى إسطرلاب جده الدائري الثاوي بجواره؛ منذ فارق ألمرية حمله وكتبه إلى الحَمَّة، ومنها إلى عين الصقر حتى استقر به ويهم المقام في لوشة. تذكر جلوس جده فوق سطح الخضراء يرقب النجوم. دلّى الإسطرلاب من حلقته ورفعه أمام عينيه. أمعن النظر في الحديدة بين علاقة الحلقة وصفيحة الإسطرلاب الأم؛ يدعون تلك الحديدة الكرسي، وعلى ضوء القنديل تبين موسى، محفورا عليها تحت العلاقة، آية الكرسي واسم جده وعام الصناعة، فانفرجت شفتاه تبسمًا للذكرى. عرف، من رصد كوكب معلوم في السماء، اتجاه الجوف والقبلة، وعلم أي ساعة من الليل هو، وما بقي من الليل على الفجر. لم يكن يومًا خالي البال مثل اليوم، حتى أيام ألمرية. لا يفتقد سوى مشهد الفحص الممتد من برج عين الصقر. راقب أسطح المنازل جواره معقودة متصلة كحبات الرمان، متراصة على الطريق المنحدر من أول ربض الزجَّاجِّين حتى بيته. سمع صوتًا في سكون الليل حسبه صهيلَ غارب. عبس برهة؛ فمنذ قرَّبه العطار وأنزله تلك الدار بلوشة وغارب في آريها لم يبارحه إلا بين الحين والحين. لم يعد يليق بجليس العطار ونديمه أن يقود جواداً أعمى يتعثر في أزقة لوشة الضيقة وينطلق بصاحبه يحطم المتاع ويروع المارين. اشترى بغلة بيضاء

يخطر بها أمام الناس، وأنزل غاربه في الآري، وكلما أهمه أمرٌ أخرجه وركبه في فحص لوشة، حيث دارت أول وآخر معركة في حياته. كلما جاس خلال الفحص سأل نفسه أين ذهبت الجثث، أين ذهبت نصال السيوف والسهام والرماح المكسورة؟ أين ذهبت الدماء؟ لعلها صارت زبلا سوّدَ طين الفحص الخصيب وأثمر ريحا زكية في أوراق الشجر. قبل أن يبعد به العهد بالمعركة، كان من السهل عليه تذكر مكان قتل لذريق صاحب قلعة رباح، واجتهد في تعليمه بعلامات شتى، وكلما مرت الأيام زاد جهده في التعرف على المكان، حتى دار العام وأنكر المكان وأنكره، فلم يهتدِ إليه بعد ذلك أبدًا. تساءل إذا ما كانت إشارة.. علّمه السلجماسي أن ينتظر الإشارات والعلامات من كل أمر حتى تضادت تلك الإشارات فصارت كل إشارة تشير ألا إشارة! رحل السلجماسي ورحلت أيامه، وبقي هو مع غاربه المحبوس في الآري، وذكرى أيام تتفلت منه بمرور الزمن. أغمض موسى جفنيه يستجدي الوسن، لكن بلا مجيب. خشي أن يكمل ليلته وحيدًا في المنزل بعدما هجع الخدم؛ هنالك تستيقظ ذكرياته من الماضي البعيد. ينزل الدرج، يرى بعين الخيال وليده يزحف ويدلي نفسه بحذر عبر الدرجات العالية. يلقي نظرة على مجلس الرجال فإذا بأمه تقلب الوسائد والأرائك والطيافير مع الخدم، أو تضع الثياب في القدر تزيل وساخاتها. ومن تجاه المطبخ اشتمّ ريح طعام أمه وفاطمة، لعلهما تثرثران حوله، وحول الأرض والزرع والاشتياق للمدينة. اجتاز مجلسه الساكن حول بركة الماء الصغيرة في فناء الدار، لعله يرى جده وأصحابه مع النساخين تحت أعمدة الأروقة، ولما اقترب

من الباب حسبه يفتح على شجيرات الياسمين اللاتي كانت تناجيها أمه، لا ينفتح على زقاق من أزقة لوشة الضيقة.

وحده مخدع الجواري يرده إلى حاضره. منذ استقر به المقام في المدينة بعدما ترك حياة الترحال والرباط، وارتدى ما خلعه عليه العطار وأنفق على نفسه من عطاياه ومن سلب لذريق وغنيمة الحرب، عادت إليه نفسه التي رحل عنها في ألمرية، وكأن أحواله مع المدينة لا تردها إلا المدينة. فما بال حاله مع فاطمة كيف يعود؟ في البدء عزفَ عن الجواري واختار أن يكمل العزلة التي بدأها منذ اعتزل في غرفة لأبي إسماعيل اليهودي، لكنه اليوم لم يعد وحده؛ صار يزور ويزار ويغشى مجالس الوجهاء والفرسان والعمال. بلغه ما تهامس به السفلة عن عزوفه عن النساء، وما رموه به من العنّة إلى اشتهاء الصبيان. تعجب من حاله كيف لم يصبر في صباه على شهوته فلزم الفنادق ومواطن اللذات سرًا وجهرًا، واليوم يدفعونه فلا يندفع!

ثم سأله العطار بنبرة ظاهرها فضول كلام وباطنها استيثاق مما يقال عنه. لم يسعه إلا شراء الجواري والطوف بهن عازلا؛ فلا يريد ولدًا إلا عبد الملك، وكلما تعلق قلبه بواحدة منهن باعها؛ فلا يريد حبيبة إلا فاطمة. ظل يدور في الدار يصعد ويهبط، ورخام الفناء يردد وقع نعله، وخشب الدرج يصر تحته يوقظ الخدم فينامون من غير جزع لما اعتادوه من مسلك سيدهم. يعلمون أنه سيظل في طوافه ككل ليلة حتى يهده التعب، فيأتيه الوسن بعد طول تذلل. عندئذ يرى نفسه يسير مهابًا يركب غاريًا في شوارع ألمرية وقد ارتد بصرُه. يعود ليرى ولده يتعلم الكتابة بين

يدي مؤدبه المالقي، يقبل يد أمه المعطرة بالياسمين، ويسمع حكمةً من حكم جده، ثم ينام بين ذراعي فاطمة حتى يشعر في نومه بضمتها تضغط كتفيه، وأبوه جالس تحت شجرة في السماء يمسك مصحفه الأحمر متبسمًا. ثم يهجره الوسن، فيصحو وضمَّة فاطمة في صدره، ويسأل نفسه سؤالَ كل صبح: ما يُرجى من الصحو إذا كان في النوم تتحقق الأحلام؟

❊❊❊

أنت

- «يوم جديد يا مولاي». مَثُل جاسوس السمع بين يدي مليكك قلب الدين ناقلا إليه صوت المؤذن بالخارج. تثاءب الملك، ومع استيقاظه أمر عرفاء الأطراف بإزاحة الدثار وعمل العادات الجارية كل صبح. انهمك ابن لبابة بين دفاتره، وقد خلع على الملك حلة جديدة وكحّل بيديه عيني الملك ونظف أسنانه وعطر أردانه، يحاكي ما تعمله أطراف المملكة في الخارج. فتش الوزير بعدها بين دفاتر الأدب عن طرفة جديدة أو حكمة بليغة يجريها الملك على اللسان فيجذب إليه قلب العطار. يا بعدًا ما بين تلك الأيام وعين الصقر! لم يكن يبالي الملك بنظافة أطرافه، وكان عليه الرقع لا يفكر إلا في الحديد والسهام، وجل انشغال ابن لبابة في استظهار وصايا الظاهري.

اليوم يبدل ابن لبابة جلد مليكك وثيابه كل يوم.. يحاكي وزراء الممالك الأخرى ليبلغ كل ما بلغوه مجتمعين. يتبين من عرفاء الحواس كيف ينطق كل عريف لسان في ممالك الجيران، وأي كلمات ينطقها أكثر من غيرها، يتأمل حركات العين وخلجات الوجه وإشارات اليد، فينسج منها دفترًا يدونه وثوبًا يخلعه على الملك. حتى إذا استدعاه الملك ليجعله صورة من الملوك الآخرين جاءه ابن لبابة بالحلة والدفتر يوجه أوامره على وزانه، ليس المهم أن يعرف الملك حقيقة الملوك الآخرين، يكفيه في مجالس الخاصة أن يبدو مثلهم، وكلما بدا وكثرت أطواره وتبدلت، كلما استعصى على فهم الملوك الآخرين، وازداد هيبة، وحسبوه بحرًا لجيًا لا

يقدرون على خوض أمواجه المتلاطمة. عندئذ يأمن شرهم ويدنو من منازلهم، ويجمع إلى شرفه شرفهم. في البدء جربت ذلك غير عامد حين نقب ابن لبابة في ديوان الذكرى عن هيئة أبي العباس الشلوبيني وحركاته وكلامه، فنسج لك أول ثوب له ودفترًا لخصَ فيه أحواله. فارتديت أبا العباس بعد أن انقضت وقعة لوشة وبدرت إلى ترتيب القوم وتصريف أحوالهم في علاج الرجال، كما بدر أبو العباس بترتيب الناس حين افتقدوا رؤوسهم في الحَمَّة، ومن ذلك اليوم حسبك الناس ما حسبوك وزُيِّنتَ يومئذ في عيني العطار فاتخذك خليلاً. بعدها صار كل أحد رأيته في حياتك قوتًا يقتات عليه وزير مملكتك، ينسج من معرفته ثيابًا ودفاترَ، تكون بين يدي العطار صاحب دعابة وملحٍ كعرفة المَيَّار وبذلك قربك الرجل واصطفاك ورفع منزلتك، ومع داود الكاتب تلميذًا نابهًا تتزلف إليه وتداخله وتلقي عليك صورة حنيزة الذي قضى في الحَمَّة، وبين العامة تسير في هيبة العطار وترفعه. لتلك الأخيرة دعوك غلام العطار أو دعوك موسى بن العطار! لله درك مَن أبوك؟ بل مَن أنت؟

يهتف قاضي الجماعة بمليكك منكرًا: "بالأمس كنت تضيق بعلومك وصنائعك، وتبدل أحوالك، أأمنت الآن لما صرت إليه من عيش حيوات الغير، وتقليدهم كل يوم مرة بعد مرة، تبدل ثيابًا بثياب حتى كدت تنسى هيئتك وما كنت عليه. تصبح فتات آخرين!».

أطرق الملك ولم يجب. نظر مستعينًا بابن لبابة، لكنه لم يسعفه. خلع الملك عمامة مجلس العطار ومسح عرق جبينه. أجاب مهمومًا: «لست أدري يا أبا الضمير. نعم، كنت أضيق بأطواري فيما مضى. لعلني كنت

أطلب علمًا أو صناعة لا لحن فيها ولا ينازعني فيها أحد. كنت أخط ولست بخطاط، وأتطبب ولست بطبيب، وأعلم عن الفلاحة ولست أحذقها، وأعرف مواقع النجوم وليس لي علم بالهيئة، وعلّمتُ صبيانًا وناظرت المبتدعة في عين الصقر، ولست بالشيخ النحرير. أخذت من كل شيء بطرف، ولم أدر أي عمل يسود فيه الرجل على تلك الحال حتى تبين أنه السلطان!».

-«السلطان!» هتف ربض اللوم في النفس غاضبًا. دق باب حمراء صدرك. ذكّروا الملك بهروبه من الزغل، بوصايا السلجماسي، بنكبة أبيه وسيرة أجداده.

ظنوا ربض العُجب سيمنعهم ككل مرة من دخول القصر، سيتعاركون ثم ينصرهم الملك ككل مرة. لكن قلب الدين في حيرته تلك لم يملك دفعهم ولا طاعتهم. فلما رأى منه ربض العُجب ذلك آيسوا منه وخمدوا وبقي ربض اللوم بأبواب القصر يذكرون مليكهم بالماضي البعيد.

أشرف عليهم الملك من برج قمارش وهتف متتعتعًا: «أنا في غنى عما تودون قوله.. أعلمه ولست أجحده. اعلموا أني دُفعت إلى ذلك دفعًا. لم أطلبه ولم أسعَ إليه. ألقاه الله في حجري، وبه أشرقت نفسي وتعزيت في مصيبتي وهان عليّ فراق الأحبة. أفي ذاك اللوم يا ربض اللوم.. أفي ذاك إثم يا قاضي الجماعة؟ ما تنقمون عليَّ أني جاهدت في سبيل الله ولزمت العطار الذي لا تطاله شبهة، وخدمت السلطان؛ أمير المسلمين حفظه الله. وإني والله أحب المُلك وأشتهيه، وأنا ابن الأحمر على ذلك

جُبلت، ورغم هذا فإن ذاك الطريق يُسِّر إليَّ عن غير مسألة، فلمَ تعكرون الصفو بالظنون والوساوس؟».

ربّت القاضي في حنان على كتف الملك وشرد في كلامه، كان يراه صادقًا ولا سبيل للطعن في نيته. كَبُر الملك وبلغ كمال العقل والبيان، لعلها مسحة أصابته من ثياب العطار! دنا القاضي حتى ألصق وجهه بوجه الملك وقال همسًا: «أي صفو نعكره يا مولاي؟ انظر إليك؛ تلتقط نظرة الرضا من هذا وذاك، يتأولون عليك كل حركة وسكنة. إن تأخرت عنهم قالوا سئم الصحبة، وإن أقبلت قالوا عجِّل بها. تلقي المعاذير لكل أحد حتى لا يتغير عليك أو يسيء الظن، حتى الساعة تقضي فيها حاجتك. يستصحبون مكائد الملوك والوزراء من أيام ساسان، كلما رأوا خيالاً منها بدرهم الشيطان ونكت نكته السوداء على ملوكهم. تعيد عليهم فضائلك وقتلك لذريق وبذلك للناس، وتعمل أعمال البر في العلن لئلا يقولوا لأي شيء اصطفاه العطار أو في أي شيء ينفق ماله، حتى النساء أتيتهنَّ لئلا يقال عنِّين. أي كدر بعد ذاك الكدر؟».

-«وأي عيش إن كان لكل عمل ما يسوؤك ويقعدك ويقنطك. إن كلام السلجماسي أفسدك!» قالها الملك متململاً، قد ولى ظهره واستعاد شيئًا من حدته القديمة. «لقد ضقت بتلك الحياة وهذا الكلام، كل الدنيا شر والناس شر، كلهم كإبل المائة لا تجد فيهم راحلة، أرمي الناس بالشبهات حتى أموت عظمًا في كفن! ائتني بمثلهم بدلا من عندك، أو بدار غير الدار إذن!». تميَّز القاضي من عودة مليكه لسيرته الأولى، فاستعاد بدوره حدته القديمة: «بل أبصِّرك بفتنة لست تدري أين تودي

بك، وإنما أنت رجل بين ظهرانيهم لا تعلم أي واد تلقي بنفسك إليه، ومن تعطيه ثمرة قلبك وصفقة يدك اليوم، سيأكل قلبك ويقطع يدك إن خالفته أو عصيت أمره. وما الذي يجعل ابن أخيك غير؟ إن هو إلا ابن لآبائه وأجداده؟ أم لأنه خلع أخاك ونابذ الآخر؟ بل ما الذي يجعلك أنت غير. أنت ابن آبائك وأجدادك. . ابن الأحمر وقد جُبلت على ذلك!» ضحك القاضي بعد جملته الأخيرة هازئًا بالملك، فتغير وجهه وتساءل مستوضحًا عما يعنيه القاضي.

- «أعني إخراجك لعرفة الميَّار. احتلت وتلمست الشبه حتى أشرت بإخراجه من الحبس، وزينت ذلك للعطار حتى فعل. لماذا أطلقت الميَّار يا مولاي؟».

-«لأنه مظلوم».

- «بل لأنه وعدك إن أطلقته حملك إلى ولدك! عرفة الميَّار رأس المدجنة في بلده، خدين رياس النصارى التاجر بأموالهم، اليوم صار نديمًا، ووزيرك الأحمق المأفون ينسج له ثوبًا ويدون له دفترًا». غمغم ابن لبابة ساخطًا من تعريض القاضي، ثم انتظر أن يدافع عنه الملك، لكنه لم يفعل. رفع الملك يده بانفضاض المجلس وصرف ربض اللوم من على الأبواب. لم يتهمم بالجدل والكلام معهم. رمى الوزيرُ قاضي الجماعة بنظرة هازئة معتبرًا تلك النهاية انتصارًا. أما القاضي فقد خاب رجاؤه وابتلع لسانه كأنه انتظر عراكًا وصراخًا من الملك. لكن الملك الصموت الوقور أنهى كل شيء بإشارة من يده؛ لقد دخل مجلس الرجال وارتدى ثياب العطار.

الفصل التاسع

فشتنبس

أنا

ذكر وقعة الشرقية:

ولما كان شهر صفر من عام ثمانية وثمانين وثمانمائة اجتمع من زعماء النصارى وأقنادهم جمعٌ عظيم ولم يكن معهم ملكهم، وقصدوا قرى بلش وشرقية مالقة، وحين وصلوا تصايح أهل القرى واجتمعوا رجالا دون فرسان، فصاروا يعترضون النصارى في المضايق والأوعار والمخانق وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، فأسقط في يد النصارى، وهاموا على وجوههم يبغون الفرار، والمسلمون في إثرهم يقتلونهم ويأسرونهم، ولم تُغْنِ عنهم كثرتهم ولا عدتهم شيئًا بإذن الله.

وكان في وقت هذه الوقعة أخي الزغل بمدينة مالقة، وقد جعل نفسه داعية أبي الحسن وحاجبه، وناصره على ولده السلطان أبي عبد الله، وقد حبس أبا الحسن في حصن جبل الفارة خشية غدره وأن يداخله قواد مالقة عليه! فلقي الزغل النصارى من ناحيته وقتل وأسر منهم أيضًا خلقًا كثيرًا وولوا الأدبار، وأسر منهم ما ينيف على ألفي أسير فيهم جماعة من قوادهم وأقنادهم، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورحالهم وأمتعتهم، فغنم ذلك كله المسلمون وحملوه إلى مدينة مالقة فحبسوه بها على أن يقسموه على كل مَن حضر الوقعة، ففرقه الزغل في مواليه ومماليكه ولم يجعل لمن حضر الوقعة منه شيئًا، قبحه الله ولعنه بما غلّ يوم القيامة. وقد بلغني أن الظاهري كان على الرماة الأغزاز

يومئذ وقد نزل بهم من حصن جبل الفارة ليمد سيده، وأبلى في تلك الوقعة بلاءً حسنًا، وتطاير الناس بسيرته ورميه، وما علمت أنه هو إلا من وصف رنكه الذي طرز به رايته وقوسه ودبوسه، وكنت أردت العروج عليه أو الكتابة إليه غير مرة، وما منعني إلا أن يرميني الناس بمداخلة الزغل، فيتغير العطار عليّ، وقد جرت لي معه ومع قواده أحوال ومغاضبات كدرت لي الحياة بعد صفو، وقد رويت لك بعض ذلك فيما مضى. إلا أني أبسط لك هذا الأمر، لا ذمًا لأحد ولا غيبة لأحد ولا دفعًا للزلل عن نفسي، وإنما أذكرها لك على سبيل التبصر والاعتبار.

ذكر حالي مع قواد لوشة:

كنت قد لبثت أيامي ملازمًا العطار في حركاته وسكناته، ثم أرسلني إلى الديوان عند داود الكاتب كما تقدم، حتى إذا رأى كفايتي جعلني قائدًا من قواده، وكان أولئك القواد يظنونني فتى يتسامر معه العطار ويروّح عن نفسه، فتقربوا إليّ، وداخلني كل منهم يريدني أن أذكره عند العطار، ولم يروني منافسًا ولا مزاحمًا لهم، فسلمتْ صدورهم من جهتي. واستقر ذلك عندهم لما رأوني أغشى الديوان وقالوا عينٌ للعطار على الكُتَّاب والحُسَّاب. حتى إذا جعلني قائدًا تغير عليّ منهم مَن تغير، وانقبض عني مَن انقبض. ولا غرو في ذلك يا بني؛ فإن أولئك القادة في أعلى المراتب وأشرفها، إلا أنهم تحت أعين السلطان والولاة، وعلى قدر درجة الحظوة تكون دركة السخط؛ فالكُتَّاب والحُسَّاب إذا سخط عليهم الوالي أو السلطان عزلهم وألزمهم بيوتهم لا تذود عنهم الدفاتر والأقلام، أما قواد الجند فلا يرتفع عنهم السخط إلا بضرب الرقاب لئلا

ينتزوا بعساكرهم ومواليهم. وما أزرى بالأندلس إلا وثوبُ السلاطين وحسد القواد وإفناء بعضهم بعضًا، كلهم يتوقع البلاء بين الفينة والفينة في نفسه وماله وعياله ونادر موجوده، وإن لم يقع لتوقع ذلك البلاء أثرٌ، وهذا سوء ظن بالله نعوذ بالله منه وإياك. وهم يظنون مع هذا أن ذلك البلاءَ كسبيٌّ محض يمكن أن يدفعوه عن أنفسهم، فدفعهم ذلك إلى ابتغاء الفتنة، وسفك الدماء وتدبير المكائد وذهب بعضهم إلى الردة واللجوء للعدو، ولو توكلوا واتقوا لما حلَّ بهم من تلك الوساوس والظنون شيءٌ، وقد رأيت قوادًا يتوهمون سخط العطار من إشارة أو لحظ أو تقريب أحد عليهم فيدفعهم سوء الظن للعصيان والفتنة، ولا يعدو ذلك إلا جفوة عابرة أو غضبة لا تلبث بعد ليلتها، لكن نزْغ الشيطان يدفعهم إلى ما يفرون منه، وإن ظنوا أنهم بذلك يدفعونه، فتأمل!

غاية القول أني وجدت قواد لوشة بين مُعرِضٍ عني يرى في وجهي زوال سعده كابن سالم، ومتزلفٍ يريد ضمي إلى حلفه، ومشفق كالأم على وليدها يربي في العلم بالحربِ، كباره قبل صغاره، وكان ذاك العطار وقدماء القواد الملازمين له منذ زمن وقد شابوا في مراتبهم ورسخت منازلهم وكبر سنهم حتى استعفوا مرارًا فلم يُعفوا لكفايتهم، وأولئك لا يظنون الظنون ولا يتوقعون الآفات، ويقبلون على كل وافد يمدون سذاجته بمجرباتهم. منهم عبد الله بن سعيد بن المول، صاحب العطار ونظيره، فهو رجل شهم مقدام جريء، ذو أنفة وشارة، حسن التجنُّد زناتي الشكل والركض والآلة. كان يستعرض الجند بين يدي، ويقف على هيئتهم وسلاحهم فيعطي ويمنع، ويمتحن النظار والعرفاء والنقباء

ويشتد عليهم؛ وهم لعمري أشر الناس خلقًا وأشرههم لأموال الناس؛ فهم بين مرتبتين بينهما ما بين السماء والأرض؛ الجندية والإمارة، ولما قصرت همتهم وملكاتهم عن الترقي، وليست تمنعهم من فقدان الحظوة والنزول منزلة الجنود، التمسوا كل مسلك يحفظ عليهم منازلهم بالوقيعة بين القائد وجنوده، ومداخلة كل منهم ابتغاء تفرق القلوب فيجتمع الأمر لهم من دون أحد، فتتسلط عليهم شهواتهم وتولد عندهم الحرص والبخل وأكل أموال الجنود بالباطل، ويحصل لهم من سخطهم على أرزاقهم الكبرُ والعُجب على من دونهم وأسخط الله عليهم الناس، لأنهم سخطوا على حكمه فيهم. وخير القواد من امتحن نقباءه وعرفاءه، ولم يجعلهم حجابًا بينه وبين جنوده، ولم يسلطهم على أحد إلا بالحق، ولم يسلِّم لهم بقول حتى يتثبت منه بنفسه، وقد ابتلاني الله بعرفاء ظنوني خبًا ساذجًا. حرَّضهم عليّ ابن سالم المذكور أن يتراخوا في ضبط الجند ويفسدوا دواوين العطاء، يريد أن يغير العطار عليّ، فنكلت بهم نكالا تسامع به أهل لوشة، وتغافلت عن قولهم في ابن سالم ولم أرفع أمره للعطار وكان ذلك أنكى فيه، وكلما رأيته كان عليه صَغَارٌ وبال بغيه، مغلول اليد من حسده، ككاتم النار تحته إن خفضتها أحرقته، وإن رفعها فضحته، فصار بذلك جندًا على نفسه وعونًا عليها. وكلفت بضبط جندي أيما كلف حتى جفاني النوم إلا غفوة بين الفرائض، أنزع إلى كل فرجة يباغتني منها عدوي، فأسدها بالتدبير واصطناع الرجال. فكدرت حياتي بعد صفو، وتغير صدري، وصرت أنظر في وجوه الناس أتبين الخائن من الأمين، وأجلس للقضاء بين الجند أناظر أقوال المختصمين،

ولست أدري أصبت أم أخطأت، وكنت كلما أهمني أمرٌ سكنت خاطري أني عند العطار بمنزلة الخليل والأنيس، إلا أن دوام الحال من المحال، ولله الحمد في كل الأحوال.

ذكر مغاضباتي مع العطار:

كنت كما أخبرتك ملازمًا للعطار حتى حفظت حركاته وسكناته، وعرفت من أصواته معانيها؛ فإذا عُرض عليه أمرٌ وزام كان ذلك أمرًا بتأجيله، وإعراضه رفض، وعبوسه عقاب، وإيماؤه رضا، وتبسّمه عطاء. وكنت منه في أول صحبتي له في موقع المراقب لا أعرض عليه أمرًا وعملا، وكنت أغبط منزلتي تلك عنده، ويزداد حرصي على صحبته لدوام هشاشته وبشاشته، ولم أعبأ بسخطه ولا غضبه إن كان على غيري، بل كنت أتحرى تلك المواقف وأتعلم منها ولا يخطر على بالي تخطئته ولا أرثي لمن تسخَّط عليه، حتى إذا استعملني وحمَّلني من أماناته، رأيت منه وجهًا غير الوجه، صنو ما يعمله مع سائر عماله وقواده، وهو لشدة أنفته واعتداده بأمره لا يرى الحق إلا على صورته، ولا يعذر أحدًا إذ لا يعذر نفسه، ولا يقيل أحدًا لم يعمل بعمله ويستن بسنته، فتلك عنده الأسوة والمنتهى. وإذا كان حزمه ذاك يجمع قلوب العوام حوله، فإنه يسخط عليه عماله وقواده، إلا أنه لا يبالي بهم ولا يستمع لرأيهم، يريدهم طوع بنانه يأمر فيطيعون، وليس لهم بعد ذلك من شيء اللهم إلا ابن المول، فقد خبر العطار من طول صحبته وعلم كيف يحمله على رأيه كأنه قائله، وذلك بعد عنت ومشقة. فكيف بأبيك حديث السن قليل الحيلة؟ ووالله قد لاقيت من غضبه الكثير إذا لم أسر في

أمر بسيرته، فإن كنت عامدًا رماني بالعُجب والكبر أن تكبرت على أمرِه، وذكرني بما أكرمني به ورفعني، وإن لم أكن عامدًا رماني بالغفلة والجهل أن لم أفطن لتقليده وهو تمام الفطنة والبداهة، وأنّى لي أن أعلم فطنته وبداهته تلك وهو في كل أمر يحيل على ما في نفسه! ثم كنت أجادله فيشتد غضبه ويرمع أنفه، ويقطع الحديث ثم يصرفني بيده مهانًا، وينقبض عني ويمتنع عن دعوتي لمجلسه أيامًا. عندها أبيت ليلتي أحصي مالي ومتاعي، وأزمع على الاستعفاء منه والرحيل عن لوشة، فإذا أصبحت جاءني من خدمه من يلومني لجفائي العطار كأنه ناصح أمين، وأنا أعلم أنه رسول منه يحملني على الاعتذار منه فيصفو ما بيننا حتى حين. وكذا كانت حياتي بين قبض وبسط وحسد وكبر وسوء ظن.

تمنيت يومها لو عدت إلى عين الصقر ولبثت لدى ابن يعقوب والشلوبيني في بداوة الرباط وشظف عيشه، أنام قرير العين أتبلّغ من جمع الثمار وصيد البر والبحر، وهانت في عيني لوشة وعطارها، بل هانت في عيني الجزيرة كلها، وكرهت ما أنا فيه من البطالة والخمول، وملازمة القواد والأعيان، واستعراض الجند كالجعجعة بلا طحين، ورجوت من الله أن ييسر لي الجهاد، وظللت ألح على العطار أن أخرج في الغزو، فمازلت به حتى أجازني.

ذكر أول ما غزوت:

سيَّرني العطار بجندي إلى أحواز قبرة أغزوهم قبل أن يغزونا، وقد علم أن قندها يحشد الرجال للإغارة على الصخراء، وهي بين قبرة ولوشة، يريد فحصها، وتلك عادتهم في تحريق الحقول حول الثغور

ليجيعوا أهلها، ثم يحاصرونها وينصبون عليها الأنفاط حتى تسلم، وقد جعلوا في مقدمة جيشهم الرعاع والدهماء من النصارى والمتنصرين والمدجنة، ممن لا يحسنون القتال، فيدفعون بهم وسط الجيش حتى إذا قربوا أرضًا فرغ الفرسان للقتال وأخذ هؤلاء الرعاع ينتسفون زروعها، ويخربونها فلا تصلح بعدئذ للغرس والزرع. فعجبًا لأولئك القوم، فما تنفعهم الأرض إذا خربت، وبضاعتهم مزجاة في الفلاحة وسائر الصناعات، وهم عيال على المتنصرين والمدجنين، فلولاهم لبارت أرضهم وخربت أسواقهم، وأعلمني عرفة الميار أن النصارى يأتون بالقمح من بلاد الفرنجة ومن إفريقية، أما غرناطة فوطن غريب محصور بره مقطوع بحره، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تفقدت جندي وسلاحهم، ومتاعهم، ودوابهم، ثم قدّرت أقواتهم مدة الغزو، وكتمت عنهم وجهتي، ثم سرت بهم في طريق بين اللسانة وقبرة، ومعي عبد الله بن المول؛ قد جعله العطار قيمًا عليّ فلا أقطع أمرًا دونه. وكنت أظن يومئذ لحداثتي أن إسطرلابي يغنيني عن توجيه الدليل، حتى فطنت أن الطريق المرسوم في السماء غير طريق الأرض، وأن إدراك الوجهة يلزمه تخير الطريق الحسن من الردي، فلا أنزل بالقرى فيسبق خبري إلى العدو، ولا ألجأ إلى سهل فسيح يكشف عورتي، وقدمت بين يدي الطلائع وعن يميني وعن شمالي؛ تنبئني بما خفي عني، وتشرف على التلال والوهاد مما يكمن فيها العدو، ثم تقر فيها حتى نجاوزها، ثم تسبقنا من جديد وهكذا

دواليك. وأخَّرت فرقة من الفرسان عني، حتى إذا دهمني العدو في غفلة كانوا مدداً. وتلك الفوائد لا تدرك من الكتب وإنما بالدربة ومن أفواه الرجال، فتنبه!

وكنت أسير بالجند من الفجر حتى الزوال، فإذا جن الليل نصبنا معسكرنا، ورتبت عليه الحرس، وبثثت العيونَ تحوم حول الحمى حذراً من العدو، حتى إذا رأوا خطراً أنذروا الحرس وأيقظوا العسكر. فعلى أمير الجند أن يجعل جنوده حرسًا بعضهم على بعض لئلا يجد العدو منهم غفلة، وأن يشرف عليهم في أي ساعة من ليل أو نهار، ولا يأمن لهم فيأمنون ويضيع حزمهم. وكنت كلما غفوت في خيمتي أرى العدو مقبلا فأفزع من نومي، وأنهض للطواف على الحرس. قضينا ليلتين حتى فارقنا أرضنا إلى أرض العدو، ولجأنا إلى واد وعر بين الجبال نسلكه بعيداً عن العيون، حتى إذا خرجنا إلى السهول أسقط في يد العدو، فنأخذه على حين غرة. وبينما نجتاز الوادي إذ سمعنا جلبة في آخره، ووجدنا طلائعنا شاهرة الرماح تكر علينا! ثم انصبت علينا السهام والنبل والبندق من علٍ! كان ذلك رعاة الجبال، قد فطنوا إلينا وأنذروا القرى، وكمنوا عند مدخل الوادي، حتى إذا همَّت طلائعنا بالخروج من الوادي لقوهم بالرماح، ففرت الطلائع إلينا والعدو في إثرهم، وضاق بنا الوادي عن تخليل الصفوف كيما تنسل الطلائع من بينها، فصرع الجند بعضهم بعضاً ونفر الخيل، واضطرب نظامنا، واشتد رمي الرعاة من الجبال بالقسي والنبل، وأيقنا الهلاك، فصحت بالجند أن يترجلوا ويرفعوا التروس وليحملوا على رؤوس الجبال تجاه الرماة! وكنا نبزهم عدداً إلا أن رميهم كان أنكى، فأمرت الجند أن يتباعدوا ويتواثبوا يمنة ويسرة ليتسع الأمر

على الرماة، وكلما صعدت هنيهة التقطت حجراً ورميته، وأرفع الترس لأستر رأسي وصدري، وكان جبلا وعراً وقد زلت أقدام من حولي وهوى من هوى، حتى إذا اقتربت من أحد الرماة ألقى بقوسه وحمل برمحه يطلبني، فألقيت عليه ترسي، فأجفل، ثم وثبت عليه حتى إذا أثبته في الأرض أخرجت خنجري من غمده الذي في ساعدي وشققت صدره، وتلك حيلة علمني إياها الظاهري. وقضى منا خلق كثير حتى إذا وصل أولنا إلى الرماة لم نفلتهم. وقاد ابن المول فرسان الساقة يدفع بهم النصارى الذين دهمونا من آخر الوادي، ليخرجهم إلى السهل وقد تشاغل عنه الرماة بنا، حتى إذا ركبنا الجبال تراخى ابن المول عنهم، فاتبعه النصارى إلى الوادي مرة أخرى ظانين إخوانهم على حالهم في الجبال، ففعلنا بهم ما فعلوا بنا ودارت الدائرة عليهم، ولما أفنيناهم تركنا ثلة من الجنود كامنين بين الجبال وأصعدنا إليهم الجرحى، ثم ركبنا الخيول وسحنا في القرى وغنمنا وسبينا، ثم بتنا ليلتنا في الوادي، ولما أسفر الصبح حملنا أثقالنا وجرحانا وحثثنا السير إلى لوشة، فلم يدركنا جند أرسلهم قند قبرة إذ بلغه أمرنا، وعندما أتاه خبر نجاتنا عضّ علينا الأصابع من الندم، وتلقانا العطار بالبشر والحبور، وأرسل لنا السلطان مهنئًا، وخلع عليّ وابن المول، ومُدَّت الموائد وفرقت الأموال، ورويت الروايات، وزعم قوم لأنفسهم مالم يعملوا، وتشبع آخرون بما لم يعطوا، ودار الزجالون في الطرقات يخبرون الناس بوقعة الوادي كلٌ يروي روايته، وهابني حسادي من قواد لوشة، وظنوا العطار يرفعني عليهم، وخشي ابن سالم أن يمكنني العطار منه، إلا أني لم أنتبه لهذا كله، والتزمت داري

أيامًا أنكر نفسي؛ أعدت حيًا من تلك الجبال؟ أي جنون أو سكينة تلك التي تملكتني، فصعدت الجبل وثبًا! بل إني كلما تذكرت ذلك الأمر ضاق صدري، ومادت بي الأرض برهة كأني أهوي من علٍ. وأخذت أفكر في الموت والحياة والفراق، فسألت الله وصالك قبل المَمات، وعندما نزل عليّ عرفة الميار راحلا من قشتالة يريد العدوة، علمت أن الله قدّر وصلك وبرك، كما قدّر قطع العطار وسخطه!

ذكر رحيلي عن العطار:

أصبحت عازمًا الرحيل، وصعدت إلى العطار في القصبة ولاطفته، وذكرته بفضله عليّ وظللت أطنب في الحديث حتى آذنته في الرحيل بضعة أشهر إلى فاس لرؤيتك، فأطرق قليلا ثم جادلني في عزمي وظل يحدثني عما يراه لي من قادم الأيام، وعن حاجته إليّ بجواره، ووجوب ملازمتي إياه، وأنه يريد استخلافي على لوشة إذ أن السلطان نوى غزو النصارى ويريد العطار معه، ثم أنّبني بلطف إذ أريد الخروج عن أمره وهو الذي يعدني ولده، فرقّ له قلبي وأشفقت عليه، وكدت أركن إليه، إلا أني تذكرتك وتذكرت الجبل، فألححت عليه في الرحيل، وإذ رآني لم يفتر عزمي عبس وأعرض عني، وقرعني بقبيح القول وعيرّني بهيئتي التي جئته عليها بعد وقعة لوشة، وببيضة[1] لذريق الفارس التي اشتراها بأضعاف ثمنها، وبالدار التي أعطانيها والعطاء الذي أكرمني به، حتى البغلة التي صعدت عليها القصبة عيرّني بها! ألجمني كلامه، واحمر وجهي وجمد الدمع في عيني، فلم أحر جوابًا ونزلت القصبة على

(١) خوذة.

رجلي، ثم حملت متاعي الذي جئت به من عين الصقر وأخرجت غاربًا من الآري ورحلت لا ألوي على شيء، وعند ظاهر لوشة لقيني عرفة الميَّار بقافلته، وكتمت عنه خبري لئلا ينكث وعده معي، إذ أن هؤلاء المدجنة يا ولدي لكثرة تنقلهم بين الألسنة والأديان تساوى عندهم حسنُ الأمر وقبيحه إلا أهواءهم وشهواتهم، وهم لا يخضعون إلا لمن ينفعهم، وخشيت أن يعرف سخط العطار علي فيجدني غير ذي نفع ويجافيني. ثم إني ضممت متاعي إلى متاعه وسار بنا الركب، ولست أدري أين أحمل متاعي وآلاتي وغاربًا، أردتُ الذهاب إلى عين الصقر، لكني خشيت أن يقع عليهم الحرج لسلطان العطار عليهم، ثم تذكرت أستاذي الظاهري بمالقة؛ فبذلت العطاء لعرفة أن يحول الركب إلى مالقة، ولما نزلتها بتنا ليلتنا في خان، ثم صعدت إلى القصبة أطلب الظاهري، فهاب الجنود هيئتي وسلاحي، ثم إن الظاهري لما علم بأمري نزل إليّ وتلقاني أجمل لقاء، ورويت له ما دار بيني وبين العطار منذ فارقنا إلى مالقة مع الزغل، وروى لي ما جرى له منذ فارقني، وبتنا ليلتنا في سمر في دار فسيحة بجبل الفارة أنزله الزغل بها مع حريمه وعياله، وأصبحت مودعًا له وادخرت عنده مالي ومتاعي وكتبي، واستودعته غاربًا في آري الحصن، وسألني إن أردت أن أطلع إلى أخي السلطان المعلول جوارنا، فأبيت ذلك وقد تذكرت ما فعله بأبي، وما نكبات حياتي إلا فرع من شؤم فعله. ثم نزلت إلى عرفة الميار في الخان وانطلقنا نجد السير إلى برطة النصارى عند العدوة، وقد تركت زي الفرسان وآلتهم عند الظاهري لئلا يستريب بي النصارى، ولبست لباس أبناء السبيل، وحملت متاعًا حقيرًا، وأودعت

مالي عند عرفة وليس معي إلا خنجر مشدود إلى ذراعي حذراً من شر الطريق.

وإذ تركنا دار الإسلام إلى أرض النصارى أحاط بنا فرسانهم من كل جانب، ثم أمنوا لنا لما أراهم عرفة ظهير القند الذي يعمل عنده، فأجازونا بتجارتنا ومتاعنا، ثم سار معنا خلق كثير حتى وصلنا البرطة وركبنا البحر، واحتطت في الكلام مع الناس لئلا يعلموا من لساني أني من المرية، وظللت ملازمًا لعرفة الميار أنصت ولا أتكلم وهو يدور على القوم في السفينة يصافح هذا ويسامر ذاك، يوثق العلائق مع بني قومه من المدجنة يشد بهم أزره ويزيد تجارته، ولقيت في هذا البحر قومًا عجبًا من المدجنة تقلبت بهم الدنيا وأحوالها وكانوا عجبًا في هيئتهم وعبرةً في قصصهم.

ذكر من لقيت في السفينة:

وممن لقيت في السفينة أبوعثمان بن مسرة قاضي الجماعة في بلنسية، وهو رجل فقيه عالم حسن الهيئة، لين الجانب ملح الحديث، في لسانه عجمة فلا تكاد تبين كلامه إلا ظنًا. انعقد القوم عنده حلقًا في السفينة يستفتونه في أمور دينهم وأعمالهم مع النصارى، وهو يملي عليهم في قراطيس، ويكتب لرجل دعاء أو فاتحة الكتاب ليصلي بها، أو يملي الفرائض على رجل سأله عن ميراث أبيه، وقد عجبت له كيف يرتضي مثله مكوث المسلمين بين ظهراني الروم ليكونوا دجنًا لطاغية الروم وذخرًا، وهم يؤدون له الجزية تارة، ويقاتلون معه إخوانهم تارة أخرى،

ثم يقولون ما خرجوا إلا كرهًا! وإذا خلت مدن العدو وقراه لنفير الحرب قاموا بعمرانها كأنها لم تخلُ فيشتد العدو في حملته وهو يأوي إلى ركن شديد! ولو هاجروا لإخوانهم لكان خيراً لهم ولو تركوا أموالهم وموجودهم. وكان أبو عثمان هذا قد ركب السفينة قاصداً الحج ولقيا أشياخه في الزيتونة، وقد حكى لعرفة طرفًا من أخباره فلم أزدد إلا عجبًا لحاله وسعة حيلته؛ فقد روى لعرفة كيف أراد أحبار الكنائس في ناحيته كبس أمواله ودكاكينه والتضييق على بني جماعته في المعاش، فيلزمونهم بربَع المسلمين، وهو قسم مخصوص في مدن النصارى، لا يسكنون ولا يتّجرون خارجه، فاستنجد القاضي بسيد فرسان شنت ياقب وهو مقرب من الملك ومسموع عنده، وأظهر القاضي الولاء والخضوع للملك، وقال إن الأحبار ما أرادوا إلا منابذة الملك والأثرة بما ضربه على المسلمين في تلك الناحية دونه، ثم إن أرضهم تقع في زمام قصبة لفرسان شنت ياقب، فلا يحل لأحد غيرهم مطالبتهم بشيء! فداخل سيد الفرسان مليكه، فكتب للمسلمين في تلك الناحية ظهيراً بمنع الأحبار من طلبهم وأسبغ حمايته عليهم فلا يستأثر بمدخولهم سواه، ثم حكى كيف يتقاذف المسلمين الملوكُ والأحبارُ والفرسان والأقناد وعمال المدن، كل يزعم وقوع جماعات المسلمين في زمامه ليضرب عليهم المغارم كيف يشاء، ولولا مداخلة ابن مسرة ملك الروم لما ترك قومه على حالهم؛ لهم مسجدهم وسوقهم وأقضيتهم بالشريعة لا ينازعهم في ذلك أحدٌ. ثم ذكر حساده من قضاة الجماعات في بلاد النصارى، وكيف أنهم يسعون به عند طاغية الروم وامرأته ليعزلوه، ويترك المسلمين من بعده لا يذود عنهم أحد، فعجبت له ولحساده كيف يتنافسون على الركون للكفار والخضوع لهم، أعاذني الله وإياك من تولي الكافرين.

ومن لقيتهم كذلك رجلٌ دميم الوجه أشعث رث الثياب، عليه برنس أزرق كالح، يطيل النظر في وجوه الناس وأيديهم فيتكفؤونه وينفرون منه، وكان الجوع قد بلغ منه حتى قرقرت بطنه، فأشفقت عليه وقاسمته زادي، ثم أخذ يروي لي روايته. هو عبد الرحمن بن فرج، من مدجنة قشتالة، كان أبوه من صناع الأنفاط، وكان مقربًا من بطرة، ملك قشتالة حينها؛ ومن حاشيته. ولما زادت الوحشة بين بطرة وأشرافه اتخذ لنفسه حرسًا من المدجنة مسلمين ومتنصرين، وهم صنو حرس السلطان من الأعلاج النصارى، وهؤلاء الموالي يكونون أشد طوعًا للملك من غيرهم؛ ذلك لأن الملك هو من أنزلهم تلك المنازل الرفيعة، وأنهم لم يطلعوا منه إلا على هيئة المُلك وأبهته، فيقر في قلبهم هيبته والتنافس على الحظوة لديه. وسعى فرج أبو عبد الرحمن هذا أن يسلك ولده خادمًا لأحد فرسان الملك أولئك، حتى إذا كبر عبد الرحمن واشتد عوده وظهرت نباهته زمن من ملك بعد بطرة، صار فارسًا من فرسانه، وتقلب في المراتب حتى صار مقدمهم، فخاض مع الملك حروبه ضد الأشراف وضد أخي الملك الصغير، وتقوى الملك بهم في بداية الحرب واشتد بهم ساعده حتى أخضع كل من خالفه وخرج ظافرًا من كل موقعة، إلا أن طول الحرب وضعف الملك وتسليمه أمره لقواده أخلّ بأمره وتفرق عنه أنصاره على فترة واضطرب ملكه وعاداه الأحبار والرهبان، ورماه أعداؤه بالتفريط في الملة النصرانية وتقريب أهل الإسلام منه واتخاذه حرسًا من المسلمين، وطالبوه بصرف فرسانه المدجنة هؤلاء وطردهم من بلاطه. ولم يجد الملك بُدًا إلا أن نزل لهم راغمًا وصالحهم أواخر حياته،

فصرف فرسانه إلى جيان لينتظموا في سلك فرسانها، وكذا دارت بهم الدنيا وتقلبوا من الغناء إلى الحاجة، فلم يجدوا رزقًا إلا الإغارة على ثغور إخوانهم المسلمين، وتنصر منهم من لم يتنصر وتسموا بأسماء الملوك؛ بطرة وأذفنش وخايمي، وصاهروا أشراف النصارى لينالوا الحظوة عندهم.

وبقي صاحبنا على دينه يظنه لم يُنقض بموالاة أهل الكفر وقتال أهل الإسلام، وعدَّ ما نزل به من الفقر والحاجة صبرًا على دين الله، وأثنى على نفسه أن لم يتنصر كمن يُدعى ابن عمار الذي سلم حصنه للنصارى يوم كان من رجال أخي السلطان، وصاهر الأشراف وقاتل مع ملك الروم حتى قُتل في غزو لوشة فدفن تحت قبة في كنيسة ابتناها في قبرة وصلى عليه أسقفها كما وصى! ثم ظل يرثي نفسه وحاله ويصف كل واحد في السفينة ويسميه وينسبه ويذكر تحلقهم حوله وتملقهم إياه حتى إذا انقلب به الحال ازدروه وانقلبوا عليه، حتى عرفة الميار الذي كان يتجر بأمواله انقلب عليه ولم يقبله في تلك السفينة حمَّالا إلا بعد طول لجاجة واستجداء، ليكسب ما يقيم أوده ويقيه الموت جوعًا. فيا عجبًا لأولئك المدجنة يزرعون للطاغية ويصنعون ويقاتلون، ثم يسألون الله الحج أو الرزق! ألا ما أضل سعيهم وأشد غفلتهم!

ذكر نزولي فاس:

ثم سرعان ما انقضت رحلة البحر وبدأت رحلة البر، وسرنا بالمخافة من العربان وقطاع الطريق، حتى إذا وصلت فاس ونزلت السوق سألت عن خالي، ودلني أهل السوق على داركم، فاغتسلت في الخان وابتعت

ثياب فارس وعُدَّته واكتريت جواداً واشتريت الهدايا واللطائف حتى إذا قرعت الباب رآني خالك عمرو فزعق كأنما رأى شيطانًا مريدًا، ثم أدخلني لأجد جدك في مرض موته، وأمك محجوبة عني مع الحريم، ثم رأيتك في باحة الدار تلعب مع أبناء خالك، فأشرقتْ نفسي بنورك وقَوِي رجائي في الدنيا بوصلك، وبعُدَ عني خوف الجبال والسقوط عنها، وبرد عين الصقر وسخط العطار، وحسد ابن سالم وطمع أبي الحسن، ونكبة أبي وعلة أمي. وجرى في تلك الزيارة ما تعلم، واللسان في إبانة ذلك عيي، والكلام في وصفه شقي، ومازلت أذكرك وأشم ريحك من رسائلك الأولى لأصبر على البلايا والنكبات التي حلت بي، ويكأنها انتظرت عودتي للجزيرة ليقفي بعضها بعضًا، فأملأ بذكرك خلوتي وأشغل قلبي بك في حلي وترحالي، وأطلب صورتك في المنام لتطرد عني هموم نفسي ووساوس الشيطان، وأقف عند برج الحمام في غرناطة أنتظر رسائلك، فعساك أن تذكرَ أباك ولم تنسه، وعسى منزلتي منك كمنزلتك مني، ولعلك باقٍ في فاس تتلقى كتابي، ولعله يجد سبيله إليك من بين أسوار الحمراء وأبراج شنتفي وجبال البُشرة وأجفان الروم وصحراء فاس.

***

هو

فتر القيظ كمرجل بَخَر ماؤه، وأخرج البرد أنامله يتحسس العراء. تساقطت أوراق الشجر، وانفضت مجالس الناس في الجنان وأفنية البيوت؛ فناجت أمواه البرك والسواني نفسها بين السكون. قُوِّضت أخبية أبناء السبيل في الطرقات. التجؤوا إلى سؤال الكريم واللئيم بأملٍ سرعان ما فارقهم. هجر النورس الماء هاربًا من صورته على صفحاته، فرَّ إلى المدينة وأشرف من علٍ على أسطح البيوت وصوامع المساجد وأبراج الحصون، نُزع عن تلك الأبنية سكانها كأشجار الغاب العارية، كرأسه التي شابت وابيضّ ريشها. وقف على غصن زيتونة. لمست أنامل البرد رأسه الذي يسود ريشه في الربيع ويشتعل شيبًا في الخريف. تساءل في قشعريرته: هل من ربيع تالٍ يسقط المشيب، أم خريف سرمدي لا يغيب؟ كان في القيظ بين البحر والشمس يتطلع للأفق، يصبو إلى أطراف السحاب ومواقع النجوم، يستشرفها برأس سوداء لامعة كالغرابيب. كان كلما حلق بين جنبات الشمس قوى أمله ولازمه. مار في فؤاده مع كل خفقة جناح حتى إذا دنا من الشمس طقطق ريشه، سقط عنه كأحلامه، ونتأفيه الشيب، ثم غابت عنه الشمس بين الغيوم. تطلع على غصن الشجرة إلى ما حوله يلتمس العزاء فارتد خائبًا يضطرم بأحقاده؛ وجد حبات الزيتون تحته اسودت ونضجت وتدلى الخوخ والرمان من فروعه يغوي العابرين، وعشبة الفوة محمرة كجمر النار تخرج فيها كتب

السراة كالخطاب يشتهونها صبغة للباسهم وآلاتهم. وجبال قرطبة حوله محروثة فاتحة ذراعيها للبذور. وحدها السماء واسته لما سطعت أنجم العواء؛ أربع حبات ككاف لم تشق، كحبات عقد مفروط، كأمل أدنى للفراق.

***

أفاق أبو عبد الله الصغير من غفوته الطويلة، فتح أجفانه ببطء، حوّل وجهه على الوسادة ناحية الشرفة.. قدّر أنه في آخر لحظات الغروب. اتكأ على ذراعيه وانحسر الدثار المخملي الثقيل عن صدره. تطلع إلى مقرنصات السقف وإلى خشب النوافذ المورق. ظن نفسه في الحمراء أو جنة العريف، همّ بطلب خدامه ليجهزوه، لكنه أبصر الصلبان المنحوتة في زوايا المكان فتأذت عيناه واذكّر زمان مولده. أخبرته أمه أنها ولدته في غرفة كهذه في قلعة من قلاع قشتالة حيث رهن جده سعد أباه عند ملك النصارى علامة على طاعته، فعاش في كنفه مع حريمه وخدامه. لم يكن عجيبًا على أبناء الأحمر أن يأتوا ملك النصارى، بل إن جل ملوكهم الأواخر تبركوا بغبار قشتالة قبل اعتلاء الحمراء، وقشتالة لم تردهم أبدًا، بل كانت كجهنم تسأل منهم المزيد، تؤلب هذا على ذاك وتهادن هذا وتحارب هذا، تضع رهانها على الجميع حتى إذا ربح أي واحد منهم كانت رابحة معه، فعاش بين جنباتها ملوكٌ سابقون وملوك لاحقون ورهائن ملك قائم لا يأمن نوائب الدهور. بضعة أعوام قضاها مع أبيه في حَجره ذاك، كان أبوه يخرج إلى احتفالات الملك وعليه لباس أهداه إليه،

نسجه النُسّاج ليبدو كلباس المسلمين وطرزوه ووشوه بزينة جعلته أقرب لمهرج الملك منه لأمير من بني الأحمر، كان يلمزه أشراف قشتالة ساخرين من هيئته ويتلقاه الملك متبسمًا وأبوه؛ أبو الحسن لا يدري أحفاوة تلك أم استهزاء؟ كان أبو الحسن يلعن أباه سعدًا كل يوم أن نزل عنه لطاغية الروم كما ينزل عن حصونه طلبًا للسلامة والنجاة.

أحنى أبو عبد الله رقبته وأمسك رأسه بكفيه ونفث لهبًا من أنفه يدفئ كفيه الباردتين. نزع نفسه من بليته القديمة وتفكر في بليته الحادثة؛ ما الذي جعله يعصي أهل الأثر والمنجمين؛ خوفوه من نزول القمر بالعواء، خوفوه بالثعلب الذي جاس خلال جيشه ولم يصبه سهم ولا رمح. أعرض عنهم وشمخ بأنفه وسار يخطر بجواده الأبيض رافعًا رمحه يخرق الأرض تيهًا، حتى إذا بلغ باب ألبيرة كُسر رمحه في عقدها! ورغم هذا لم يأبه لهم ولا لرجائهم أن يعود عن عزمه أو يرجئ غزوته.

رد عليهم أن سعده كابن أبي عامر وطالع برجه مثله بين القوس والحوت، ثم رمى بقية رمحه وشهر سيفه البردلي، وبعدها نظر للعطار فتلقى منه تمتمة خافتة وانفراجة فم هي كل ما استطاع أن يتبسمه؛ كان العطار شارد الذهن كاسف البال، حدَّثَ مليكه عن عقوق موسى الألمري أقرب قواده، كيف خادعه وداخله حتى نزل منه تلك المنزلة العظيمة، ثم تركه يريد العدوة، يزعم له ولدًا هناك! طالما جاوبه هذا الفتى في حديثه عن الجهاد ومصير أهل الجزيرة وعدوان النصارى، ولما أراده العطار عند النفير جبن عنه وآثر الرحيل، قلب ظهر المجن وجهر بالشقاق عند أول

كلمة لوم من قائده الذي أسبغ عليه من وافر كرمه، وصفح عن حماقته في إدخال رجاله بين الجبال في شرك الرعاة، ولولا همة ابن المول لكانوا من الهالكين. ثم يأتي الفتى الخيّال ويقول إنه يخشى الموت ويريد رؤية ولده! حتى لما أظهر الشقاق لم يظهر له مثقالٌ من كرامة وأنفة؛ هرب بما خف وغلا من متاعه وترك الدار والبغلة وبكأنه متعفف مستغنٍ، كأنما كان له أن يحمل الدار على ظهره! لم يحزن العطار لرحيل فتاه عنه، بل حزن لجحوده، كان سيلين لو أنه صبر على غضبته وداخله، لو أنه قدم من المعاذير ما يخفف من غلوائه، لكن لم يبال به وبغضبه وبالى فحسب بما يظنه حقه.. كيف لم يرَ فيه من قبل كل هذا الكبر والجحود!

اكتفى أبو عبد الله بانفراجة فم قائده وحميه ليسفّه رأي المنجمين، وتبعه جيشه؛ بضعة آلاف بين فارس وراجل، درة رجالات الأندلس وفخر أجناده، ملؤوا فحص غرناطة وجاسوا خلال ثغور العدو يقتلون ويسبون، ثم ضربوا الحصار على اللسانة وحفت راياته الحمراء بأسوارها. رأي بعين خياله مواكب النصر في غرناطة، مديح الشعراء والزجال وغناء المطربين. أشرق وجهه بما سيقع لعمه من الشؤم والحزن لانتصاره نصرًا يبزُّ نصر الأخير على النصارى في الشرقية. هاهو سلطان غرناطة الجديد يغزو ولا يُغزى، يعلو ولا يُعلى عليه.

لكن أبواق قند قبرة بين الجبال بددت آماله ومزقت أحلامه، بجيش عرمرم دوى صوت آلافه كرجل واحد، انحدر القند بجيشه من الجبل، وفتح ابن أخيه والي اللسانة أسوارها ليطبق على المسلمين. في البداية كانت الحرب سجالا، ثم كاد النصر يحالفه إذا استغل فرسانه ورجالته مهارتهم بالكر والفر، لكنهم آثروا القر، آثروا التدثر بدفء الغنيمة حتى

مزقهم النصارى برماحهم الباردة، ثم هطل مطر شتنبر وفاض شنّيل، فترك الأجناد غنائمهم ومواقعهم وفروا إلى فم اليم فاغراً يلتقمهم في جوفه لا يلفظهم أبداً، وكان أبو عبد الله حينئذ على فرسه الأبيض يجالد عن نفسه، وحرسه يموتون بين يديه، والخيل تنفر وتصهل ملقية بفرسانها، والرجالة يلقون بتروسهم وخوذهم، يدسون غلولا من الغنائم في أحزمتهم ويشدون عليها الخرق، ثم يغوصون بها في المخاضة، وكلما انخلع قلب أبي عبد الله أعادته راية العطار الخفاقة إلى مكانه وتشبثت به آماله، ثم فارقته لما دهمه سيل الروم حتى اكتنفه، فترجل عن فرسه وأحيط به. لم يجد بدّاً من إظهار نفسه لمهاجميه حتى يحملوه إلى قند قبرة أسيراً. نزل لهم عن نفسه كما نزل جده عن أبيه، وكما كان أبوه سيفعل به لو اضُطر إلى ذلك، ومن يدري؟ لعله ينزل عن ولده هو أيضًا لتكتمل الجزية لملوك الروم أرضًا وذهبًا وسمنًا وعسلاً ونطفًا من صلب ابن الأحمر! أين ذهب العطار؟ لعله كامن بين الجبال يتحين الفرصة لينقذ مليكه، أو يأسر من قواد النصارى وأقنادهم ما يفكه بهم؛ كذا طمأن الملك الصغير نفسه وتعلقت عيناه بالشمس الآفلة في السماء، ثم بمقرنصات سقف غرفته المقبب، حاول إيهام نفسه بأنه في حلم طويل، أو أن الجن حملوه إلى الحمراء أو جنة العريف. تحاشى بنظره تلك الصلبان المنحوتة في الجدران مفسدة أوهامه، وظلالها في ضوء الشمس الخافت يتعاظم على رأسه، تفتح أذرعها كرماح الروم الباردة، كالظلال السوداء التي زينت ثياب قند قبرة المغبرة من أثر المعركة..

- «هل استيقظ الأسير؟».

- «أجل، سيدي الكونت».

- «حسنا، أعدوا هديته العظيمة! شددوا الحراسة على أبراج القلعة وبواباتها، وأرسلوا إلى كل قوادي ألا يغفل أحد منهم للحظة، إن العدو يتحين الفرصة لينقذ مليكه من بين أيدينا». رددت ساحة مجلس كونت قبرة الصدى، لمعت عينا الكونت وباعدت بسمته الوحشية بين شدقيه. دنا منه أحدهم يوقد الشموع والعود في أركان المكان. كاد ينصرف إلى محرسه عند الباب بانتظار أوامر سيده، لكن الأخير أوقفه قائلا:

- «ائتني الآن بالأسير.. ومُر الخدم فليعدوا الطعام والنبيذ».

- «أمرك سيدي الكونت».

استنشق الكونت رائحة العود ومسح أنفه. ملأ صدره بها كأنها نبيذ معتق تلاعبَ برأسه، هز رأسه يمنة ويسرة حامدا الله على بقائها. كاد يفقدها فى قتاله حامل راية المور؛ كان يقاتل ذلك الشاب بيمينه يمسك راية بنى الأحمر بيساره، حتى إذا قطع الكونت يمين الشاب أمسك الراية بيمينه ثم قطعها الكونت ليحتفرن الشاب الراية فيقطع الكونت رأسه، أى حماقة تلك! كحماقة إدواردو دى ألميدا؛ حامل لواء البرتغاليين فى معركة تورو ماذا كان سيجنى إدوارد لو كان انتصر ملك البرتغال وزوجته ابنة إنريكى على فرناندو وإيزابيلا وحكما الجزيرة؟ كيف يضحى الرجال بحياتهم فداء خرقة بالية، رمز للملك يجنى الثمار وحده. تبدت أمام عينيه أعمدة القاعة، مصفوفة نحيفة الخصر، موصولة بعقود مسنمة، قد توسطت أعلاها صلبان زرقاء قاتمة كالكحل. جلس الكونت على كرسيه شاعرًا بالشبق كأنما أحيط بغيدٍ حسان. استرخى وعقد كفيه خلف رأسه الأشيب وتمتم جذلا:

«من يعشق الجميلة

فله المغفرة

إن كانت مورا

وردة جميلة ناعمة

لا بد أن هناك سببًا قويا

لإخفائها هذا الجمال . .

وللوصول إليها أضع رهن الإشارة

روحي الآثمة!»

لماذا ينتمي كل شيء جميل لهؤلاء المور؟ هؤلاء البرابرة الذين احتلوا الجزيرة مرز ثمانية قرون، أزالوا آخر ملوك أسبانيا رودر يجو متحالفين مع اليهود الخونة المتآمرين أعداء المسيح كلما غزا الكونت قطعة من أرضهم، غزا هؤلاء الكفار روحه؛ نساؤهم وثيابهم وخيولهم وطعامهم، جمعها الكونت وكدسها في قلعته؛ سجاد ألمرية وحريرها أثمن لديه من سجاد الفلاندس وحرير فلورنسا، وسلاح غرناطة لا يضاهيه سلاح ميلانو، أما ركوب الخيل على طريقة الزناتيين فهي مفخرة النبلاء من قومه. واليوم يضم إلى ثروته ملكًا أندلسيًا؛ أبا عبد الله الشيكو[1]!

ترى ما يفعل به؟ وضع ذقنه بين سبابة يمناه وإبهامها، مرت أنامله على جروح وجهه كالأخاديد بين شعر ذقنه النامي. بقدر ما يضفي عليه الظلال من مهابة، بقدر ما تنتهزها تلك الأخاديد فرصة لتسفر عن نفسها، بعد طول تخفٍّ من ضوء النهار.

---

(١) الصغير.

- «ما كل هذه الفضائل التي تزين وجهك، دييجو العزيز؟» كذا حدثته الملكة يوم زفافها في الكنيسة على فرديناند، كانت الكنيسة ضيقة كالقبو وهواؤها مثقلًا بالبخور والعرق، كان هناك قليل من النبيذ وطعام حقير، وكثير من الشكوك أسرَّها المدعوون إذا ما كان زواج تلك الفتاة الشاحبة والشاب الرخو الذي يصغرها سيوحد ممالك النصرانية العظيمة بعد طول تفرق وعداء. وهاهي إيزابيلا إلى اليوم بعدما هزمت وزوجها الفرنسيين والبرتغاليين والمور وقلمت أظفار النبلاء، وطوّعت البابا لخدمتها؛ لم تتغير هيئتها وشحوبها، ولم تفتر عن سؤال دييجو كلما قابلته عن «فضائله» التي تزين وجهه.

- «حان الوقت لتسأليني عن أسيري أيتها الملكة». ابتسم ابتسامته الوحشية مجددًا، ثم تلاها بانعقاد حاجبيه.. أخيرًا سيثأر لنفسه من الهزيمة التي ألحقها به أحد رجال العطار لما جاس في أحواز قبرة وقفل سالما بعدما غنم وسبى. مر من تحت أنفه كالفئران ثم عاد ظافرًا ليلمزه أعداؤه من النبلاء عند الملكين، والأدهى أن ذلك الفأر كان قاتل رودريجو! ليته مات في اللسانة مع أقرانه لتموت معه هزيمته تلك إلى الأبد. حتى لو مات، لن تموت وشايات النبلاء وأحقادهم؛ هو عندهم رجل من الجنوب؛ من أندلسية، كأنه من المور بينهم، ومن الروم خارجهم. لا ينزع إلى قشتالة ولا أراجون. لم يشب على قسوة جبال قشتالة وحب السيادة والتمرد في أهلها، ولا رخاوة رجال أراجون وامتزاجهم بالجنويين والفرنسيين، وحبهم للبحر وكرههم لطغيان الملوك. إن كل أرض بسط عليها سلطانه انتزعها من المور بدمه ودم

رجاله، دون منحة أو إرث، يقف على الفرنتيرة في مواجهة الأعداء بينما ينعم الآخرون في مقاطعاتهم بالأمن والطمأنينة، حتى إذا لاح منه زلل لم يفلتوه. ها قد ابتلع تأنيب الملك له صاغراً، وسمح لمندوبي إيزابيلا بدس أنوفهم في شئون إقطاعه، ولم يعترض سرايا الدرك الملكية، الهرمانداد، وهم يدكون قلاع حلفائه بدعوى أنهم فرسان لصوص يقطعون طريق الحجاج والمسافرين. ابتلع كل تلك الإهانات صاغراً، بل تسابق مع أقرانه في نيل الرضا الملكي ودفع بأولاده إلى بلاط الملكة لينشؤوا جنباً إلى جنب مع أبناء العوام في مدرسة البلاط، علهم يحفظون مكانة أسرهم من الضياع بعدما فتح الملكان باب الترقي للجميع.

-«ترى ما الذي يفكران فيه؟ جمعا شمل نبلاء قشتالة لا يستقل عنهم بإقطاعه أحدٌ، وفرقا بين نبلاء أراجون فلم يعودوا يستطيعون الائتمار بالملك والحد من سلطانه، يستكثرون من المشاة ليجعلوا الحرب حرفة العوام لا الفرسان النبلاء. إلى أين يؤدي هذا الطريق يا دييجو؟ أتكون نهاية المور مقدمة نهايتك؟..».

سمع جلبة في البهو المفضي إلى مجلسه، قدّر أنه الملك الأسير، استنشق الهواء حتى امتلأ. صرف وجهه القلق من الغد، ثم اتخذ مكانه على كرسيه بين الظلال. استعد لمسرحية أعدّها بعناية لتبز أشهر عروض الكنيسة..

إلى أين يمضي في هذا الظلام؟ سار الملك الصغير مشرئبًا جوار الخادم

الأسمر. لما دخل الخادم عليه غرفته بعمامته وجبته الزرقاء ظنه لأول وهلة رسول العطار أتى إليه لينقذه، ثم لم تلبث أن تبخرت أحلامه حين خاطبه الخادم بعجمة أن يتجهز للقاء سيده. كان يظن غرفته وحدها أندلسية، لكن القلعة كلها كذلك؛ الدهاليز والأعمدة والعقود، زخارف الأسقف المقببة وزجاج النوافذ الملونة، كأنه في قصبة لوشة، لولا تلك الصلبان الناشبة في كل شبر، كأن تلك القلعة كهذا الخادم أندلسي الجسم والهيئة، أعجمي القلب واللسان. لم ينتبه لنفسه إلا وهو يدلف إلى ممر فسيح يفضي إلى مجلس سيد القلعة، تنحى الخدم عن يمينه وعن شماله يتمتمون بخفوت، رمقوه بعيونهم المضيئة في الظلام، كلهم سمر، كلهم معممون يرتدون جبة زرقاء كالكحل، كمياه شنّيل في الظلام. أيجاري صاحب القلعة هيئة الملوك؟ كأنه يقلد تلك الهيئة التي طالما عمد إليها الملك الصغير إذا ما أتاه رسول من الروم؛ نفس العمد والعقود بغير صلبان، نفس السجاد الألمري. يأمر الخدم بالحديث بالعجمية ليفهمهم رسول الروم، إظهار الخشية والخضوع كلما قرب رسول الروم من مجلس المُلك في قمارش، كالمريدين يتهيبون الدخول على شيخ الطريق في خلوته. ثم يحيط بالرسول صفان من العلوج؛ أُسروا صغارًا في الحرب، واليوم مسلمون يرتدون زي الروم ويتقلدون آلتهم كأن أمة الروم كلها خدم وعبيد لسلطان غرناطة الجالس على عرشه. دائمًا ما نجحت تلك الحيلة في زرع الخشية والهيبة في نفوس الرسل القادمين. كذات الخشية التي أُلقيت في قلب أبي عبد الله وهو يدلف إلى مجلس فسيح عطن الرائحة لم تمسه الشمس زمنًا، ولم يلطف رائحته عبق العود

المحترق في زواياه. وفي صدر مائدة جلس رجل مهيب يلفه الظلال. أحنى الكونت رأسه لتبرز عيناه الواسعتان وأنفه الكبير كمقبض سيف متدثر بالظلال. يعرف آثار الظلال جيدًا وكيف تلعب بالعقول، وتبدو كل حركة من عينيه لها معنى ومغزى تحار العقول في سبره. الصدى والظلال؛ عدة الذكي، لازال المور يؤمنون أن جيشًا عرمرمًا من قبرة كمنَ لهم بين الجبال ليوقع بهم الهزيمة، لا ألفيْ رجلٍ جمعهم الكونت على عجل خشية تكرار وقعة فتى العطار! كثّرهم صدى الطبول بين الجبال وقعود المور على غنائمهم قعود النعام على بيضها حتى ذُبح من قعد وابتلع النهر من هرب، ثم ظفروا بمليكهم الصغير، كان يحارب على جواد أبيض كالحليب، كجواد سانتياجو الذي يمتطيه بين السحاب ليقاتل مع المؤمنين. كم يشبه هذا الصغير سانتياجو! لو خفت لحيته وطال عنقه ووجهه لصار أيقونة معلقة في جدار مجلسه. ليت له مثل صورة هذا الفتى!

- «مولاي بوآبدللي!» فتح الكونت ذراعيه هاتفًا ولايزال جالسًا على كرسيه. ترى أيسخر منه الكونت أم يرحب به ملكًا كما أسره ملكًا؟ لا يدري. قطّب الملك جبينه وأحنى رأسه لتسرق عيناه الظلالَ من الكونت. حرك زاوية فمه قدر أنملة علامة الابتسام، ثم جلس دون انتظار الإذن، وبكل ما أوتي من قوة دفن مخاوفه وهواجسه الحارقة في أعماقه، وبوجه بارد أمعن النظر في الكونت وسأله بالقشتالية التي يجيدها: «أين جنودي أيها الكونت؟» اضطربت عينا الكونت لحظة

محاولاً استعادة ظلاله. عليه أن يدجن هذا الفتى الصغير ويثبت للملكيْن أن أبا عبد الله الشيكو ذو نفع لهما؛ فبتدجينه يكسبان حليفًا يوجه سيفه إلى المسلمين، ثم يتخلصان منه بعدها، خطة لن يفهمها حساده الحمقى الحاقدون على أي مجد له. كل ما جادت به قريحتهم أن يدفعوا الشيكو إلى مولاي حسن لقاء فك أسراهم في الشرقية وبضع آلاف مرابطية. يجب أن تفلح خطته ويجعل الشيكو طوع أمره، فيظهر للملكين فضائل دييجو آسر الملوك ومدجنهم. أشاح الكونت بوجهه عن الملك متزودًا بالظلال عن يساره وقال: «هم ضيوفي أيها الملك مثلما أنت ضيفي هنا في قلعتي. أرجو ألا يكون أحدهم قد أزعجك الليلة الماضية».

ازدرد الملك لعابه وهز رأسه ببطء ثم أكمل صمته. صفق الكونت، ثم اشرأبّ إلى الباب. هرع الخدم يعدون المائدة، وفي كأس الكونت البرونزية صُب النبيذ.

جرع الكونت ببطء والخدم مصطفون حوله بعدما أدوا عملهم. صرفهم بحاجبيه فانتشروا خارجين كالفراشات.

-«لماذا لا تأكل أيها الملك؟ إنه من طعامكم». همهم السلطان ثم صمت. جائع ليَلْتَهِم كل ما أمامه، خائف ليعرف ما يُفعل به. إن هذه الحفاوة تقلقه. ترى كيف يبدأ الكلام في مثل هذا المقام، ما الذي قال جده سعد لملك قشتالة حين دفع ولده إليه، وماذا قال ابن الأحمر الكبير مؤسس دولتهم وسميه، ماذا قال لملك قشتالة فرذلند الكبير حين دخل

في طاعته وحارب معه في إشبيلية. ربما عليه أن يصمت وينتظر.. سينتظر العطار، لا ريب أنه قادم لفكاكه. أحس الكونت بالظفر لصمت الملك وتردده، لا بد أنه هُزم في خياله كما هُزم في اللسانة. صفق بيديه مرة أخرى آمرًا بالهدية القادمة إلى الملك. سرت القشعريرة في بدن الملك وزوى ما بين حاجبيه متطلعًا للخادم الأسمر وهو يقترب حاملا وسادة عليها شيء لم يتبين كنهه حتى اقترب منه، والكونت ينظر إلى الملك متحفزًا. كانت الهدية خوذة حديدية عليها آثار صلبان مطموسة، يومًا ما كانت تلك الخوذة لفتى من ألمرية غنمها من رودريجو سيد قلعة رباح، اشتراه منه صاحبها الأخير الذي علقت دماؤه بالخوذة كالفحم، شيبت الخوذة شعر الملك وفرّقت عنه آماله. اتكأ بذراعيه على المائدة وخشبها يئز من تحته. احمر وجهه ودمعت عيناه.. لعله عرف الآن كيف بدأ جده ابن الأحمر الكبير كلامه مع فرذلند. نطق بذلٍّ مطأطئًا رأسه:

«كيف أفدي نفسي أيها الكونت؟». رفع الكونت رأسه متخليًا عن ظلاله آمنًا، بدت ندوبه المنفرة على ضوء الشموع، وشدقاه مفترقان جذلا، وفي خياله الظافر يرسم على شعار نبالته وجه ملك المور المفزوع.

***

شق القلم مجراه على الورق بمشقة، تفرع حروفًا مهتزة ونقطًا كادت تثقب الورق. راقبت فاطمة ولدها وهو يخط بحماس على الورق كما يخط على لوح المكتب. لم يكد يغادر أبوه حتى سأل قلمًا ومحبرة وجلس

يكتب، يظن رسائله تصل أباه بسهولة وليس دونها قدوم عرفة على فترة من العام، أو حمام قوافل عرفة يقطع المسافات الطوال من برج في فاس إلى برج في لوشة. لماذا لم ترحل معه؟ لأنه لم يلح في طلبها! جاء ليتنزه مع ولده بضعة أيام ثم رحل. منعه كبره أم كسره؟ حتى عمرو نسي الإحن التي بينهما وفاتحها أن يصلح ذات البين. عمرو الذي يكره موسى كما يكره العمى. أراد ذلك مكرمة لها، فاطمة المسكينة التي تأيمت لولدها وذبلت روحها وسمن جسمها حتى صارت شبيهة بأمها، بل بعمتها؛ تكنس البيت وتنظفه كل يوم، تعد الطعام وتأكل نصفه على الطيفور، تجري وراء الأولاد في فناء الدار، وكل واحدة من زوجات إخوتها يهدهدن أزواجهن ويتعطرن ويتزينَّ، وإذا خلا البيت من الرجال غلقت كل واحدة منهن بابها أو تناجت مع نظيرتها وتركوها وحيدة تشد قماط هذا وتنظف ثوب ذاك، تطعم أباها العليل وتحمم أمها العجوز. لم يغب عنها في لياليها الباردة كيف تخلى عنها موسى وعن ولدهما، كيف تركها ترحل هكذا دون أن ينزل عن أنفته ويعتذر منها، أو حتى يحدِّث أبا المحارب أن يداخل أباها. هل هانا عليه ليتركهما دون أن يحاول. لما وقفت عند المرسى في البرطة لمحته مع أبي المحارب يختلس النظر، لو كان ذهب إليها لحملت ولدها وتبعته ولتركت أباها وإخوتها ولو قُطعت عنهم لآخر العمر. لكنه لم يفعل، رحل غاضبًا كالصبيان، لا شك أنه اعتزل أيامًا يرثي نفسه، يشكوه شكواه الأزلية أمِنْ صلب سعد هو أم نسل غسان.

في لياليها الأولى كانت تبيت وبركة الدمع تجف خديها، حتى يبست عيناها وجمدتا، ويبست معها رغباتها وآمالها. في كل يوم تأخر فيه عنها

نما بغضه في قلبها، حتى أخرجته منه وأدخلت فيه ملاهي الحياة علها تشغل القلب الفارغ. تكشف لها الطعام كأسرار السحرة والمنجمين، كسلوى أخيرة وملاذ لا يعد بالكثير، أتت بأخبار طبخ الملوك وتفننت في ألوان الطعام، صاحبت الأواني والقدور والصحون، ناجتهم كما ناجت أم موسى ياسمينة دارهم في الحوض. لم تكترث لبواكير الشحم في جسدها حتى لفها كاللبد، صارت أميل للعزلة إلا مع الصغار، وكلما خاضت معهم حيواتهم الصغيرة، كلما بهتت صورة الحبيب الغائب ورقت كأنها بخار صاعد من القدر لا يلبث أن يتلاشى في الهواء. واليوم يأتيها ابن ليلى مزهواً بالجلد والحديد على صدره كأنما في خضم المعركة، ويريد بإشارة منه أن تنسى كل ذلك وترحل معه! ليتها قبلت لما عرض ذلك على أبيها، أف لها! كأنما حل كبره فيها. حتى لو كانت تحبه، كيف تأمن معه؟ ما الذي يضمن لها ألا ينكسر مجدداً ويخذلها وولدها، وأين؟ في الجزيرة بين لحيي الروم، لن يكون أبوها وإخوتها في الجوار لتلجأ إليهم. ما بال عودته أنستْها نفسها، فاستوحشت قدورها وصحونها، لماذا عادت وسادتها اليابسة تبتل من جديد. تغير كثيراً منذ فارقته في الجزيرة، لفحت الشمس وجهه ورقّ جلده لتُحفر الأخاديد في خديه. غلظ بدنه وانتصبت قامته عن ذي قبل. نسي ملاهيه القديمة، فلم يذهب بولده للسوق مرة واحدة، بل كان يبكر إليه كل يوم يردفه على فرسه ويخرج إلى صحراء فاس يحدثه عن أخباره وأسفاره، يحكي له حكايات كليلة ودمنة، ومقامات الزجالين، كان يأتي إليها ولدها كل يوم محملًا بحكاية يرويها لأبناء خاله، تمامًا كما كان يفعل أبوه إذا عاد من

درس المالقي. تذكرت أيام البحَّاثة والأرجوحة في رمال بيت الحوض. في آخر يوم أتاها عبد الملك وقال إنه ضاق بيديه الناعمتين، يريد أن يصير رجلا وأن تخشوشن يداه كأبيه. منذ متى كانت يدا أبيه خشنتين؟ لعلهما أصبحتا من مقبض السيف ووتر القوس، ودت لو مستهما لتعرف. لماذا لم يلح موسى؟ لماذا أخافها مجدداً لتفر منه، لو أنه ألح مرة واحدة لغابت في صدره، وذاب شحمها بين ذراعيه وعادت فاطمة الأيام الخوالي. قنط مسرعًا كعادته وتركها. عاد يشكو حظه لغارب في آري الظاهري بمالقة، لعن نفسه لخذلانه ولده وفاطمة والعطار وأبا عبد الله الأسير. رحل وما يدري أن فاطمة وراءه تستنبت في الهواء أملا.. أملا أدنى للفراق.

***

أنت

صاح ربض اللوم بأنين: «مات العطار! مات أستاذك وحاميك. رحل ناقمًا عليك.. خذلته كما خذلت كل من ناط بك أملا، حتى في قتالك بين الجبلين، الذي زهوت به وضيّفت ربض الكبر في صدرك شهرًا، نزلت عن فرسك وخذلت جندك، عدت جنديًا مثلهم لا تفكر إلا في النجاة بنفسك».

طأطأ الملك قلب الدين رأسه وجثا على ركبتيه باكيًا أشعث زري الهيئة. منذ عرفتَ الخبر أول ما وطئت الجزيرة وربض اللوم لم يفارق مجلس قلبك، حتى في السفينة لم يتركك لأجل فاطمة وولدك. كان ربض الكبر يربط على صدرك أن قد أديت ما عليك، وربض الكره حمّلها لعمرو الحسود، لا ريب أنه هش وبش في وجهك ثم نفث سمومه وأحقاده في قلب أخته. أجل، يمضي الزمان ولا يمضي حقد قرّ في قلب ابن آدم. ها هي قد أطاعت إخوتها كما فعلت قبلا. لم يكفها ركوبك البحر ومسير الصحراء، وترك المنزلة العالية والمال والمتاع، كما لم يكفها من قبل بليتك بقتل صاحب الجرح، وظفر حسادك بك وكسرك أمام نفسك. لازالت تريدك كإخوتها؛ بهيمة لا يشغلها إلا القوت والرفث والحداء. لكن أنّى لك ذلك وأنت الأمير ابن السلاطين، أنّى لدم بني الأحمر أن ينضب في عروقك ويجري فيه دماء غسان.

-«لو بقيتَ معها في فاس لأمنت ورضيت، ما مكوثك اليوم في الجزيرة وقد مات العطار عنك ساخطًا، وأُسر ملكك وخلت البلاد للزغل وأبي الحسن؟».

دفن الملك وجهه في كفيه متخفيًا عن ربض الندم، كأنهم إذا اختفوا عن ناظريه لن يروه ويرحلون خارج صدره. هز رأسه مستنكرًا: «لم أكن لأنفق تلك السنين لأعود لما تركتهم عليه في ألمرية، لم أكن لأعود إلى يوم البرطة وأشمتهم بي، أنزل على رأيهم وأعيش في كنفهم مجهولا خامل الذكر!».

كاد أبو الضمير أن يراجعه في نيته، أن يسأله عن الجهاد والشهادة، كاد يلومه ثم أشفق عليه، لكن الوزير ابن لبابة سأله عجبًا: «إذن لماذا غاضبت العطار لترحل؟».

تقلبت على جنبك في الفراش فبات برج الملك الذي في صدرك على جنبه، ضممت ركبتيك إلى صدرك كالجنين، ففعل الملك مثلك. أجاب بحسرة:

-«ليتني لم أفعل! عدت كما ذهبت، بل فقدت في الجزيرة منزلتي. ما أشد وهني! لو صبرت على خوف الموت أيامًا بعد وقعة الجبل لزال عني، وعدت سيرتي الأولى؛ فتى العطار وصاحبه وكاتمَ سره، ولا أبالي إن مت في جوف شنّيل معه أو صُفدت في الأغلال مع الملك. رحلت إلى فاس لتحيا لواعجي وأشواقي، وكان ذكر فاطمة وعبد الملك قد خفت في قلبي، صار حنينًا لا إليهم، لكنه مني إليّ. حتى نزلت فاس وعدت، لم أشف من الشوق ولم أشبع من البر، وفوق كل ذلك فقدت منزلتي! وها أنا اليوم مولى للظاهري أعيش في كنفه، آكل من سحت الزغل ولست أدري إلى أين مستقري».

وبينما تسمع لأنين قلبك فُتح باب غرفتك فجأة، تتقلب على جنبك تستقبل القادم، وعيونك في الظلام منقبضتان من قنديل الرسول.

-«بمَ جاء جاسوس السمع يا ابن لبابة» تساءل الملك متحفزًا.

-«إنه الظاهري يا مولاي، يقول إن أبا الحسن تفلت من خدمه على الدرج، فوقع وكُسرت ساقه كسرة ردية، والطبيب رحل مع الزغل في جيشه إلى غرناطة، ولا يدري الخدم ما العمل».

-«مرهم أن يمسحوا على الجرح و. .»، صمت الملك فجأة، فغر فاه واتسعت عيناه. نظر إلى سقف برجه مفكرًا، ودخان شيطاني أسود ناعم يتسلل ببطء إلى البرج، ريحه كريح الحشيش، تكاثف في سماء البرج كسفًا دار برأس الملك، فتبسّم جذلا . .

-«فيم تفكر؟» تساءل أبو الضمير جزعًا. يستدير ملكك إلى قاضي الجماعة والدخان الأسود يحجب وجهه. يجيب فحيحه: «أفكر في نفسي؛ مات أبي منكوبًا، ومات العطار عني، هجرتني فاطمة ولن أرى عبد الملك مرة أخرى. . وكل هذا بسبب من؟ بسبب أبي الحسن!» صرخ الملك في كلمته الأخيرة باسطًا ذراعيه ليغمرهما مطر السحاب الأسود.

-«ثم إني نائم لا أملك إرادتي والقلم مرفوع عني أفعل ما أشاء!» جلجلت ضحكته القاسية، فتعلق به القاضي من رقبته.

-«أتريد أن تقتله وتبوء بإثمه؟» دفعه الملك بقسوة عنه حتى طرحه أرضًا، دنا منه بوجه مسود لا يظهر فيه إلا عينان حمراوان: «من قتل يُقتل، أليس ذلك حده يا أبا الضمير، يا قاضي الجماعة، يا داعي الله فيّ؟ ألم يَقتُلْ أبا العباس في الحَمَّة غدرًا، ونزل للنصارى عن أرضه، لقد خان الله ورسوله. . خانني وخان أبي!».

أشاح الملك بوجهه وشرع في البكاء، كان يسيل من عينيه دموع كالقطران، والمطر الأسود صار ثخينًا ينزلق على وجهه وجسده حتى غطاه كله. دخل عليه أرباض الحزن والكره والقنوط، تحلقوا حوله وقرعوا الأرض بأرجلهم كالطبول.

دق.. دق.. دق، والمطر الأسود يغمرهم كما غمر مليكهم، والصيحات الوحشية يتردد صداها في بهو قمارش.

-«يا عريف اللسان!» هرع عريف اللسان فزعًا، سجد بين قدمي الملك، وابن لبابة يرقبه مختبئًا بين كتبه خشية غضبته، وأبو الضمير يتحسس رأسه من وقعته لا يقدر على الكلام. جذب الملك عريف اللسان من سجدته حتى رفعه في الهواء، اتسعت عيناه الحمراوان، فتح شدقيه فانزلق القطران منهما، قال ببطء وأسنانه الصفراء تسن كل كلمة: «أخبر السائل أن يلفوا كسر الجريح.. وأن يحكموه جيدا!».

***

الفصل العاشر

أكتب

أنا

ذكر عودتي من فاس وموت أبي الحسن:

ولما عدت من فاس وعلمت ما حل بالمسلمين في اللسانة، ضاقت عليّ الأرض بما رحبت وكدت أقنط من رحمة الله. كنت أمنّي نفسي بصلاح حالي عند عودتي إذا جعلت الشلوبيني يداخل العطار ويصلح ما بيني وبينه، لكن سبق السيف العذل؛ فمات العطار وهلك معه فرسان لوشة وأنجادها، كما قضى معه عبد الواحد صاحب عين الصقر. هداني الله أن أرتحل إلى مالقة لألقى الظاهري فأسترد منه وديعتي وغاربًا، ولم أدرِ أي أرض تحملني، وأي سماء تقلني. بيد أن الظاهري أبان عن رفيع خلاَله وجميل شمائله، فضيَّفني عنده في حصن جبل الفارة يحسن إليّ إحسان الأب لولده وإن كنت أسنّ من أسنّ أولاده. لم يكلفني عملا ولم يرد مني حلا ولا عقدًا، فتعلمت منه أن للسيف والرمح رَحِمًا، وبذاك الرحم وتلك الخلال ملك المماليك مصر والشام وكلهم أجنبي عنها؛ إذ أن أرحام الحديد بينهم أوثق من أرحام الدماء بين غيرهم. قضيت عنده شهورًا كتلك التي قضيتها عند أبي إسماعيل بالحوض، وكنت أحسبها لا تعود أبدًا، وأن السيئات قد ذهبت عني، وقد عركتني الحوادث والأيام ورأيت الموت بناظري فلا يفت في عضدي شيء، لكن دوام الحال من المحال، وحال الإنسان بين القبض والبَسط والخوف والرجاء، لا يأمن الحي على نفسه فتنة، ولا على قلبه غفلة، ولا على ظهره نقضًا، والعبرة بالخواتيم. لزمت في تلك الأيام كتبي وآلاتي. أخرج إلى الآري أناجي

غاربًا، أو أخوض به أحواز مالقة حتى أبلغ البرطة. انسل الليل والنهار من بين يدي كزبد البحر، لم أعد أحصي ولا أبالي، وكيف أبالي بعدما مات أستاذي وأُسر أميري، وقُطعت عن لوشة كما قُطعت عن ألمرية من قبل؛ في الأولى عاقًا جحد من أحسن إليه حتى قضى فلا يُعتذر منه، وفي الثانية غافلاً أرعن لا يؤمن على أبدان الناس، لف الجرح فقتل صاحبه. كانت سلواي حينئذ في رسائلك التي أتى بها عرفة من قوافله أو أتى بها حمام برجه في لوشة. عليها أنفقت مالي لأأتلف عرفة فلا يقطع بيني وبينك، ولأجلها قبلت إحسان الظاهري رغم أنفي. لازلت أحفظ رسائلك معي أينما حللت، أأتنس بها في خلوتي، وأصطبر بها على أيامي. أولاها تلك الرسالة التي خططت عليها كلوح المكتب، علَّك تذكرها وتذكر صفتها. لما جاءني بها عرفة لم تسعني مالقة فرحًا، وبتّ ليلتي أفكر في رد. كنت تسألني عن نفسي وأحوالي، ولا أدري ما أخبرك عني في عزلتي؛ أأعيد عليك ما رويته لك في فاس، أم أكتب لك الملح والأشعار مثلما يعمل المصنفون؟ ثم عافت نفسي هذا كله، وتعجل عرفة الرحيل، فكتبت لك سلامًا حمل رجل الحمام. ومازلت تراودني في رواية أخباري ومازالت الحوادث التي حلت بي تترى تردني عن سؤلك، ورجاء وصلك يؤخر الكلام عني حتى ألقاك، ثم نزل بي أشد مما نزل يومئذ، واستيقنت استحالة الوصل، فعزمت أكتب إليك هذا الكتاب بلغه الله إياك في أحسن حال. وبين أول رسالة منك ولاحقتها طُوي عام كخفقات الحمام، فيه قُبض أبو الحسن؛ وكان قد نزلت به البلايا والعلل وجُنَّ، فأصبح يسير في حجره على غير هدى ويطرق

برأسه الجدران، وكان من قبل قد أصابه في رجله جرح ردي لم يودِ به، ويكأن الله جعل في موته عبرة وآية، فذاق وبال البغي والغدر. ولعلك يا بني تظنني أحدثك عنه نقمة وبغضًا، لكن اعلم أن الزمان ينسي، وما يضطرم في قلب ابن آدم يصبح رمادًا تذروه الأيام، ولم تُبقِ لي تلك السنون من أبي الحسن إلا العبرة والعظة، ولم تعد تشغلني تلك الحوادث التي حلت إلا بنفسي. واعلم أن من راقب الناس قنط من رحمة الله وغفل عن معايب نفسه، وأُشرب العُجب والكبر في قلبه، فيرميه الله بما نقمه على عباده، فيصبح من الخاسرين. رحمه الله وغفر لنا وله، وثبتنا وإياك على الحق وقبضنا إليه غير مفتونين.

ذكر رحيلي إلى عين الصقر:

ظللت على حالي هذا لا ألوي على شيء، واستمرأت نفسي البطالة والخمول حتى أرادني الظاهري يومًا أن أقضي له بعض شأنه مما يقضيه المولى لسيده، فأنكرت نفسي حينئذ، وأنكرت ما آل إليه حالي حتى استصغرني أستاذي وأنزلني من خدين السيف إلى ذنب الخدام، فأسررتها في نفسي وعزمت الرحيل عنه، فتفكّرت وقدّرت واستخرت، وشرح الله قلبي للرباط كما كنت أول مرة، فكان فيه شفائي من مخالطة الناس ومن كبر نفسي. ثم إني اشتقت لريح عين الصقر والمرابطة في محارسها وبين قبورها. توكلت على الله وجمعت متاعي، وأرسلت إلى عرفة أنبئه بمسيري ليُبقيَ تلك الشعرة بيني وبينك، ثم ودعت الظاهري وشكرت له جميل فضله، وركبت إلى عين الصقر أقدم وأؤخر، لا أدري ما يفعل بي الشلوبيني حين يراني، فظللت ألقي بيني وبين نفسي بمعاذير

أحاججه بها، ولازمتني الوساوس في سفري وكدت أهوّن على نفسي موالاة الظاهري وخدمته، وركنت إلى الرجوع لمالقة، ثم أرسلت العنان لغارب كَرَّةَ يائسٍ؛ فإما أعود للظاهري غير آمل، أو يقدر الله غير ذلك وهو شديد المحالِ. حتى إذا قدمت على أبي يحيى الشلوبيني بلا رجاء، لقيني بأحب ما يلقى به الصاحب صاحبه! وتغافل عن سؤالي عما مضى، وأدناني منه ورفعني على غيري حتى تندمت على عامٍ بددته هيبة لقائه، وكان شوقه إليّ أعظم من شوقي إليه، وقد قضى كل من صحبنا من الحَمَّة، وتوارد على الرباط من لم يكُ لنا به عهدٌ، ولم يبق سواي من شهد معه أبا العباس الشلوبيني بعدما طُوي ذكره، ولا من شهد معه وقعة لوشة مع النصارى، فكلهم إما قضوا أو تفرَّقوا في البلاد، ولم يبق من صحبة عين الصقر إلا انا، فقضينا أول ليلة نتذاكر الحَمَّة ويوم المطر وخضنا في سير الأولين والآخرين حتى أسفرت الشمس عن زيف ظني، وتبين لي أن الله أرحم بي من عقلي، ولطفه منفكٌّ عن كسبي، فتأمل.

لبثت في عين الصقر تنازعني أيام الخمول بمالقة، فشق علي الرباط في أوله وغالبتني نفسي وغالبتها حتى عدت سيرتي الأولى، واستشرفت عظائم الأمور وجسامها، فجعلني أبو يحيى قيِّمًا على أمور المرابطين؛ أتفقد الحراس في الأبراج وعلى الأسوار، أنظر في أمور المؤونة والدواب والسلاح، وأقود الجند في العمل بالميدان وأفلح معهم الأرض وأصيد في شنيل. كلفت بذاك العمل أيما كلف، حتى ضبطت أمر الحصن بما أقر عين أبي يحيى، وشغلت به عن نفسي حتى رُدَّت إليّ عافيتي وبرئت من همومي وأحزاني كأنما لم أبرح عين الصقر يومًا، وبعدتْ عني أيام لوشة

كأنما جئت من الحَمَّة بالأمس، وإن قدَّر الله بعد ذلك العودة إلى لوشة وكل شيء عنده بمقدار.

ذكر ما آل إليه حال لوشة:

علمت من أبي يحيى ما آل إليه حال لوشة في غيابي، بعدما قضى العطار ومعه ابن سالم وجل قواد لوشة والربط حولها. كان العطار قد استنفرهم للجهاد مع السلطان الأسير، ثم كانت كسرة اللسانة الشنعاء، فتصرف أبو يحيى في عين الصقر ولم يطمح لمنافسته أحد من جند زناتة بعدما قضى زعيمهم وجل رؤوسهم، واضطُر ابن المول لتدبير أمر لوشة إذ استخلفه عليها العطار إبان خروجه، وكان ابن المول من قبل في شبابه وشيبته رجعًا للعطار وصدى، وقد وطَّن نفسه على الانقياد له والزهد فيما سوى مصاحبته، ولم يبال أرفعَ العطارُ عليه شبابًا أم شيوخًا، واختار لنفسه في بقية عمره أن يكون الناصح الأمين، والوزير الحكيم، فلما وقعت الواقعة، وجد نفسه بين مدلهمات الخطوب وعظام النوازل، وقد اشرأبت إليه الأعناق وشخصت إليه الأبصار، وانتبهت إليه الأسماع، وما من بيت في لوشة إلا ارتدى السواد والرجال في الطرقات سكارى من الفقد، والنسوة ينُحْنَ ويشققن الجيوب، والصبية سكنوا عن اللهو هيبة المشهد العظيم، والرماح انتكست بأيدي الجنود وتسنّه الطعام في الأسواق، وأبواب الزنقات والمدينة أوصدت ليل نهار، والقوم في الدور ينتظرون سيف الروم، ومن يرده عنهم بعدما قضى العطار؟ وغالى فيه قوم أنكروا موته، وزعموا أنه أشاع ذلك عن نفسه ليكمن للنصارى ويخلص السلطانَ الأسير، بل زعم بعضهم رجعته من الموت ورؤياه في

المنام، وابن المول ذاهل عن كل هذا ومنكر له، واعتل أيامًا في القصبة لا يخرج منها وقد استبد به القولنج، فزعم الناس أنه لحق بصاحبه، وظل القوم على حزنهم أيامًا حتى ذهبت السكرة وأتت الفكرة؛ فخرج الأشقياء والمتزون ينتهبون البيوت والحوانيت ويترصدون للناس في الأسواق، فخرج لهم ابن المول مشدودًا إلى فرسه بالحبال، واستنفر الجند القليل معه بالقصبة ودعا بأهل لوشة حتى شرد العصاة المجرمين وجعلهم عبرة وآية، ثم خرج للناس في المسجد الجامع وعليه قميص قمَّصه العطار وخطب فيهم بما سكن خواطرهم وجبر كسرهم، وأجرى من بيت المال نفقة لكل بيت قضى منه رجل في اللسانة، وشد على أيدي التجار لئلا يغالوا في أسعارهم، ثم جمع حوله من حيا من قواد لوشة وجعلهم بطانة له، ورتب أمر الديوان والقصبة واستعرض الجند في الطرقات حتى هابه الناس وسكنوا إليه، وأسبغوا عليه ما أسبغوه على العطار، وابن المول في شيبته لم يقدِّر أن تسعى له الإمارة بعد انقطاع الرجاء، وأن تقع الرياسة في حجره بعدما ظن نفسه يبلى في كنف صاحبه ويقضي مجهولاً خامل الذكر، والإنسان إذا أتته النعمة غفلة، اطمأن وظنها تعجيلاً بالحسنات وذهابًا للسيئات، وغفل عما فيها من أمارات الابتلاء، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وكان الإنسان ظلومًا جهولاً.

ذكر تملك الزغل ومسيره إلى غرناطة:

وكما أُلقيت الرياسة في حجر ابن المول، خلص ملك الأندلس للزغل بعلّة أبي الحسن وأسر ولده، فبعد كسرة اللسانة سار الزغل بجنوده إلى غرناطة فملكها باسم أبي الحسن ولم يغالبه أحد، ودخلت البيازين في طاعته

وفيها جل أنصار السلطان الأسير. ثم أقضت مضجعه الوساوس أن يطلق النصارى ابن أخيه فيعود لمزاحمته على الملك، فبعث للنصارى على لسان أبي الحسن يبغي فداءه ليحجبه ويجعله تحت ناظريه، ولحق برسله ابن كماشة قد بعثت به أم السلطان عائشة لفدائه وحمَّلت ابن كماشة بالذهب والجوهر وسائر النفائس، وكانت لجأت بمتاعها وحشمها إلى شلوبانية قبل أن يدخل الزغل غرناطة. وبلغت رسلهما قند قبرة، وكان حَجر السلطان عنده وقد أخذه من ابن أخيه صاحب اللسانة، وبادر برفع الخبر إلى طاغية النصارى دمره الله، فشكر له ورفعه مقامًا عليًا وصار يوجهه في كل سراياه استبشاراً به. ولقى القند رسل الفريقين بمعسول الكلام ووعدا كلًا منهما خيراً وإن لم يطلق السلطان، وأمعن النصارى في الكيد بالمسلمين والتحريش بينهم في الفتن وتمكين لأسباب الاختلاف بينهم، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين قواد المسلمين، ووالله قدأُتينا من قبل ذلك وقلة العصائب بالأندلس وترسخ دولة بني الأحمر بها، فيجمع الرجل منهم ثلة من الأعوان يبايعونه بالملك ويدعونهم بالرؤساء، ثم يثب على الحمراء ويفتك بأخيه، ولو كانت الكلمة مؤتلفة لجهاد النصارى لكانت الحرب إذ ذاك سجالاً.

ولما قضى أبو الحسن كما تقدم، دعا الزغل لنفسه واستعرض الجند في السبيكة، وأتى بعرفاء البناء للحمراء والقصبة القديمة للبناء والإصلاح، وكان من شؤم ملكه أن أنزل طلسم فروج الرواح من القصبة وكان لا يبرحها أبدًا منذ زمن ملوك الطوائف مذ ابتنى القصبة حبوس بن زيري، وكان من سبعة معادن مكتوبًا عليه:

إيوان غرناطة الغراء معتبر طلسمه بولاة الحال دوار

وفـــــارس روح ريـح تدبـره | من الجـمـاد ولكن فـيـه أسـرار
فـسوف يـبقى قليـلا ثم تطرقـه | دهماء يخرب منها الملك والدار

وكان ذاك والله ما جلبه علينا من الخراب وسوء المنقلب وحصار البر والبحر، فقعد عن جهاد النصارى بعدما كنز ما غنمه منهم بالشرقية، ولم يخرج لهم إلا كرهًا عند حصن مكلين وأظهره الله عليهم، فلم يزد إلا طغيانًا وظلمًا، ثم تطلع إلى إخضاع الثغور واستمالة قوادها لئلا يبقى فيها للسلطان سند، وينقطع رجاؤه ورجاء أمه في الملك، ويدأ سياسته تلك في مداخلة ابن المول صاحب لوشة بعدما علم حاله مع قوادها.

ذكر حال ابن المول مع قواد لوشة:

استقر الحال في لوشة لابن المول على ما ذكرت، وقضى بينهم وبطانته يرفعون قميص العطار لئلا ينازعهم أحد الرياسة، ويمتدحونه ويغالون فيه ويعلون من قدره ليعلوا معه؛ فوالوا من والاه وعادوا من عاداه، واستنُّوا بسنته في كل أمورهم، بل إن ابن المول جارَى هيئته ولباسه، وتحادث كل قائد في مجلسه عن سيرة العطار معه وما اختصه به من الثناء، فكان الرجل بمنزلته من العطار يلي الولاية ويُقضي به الحاجة ولما يبلغ أحدهم أو جميعهم كفايته؛ لما كان العطار يحيل على نفسه في سياسته ويستصغر كل أحد دونه، فلم يعلِّم قواده ولم يبصِّرهم قدرما زجرهم وسيَّرهم وفق إرادته، حتى قضى وتركهم من بعده إذا أهمهم أمرٌ تجادلوا ما يفعل لو كان معهم، كل يزعم نزوع العطار إلى فعله، وظلوا على تلك الحال زمنًا حتى زالت هيبتهم وهيبة العطار من الناس وملُّوهم، ولم يترك زجر العطار لهم من هيبة في نفوس بعضهم البعض، وأنفوا أن يخضعوا لرجل منهم وقد شهدوا العطار يزري به. ثم إن حب الرياسة ونزغ الشيطان

جرى بين ابن المول وقواده على مجاري العوايد في بني آدم، وصار كل يستصغر صاحبه ويرى نفسه الأحق بالرياسة، وكان أخوفهم عليها ابن المول لما حال عليه الحول في القصبة يأمر وينهى، وطابت له ثمارها وقوي فيها أمله ورجاؤه، لا يقض مضجعه إلا سيرة العطار يتوسل بها حساده كلما انتقضوا عليه أمرًا قالوا: خالف العطار وشذ عن سيرته، فأصبح قميص العطار حجة عليه بعدما وسَّدَ له الإمارة ورفعه على من سواه، فبدر إلى النقيصة منه والتنكر لسيرته، ونسب كل مكرمة للعطار إليه وإلى مشورته وحسن تدبيره، ثم دخل في طاعة الزغل، فثبَّته الأخير في ولايته وخلع عليه وأمده بالجند والنفقة ليزيد في أسوار لوشة ومؤونتها، فهابه حساده وقطع ألسنة شانئيه، إلا أنه لم تزل الوحشة بينه وبينهم، فتطلع إلى اصطناع القواد والأتباع من خارج لوشة لتكون له عليهم يد ويدينون له بمنزلتهم. كذا قدَّر العطار لما اصطفاني من عين الصقر، وكذا قدَّر ابن المول فكتب إلى أبي يحيى أن يأتيه بي؛ قد رآني أطوع له من غيري لسابق الصلة بيننا وللوقعة التي خضناها معًا، ولأنه بكفايتي يطعن في العطار إذ جفاني وقطعني، وتلك الأخيرة تمنعني من التطلع لما فيه يده والتوسل بقميص العطار كأندادي، إذ أن أهل لوشة جميعهم يعلمون ما جرى بيني وبينه، وليس من بعد اللسانة أبغض إليهم مني؛ إذ اتهموني بالجحود والإباق، حتى إذا ائتلفهم ابن المول وحال عليهم الحول في غيبة العطار تناسوا ثم نسوا، ثم دخلت عليهم الباب مقدمًا إلى حيثما كنت، ولله عاقبة الأمور.

ذكر حالي في لوشة:

أراد ابن المول أن يقدمني على قواد لوشة، فأبيت لئلا أكون دولة بينهم وعرضة لسخطه إذا انحلت أمورهم، فطلبت منه أن يقدمني على حراس أسوار لوشة وأبراجها، ففعل وعدّني عينًا تحرسه من المتزين والمتقضين عليه. وما أن تم لي ذلك حتى كلفت بعملي كما كنت في عين الصقر مؤثرًا اعتزال مجالس القواد إلا بقدر ما يقتضيه تدبير أمور الجند، ومعتزلاً مجلس ابن المول إلا بقدر ما ينفي الوحشة بيننا ويقيني ظنونه؛ فمع بذله وأمانته لازمته الوساوس والظنون كما تقدم حتى أفسدت عليه قلبه، واستراب بالجميع حتى من استقدمهم واستخلصهم لنفسه، واستحكم في قلبه الحسد على العطار وسيرته، وظن في كل انتقاص منه زيادة له، فكان يدخل الديوان ويحصي ماله ومتاعه ويملأ يديه بالقطاع ثم يرسلها ويقول ذاك أربى من ديوان العطار، ويتفقد السلاح في أقبية القصبة ويطرب لقعقعته ويقول ذاك أعظم مما كان عند العطار، وزاد في أسوار لوشة فوق الحاجة ليقول الناس إن بنيان ابن المول أعلى من بنيان العطار، وما أربى ماله وعظم سلاحه وزاد بنيانه إلا نسيان أيام سلفه. ولا تظنن سوءًا يا بني بابن المول فوالله ما شهدته يغل ولا يأخذ من أموال المسلمين شيئًا، إنما هو حب الرياسة والذكر، وقد رأيتهما على صورته فأبغضتهما وزهدت فيهما، وزاد زهدي تفكُّري في سيرة العطار بعدما كان ملء السمع والبصر، ثم قضى فقلت ترك ذكرًا، ثم انقضى الذكر وانقلبت كل محمدة له منقصة، وصار الناس بعدما كانوا يقبلون ثرى قدميه ويقدمونه على نسائهم وأولادهم ويسمون صبيانهم باسمه، صاروا

يلعنونه وينعتون أيامه بأيام الجور، ثم عادوا سيرتهم الأولى وغالوا فيه لما أحاط بهم الروم! فقرّ في قلبي أن ليس للإنسان إلا ما صدق الله فيه فلقيه به يوم القيامة، ولا ينفعه ولا يضره غيبة القواد في المجالس، ومدح الزجالين، وهذر النسوان في الزنقات.

ذكر إطلاق السلطان:

ومضى الحال زمنًا خمدت فيه الوساوس، ورضي كل امرئ بما تحت يده، وسارت الأيام على مجاري العوايد وطبايع الإنسان، إلا أن نارًا بقيت تحت الرماد، تنتظر من يذكيها، حتى أطلق العدو، دمره الله، السلطانَ من إساره ووعده بالأمان إن أطاعه الناس، وسرّحه إلى بعض حصون الشرقية، فبث دعوته هنالك وأطاعته بلش، ومالت إليه طائفة من أهل ربض البيازين من أرباض غرناطة ووافق جل أهل الربض في الصلح، ووالله ما رأيت قومًا شرًا منهم قط؛ فهم أهل سيارة وبادية، وفيهم من التعصب وحمية الجاهلية القبيحة ما أغرى السلطان بالفتنة، وإن كادت لتنحسر، فقاموا بدعوته، وجرت الوقائع بين أهل ربض البيازين وبين أهل غرناطة وعليها الزغل، ووقع بينهم القتال وذاد أهل البيازين عن أنفسهم منتظرين قدوم السلطان إليهم، إلا أن أصحابه أشاروا إليه بالمسير إلى لوشة ومداخلة قوادها؛ لئلا يكون في الشرقية بين مالقة وغرناطة وهما على طاعة الزغل، وأُسقط في يد ابن المول إذ أصبح على بعض قواده وقد داخلوا السلطان وخرجوا بعساكرهم في ظاهر لوشة يتلقونه، وكنت معتزلا ذلك كله، فلم أتعرض لأحدهم على الأسوار خشية وقوع الفتنة، وانحزت بجنودي إلى المدينة حول القصبة

والسوق، وخضع لهم ابن المول بعد فترة، وكان الزغل منشغلاً عن إعانته بقتال أهل البيازين، فخشي إن قدم عليه السلطان بأهل الشرقية وبلش ونصب محلته أن يمد السلطان حساده من قواد لوشة ليستبدل أحدهم به، فيضربون الحصار على المدينة وتقع الفتنة بين أهلها، فآثر السلامة وحجب نفسه بالقصبة؛ وذلك لأنه وإن طابت له ثمار الإمارة، إلا أنه كبر سنه وضعفت قوته عن الذود عنها، ثم لما دخل السلطان المدينة ولبث بها دهرًا لم يأته مال ولم يرفده جند إلا جماعات من أهل البيازين جاءت طوعًا، ندم القواد على مداخلته وإعلان طاعته، وخشوا أن يفرغ الزغل من قتال أهل البيازين فينهض إليهم، وأرسلوا إلى أبي يحيى في عين الصقر فلم يجبهم والتزم رباطه، واستيقن القوم أنهم ليسوا على شيء، وظنوا الهلاك، وانخلعت قلوب الناس خشية الفتنة. وكنت في أثناء ذلك أغشى مجالس القواد لئلا يتهموني بمداخلة الزغل، وكنت أصم أذنيّ عن أحاديثهم، لكني كنت أداخل السلطان وأذكّره بما توسطت له عن العطار في سالف الأيام، وكنت أذكره بالله وبإحاطة الروم بهذه الأمة وأخوفه عاقبة الفتنة وأرغّبه في صيانة أرواح المسلمين ودمائهم في هذا الثغر المخوف بين لحيي العدو، فأصبح يهوى مجالستي، ويرسل الدمع بين يدي. ولا تعجب إقبالي عليه ونصحي له يا ولدي، فإنما ذلك ما أوجبه الله من النصح لولاة أمور المسلمين، وذلك غير الصحبة المذمومة للسلطان، وإنّ في تخولهم بالموعظة ما يعز الله به الإسلام والمسلمين، وقد كان النبي ﷺ يستألف جبابرة العرب وهو ظاهر عليهم، فكيف نغلظ القول لهؤلاء وهم جبابرة قومهم بدار عزة، وُلدوا أمراء وشبوا ملوكًا

وجُبلوا على حب الرياسة والسلطان، فنفسد قلوبهم ونوغر صدورهم ولا ننمي بقية الخير فيهم فنحفظ دماء المسلمين، ألا ترى الإسلام قد انقطع عن المغرب سنين وقضى من المسلمين من قضوا لردة كسيلة البربري لما أوغر عقبة بن نافع الفهري صدره وأذله بأن ذبح الشاة بيديه أمام مماليكه فأفسد قلبه واستجلب عداوته وقومه وهم حديثو عهد بإسلام؟

وقد كدت أبين له عن نسبي ائتلافًا له بحق العمومة، وما منعني إلا أن يكذبني أو يظنني دعيًا طامعًا في المُلك، فأحجمت عن ذلك، وليتني فعلت لما سألني الزغل يوم لوشة إذًا لكانت لي عندهم يد، لكن الله يفعل ما يريد. ومازلت بالسلطان وابن كماشة أغريهما بالصلح حتى أرسلا للزغل، فبعث إليهما ابن الأزرق قاضي الجماعة، فكان ذلك الصلح سبب لقائي بابن الأزرق ومصاحبتي له مدة وجوده في لوشة، وتحصّلت لي في صحبته أسباب الفهم والسعادة.

ذكر لقائي بأبي عبد الله بن الأزرق:

هو شيخنا وبركتنا أبو عبد الله محمد بن الأزرق الأصبحي، ولي قضاء غربي مالقة في عهد أبي، ثم ولي قضاء مالقة في عهد أبي الحسن، ثم ولاه الزغل قضاء غرناطة، وقد رأيته أيده الله من رجال الدهر، اجتمع له ورع شيخي السلجماسي وعلمُه وحاله، وحزم العطار ودهاؤه، فحيز له العلم والسياسة بمجامعها، وقد صحب أبي وأبا الحسن والزغل فلم يكن إلا ناصحًا أمينًا لهم ومعينًا على الحق، فلم يفترق عن الزغل إلا بعدما انتكس وعادى المسلمين حسبما يتقدم ذكره. جاءنا غرناطة سفيرًا لإقامة الصلح بين السلطان وعمه، على أن يكون المُلك

للزغل وأن يكون ابن أخيه من بعده وتحت يده في أي أرض شاء، ومازلت أدور على ابن الأزرق والسلطان أحسّن كلام كل منهما في عين الآخر حتى أتم الله الصلح وقتها وخمدت الفتنة، ودخلت البيازين في طاعة الزغل، وترك الأخير ابن أخيه في لوشة أمانًا له أن يغدر به ويحبسه. وكانت بيني وبين شيخنا ابن الأزرق أسمار وأحاديث في غير أمر الفتنة، لا سيما حول مقدمة ابن خلدون، وللشيخ كتاب اسمه بدائع السلك في طبائع الملك شرح فيه المقدمة وزاد عليها زيادات نافعة، وجلا عنها ما خفي من معانيها، ورد فروعها إلى أصولها، فكان تبصّره في التاريخ تبصّر المعتبر المتهمم بالعلم الذي ينبني إليه عمل؛ فضم حكمة العرب والفرس واليونان إلى ما قرره ابن خلدون من الطبيعيات في أحوال الدول والعمران، فكانت أطوار الدولة عنده ليست كأطوار ابن خلدون؛ عمرها طبيعي كعمر الإنسان، بل هي، مما قرره ابن خلدون ابتداء، على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وإن الدولة البعيدة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين ودعوة الحق؛ لأن اتفاق الأهواء على المطالبة إنما يكون بمعونة الله في إقامة دينه، وتزيد تلك الدعوة قوة الدولة على قوة عصبيتها، وأطنب في الحديث عن مظالم الحكم والجباية وشروط الملك والقاضي والوزير وغير ذلك، وكان أول ما سمعته منه حفظه الله قول الفاضل أرسطو: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكتنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان سياجه

الدولة، وهو هكذا متصل بعضه ببعض ومرتبط به، وأن أحوال الولاة فرع عن أحوال العوام، وقد أفضى إليّ بأحوال من رآهم خالطوا السلطان وخاضوا في الانتزاء على هذا والوثوب على ذاك، منهم شيخه ابن عاصم رحمه الله، فلم ينل أحدهم شيئًا ولم يرفع هرم الدولة منهم أحد؛ إذ أن تغيير صور الحكام وعوارض الملك دون تعهد أمراضه بالعلاج والتدبير لا يغني شيئًا، ولا يشفي الدولة من أسقامها، ورغم ما له من فراسة صادقة وفهم ثاقب، غير أني لم أجده قنط يومًا أو كَلّ في سعيه لنصرة المسلمين، ولعله اليوم قد بلغ مصر مستنفرًا سلطانها الأشرف لجهاد النصارى. وإني أعلم علم اليقين أنه سيداخل السلطان ويأتلف قلبه، وقد رأيته بلوشة يغشى مجالس الخاصة ويداخلهم حتى قضى حاجته ووُصل الدعاء للزغل على منابر لوشة، ثم أقبل العيد وصلى بنا ابن الأزرق في الفحص خارج الأسوار واجتمع له أهل لوشة والقرى حولها، وصلى خلفه ابن المول وقواده بعدما ألف بينهم وبين السلطان وعمه، ثم قنط في الدعاء حتى بكى وأبكى، فوالله كأنه السلجماسي يقنط بنا في عين الصقر، وانصرف محمودًا إلى غرناطة، وقد صفت القلوب ليلتها من كل كدر، وعاد ابن المول من حجابه وأشرك السلطان والقواد معه في مجلسه واستشارهم في كل أمر، بل جعلهم في جملتهم الأمراء وهو وزيرهم كما كان أيام العطار، فصلحت نفسه ونفوسهم حتى حين، ثم أتانا خبر مسير النصارى إلينا، ولم نهنأ بعد بالصلح، ومن تلك الأيام إلى اليوم لازالت الدنيا تتقلب بأبيك من كدر إلى كدر والحمد لله على كل حال.

ذكر نزول الروم بلوشة وحصارها:

أقبل ملك الروم فرذلند بمحلته على لوشة، وكان من قبل قد أخذ رندة وحصن قرطمة ودكوين وقنبيل وما حولها. كانت تأتينا أخبارهم على فترة، فكأننا بعد الحَمَّة ذهبت حميتنا، فلا نأسى على ضياع حصن أو مدينة، بل كنا نظن أنفسنا بمنأى عن ذلك وقد كسرنا النصارى من قبل عند أسوار لوشة، واتهمنا رجال تلك الحصون بالخور وضعف العزيمة، حتى نازلنا العدو بما لا طاقة لنا به، ففزع القوم لابن المول إذ حانت ساعة النزال وهو أخبرهم بالحرب وفنونه، فلبس درعه وسلاحه وأعطاه القواد عهد الله وميثاقه ألا يخالفوه في أمر أو نهي، وانتدب كل فريق منهم إلى جهة من جهات لوشة يحصنها، وجعلني على أسوار لوشة مما يلي شنيل، ونادى بأهل لوشة فاجتمعوا عند القصبة وفرق عليهم السلاح وأخلى للمقاتلة ما جاور الأسوار من بيوت، وصعد السلطان المنبر وخطب في الناس ورغبهم في الشهادة ولقاء الله وأعلمهم أن ولده رهن عند النصارى وأن دمه ليس أعظم من دمائهم، وكان يلازمني عند أسوار لوشة يشد من أزر الجند ويأكل معهم، ثم بعث ابن المول فرسانًا ناوشوا النصارى في محلتهم، وأغاروا عليهم في الليل وخربوا شيئًا من متاعهم، وقضى منهم من قضى، حتى إذا استكمل العدو نصب محلته أحكم الحصار على لوشة ونصب عليها أنفاطه، فكأنما يقذف بالشهب، فحرَّق البيوت والأسواق والدكاكين وكانت الأرض تهتز من تحتنا فتنقض الجدران والسُقف على أصحابها، وكنا نصلح الأسوار بالليل ليهدمها في النهار، ثم نفدت المؤونة فكنا نصلح ونترك، وكان العدو يضربنا كأنما يعلم مقاتل الأسوار

حتى دخل علينا من جهة شنيل، فقاتلناهم قتالاً شديداً، وقضى منا الأمجاد والأبطال، ثم انحزنا إلى سور القصبة وقد دخل العدو الأرباض فنشب في أزقة لوشة فترجلنا عن خيولنا وكررْنا عليهم وتبعهم الرجال بالرماح والفؤوس، ورمتهم النسوان والصبيان بالحجارة، ثم حجز بيننا وبينهم الليل، وبتنا نحمل الجرحى ونواري القتلى، ونسد الطرقات على النصارى، وكنا نمني أنفسنا بنجدة الزغل من غرناطة إلا أنه لعنه الله أحجم عن نصرتنا خشية أن ينتقض عليه أهل البيازين ويستقلوا جمعه ويخرجوه من الحمراء إن سير جنده لقتال النصارى، ولما آيسنا من نجدته أُسقط في أيدينا، ورأينا الهلاك رأي العين، وقد مرت تلك الليلة بطيئة كأنما شُدت إلى السماء، علانا النصارى بأصوات صلواتهم ونفخ الأبواق وقرع الطبول، علمت ليلتها يا بني ما قهر الرجال، وذقت علقم الهزيمة وذلها، فوالله ما هانت عليّ نكبتي وفراقكم إلا ليلتها، ولا كبرت عندي مصيبة بعدها، ولا رأيت كدراً ولا نصبًا ولا كسرة عندي بأشد من يومئذ؛ كُسر رمحي وشُج رأسي ونشبت النصال في لحمي، وتاه عني غارب وما وجدته إلا قدراً، وهلك بين يدي خلق كثير لم أملك لهم نفعًا، وسمعت نحيب الرجال وصراخ الصبيان، واستغاث القوم بالله والأنبياء والأولياء والعطار، وقد رأيت بأم عيني شيخًا يبشر برجعته ويسير براية عاد بها من اللسانة، ظل يدعو العطار أن يأتي، أن يكر من مكمنه بين جبال قبرة بجيش ذي رايات سبع، فقد عاد السلطان ولا حاجة لاختبائه، ظل يستغيث ويدق برايته على الأرض، والقوم من حوله يواسونه ويمسكونه خشية أن يعبر إلى النصارى، وهو يدفعهم عنه ويصرعهم كأنما عاد فتى،

ولما هدّه التعب أقعى على الأرض وبكى حتى ابتلت لحيته، وأصبحنا وقد قضى، وقضت معه لوشة؛ إذ أشار السلطان بالصلح، ومداخلة ملك النصارى لما له عنده من إكبار الملوك لبعضهم، فذهب لمحلة الروم من يومه مع ابن المول وجل قواد لوشة، وأجاز الروم الناس بمالهم ومتاعهم وخيلهم وسلاحهم ودوابهم، وخرجت يومئذ بمتاع حمل غارب، ويكتبك وفرّقت ما زاد عن ذلك على أهل لوشة، ورفعت رايتي ليتبعني الناس، ونظمت من بقي من جندي لنصحبهم آمنين إلى غرناطة، على أن يتبعنا ابن المول والقواد مع السلطان وجنودهم، وقد انحازوا إلى عين الصقر حينًا قبل أن يخلوها للنصارى هي الأخرى، واضطرمت قلوبهم غلا وحسداً على خذلان الزغل.

ذكر دخولي غرناطة بعد طول غيبة:

وكذا يا بني دخلت غرناطة بعد طول غياب عنها؛ كان آخر مقامي بها يوم وثب أبو الحسن على أبي، وما أحفظه منها ما اطلعت عليه من برج قمارش يحملني الزغل، ثم عدت في عهده وهو سلطان، واطلعت إليها في ذاك اليوم من فوق جواد أعمى، أشعث أغبر، بيدي رمح مكسور، ومزق راية، وخلفي أيتام وأرامل وثكالى. خرجت منها طريداً وعدت إليها طريداً، كان في فراقها آخر عهدي بالملوك، وعدت إليها لأقع محصوراً بينهم، وسلكت أيامي في أخبار سيرهم ومغازيهم، وقد جرت بعد ذلك أمورٌ لا أحب ذكرها؛ فلا فائدة ولا عبرة من حكايتها، بل تحار فيها العقول ولا تقر فيها على رأي. يكفيك منها أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، وإن الناس يُبعثون يوم القيامة على نياتهم، وما أضيق الحياة لولا فسحة الأمل!

هو

أقبل البرد، ووهن كل ذي كبد. انشغل كل ذي عيال بعياله، واستبدل الناس خشن الصوف والبز الأسود ببياض الثياب، وصفاء القلوب. جُمع الزيتون ليصبغ السواد طعام الناس كما صبغ كل شيء حولهم. أكتبر؛ قلب الخريف المضر بجميع الطبائع والبلدان والأسنان.

مضر حتى بجبل شلير العاري عن برنسه في ذاك الزمهرير، منشغل به عما يدور في المدينة، منشغل حتى بضجره منها، وتحته مازال نهر حدرة يجري، يشق غرناطة كضربة سيف في سويداء القلب. والقمر من فوقه محصور بمنزلة الزباني، بين قرني العقرب في السماء لا يستطيع فكاكًا. مأسور بينهما لا يدري من أين تأتي الطعنة. حين كانت منازله في الأسد، كان يعرف من أين تأتي الضربة، يعرف طبائع الأسد، لا ينشب مخالبه إلا لجوعة. لكنه اليوم بين القرنين لا يدري أين المأمن، وأين المغدر. ثم يخشى أن يترك القرنين ويسيح طليقًا في الأفق؛ فرغم خوفه ينعم بالدفء. مثله كمثل ابن آدم في البرد، يحلو في عينيه الجمر، ولا يفارق ضرا لازمه الدفء.

***

تحركت صفوف الرجالة من أنصار أبي عبد الله الصغير، تحركوا على ضوء المشاعل في جوف الليل؛ صف.. اثنان.. ثلاثة. بين كل صف عشر أذرع. انتظمت وقع ريحياتهم على بلاط الطريق المفضي لسور

القصبة القديمة بغرناطة، صرَّت عجلات المجانيق والعرادات، هشمت الأوراق البالية، الساقطة من أصص الزرع الموضوع في شرفات البيوت. تناثرت تحت أرجلهم مياه البرك الصغيرة من أمطار الخريف. وقفوا عند باب قشتر. مضى شهر حتى خلا لهم الطريق إلى الباب، هاهي القصبة القديمة تلوح أخيرًا. علاهم أعداؤهم فوق الباب والسور، مثقلة أجفانهم من البرد. يحملون أقواس الرجل وعلى أكتافهم أكنة السهام. اقتربت الصفوف الملثمة بالظلام وفي أعقابهم العرادات والسلالم. نُفخ في البوق فوق السور نفخة وراء نفخة، سحب كل رامٍ من رماة الأسوار سهمًا من كنانته وأزت الأوتار أزة واحدة من تفويق السهام. نفختان.. نفختان، انطلقت السهام في أقواس واسعة تشق الهواء. ضمت الصفوف المهاجمة المتباعدة فجأة، قعد أول صف مستترًا بتروسه لا يتبين منهم إلا الحدق، التصق به الصف الثاني على مقدار قامة الراكع من خلفهم، مستترًا بالصف الأول رافعًا تروسه ليستر ما بقي، والصف الثالث من خلفهم وقوف تقيهم تروسهم تمام قاماتهم. نشبت جل السهام في التروس، ونشب في الدرق واللحوم بقيتها. سقط بعض الرجالة وأنّوا. من وراء العرادات والمجانيق خرج رماة المهاجمين، فاقوا سهامهم ورموا على حراس القصبة، تفرقت الصفوف الثلاثة وعادت سيرتها الأولى من العدو، وحين دنوا من الأسوار، فُتح باب قشتر وخرج منه جند مدججون بالسلاح، وأخلاط من الناس بالرماح والسيوف وكل ذي سن وحدّ، ومن وراء العرادات والمجانيق خرج على الجهة الأخرى أمثالهم. علت صرخات الرجال يقطعون لحوم بعضهم بعضًا، تناثرت الأطراف

والرؤوس على الأرض، وسرت الدماء بين شقوق البلاطات. دوت صيحات التهليل والتكبير . . من الجانبين!

بدا أن الغلبة لحراس القصبة وقد تشتت نظام الصفوف الثلاثة وانفرط عقدهم لما صدم الحديد الحديد. دُقت طبول المهاجمين وراء العرادات دقة دقة. تراخى المهاجمون فجأة وكان أولهم أصحاب الصفوف الثلاثة. ومن فوق أسطح البيوت المواجهة لباب قشتر دوى الرعد . .

ثلاثة أنفاط أطلقوا الشهب. علت صرخات الرجال، وفر المهاجمون والمدافعون على حد السواء إلى الزنقات أمام السور لتدور رحى المعركة في كل درب وعلى كل عتبة، حتى أقبلت كوكبة من الفرسان تعضد المهاجمين، تقتلع أشياع الحراس من الطرقات كريح الشمال.

-«الله أكبر . . السلطان وصل! مولاي بوعبدللي وصل!».

انتشى السلطان الصغير وحوافر فرسه تقدح الأرض بالشرر. أحاط به مماليكه المعلوجون قطارين حسبما وسعهم ضيق الطريق. سرت الحمية فجأة في أنصار السلطان، شعروا في وجوده بالدفء في هذا الزمهرير، تدفقت الشياطين في عروقهم ودفعوا عدوهم حتى الباب، والرماة من فوق السور يتراجعون للقصبة القديمة مخلين أسوارها تدكها العرادات وتطؤها الرجالة حملتهم السلالم. لم يظن السلطان نفسه أن وصوله البيازين سيدفع أنصاره للاستماتة هكذا.

في المرة الأولى خذلهم، أما هذه المرة فقد أتاهم بعزم لا يفتر حتى يبلغ قمارش. لماذا تستعصين عليه أيتها المدينة؟ كانت سيوفك باردة متساقطة

كـأوراق الخـريف لما وثب أبوه على جـده، واليـوم يقـضي العـشـرة والعشرون من رجاله حتى يتقدموا من زنقة لزنقة. جاءك يا غرناطة بسلام النصارى وأمان مليكهم فلمَ تستعصمين بـ«زغل» ليس له من اسمه نصيب؟ أحل دمه وأهل البيازين لأنه جاء بأنفاط النصارى وأموالهم، وألّب عليه أهل غرناطة، فقاتلوه على الأبواب يكبرون ويهللون، كأنه إذا أرسل إليه فرذلند بالأمان سيرده! عجيبة أنت يا غرناطة سرعان ما تنسين؛ جاءك ابن الأحمر الكبير من قبل بالأمان وعلى يديه دم إشبيلية مسفوحًا بعدما واطأ فرذلند الكبير عليها وقاتل بني جلدته مع النصارى، لم تنتقضوا عليه يومئذ، سألتموه من غلب؟ قال: الله غلب! فصارت شعاراً لبني الأحمر، مطرزاً على الرايات، ومحفوراً على جدران الحمراء، مضروبًا على قطاع بني الأحمر جزية لقشتالة عامًا بعد عام، يحصّن المدينة من مصير إشبيلية وقرطبة. أمان النصارى من أحياك يا غرناطة كل هاتيك العقود، واليوم تستعصين على من جاء يمدك به؟

كانت خاضعة تزفه قبل خروجه للسانة، حتى إذا كُسر بايعت غيره كأن لم يكن. واليوم جاءها بالعدة والعدد لتندم على غدرها، تركها من باب الرملة، ثم دار به الزمان والمكان ليدخلها من طرفها القصي؛ من باب البيازين. تعلم من رماح النصارى وأنفاطهم وأبواقهم، من رأس العطار الطائر وظلال قند قبرة.

انكسر فيه الغازي، وبقي الملك. تتجاذبه الخواطر والأفكار، لكنه لن يقر إلا في الحمراء، لن يسترد ظلاله التي سلبها منه قند قبرة إلا في قمارش، لن يقدر على وطء امرأة إلا على فرش الحمراء. ظل يمور في

الشرقية من بعد لوشة يترقب، ثم دخل بخاصته إلى أهل البيازين خفية بعدما أغلظوا الأيمان لرسله بالنصرة والتأييد، ولما عُرف خبره طار إليه أهل البيازين شوقًا وهو من أكرمهم وأمه من القدم، ومن ورائهم أهل لوشة وقوادها لا يعرفون من بني الأحمر غيره، وهو صاحب العطار وصهره. عانقوه كما يعانق الفراش ناره، بايعوه وعاهدوه على الذود عنه والموت بين يديه، وقد ظلموه من قبل لما حملوه على صلح عمه الذي غدرهم في لوشة ومنع عنهم المدد، ففقدوا مدينتهم وجاؤوا غرناطة يستجدون عيشهم. إلا فتى العطار؛ انسل من بين يديه كالثعلب الذي انسل من بين جنده عند باب الرملة، واعدَه، وعند وقعة الأبواب راوغه وخادعه، ثم اعتزل. فتنة! أي فتنة تلك وقد جاءهم بالأمان. الفتنة أن يقفوا للنصارى، أن تدك حصونهم وأسوارهم بأنفاط النصارى كأنها من بنيت من السكر، كأنها حلوى المدائن في ينير، يُقتل أنجادهم وتساق نساؤهم وصبيانهم إماءً وغلمانًا، تُدنس كنائسهم وترفع النواقيس والصلبان على صوامع مساجدهم. لا بأس، سيعود القائد الآبق، وسيغفر له السلطان عزلته؛ فقد هلك من قواده وقواد لوشة في زنقات غرناطة وعلى أبواب البيازين أكثر ممن هلكوا على أسوار لوشة، وإذا استتبت له الحمراء لا مفر أن يأتيه خاضعًا مبايعًا للسلطان الذي غلب، وبه يشتد أزره ويأتيه المعتزلون فرادى وجماعات، ببيعة زعيمهم فتى العطار موسى بن أبي غسان، قاتل لذريق صاحب قلعة رباح، قائد عسكر عين الصقر، وقائد حراس لوشة، غازي قبرة وأحوازها التي عجز عنها العطار والسلطان نفسه. كذا أصحاب الورع البارد دومًا، يقولون

فتنة حتى تنقضي، ثم يلثمون خاتم المنتصر! دخل القصبة أخيراً مع جنده، لم تبق إلا القصبة الجديدة، ثم الحمراء. تنفس ريح البارود، وغبار الصخور المفتتة بالأنفاط، ملأ صدره بريح الدم وزيت السُرُج المنعكس على خوذته الفضية، عقد حاجبيه وقبض وجهه حتى اضطربت أوتاره. صرخ بأعلى صوته في فناء القصبة: «جيتك يا غرناطة بالأمان!» لهث على وقع الصدى كأنما لفظ قلبه. فكر كيف سيبلغ خبره الزغل وهو في بلش يظن نفسه يرد عنها قضاء النصارى، فليفعل إن كان زغلا! شعر بمن يجذبه من حرملته؛ كان ولده العائد من الرهن، ظهر من بين المعلوجين يمسك سيفًا صبيًا مثله لم يمس الدماء. لانَ وجه السلطان فجأة، جذب إليه ولده من فوق الجواد، أمسك بيديه وعد أصابعه كأنه يطمئن على وجودها. ضمه إليه ثم لثم رأسه. كم كان غاليًا فداؤه وإطلاقه، لكن أنَّى له أن يترك ولده بين يدي النصارى مثلما ترك جدُّه أباه؟ كان عليه أن يخلصه، أن يدفع لهم ما يطلبون لفكاكه. حتى لو كان ثمن فكاكه عورات أسوار لوشة.

***

مفلول، مهزوم.. عاد الزغل من بلّش. لقي العدو في الليل بغير اتفاق في الطريق، حدثت الكرة واختلط العسكر بعضه ببعض. عند حصن مكلين قبل عام حدث الأمر نفسه، يومها تعاهد الرجال بين يديه أن يموتوا دونه واستماتوا دون محلته، قضوا حول خيمته كما يقضي الفراش حول السراج، فأظهره الله على النصارى وعاد، كما في كل وقعة، منتصراً. لماذا عجز أن يدفع برجاله اليوم إلى القتال، أن يسوقهم

إلى الحتف كما كانوا في مكلين، كما كانوا في غرناطة قبل أيام. كأنهم في قتال ابن أخيه أطوع له من قتال النصارى! بل لعل قتال ابن أخيه ترك كل ذي عيال مشغولاً بعياله، وكل ذي زرع مهمومًا بزرعه، فانهزموا للنصارى حتى قبل اللقاء. وحين علم في الصباح أن العدو استخلص بلّش، أُسقط في يده وأراد العودة إلى غرناطة. جاءه الصريخ أن ابن أخيه قد خلفه في أهله وماله، وقامت غرناطة كلها بدعوته. عندها لوى عنان فرسه إلى وادي آش متربصًا الدوائر. تقلب في فراشه متذكرًا أيامه؛ بالأمس غلبه أبو الحسن، واليوم يغلبه ولده، ولو طال به العمر لغلبه ولد ولد أبي الحسن! كأنه ورث من أبيه سعدٍ نحسه ونكبته، ونجا من ذلك أبو الحسن وعقبه. في زمن أبيهما كان يرى الجند يهابون أبا الحسن أكثر من أبيه، يخضعون لعينيه كأن بهما سرًا. كانوا يوقرونه هو كما يوقر العوامُ الشيوخَ والتجار وعلية القوم، لكنهم كانوا يعظمون أبا الحسن كما يُعظَّم الملوك. ظل يخشى أبا الحسن على ملكه حتى لما لجأ إليه في علته. ظل يخشى أن يفتن جنوده بعينيه، لا ريب أن لولده ذات العينين، وإلا كيف رد أهل غرناطة عند ظاهر البيازين وقد دخلوا عليه من كل الأبواب دخول رجل واحد! أيقن في تلك الوقعة أنه هزُم، وأن مُلكه سيدول لابن أخيه، لكنه عاند وكابر. وكيف يدوم له ملك وعماله الحمقى أنزلوا الطلسم من مستقره بالقصبة القديمة مؤذنين بهلاك الأندلس كلها. طلسم غرناطة الذي عُمل لحبوس بن زيري ملكها زمن الطوائف ومعمرها. منذ ثمانية قرون نازعتْ ملكَ القوط، لذريق، نفسُه أن يفتح الباب الذي يحوي طلسم دولته، فتح ستة وعشرين قفلا هم عدد الملوك الذين

سبقوه، وفي تِلك الحجرة وجد مائدة سليمان النبي، وتابوتًا فيه رق، وفي التابوت تصاوير العرب عليهم الفراء، معممون على ذوائب جعد، ومن تحتهم الخيل العربية، متقلدين السيوف المحلاة، معتقلين الرماح. قرأ في الرق أنه إذا كُسرت الأقفال وفُتح التابوت، فستملك الأمة المصورة بلاد الأندلس. اهنأ يا ابن أبي الحسن بالمُلك إذن فما هي إلا سبع سنين بعدد معادن الطلسم السبعة، انقضى منها اثنتان ويزيل ملك الروم مُلكك ومُلك الآباء والأجداد. بماذا سيهون عليه ابن الأزرق ويربط على قلبه؟ صاحبه في كل غزواته يدعو له بالنصر على النصارى، فلماذا رُدَّت دعواته اليوم؟ سيردد له حكم الأولين والآخرين، سيسوق له حكم برزجمهر وأرسطو، وسيرة أنوشروان والإسكندر ذي القرنين، وأين له بمُلك كملكهما ليسير سيرتهما؟ عاد إليه من لوشة مختالا أنه أصلح بين الفريقين وأخمد نار الفتنة في لوشة. نعم، خبت في لوشة لتنشب في غرناطة وتحرقها عن آخرها!

لا ريب أن ابن الأزرق سيغادر معسكره ذات يوم ويرحل إلى غرناطة، كان قاضيًا لأبيه سعد، ثم لأبي الحسن، ثم قاضيه، واليوم سيبايع ابن أخيه. كذا أصحاب الورع البارد دومًا، يزعمون القيام بأمر الإسلام، وهم مطية لكل من غلب! رأى بعين الخيال مصير عسكره، سيتفلتون فرادى، ثم جماعات، سيقلدون الظاهري الذي جاز البحر بحريمه وأهله ليخدم بني وطاس، كان يطيعه طالما الحظ حليفه، حتى إذا خانته عيناه وعجز عن أسر رجاله، تحرر المملوك من قيده وفرَّ إلى غيره.

تحركت حفان الحسد تأكل قلبه كالملح، تقلب على جنبيه كالجمر. لا، الجمر يدفئ في هذا البرد، بل شوك يخترق لحمه وعظمه. تقطّعت أنفاسه، وشعر بروحه تغادره. أمسك بها، لاطفها وداعبها لتبقى، منّاها بالعودة للملك، بقتل ابن أخيه وسميه، بقتل كل عقب بني الأحمر فلا يبقى سواه وبنيه. لكن الروح كذّبته ولم تقنع، وعزمت على الخروج، فأمسك بأهدابها مرة أخرى، سكّنها بذكرى الأيام البعيدة السعيدة. يوم كان أبو الحسن رهنًا عند النصارى، وأبو الحجاج معتلا، وهو وحده لا يعرف الجند سواه من أولاد سعد، أبو عبد الله الزغل المظفر في كل حرب، المتصدر مجلس أبيه عند باب الشريعة، ساكن الحمراء وحده. رضيت روحه قليلا وعادت إليه مطمئنة، كأنما راقتها ذكرى الأيام القديمة. تذكر عندئذ أخاه الصغير موسى متسلقًا كتفيه عند برج قمارش.

ترى أين ذهب؟ منذ نزح مع أبيهما إلى المرية وأبان عن نسبه ثم ارتضى لنفسه الصنعة، لم يأبه له ولأخباره. تناساه ثم نسيه، حتى ذكره به فتى العطار في سهل لوشة، لينساه من جديد. لعله اليوم مع أخواله في فاس ناجٍ من كل هذا، سالم الصدر من آفات المُلك، كاتب أو صانع أو شيخ. يعود كل ليلة يلتحف بنسائه وأولاده، لا يتهمم إلا بالقوت، لا يروعه الروم، ولا يأتمر به أهله ليغدروه. ربما كان ذاك الفتى هو الناجي الوحيد.

❊❊❊

قام موسى مفزوعًا من فراشه يتصبب عرقًا. لهث منهكًا كأن العوام مازالوا يطاردونه في دروب غرناطة. مازال الروم وأهل غرناطة يتناوبون

على قتله في المنام. يقودهم لذريق متشحطًا في دمه أو ابن المول يخرج الدود من رأسه. مسح على وجهه ورأسه. خلى عنه دثاره والتفع بجبته. من فجوات روشان منزله الصغير أصاخ السمع ودقق النظر، تذكر أيام الحمراء والبركة طفلا، كان يريد الخروج للدنيا، أما اليوم، يتربص أن تدخل الدنيا داره في غفلة منه. أكمل بعينيه الأرجل المارة أمامه، قطعتها توريقات خشب الروشان، عرف من وقع الريحية أنهم جنود، دس عينيه أكثر ليرى الدنيا بلا قطع. تسللت إلى أنفه رائحة الحشيش والنبيذ. سمع أصواتًا لم يميز منها إلا باب قشتر والقصبة القديمة. مازالوا يتحدثون عن تلك الوقعة التي أخضعت غرناطة لسلطانها الصغير مجددًا وكسرت عساكر الزغل كعود الكلخ. ملعونة هذه المدينة، لم يعرف أسماء دروبها وأرباضها إلا ملطخة بالدم وقطع الرؤوس وصلب الآبقين من الفريقين. في ألمرية كان يعلم البيوت والأرباض والدكاكين بطعام يرغبه، أو لذة يطلبها، أو مجلس يأنس به، أو رزق يسعى إليه؛ فذاك دكان البلياط والعصبان والكسكس، وتلك فنادق الجنويين وخرجيراتهم، وذاك مجلس الصومعة وحمام أبي المحارب، وهذا باب البحر أو باب الحوض، وذاك المارستان أو دهليز الدكان. وفي الحوض رُسمت الأماكن بأنواع أشجارها ومواقع النواعير وأوتاد الجسور. وفي عين الصقر صغر عالمه وزُوي ما بين المسجد والغرفة والميدان في النهار، ثم مُدَّ في الليل إلى الأسوار، ثم إلى القبور وضفّة شنيل. وفي لوشة حاذى القصبة والأسوار ولم يعلم من المدينة إلا ما بين منزله والعطار. أما في غرناطة، فكان عليه أن يعلم أبواب المدينة وأرباضها، أسلم مسالكها ودروبها للغريب،

أبعـدها عن بارود الأنفـاط وأحـجـار المجـانيق. كل خـروج مـحـفـوف بالهلاك، والعودة خطر، وقضاء الحوائج عسر، والفلاح بلا رجاء. منذ وطئ تلك المدينة وخلفه أهل لوشة، منذ ركـز رايته التي جـمعـتـهم في الطريق، حتى تفرق أهل المدينة المسلوبة في كل فج ودرب. كأن مهمته انتهت عند باب البيازين. جاز من جاز إلى العدوة من المنكب داعين الله ألا يسـبيـهم النصارى في البحـر. وتفرق الصناع والكتاب يستـجدون أعـمـالهم في الدكـاكين وعلى أبواب المسـاجـد، وداخل القـواد الزغل ليسلكهم في خـدمتـه ووقف الجند بباب القـصـبـة يعـرضـون أنفسـهم كالمماليك.

سـروا في عـروق غـرناطة حـتى ذابوا فـيـهـا، أرادوا في البـدء أن يتجاوروا، أن يكونوا كتلك الأرباض المجهولة في دروب غرناطة خطها أهل حصن أو مدينة سلبها الروم، ثم جاؤوا بجماعتهم وعمروها، كأنما بعثوا مدينتهم من بعد موتها. لكن الحاجة تفرق الرجال، وتشغل كل صاحب عيال بالعيال. لم يملك أحد لأحد شيئًا وقد استذلهم أهل غرناطة وغلوا عليهم كراءَ الدور والدواب، وسبهم العوام في الأسواق أن غلت بمجيئهم الأسعار. لم يجدوا مستقرًا إلا في حي البيازين، حي البائسين، بين أولئك السيارة والأعراب، منبوذون مثلهم على حافة غرناطة، محجوزون عنها بالقصبة القديمة والجديدة، ثم بنهر حدرة، كأنهم الطاعون تتكفؤهم المدينة وسلاطينها وأشرافها. يرون الموائد والولائم في القصور من بعيد، ويستكثر عليهم الناس أن يقوموا، فيمدون أياديهم إلى فتاتها!

أما هو، فكأن حجراً انزاح من على صدره، خلصه أهل لوشة من التهمُّمِ بهم وخلص الفقر كل واحد منهم من التهمّم بغيره. كفته مثاقيل الذهب في سرج غارب السؤال. اكترى بيتًا صغيراً وحظيرة تسع غاربًا بالكاد. قتر على نفسه ليدخر المال يدفعه إلى عرفة الميار، لئلا ينقطع ما بينه وبين ولده. فكر في العبور إلى العدوة، لكن كيف العودة بعد رد فاطمة؟ ظل يراود نفسه ثم ينهاها حتى علم أن النصارى أحكموا قطع البحر بعدما تراخوا عنه، فقدَّر أنه محبوس في تلك المدينة إلى أبد الآبدين، حتى يبلى ورجاؤه معلق بأرجل الحمام. ثم جاءت رسل السلطان الصغير تجمع شتات المعوزين في أنحاء المدينة، جاءته رسالة منها أن الزغل واطأ فرذلند على خذلان لوشة، فوجب قتاله، وإذا خضعت لأبي عبد الله الصغير الأندلس فسيسبغ عليها أمانًا أُعطيه من فرذلند نفسه! لاحت له الفتنة وأماراتها، لكن ما لبث أن كذَّب نفسه حين رأى أهل لوشة يتجمعون بعد طول فرقة، يقفون أمام باب البيازين في جوف الليل عند الموعد المعلوم. معهم أهل البيازين والجند السابقون أخرجوا لباس الحرب من مكامنه، هجروا حبال الحمالين ودقيق الفرانين وسخام الحدادين. كأن لوشة بُعثت من جديد في البيازين، والسلطان مقبل بين مماليكه المعلوجين، عليه خوذته الفضية ووراءه ولده الصبي، وابن كماشة وابن عبد الملك وقواد لوشة. أيكون كل أولئك على باطل؟! في تلك الليلة عرفه الناس بعدما لبث مجهولا في دروب غرناطة وزنقاتها، دفعوه على أعناقهم حتى وصل للسلطان، شعر يومئذ بالدفء بعد ليالي البرد الطويلة. صرخ الناس أن الفرج اقترب، وأن دولة الزغل إلى زوال. ثم بدأت الحرب..

أراد السلطان أن يقدمه على عساكر لوشة، فظل يقدم رجلا ويؤخرها، ظل ينكر نفسه، ثم ينكر إنكاره كلما أحاط به الناس وتبسم له السلطان.

مازالوا به حتى علم أن الزغل قد انتدب أهل غرناطة ليدخلوا عليهم من أبواب البيازين كلها؛ باب فج اللبوة، باب الحديد وباب أنيدر، باب قشتر وباب البنود، باب الدفاف ونقبة ربض البيضاء. علم يومها أبواب غرناطة كلها، وعلم اسم كل حجر فيها. سد مع أهل لوشة والبيازين الطرقات. وقفوا خلف السواتر بالسيوف والرماح والقسي، ووقفت النسوان والصبيان فوق البيوت بالحجارة. ثم جنَّ عليهم الليل. مادت به الأرض يومئذ بين يدي السلطان؛ تذكر يوم لوشة، لا يفرق هذا اليوم شيئًا عن ذلك اليوم؛ القوم هم القوم، والسلطان هو السلطان، لكن التهليل والتكبير من الفريقين، منه ومن عدوه.

أين الحق؟! تمتم بها والحمى تتسلل إلى جسده. وحين انفتحت الأبواب لم يفرق بين مهاجم ومدافع، لم يعرف كيف يفرق الناس بين عدوهم وصديقهم، فيضربون ويطعنون ويرمون. خاض مع الخائضين وجندل أعداءه عن اليمين وعن الشمال، ولما تراخوا عنه شبت فيه الحمى ساعتها واستحكمت فيه. فيما بعد سيروي له من تابعه على أمره واعتزل معه أنه صرخ، ورمى السيف المنجس بالدماء وهرع إلى داره. كاذبون؛ لقد جاء السلجماسي وجره من قميصه إلى الدار. أغلق على نفسه بابه واعتزل. نقَّب في كتبه عن كل ما يحمله على الخروج فلم يجد. كان من قبل يستقصر السلجماسي ويستحسن مذهب العطار في السعي

والتسديد، فلا يسعه الآن إلا الاعتزال. عرف يومها سر انقباض شيخه عن الناس، وذهاب السرور عنه، ألمه مما فات وانعدام رجائه فيما هو آت. ظن مذهب شيخه سهلا، فلا قول ولا عمل، أيقن خلاف ذلك لما تكفأه الناس في الطرقات بعدما ظهروا على أهل غرناطة، بصق عليه جنده ورموه بالجبن، ذكروه بعقوقه للعطار، بل ضربه بعضهم وأرادوا أن يحرقوا عليه باب داره، لكن هيبة الأيام الخالية وتتابع الوقعات شغلهم عن ذلك. كان يتجمع مع المعتزلين في خفية عن الحرب يتقوى بعضهم ببعض، يعقدون حلقات الذكر على فترة، ثم يعود كل منهم حلسًا من أحلاس داره من جديد. كانوا يتناصحون فيما بينهم، ويذكر كل رجل ما جنبه أمر الفتنة ونجاه منها. ثم إن المتحاربين قد ضاقوا بهم وهموا بإخراجهم إلى الفحص، لكن مالبث أن أتاهم النصر يوم باب قشتر. لا بد أن بغضهم له قد ذهب الآن بعد النصر، كما ذهب من قبل بكسرة اللسانة، لا ريب أن العودة ممكنة كما كانت قبلا. أغمض عينيه أمام الروشان يمنِّي نفسه ويغويها، بل تغويه الجموع التي كانت يومًا جموعه، ويغويه الظفر الذي سُلب منه في لوشة. ها قد انقضت الفتنة وانتصر السلطان الصغير. أيعود إليه وإلى جموعه يستدفئ بهم في لياليه الوحيدة الباردة، أم يبقى حتى يبلى قائدًا مهزومًا وأبًا مقطوعًا، وحبيبًا مدفوعًا بالأبواب بعدما عبر البحر وسلك القفار؟

***

أنت

قال الوزير: «وهكذا يا بني قبلني السلطان في خدمته؛ إذ بذلك يأتلف من اعتزل معي الفتنة، ويرفعني على القواد الذين خاضوها معه، فلا يظنون أن لهم عليه يدًا. كذا رفعني العطار، ثم استقدمني ابن المول، واليوم يقيلني السلطان لذات العلة، فتأمل!».

هز الملك رأسه معترضًا على كلام الوزير. جلس عريف اليد عند باب قمارش ضجرًا؛ فاليد مازالت ممسكة بالقلم منتظرة كتابًا من الملك لتعلم ما تفعل. منذ قليل كان يلهث ساعيًا بين اليد وقمارش ليكتب القلم ويمحو، والآن يجلس منتظرًا. عجيب أمر ذلك الملك؛ أمره بكتابة كل تلك الصحف في ليالٍ خمس عفو الخاطر، واليوم ينقبض على تلك الأسطر!

استوضح الوزير مليكه بنفاد صبر. قال: «لن يفهم، لن يفهم ما هي الفتنة.. أنا لم أفهم!». شبَّك الملك أصابعه أمام وجهه، دار حول نفسه وأكمل: "كان ابن المول متهالكا على الإمارة، عاضًا عليها بالنواجذ، كان ذهب لوشة يلمع في عينيه حتى أقسمت أنه فُتن وباع آخرته بدنياه، ثم جاء مع أبي عبد الله إلى غرناطة، فاعتزل الفتنة ومات في داره لا يجد قوت يومه. وأبو يحيى.. أبو يحيى الذي تكفَّأ الفتنة في لوشة، وجاهد النصارى، من ثبت يوم المطر ولازم عين الصقر، ونازل النصارى في السهل والجبل، عاد إلى غرناطة، وخاض مع أهل

البيازين في حربهم حتى مات مشدوخًا في رأسه بحجر! لماذا ثبت هذا وانتكس ذاك؟ لماذا خُتم لكل منهما وكان بينه وبين غير خاتمته ذراع؟ لماذا يصبح القومُ مؤمنين معصومين عند بعضهم بعضًا، ويمسون كفارًا يستحلون أنفسهم».

- «ومن أدراك ما حالهم؟» سأل أبو الضمير. «لعل أبا يحيى بُعث على نية خير، ولم يضر ذلك ابن المول شيئًا».

- «وأين الحق إذن إن كانوا كلهم عليه!».

- «الحق في صدر كل منهم، فيما استقرت عليه ضمائرهم وانعقدت عليه الإرادة في قلوبهم».

- «والحلال والحرام؛ كيف تقول بالتسوية بينهما يا داعي الله؟».

- «ومن أدراك أنه تبين لهم؟ من أدراك أنه لم يشبه لهم هذا بذاك؟».

- «إذن لاعتزلوا، أو تبينوا؟».

- «وكيف يتبين الناس ما لم يشتبهوا أنه اشتبه عليهم؟ وكيف يسألون عما يجهلون أنهم يجهلونه؟».

- «إذن توليتيوم الزحف لما تركتهم بالأبواب!».

- «بل اعتزلت الفتنة!».

صرخ الملك: «إذن فقاتلهم وقتيلهم في النار!».

قال أبو الضمير: «قلت: لست تدري ما نياتهم».

نعم، لست تدري ما نياتهم يا ابن سعد. لكنك لن تقنع، تريد حلال

المرء وحرامه على اليمين وعلى الشمال، وبينهما خط في الخارج لا يمتد في قلب أي منهم، ولا يُعلّق بنيته وما اكتسب. أنسَيت عقلك ونفسك يوم أردت قتل أبي الحسن، محاه مليكك من ديوان الذكر كأن لم يكن، سكّنت ضميرك بأن ما كدت تفعله على يمين الخط، وأنك لم ترد ذلك لهوى نفسك. تريد لهذا الخط أن يظل خارجك ولا يمس جلدك. أن يكون الفارق بينك وبين الخائضين في الفتنة ما قرأته في كتب السلجماسي؛ ورقًا في الخارج تدركه الحواس. لأن ما دون ذلك ليس ملكك، لست تضمنه. أُنجيت من دم أبي الحسن أن طرق رأسه بالجدران، وأبو يحيى، ولي دم عمه الذي نزل عنه اتقاء الفتنة عند الحَمَّة، مات بفتنة أخرى. لكنك لم تنجُ من تلك الفتنة حتى نجست يديك بكفلٍ من دمائها يوم الأبواب، أيغفرها الله لك أنك دفعت عن نفسك من أرادوا قتلك أم يلقيك بها في النار! ليتك عرفت من جندلت يوم الأبواب بدلا من تفريقك الديات على القتلى بالشبهة حتى نفد مالك بين الديات وحمام عرفة. يطرق مليكك رأسه في جدران قمارش من التيه، من العجز والجهل، من إدراكه لقصوره دون عون من الوحي. يجثو على الأرض وقاضي الجماعة يرقيه، والوزير عاجزة كل كتبه أن تجيب سؤله. أخيرًا تلا الملك على عريف اليد كأنه هذيان المحموم:

«وقد جرت بعد ذلك أمورٌ لا أحب ذكرها؛ فلا فائدة ولا عبرة من حكايتها، بل تحار فيها العقول ولا تقر فيها على رأي. يكفيك منها أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والحي لا تؤمن عليه الفتنة.. وإن الناس يُبعثون يوم القيامة على نياتهم.. وما أضيق الحياة لولا فسحة الأمل».

الفصل الحادي عشر

نوفمبر

أنا

ذكر مبايعة أهل غرناطة للسلطان:

ثم حدث أن خرج الزغل من غرناطة يريد بلش، فتغلب السلطان على القصبة القديمة ودخل الحمراء، وقام الناس بدعوته. ولما بلغ ذلك الزغل تحصن بوادي آش واستقر فيها بجنده، وانفرط عقد الأندلس بينهما، وصارت مِزَقًا، ورجع بعض البلاد إلى قوادهم وعلمائهم يدبرون أمورهم من دون سلطان، والعدو يجمع جمعه ويحكم كيده ليستأصل الأندلس، فما بقي منها اليوم إلا غرناطة وجبال بشرة، ولا ندري أيرفع الله عنا البلاء أم يقضي بزوال الإسلام من الجزيرة، والحمد لله على كل حال. كنت في تلك الأيام مقدمًا على قواد السلطان كلهم، ومعي من أنجاد لوشة وأبطالها الكثير، وأقمت في القصبة القديمة أدبر أمرها، وعزفت عن السكن في المدينة، وحُببتْ إليّ العزلة فخلوت بنفسي كلما فرغت من شغل، وأنفقت أيامي كما في عين الصقر ولوشة؛ أركب وأرمي في الميدان بالنهار وأحمل الجند على الشغل وترك البطالة، وأسير على الأسوار أمتحن يقظة الحراس بالليل. عزفت عن مجالس السلطان بالحمراء، ثم قضى الله أن أسكنها بعد ذلك وقد خرجت منها طفلا أميرًا ابن سلطان، ودخلتها قائدًا ابن أبي غسان. دخلتها أول مرة لما طلبني السلطان يومًا فخرجت إليه مضطرًا. أنكرتني جدران الحمراء يومها فلم تعرفني، وأنكرتها فلم أعرفها؛ وكان الخيال قد زاد في عمرانها ونقص حتى إذا عاينتها لم تكن مثل ما قدرت، وإن بقيت على حالها منذ

تركتها. دخلت الحمراء من باب الشريعة حيث جالست أبي يقضي بين الناس، وكان غاية أملي أن ينظر إليّ مثلما ينظر لأبي الحسن. ثم خلال فناء البركة. رفعت طرفي إلى الروشان الذي كنت أطل منه. سمعت همس أمي ورأيت شربيلها، فتبسمت. كان منتهى أملي أن أطل على تلك البركة من الروشان والآن أعود إليها مرة أخرى بعدما طفتُ الجزيرة وعبرت العدوة وكأن كل شيء ينتهي إلى ما بدأ منه. ثم دلفت إلى قمارش، وقد دخلته من قبل يحملني الزغل، جلست مع قواد السلطان في البهو مضطرب الذهن فاقد الحس، فكأن زمنًا لم يمر، والأموات بُعثوا من قبورهم على الصورة التي أحببتها. حتى إذا جنّ علينا الليل صرفنا السلطان من حضرته، وعدت من حيث أتيت بوجه غير الذي دخلت؛ سمعت صليل السيوف، وحوافر خيل المهند، رأيت أبي خلف العمد مختبئًا من جنود أبي الحسن. انقبض صدري يومئذ، فتكفأت الذهاب للحمراء، وكلما طلبني السلطان تعللت إليه بعلل كثيرة، حتى قضى الله أن أسكنها، وأن أكتب إليك منها.

ولعلك يا ولدي تسألني لِمَ آثرت العزلة عن الناس والتزام القصبة، وأنا في غرناطة؛ حاضرة بني الأحمر وكرسي ملكهم، وهي غنية عن كل مدح وذكر في ترفها ونعيمها، ونضارة فحصها وعلو أبراجها، وعتق مساجدها وكثرة جسورها، واستحكام عمرانها وترف سكانها. فاعلم يا بني أني وجدتها والله شرّ دار؛ فأسعارها ومكوسها تُذهب البركة وتقصر الأعمار، وأهلها مشغولون في التنافس في البنيان، والشح على المحتاج والضعيف بالمال، وجفاء الأضياف والزوار، واحتقار أولي الفضل

والعلم، واستحلال الغيبة والنميمة في الأسمار، فلم يسلم منهم أبوك أن تندروا بتائي الألمرية المقلوبة طاء، أو أن يسخروا من هيئتي أن لا أخلع لباس الحرب، وألبس مثلهم الفاخر من الثياب وأجاري الإفرنج في هيئاتهم. وما أهلكهم إلا التنافس في الدنيا والغفلة عن الآخرة، وليتهم رضوا عن دنياهم بل لا يفتؤون يذمونها ويلعنونها! فكأنما نقائص قواد لوشة المحبوسة في مجالسهم، قد فاضت في غرناطة فلم تترك دارًا إلا دخلتها ولا قلبًا إلا أفسدته، وهم أكثر القوم تهممًا بأمر الدولة وأحوال السلطان، وذلك لأنهم دار الملك وكرسيه، فيكثر فيهم العمال والوزراء والكُتّاب والحُجّاب. دكاكينهم متاع للأمراء والقواد والرؤساء، وأسافلهم خدم وموال لكل هؤلاء، ومعايشهم مشدودة إلى الحمراء بالأوتاد، فكلما هزت الحمراءَ ريحٌ وثوب أو حرب أو انتزاء، حال لهم من ذلك حال من رواج أو كساد. ولا يدفعهم ذلك إلى التوكل والاعتبار، بل إلى سوء الظن في الأرزاق والأقدار، والنقب عن المال في كل شبر حلالا كان أم حرامًا، فأنّى لعيشي يطيب بينهم مهما هشت وجوههم واستطال بنيانهم ونضرت جنانهم!

واعلم أنه لم يطب لي عيش مذ رحلتم عني، فلم تسعني ألمرية وحوضها، ولوشة ومالقة ولم تسعني اليوم غرناطة. وقد انقطع ما بيني وبينك بانقطاع العلائق بيني وبين عرفة؛ إذ ارتحل على سفن للجنويين واستقر به الحال في صحبتهم، ثم عوضني الله برسل السلطان إلى العدوة، ومعهم أرسل إليك كتابي هذا. جمعني الله بكم على ما يحب ويرضى.

ذكر سقوط مالقة بيد النصارى:

وبينما نحن على هذا الحال من الشقاق، داهم العدو مالقة وضرب عليها حصاراً لم ير مثله في البر والبحر؛ فدوَّر حول المدينة سوراً من تراب وسوراً من خشب وحفيراً مانعًا، ومنع عليهم الداخل والخارج في البر، ومنع عليهم في البحر بالمراكب من الداخل والخارج، وشد عليهم في الحصار والقتال، وكان على مالقة حامد الثغري، فك الله أسره، وهو يومئذ على طاعة الزغل. وقد راوده طاغية الروم أن يسلم المدينة ويخرج بأهلها دون قتال فأبى، واستنهض أهل مالقة وجند غمارة للقتال، فأبلوا أحسن البلاء، ونصب الأنفاط على الأبراج يضرب بها محلة النصارى، حتى خشي قواد الروم على ملكهم فنكَّروا محلته لئلا تكون علامة للمسلمين، وخرج لهم في كل يوم أنجاد مالقة وفرسانها يناجزونهم في البر، وخرج الرجال في المراكب يغيرون على مراكب الروم، حتى أنه قتل من العدو في يوم اثني عشر ألفًا وسبعماية، وجاء النصارى مددٌ بعده مدد، ولحقت ملكة النصارى بزوجها ومعهم أبطالهم وقوادهم، وتقاطر عليهم الفرسان من سائر بلاد الروم، وأقاموا المصانع لعمل الأنفاط وجلبوا من الآلات والعمال ما لم ير مثله قط، ولولاها يا ولدي ما دخلوا بلدًا ولا فتحوا حصنًا، ولا تظنن ما يقوله البرابر عنا؛ أننا أهل خور وجبن وانغماس في الدنيا، بل والله أهل شدة وبأس ونجدة، تعلمنا المثاقفة وتفويق السهام صبيانًا، وركبنا الخيل على مذهب الإفرنج ومذهب زناتة، وما ناجزنا الروم خيلًا ورجلًا إلا منحنا الله أكتافهم ونصرنا عليهم.

غاية القول أن الحصار طال واشتد القتال، وأهل مالقة صابرون محتسبون لا يظهرون جزعًا ولا هلعًا، ولا يطمعون العدو في شيء مما يرومه منهم حتى نفد ما عندهم من الأطعمة والزاد، وأكلوا ما كان عندهم من المواشي من خيل وبغال وحمير وكلاب، وجلود وورق الشجر وغير ذلك، حتى فنيَ ذلك كله، وأثر فيهم الجوع أثرًا عظيمًا، ومات كثير من نجدة رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقتال، فحينئذ أذعنوا وطلبوا الأمان، فاحتال عليهم الملك أن طلب منهم افتداء أنفسهم بالذهب والفضة وسائر موجودهم، وكان يخشى إن دخل المدينة أن يخربوا ذلك كله أو يخفوه، فلما أخرج أهل المدينة ما عندهم غدر بهم وأسرهم جميعًا واحتوى على جميع أموالهم وفرقهم على أهل خاصته وقواده، وأرسل من صبيانهم غلمانًا لحبر الروم الأعظم فنصَّرهم وكانوا خدمًا له، وفرقت أزابلا جواري المسلمين على نساء الروم من بطانتها، وكان مصابهن مصابًا عظيمًا فإنا لله وإنا إليه راجعون. وسيق حامد الثغري أسيرًا بعدما غلب عليه جند النصارى، وكان في حصن جبل الفارة متحصنًا مع جند غمارة مؤثرًا الموت على صلح الروم. فك الله أسره وفرج كربه، ورد مالقة إلى الإسلام بعزته وقدرته، إنه على كل شيء قدير.

ذكر سقوط بسطة:

ثم إن العدو لما رأى أنَّا لم نحرك ساكنًا وأن الحرب قد أكلتنا وحبست كل بلد أهلَها، سار إلى بسطة بمحلته، فوجد المدينة معمورة بالرجال والخير والعدة والطعام، وعليها الأمير يحيى النيار واليها من قبل الزغل،

فكلما قرب من البلد وأراد قتال المسلمين رجع خائبًا خاسرًا وقتل منه خلقًا كثيرًا، ولم يقدر أن يمنع داخلها وخارجها كما فعل بمالقة، فبقي محاذيًا لها شهورًا، والمسلمون قائمون بالمدينة غالبون عليه، ولم يقدر على نصب نفط ولا عدة من آلة الحرب، فتراخى عنهم، ثم شد عليهم الحصار وعمل على البلد سورًا من خشب وحفيرًا عظيمًا كمالقة، وجعل عليه الرجال والحرس لئلا يدخل عليه من أنجاد الرجال الذين نفروا لنصرة بسطة، فلم يعبأ الناس بما فعل، وصاروا يخرجون من النقب ويهبطون من على الأسوار ويقتلون النصارى في محلتهم وفي كل مسلك يسلكونه، حتى قتلوا منهم خلقًا كثيرًا. وكانوا يحملون المسلمين الواردين عليهم لنصرتهم بما يحتاجون إليه من الطعام، فبقوا على هذه الحالة من شدة الحصار ثلاثة أشهر، وفي آخر تلك المدة تفقد أعيان البلد، أخزاهم الله؛ ما بقي في بلدهم من الطعام وذلك في خفية من العامة، فلم يجدوا إلا ما يقام به أيامًا قلائل، فبعثوا لملك الروم وطلبوا منه الأمان على شروط اشترطوها عليه، فوجدوه راغبًا في ذلك فجعلوا بينهم هدنة والكلام يتردد بينهم في خفية من العامة، فأجابهم بجميع ما طلبوه منه.

فلما هل الشهر الرابع أدخل قواد بسطة جمعًا من النصارى للقصبة على حين غفلة من العامة، فملكوا القصبة وقهروا من كان بالبلد من العامة وغيرهم وسقط في أيديهم، ثم إنهم سرحوا من كان عندهم من أنجاد الرجال والفرسان الذين كانوا عندهم يعينونهم على نصرة عدوهم، فخرجوا مؤمّنين بخيلهم وأسلحتهم وأمتعتهم كما اشترط القواد، فساروا إلى وادي آش لاحقين بالزغل وأخلوا البلد للنصارى، وخرجوا إلى

الأرباض بما معهم من أموالهم وأمتعتهم مؤمَّنين ولم يتركوا شيئًا. ثم إن ملك الروم دمره الله جعل في البلد قائدًا من قواده حاكمًا ورتبه وشحنه بما يحتاج إليه من أطعمة وزاد وآله حرب، وارتحل من مدينة بسطة يريد ألمرية، فلم يمر على حصن ولا على قرية إلا ودخل أهلها في ذمته وتحت طاعته من غير حصار ولا قتال. وقد رأى كل بلد ما آلت إليه حال سابقه، فنُصر الروم بالرعب وجبن الأعيان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر بيعة الزغل لملك الروم ودخوله في طاعته:

خرج الأمير يحيى ومن معه من بسطة آمنين على أنفسهم وأولادهم، وقد حمَّلته ملكة قشتالة بالنفائس وارتحل من عندها فرحًا مسرورًا، ولما بلغ وادي آش أقبل على الزغل وخوَّفه من عاقبة قتال النصارى، وذكر له مطاولتهم الحصار شهورًا وإنفاقهم في سبيل ذلك واستماتتهم في القتال، وذكَّره بطالعه المشئوم وأن غرناطة لا ريب واقعة بأيديهم، فخرج الزغل لقواده وأظهر لهم الحزن والخشوع، وأمرهم باتباعه والدخول في طاعة الملك امتثالا لقضاء الله وقدره! ثم خرج إلى ملك النصارى عند ظاهر ألمرية بالبشر والحبور، وتلقاه كما يتلقى المولى سيده، وأدخله ألمرية دون قتال، فقبض الملك تلك البلاد جميعها من ألمرية حتى المنكب ومن المنكب إلى قرية البذول، قبض ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نصب. وجعل في كل قصبة مع أولئك المرتدين قائدًا من النصارى ومعه جمع منهم يحكمون في ذلك الموضع. وقد بلغني أنهم باعوه تلك البلاد كلها وقبضوا ثمنها حسدًا وانتقامًا من السلطان؛ إذ آيسوا من ذهاب ملكه، وجبنوا عن قتال النصارى، وكانوا من قبل يتهمون السلطان

بمهادنة النصارى وممالأتهم لتطويع بلاد الأندلس، فأذهب الحسد دينهم ودنياهم، وأتوا ماكانوا ينهون عنه، فتأمل!

وقد خلصت حينئذ جميع بلاد الأندلس لملك قشتالة وتدجَّن أهلها ولم يبق لنا يومئذ في الأندلس إلا مدينة غرناطة والقرى حولها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر مسير ملك الروم إلى غرناطة:

فلما صارت هذه البلاد كلها تحت ذمة العدو، ولم يبق إلا غرناطة التي هي في صلحه، ورأى أن الإسلام قد دثرَ من بلاد الأندلس، وقع طمعه ونقض ما كان بينه وبين السلطان من صلح، فأخذ برج ملاحة غرناطة وبرج همدان، وكانا برجين كبيرين حصينين فزادهما تحصينًا وتمنيعًا، وشحنهما بالرجال وما يحتاج إليه من آلة الحرب ليضيق علينا. ثم أرسل بعد ذلك للسلطان أن يعطيه الحمراء وما قطع الوادي لجهة الحمراء من غرناطة، ويترك للسلطان سائر البلد والدخول في ذمته كما دخلها سائر الأندلس، فدعا السلطان وزيره ابن كماشة والقائد أبا القاسم وسائر قواده، ودعا قاضي الجماعة ابن سراج. ووفد على الحمراء وجوه البلد والتجار والعلماء، عرض عليهم السلطان مراد طاغية النصارى ومطلبه، فأسقط في يد الجميع يومئذ وزاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر، وقد بلغ الجمع ما جرى لمالقة وبسطة وسائر البلاد، فجلسوا كأن على رؤوسهم الطير، والسلطان ينتظر أن يشير عليه أحد بما يصنع، فقمت إليه من مجلسي يومئذ وبايعته على مدافعة النصارى أو الموت دون ذلك،

---

(١) طائفة عظيمة من الخيالة والجيش.

فانفرجت أساريره وتهلل وجهه، وعلم الجمع أن ذلك مراد السلطان من الجمع فبسطوا أيديهم إليه بالبيعة على الموت. ثم إن السلطان كتم أمره واستعمل الحيلة ونزل على رأي ابن كماشة أن بعث لطاغية النصارى يمنّيه ويعده بتملُّك البلد، فخرج إليه طاغية النصارى مسرورًا بمحلته ولم يعد عدة الحرب، وصحبته النساء والصبيان بغرض النزهة، ولم يظن في غرناطة مقاتلا أو مدافعًا. ولما بلغه ما أجمع عليه القوم ساءه ذلك، فعاد وجمع جمعه وجيوشه ونزل بمرج غرناطة يقطع الطرق ويفسد الزرع وغيره، ومعه جمع من المرتدين يدلونه على عورات المسلمين ويحرضونه على قتالهم. فخرجت إليه يومئذ مع فرسان لوشة وغيرهم من أنجاد البلد وفي إثرنا رابط السلطان مع خاصته ومماليكه عند ظاهر البلد، وجرت بيننا وبين العدو وقائع كثيرة نصرنا الله عليهم فيها، وكلما أراد الدنو من المدينة أرجعناه على أعقابه خاسرًا. وكنت في تلك الأيام قد فطنت لمنافع الركوب على مذهب الإفرنج وإسباغ الدروع على الفارس والفرس، وأثر ذلك في الحملة على رجالة العدو وكراديسه[1]؛ إذ أن الركوب على مذهب زناتة لا ينال إلا من أطراف تلك الكراديس بعد كر وفر، فارتأيت أن نجمع بين المذهبين كما يفعل العدو، فصنع لي الصناع درعًا أسود وبيضة على مثاله، وكذا لفرسي، وكنت أركب ثلاثة أفراس يومئذ ولا أجعل غاريًا إلا للركوب داخل البلد، وتبعني على ذلك بعض قواد غرناطة، وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين يومئذ من هيئتنا، وطال بيننا وبينهم النزال، حتى حدثت في قشتالة حوادث للملك، فاضطر أن يقوض محلته ويرفع الحصار عن غرناطة ويعود إلى بلده بعدما شحن برج

---

(١) طائفة عظيمة من الخيالة والجيش.

همدان بالمرتدين من أهل القرى وأشتات من النصارى، فوقانا الله شر هذا البلاء وجزانا بما صبرنا، وعمت الأفراح المدينة ومُدت الموائد في طول غرناطة وعرضها، وخرج أهل القرى يصلحون زرعهم ويجمعون ثمرهم مما لم يسعف العدو إفساده، ثم أشرت على السلطان أن نخرج للغزو قبل أن يرجع العدو، فأجابني إلى طلبي وكان أول خروجنا إلى قرية البذول.

ذكر دخولنا قرية البذول وقرى البشرة:

خرجنا إلى قرية البذول ولم يبق فيها إلا جماعة من المرتدين، فدخلت تلك الناحية كلها في ذمتنا دون حرب ولا قتال، كما دخلت من قبل في ذمة النصارى، ثم أرسل إلينا أهل البشرة أن نقدم عليهم ليبايعوا السلطان ويدخلوا في طاعته، فسرنا إليهم ونزلنا على قرية الأنجرون، فانجلى أمامنا النصارى ومن معهم من المرتدين ولحقوا بالزغل في حصن أندرش، وبقينا أيامًا في الأنجرون نرتب أمورها فكانت فسحة لنا حتى نجمع جمعنا لطلب العدو. والحق أنه لم يطب لي المقام من بعد لوشة إلا تلك الأيام التي لبثتها في الأنجرون، أنفقتها في ركوب غارب بين مسالكها الوعرة، وكأن منازلها قُدت من الصخر، بيض طبقات بعضها فوق بعض كأنما نبتت من الجبل، وقد حملت بعضها على أكتاف الصخر، ولم تضرب في الأرض ليمر الناس من تحتها، والمسالك بينها ضيقة متعرجة كمسالك لوشة، كثيرة المعابر والفوهات، وماؤها زلال يشفي العليل يقصده أصحاب الأوجاع والأسقام. وأكثر غرسها الزيتون والنارنج والليم، ولهم في الفلاحة طرائق عجيبة صالحة لفلاحة الجبال كأن مزارعهم مصاطب، وأهلها أعراب أولو استطالة، وإن كان بغيهم

بينهم كثيرًا لا يسلم منه أصحاب الزرع وضعفاء القوم وهم طعمة لأصحاب البطالة والسيف منهم، إلا أنهم أصحاب نجدة وحمية، ولما نزلنا عليهم ضيفونا على رقة حالهم وضيق معاشهم، بل جهزونا للمسير إلى أندرش وقدموا بين أيديهم أموالهم وحلي نسائهم، ولازالت غرناطة إلى اليوم تمتار منهم رغم أنف النصارى، ومازالوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وإني أرى عز الإسلام فيهم باقيًا لا ينقطع، وإنهم لمن الطائفة المرابطة الظاهرة على الكفار لا يضرهم من خذلهم أبدًا. وقد ألقى الله في قلوب النصارى والمرتدين الرعب، فما أن سمعوا بقدومنا حتى فروا من أندرش إلى المرية واسترجعنا كل تلك الجهات من غير حصار ولا قتال، وعدنا بعد ذلك إلى غرناطة مكبرين مهللين حامدين الله على نصره العظيم وفتحه المبين.

ذكر دخولنا برج همدان:

ثم استقر لنا أن ملك النصارى مشغول بحوادث بلاده، وقد خلى بيننا وبين أحلافه من المرتدين وشراذم عسكره المرابطين معهم، فنادى المنادي من بعد صلاة الجمعة أن السلطان سيسير إلى برج همدان، وأخرجنا العدة وآلة الحرب، وكان بقي بها بعض فرسان النصارى، والمرتدون من أهل القرية، وقد بنوا حول برجها سورًا عظيمًا منيعًا بأنواع من بناء الحرب وخدعه، وحصنوا برجها تحصينًا عظيمًا وشحنوه بكثير من الأطعمة وآلة الحرب ليظهر لمن رآه أن لا طاقة لأحد بأخذه لما يراه من تشييد بنائه وتحصينه، فخرجنا إليهم مع السلطان وجئنا بأهل الصنائع ومن لهم دراية بالنقب تحت الأسوار وقدمناهم على كل جماعة من الجند، فنقبت كل

جماعة نقبًا في الحزام الأول، ثم الحزام الثاني والثالث، وكنت مُسبغًا عليّ دروعي فلم يصبني شيء من سهام العدو، وتذكرت يومئذ وقعة الجبلين في أحواز قبرة، وعجبت لهدأتي والسهام تمرق من حولي وتنكسر على دروعي، فلم أجزع من الموت وقد قضى بين يدي خلق كثير، وكأن الوقعة تلو الوقعة تؤلف قلب الإنسان على الموت فلا ينكر صحبته، أو كأن استحالة وصلك لم تُبقِ لي ما أخشى الموت لأجله، بيد أن رمي العدو الردي أبقاني حتى أكتب إليك تلك الورقات، وأسأل من الله وصلك قبل الممات، إنه على كل شيء قدير.

غاية القول أنَّا بلغنا البرج والعدو متحصن به، فنقب فيه الجنود حتى خاف العدو أن يهوي بهم، فخرجوا للأسر طلبًا للأمان، فأسرنا منهم خلقًا كثيرًا، ودمرنا البرج وما بقي من الأسوار، وعدنا من بعد إلى غرناطة مستبشرين بنصر الله وفرجه.

ذكر رحيل الزغل إلى وهران:

وجرت بيننا وبين الزغل وجنده من الوقائع ما يصعب على الحصر، ويخرج تفصيلها عن القصد، وقد شهدت فيها من عجائب صنع الله وتأييده لنا ما كنت أقرؤه في كتب الصالحين، فكنت أرى أنجاد العدو صرعى قبل أن يبدر إليهم أحد، ونُصرنا بالرعب على قلة العدة والعدد، وصارت القرى تفيء إلى الإسلام فيْء الخراف الضالة إلى راعيها، حتى زهد طاغية الروم في الزغل وأصحابه، وجوَّزهم إلى وهران أذلةً صاغرين تشيعهم لعنات المؤمنين، فهم والله سفلة السفلة؛ باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، فلا ملكًا أقاموا ولا آخرة عمروا.

ثم ارتأى السلطان أن يهجر أهل القرى المخوفة منازلهم ويحملوا متاعهم وثمارهم إلى غرناطة ليكونوا في منعة من العدو، ويقطعوا عنه خدمتهم وعمارتهم، لكن النصارى دمرهم الله خادعوا أهل القرى بالكلام ومنّوهم ووعدوهم أن يكرموا من عاد إلى بلده ويبقوا لهم العهود والمواثيق التي قطع لهم من قبل؛ أن يكون للنصارى القصبة والملك ويكون للمسلمين سائر البلد لا يداخلهم فيها أحد على أن يرضوا بالدجن والعيش تحت سلطان الروم، فرجع إليهم خلق كثير ودخلوا في ذمتهم. والحق أن أولئك القوم شر من البهائم السائمة؛ فلا هم عرفوا معروفًا ولا أنكروا منكراً، فلم يجاهدوا النصارى ويدفعوا الذلة عن أنفسهم، ولم يرتدوا ويقاتلوا معهم المسلمين، فكأنما أخلدوا إلى الأرض والزرع والضرع وعبدوهم، ولم يرضوا عنهم بديلا، إن كانوا تحت سلطان الإسلام بايعوا، وإن كانوا تحت سلطان الكفر أطاعوا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر رجوع طاغية النصارى إلى غرناطة وحصارها:

رجع ملك قشتالة إلى غرناطة بجيوشه وهدم القرى حولها، وحارب أبراج القرى وشدد فيالحصار وأفسد الزرع، وجرت بيننا وبينه الوقائع الكثيرة حتى فشت فينا وفيهم الجراحات وهلك أكثر خيلنا، وانجلى قوم كثير إلى البشرة والطريق إليه سالك معبد على جبل شلير تأتي منه الميرة من قمح وشعير وذرة، حتى أقبل شهر نونمبر ونزل الثلج على الجبل وقطع الطريق، وأحيط بنا ولسنا ندري ما يفعل الله بنا في هذه الأيام. وقد سكنت الحمراء منذ نزل النصارى بمرج غرناطة،

أغشى مجلس السلطان بالنهار، وأجمع الفرسان لنغير على النصارى بالليل ونعرض في الطرقات لدوابهم وغنمهم ونفتك بمن شذ من رجالهم. ومازلنا على أمر الله صابرين مرابطين، نسأله من فضله العظيم، أن ينصر هذه الأمة الغريبة المقطوعة عن ديار المسلمين، كالمضغة بين لحيي أسد هصور، وإن كان قصرت عنا دولة بني وطاس ومماليك مصر وسلطان الترك، فإن أملنا فيما عند الله لا يخيب، هو نعم المولى ونعم النصير.

***

خاتمة الكتاب

وبعد يا ولدي فهذا كتابي إليك قصصت عليك طرفًا من أخباري كما طلبت، وإنْ بَعُدَ الزمان بين الطلب ووفائه، فاغفر لي غفلتي بشواغل الأيام، واغفر لي هذري في أوله، وعجلي في آخره، ويكأنه العمر نبدره بالسذاجة وطول الأمل فيملي لنا كأننا نعيش أبدًا، ثم نقنط منه حتى نوقن بدنو الأجل، فنعجل كأن الموت يأتينا من غد. حسبي أني صورت لك نفسي كأنما صحبتك، وأني ألازمك في تلك الأوراق ما عشت أبدًا. وإنك لتأتيني في المنام في كل يوم على صورتي صبيًا تجالسني وتؤنس وحشة الأيام، ولا يغرنك ما ذكرته لك من منزلتي أني استغنيت بنعيمها عن ذكركم. يعلم الله أني لم أنل من هذه الدنيا إلا أيامًا جلستُ فيها على حجر أمي، وأخرى جلستَ فيها على حجري، ولو أن لي أن أستقبل من أمري شيئًا مما استدبرت ما خليتك وأمك أبدًا، وما لبثت من بعدكم إلا في حسد وغمط من أهل المرية وقواد لوشة ورؤوس غرناطة حتى أكل الهم قلبي كما يأكل الملح، وإني أوصيك بأمك فلا تقطعها ولا ترفع امرأتك عليها، وإذا عشت جزتُ إليكم العدوة وأصلحت ما أفسده خطلي وكبر نفسي، وإذا قضى الله أمرًا فلا تنسني وأمي من دعائك، وإذا كشف الله الغمة ورد الأندلس إلى الإسلام فزر قبري إذا علمته وقبر أبي وأمي بالحوض، وقص على أبنائك خبري، وأنشئهم أنهم أمراء من بني الأحمر وأنجاد من أبناء أبي غسان. لله الأمر من قبل ومن بعد، له الحمد وله الملك، لا غالب إلا هو، وهو على كل شيء قدير.

هو

احتشدت النجوم جيوشًا مجندة حول العقرب المتوج بإكليله؛ رمقهم جبل شلير من أسفل وبرنسه الثلجي يُنسج بتؤدة، ثلاثة نجوم كالأثافي نزل بهن القمر. يزينّ تاج الملك المنفرد في السماء، غير بعيد ينبض قلب الملك الأحمر، يخفق اضطرابًا من قادم الأيام. أحس شلير بخوف الملك، بخواطر النجوم المدججة بنورها ونارها في تلك الظلمة القاتمة، متأهبة حول الملك رهن إشارته؛ هو فحلهم الذي يقدمهم في المعارك، فيحاربون على صورته ويخشون غضبته ونقمته، وهي أنثاهم التي تبرجت الليلة بالقمر، عنها يذودون كما يذود الفحل عن أنثاه، يتهافتون على رضاها، كما تهتاج الفحول مرة أخيرة قبل إقبال الشتاء. أيكون الملك ذكرًا أم أنثى؟ أم جنسًا سما أو هوى، فجمع بين الاثنين؟ عجبًا! ماله، شلير، يأمر الإناث والفحول وهو عجوز هرم، وحيد جنسه. . ترى ما كان يجري للأرض إذا تناسلت الجبال؟ ضحك شلير لخاطرته العجيبة تلك حتى دمعت عيناه، وجرت تلك الدموع الباردة في نهر حدرة تحته. ثم حول بصره إلى الأرض، وماجت صخوره في بعضها قلقًا؛ لأول مرة منذ زمن بعيد شعر أن حدثًا عجيبًا على وشك الوقوع، كاد يتلقى الحوادث الأخيرة سأمًا كما تلقى سابقاتها؛ انتزاء أمير وغارة رومي ووثوب سلطان على سلطان. بيد أنه تلك الأيام شعر بغير ذلك، لأول مرة يسري البشر في عروقه على تلك الصورة جيئة وذهابًا كأنما دهمهم خطب جلل. نقلت إليه

أشجار الصخور همس الراحلين المودعين ودموعهم، نظراتهم الأخيرة على المدينة وزفـراتهم. زلزله أن بني آدم رأوا من عليـه مـا يهـيج خواطرهم، وهو الذي سئم تلك المدينة وأخبارها، بل تمنى أن يطل على غيرها. ما الذي رأوه من عليه غير ما رآه وألفه؟ مساكين هؤلاء البشر، فانون مثله، غير أن أجلهم أقرب، يدهشون لكل حادثة حتى إذا سئموا، بلغوا أرذل العمر وقبروا. أما هو فامتد به العمر وترسخت جذوره في الأرض تدور عليه الفصول والقمر في منازله، وبرنسه الأبيض يُنسج ثم ينسل. وإذا دهش مرة ما بين بضعة قرون وأختها، كتلك الأيام؛ لا يلبث أن يعتاد ويسأم من جديد.

***

وقف الحمَّالون والصناع من أهل غرناطة عند باب الرملة. أمامهم كل جمل جادَ به أهل غرناطة رغبًا ورهبًا من القائد موسى. في البدء لم يلحظوه وهو يقدم الآتين من لوشة، ملؤوا الدكاكين والطرقات يستجدون القوت وكراء الدور، لا يمتاز أحد عن أخيه في رقة الحال وهزال الجسم، يترك القوم منهم بلدهم إذا حضرها النصارى، ويتركون لهم المال والمتاع، ثم يرحلون إلى غرناطة يقتسمون الزاد والدار بحق الأخوة! من لغرناطة الآن إذ حضرها النصارى؟ مقطوعون اليوم عن كل أحد إلا طريقا جمَّده البرد في أحضان الجبل. ياللؤم أهل لوشة وجحودهم! لم يرعوا أياديَ أهل غرناطة عليهم حتى خاضوا مع بادية البيازين في الفتنة وانتصروا للسلطان على عمه الزغل. وياللؤم الزغل!

بالأمس كان يحرضهم على قتال ابن أخيه، أهدر دمه ورماه بالخضوع للنصارى، ثم هو يدخل في طاعتهم ويقاتل معهم، ولما هُزم وشُتت جمعه، طرده ملك الروم إلى وهران من خدمته ملعونًا مدحوراً. ويااللؤم تلك الأيام! كان الرجل يصبح على غير ما يمسي، يستحل قتال جاره، ثم يجيره، واليوم لما يتبين الحق من الباطل لا يقدرون على شيء. أقبل القائد موسى على فرسه من بعيد وحوله فرسانه، عليهم دروع سود سترتهم وجيادهم. شتان ما بين ذاك الفارس المتهادي إليهم كأنما الدنيا طوع أمره، وذاك الهزيل السقيم أيام الفتنة؛ يروي رجل أنه رآه يجري كالمجنون يوم وقعة الأبواب، وآخر رآه يسير بالمخافة بين البيوت أن يعرفه أحد. بل أقسم رجلٌ أنه واطأ الزغل على أميره وزعم اعتزال الفتنة لينقص من قوته. إلا أن انتصار السلطان على عمه جعله يهرع إليه ويبايعه ويشتد في خدمته، حتى أنه لم يبرح القصبة التي ولاه إياها وشدد في أمر الجند حتى شطّ، وطغى عليهم حتى صاروا يخشون الحديث عنه في غيبته! واليوم صارت غرناطة كلها ميدانه وقصبته، يختار من مؤونتها وذخائرها ما يشاء لتأكله الحرب، وأهلها جنده لا يتخلف عن أمره أحد. يبغضه التجار، ويحسده القواد، ويتشبه به الصبيان، وتتغنى بسيرته النسوان، وتسمي ذكورها على اسمه. بالأمس كانوا يجودون بكل ما يطلب عن طيب خاطر؛ ينفرون في كل غزوة وغزوة، ثم يعودون ظافرين. ينسيهم الظفر نقص القوت وبرد الشتاء ومرارة الموت. لكل فقد ساعة الظفر عزاء، لكن اليوم قتال بلا أمل.. بلا رجاء. كل قوت يُخشى عليه النفاد حتى في البطون، وكل حي يُخشى عليه من الموت، وكل نار يُخشى عليها أن

تخبو مهما دفنت الأجساد. بالأمس كانوا يلبون نفيره لا يتخلف عنه أحد، واليوم يقدِمون رجِلا ويؤخرون أخرى. لماذا يفقد المرء ماله وروحه ومآل غرناطة مآل بسطة مهما طال الأمد؟ لما نزل النصارى أول مرة بالفحص وجمع السلطان الأعيان، تجمع الناس في الطرقات والأسواق ونفوسهم تغلي كالمراجل؛ خشوا أن يسلم السلطان مدينتهم ويدخل في طاعة النصارى كعمه. قالوا فيه وفي وزيره ابن كماشة كلامًا قبيحًا وأضمروا خلعه إذا رأى مسالمة النصارى، ثم ندموا لما بلغهم عزم السلطان على الجهاد. جابوا شوارع المدينة يكبرون ويهللون وفرغت بيوت اللهو والسكر من زوارها، ومُلئت المساجد عن آخرها وتحلق الناس عقب كل صلاة بالذكر والتكبير. دهشوا لما رأوا رماحهم تخرق دروع النصارى، وسيوفهم تطير الرؤوس وتشجها. كان يقدمهم يومئذ القائد موسى بدرعه الأسود يغمس نفسه في العدو كأنما يخوض في النهر، ثم يفر عنهم ظافرًا لا يصيبه شيء، يكر ويفر لا يلوي على شيء، ولا ينظر إلى أحد يرتجي منه الثناء، وإذا خاف عليه أحد من رمي العدو، قال عميان رميهم ردي! ثم تولى طاغية النصارى عنهم آيسًا، فظنوا السيئات قد ذهب إلى غير رجعة. طافوا بالسلطان في الطرقات وأسرجوا غرناطة كلها من باب الرملة إلى باب البيازين، ولما أصبحوا نفرهم القائد للجهاد، وقد خلى العدو بينهم وبين المرتدين من بني جلدتهم وأشتات من جند الروم لم يشق على أهل غرناطة هزيمتهم. ثم ماذا بعد؟ ها قد عاد النصارى اليوم وأكل الناس أحشاءهم، وخلت المساجد كما خلت بيوت اللهو؛ كل في الدور يحسب قطاعه ويضم إليه عياله. ترجل الفارس

الأسود أمام القوم، نزع خوذته وبانت علامات السهر على وجهه، لا ينام ولا يترك أحدًا ينام. شد على أيديهم بيده حتى كاد يخلعها، ثم رمق الجمال وشرد بذهنه. تعلموا من سابق الأيام ألا يبدروه بالسؤال عن خططه. كان كل مرة يثير عجبهم بحيله، ظنوه شيطانًا أو يوحي إليه شيطان، حتى رُوي لهم أنه تعلم حيل الحرب من أستاذه المصري؛ مولى الزغل على الأغزاز الذي تركه ورحل إلى فاس. في كل مرة كانوا ينتظرون حيلته الجديدة، يركنون إلى عقله وينامون ملء الجفون. أما اليوم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وبلغت قلوبهم الحناجر، وأيقنوا الهلاك، فما عادوا يرونه إلا صبيًا يلهو، رجلا عزبًا مقطوعًا لا يخشى على مال ولا ولد. كتم الحمَّالون والصناع خواطرهم تلك في قلوبهم والقائد الأسود ينظر إلى الجمال بعينين متقدتين. تفكَّر موسى: كم تراخى الملكان الروميان في حزمهما، يظنان المدينة قد سلمت ليذهبا بمحلتهما إلى قرية الزبية ليطلعوا إلى المدينة. كأنهما في نزهة في الفحص! لا بأس، سيعلمون جيدًا من صاحب النزهة. كان ينتظر تلك الفرصة؛ سيَّر السرية تلو السرية وبث العيون في معسكرهما عله يصل إليهما ويقتلهما، فينشغل القوم بأمرهم ويرحلون، اليوم جاؤوه لقمة سائغة للآكلين. لكن أين السبيل لتشتيت شمل رجالتهم الرامحة ودروعهم السابغة؟ نظر إلى الجمال مرة أخرى. انحنى ليقبض قبضة من الأرض، ثم بسط كفه لتحمل الريح التراب تجاه عدوه. عندها قال في نفسه ظافرًا: «لقد خبأت للروم خبئًا!».

عبث الريح بشعر الملك فرناندو المنسدل من تحت قبعته السوداء، داعب وجهه الحليق حتى سرى فيه الخدر. دوى صوت الريح في ذلك البرج المهجور المحروق في قرية الزبية. أُعد فراش فاخر على عجل للملكين في البرج. بدا غريبًا وسط الجدران المحترقة والهدم الذي ملأ الأرض. وقف الملك أمام شرفة البرج وقد رفرفت حرملته الحمراء في الهواء. ارتدت الريح عن الدروع التي غطت صدره وذراعيه وشعر بالبرد يسري في ساقيه الملتصقتين بسرواله الأبيض الضيق وسيفه المدلى من حزامه على رجله اليسرى استحال نصلا من البَرَد. تأمل الأسوار الحمراء في ضوء الشمس المتأهبة للغروب: «غرناطة.. أيتها الرمانة الحامضة.. سأفرط حباتك بيدي، حبة حبة». اعتصر الملك الأربعيني بيمناه ذلك الصليب الكبير المرصع بالياقوت المتدلي على صدره وطقطقت كسرة فخار، كانت يومًا ما آنية، تحت قدمه المغروسة في الأرض. ضغطت إيزابيلا على يسراه مؤمنة على كلامه والريح تموج غطاء رأسها الحريري الأبيض المثبت بالتاج الذهبي. ضجرت من دروعها الحديدية التي جالت بها النهار كله، فارتدت رداءها الأحمر الطويل المزين بالصلبان المكنونة في دوائر بندقية. نظر إليهم الفرسان حولهم كما ينظرون إلى أيقونات القديسين. إيزابيلا؛ الملكة القديسة التقية التي باعت جواهر تاجها لتجار برشلونة لتنفق على حصار بسطة، وفرناندو الأراجوني؛ الفارس الذي يلقي بنفسه في الصفوف الأولى، فيلحقه جنوده إلى المجد ومن فوقهم سانتياجو ممطيًا السحاب يرسل رعوده على الكفار. كأن أرض إسبانيا الطيبة الحنون قد أنبتت أخيرًا هذين الزوجين لينهيا رحلة الاسترداد

الطويلة. تمخط فرناندو في منديله مفسدًا جلال المشهد. التفت إلى ماركيز قادش الأشيب الوقور، وسأله بضجر: «ما أخبار أبي القاسم وابن كماشة؟ هل ألانا رأس الشيكو أم مازال منساقًا خلف قائده الأسود؟».

- «يعدان بوقف غارات القائد الأسود، وإقناع ملكهم بالمجيء إلينا الليلة للكلام، لكنهما مازالا يتفاوضان معه على الثمن يا مولاي؟».

- «ثمن! أي ثمن؟» صاح الملك غاضبًا، لملم حرملته بيمناه ودار حول نفسه غاضبًا. «وعد بخمسمائة ألف مرابطي وعشرة آلاف ريال، وفي الليل.. في غرفة مظلمة كهذه جثا أمير بسطة عند ركبتي ليتلقى التعميد المقدس، ثم خرج ليلعنني على منابر بسطة في النهار حتى تم الفتح. خسرنا آلاف الرجال وشهورًا من الحصار حتى يحفظ الأمير يحيى ماء وجهه! واليوم أكثر من ستة أشهر لأجل كبرياء الملك!».

ابتلع ماركيز قادش لسانه ولم يقدر على محاجة الملك. عند كل مدينة حاصروها أتاهم تجار وقواد وأمراء. بعضهم تنصَّروا سرًا وبعضهم أبدوا الطاعة وباتوا لديهم في الليل يعدون ويمنون. ثم يعتذرون ويتحججون برعاعهم. لا يحرصون على نفوذهم ويحرصون على ذكرهم! أي قوم هؤلاء؟

وحده حامد الثغري لم يأت إليهم وآثر القتال، فجعلوه عبرة في أغلاله إلى اليوم. والآن يأتي القائد الأسود ليفسد عليهم تدبيرهم. يبث في أهل غرناطة أملا كاذبًا أنهم يقدرون على شيء. تململ الملك وذرع

الغرفة جيئةً وذهابًا، نظر إلى لحية ماركيز قادش المشيبة في نظرة تجمع بين الغضب وخيبة الأمل، بينما توسطت إيزابيلا شرفة البرج تاركة لزوجها المشهد برمته يستجوب النبلاء عن أعمال الحرب، ويغمغم بكلمات غامضة لا يتبينون منها شيئًا، تبقيهم في منزلة بين الخوف والرجاء، تثير أحقادهم والتنافس بينهم دون أن تقطع بانحياز الملك لأي منهم. ملأت الملكة عينيها بغرناطة الآفلة وخلفها وصيفاتها صامتات كسيدتهن. تناهى إلى مسامعها صوت الجنود يهدمون بفؤوسهم أسوار الزبية وما تبقى من بيوتها، بضعة مئات من السواعد المفتولة في كل قرية دخلوها، وفي نفس اللحظة، ينثرون الأحجار تحت وقع ضرباتهم، وآخرون يحملون ما تهدم على العجل ليجعلوه في مدينتهم الجديدة شنتفي؛ الإيمان المقدس. المدينة الوحيدة التي لم يدنسها المور أبدًا. أي دولة تلك التي شادها الملكان؛ كل هؤلاء فلاحون وصناع يدينون بالولاء للعرش وحده من دون كونت أو ماركيز أو أسقف، يقطعون أشجار الغابات ويصنعون منها أسوارًا تحاصر مدنًا بأكملها، يحفرون خنادق تحف تلك الأرض الواسعة. واليوم يخلقون مدينة جديدة من العدم تؤوي جيشهم من المبيت الطويل في العراء. وفوق هذا الجيش من الجنود جيوش من الكُتّاب والحُسَّاب والحُجّاب والنُظّار يحصون حبات القمح في سنبله، وقطرات المطر المحبوسة في السحاب. كأنهم ملائكة الرب في السماوات. لم يسبق لجيش أن امتلك كل هذا العزم والصبر في حرب عدوه. إن هذه الحرب الطاحنة المقدسة خلقت مملكة جديدة وأمة جديدة لم يسبق لها مثيل في النظام والتدبير، لا يدري أحد إلى أي مجد ستصل تحت راية

سانتياجو الجليقي قديس إسبانيا وحاميها. لن تعود هذه الأمة إلى الفوضى التي عاشتها أيام إنريكي، أشتاتًا ممزقة بين قلاع النبلاء وقطاع الطرق وأساقفة يدينون بالولاء للبابا في روما أو لعدوهم ملك فرنسا. كلهم الآن يطيعون أمرها كهؤلاء الجنود، لا يجرؤ أحد منهم على مخالفة إرادة العرش في تلك الحرب المقدسة. على تلك الحرب إذن أن تستمر إلى الأبد. إلى غرناطة وما بعدها، إلى تلك البحار البعيدة، أيصدق المغامر الجنوي في زعمه؟ تراه إيزابيلا مجنونًا لكن فرناندو يثق به. كولومبس؛ البحار، من دراويش ماركو بولو، صدق كولومبس أسفار الرحالة البندقي الذي سلك طريق الحرير وقابل خان الصين الأعظم. جاءهم كولومبس زاعمًا استطاعته عبور بحر الظلمات دائرًا حول الأرض، وهناك سيصل إلى الخان الأعظم المؤمن بالمسيح والذي عمل في خدمته ماركو بولو، سيحالفه ويحارب البرابرة أتباع ماهوند[1]، سيعود إليهم محملا بمثاقيل الذهب ليفتحوا أورشليم ويبنوا ضريح المسيح فوق جبل صهيون. منذ بضعة سنوات لجأ كولومبس هذا إلى بلاطهم مُلِحًّا ومحاججًا، ارتمى تحت عروش أوروبا كلها حتى انتهى به المطاف إليهم. أيصدق الجنوي في زعمه وتستمر الحرب أبدًا لئلا تعود البلاد لما كانت عليه، لئلا تصير كالمور فتحتِّم فناءهم إلى غير رجعة، تأفل شمس دولتهم كأفول تلك الشمس. قضت الملكة وطرًا من التأمل، ارتأت بغيرة أن فرناندو قد حاز ما يكفي من الاهتمام وحان دورها. سعلت إيزابيلا فجأة ووضعت يدها على صدرها، ثم رجعت خطوتين إلى الوراء. هرع إليها

(١) اسم للذم، استُخدمه الأوروبيون في القرون الوسطى لذم النبي ﷺ.

فرناندو قاطعًا كلامه، وتحلّق حولها النبلاء. تصنعت الدهشة من اهتمامهم المفاجئ بها، ثم أسبلت عينيها وأجلستها الوصيفات متثاقلة على متكئها. منذ حربها مع إنريكي ومعاشرتها الرجال وحيدة لشهور طويلة، تعلمت كيف تستعيض عن الجمال بقوة الوهن، فتغوي الرجال وتجعل إرادتهم تحت قدميها؛ العجائز تدغدغ فيهم مشاعر الأبوة، وفي الكهول فضيلةَ الولاء في الشدة، وفي الشباب حب نظرة الإعجاب من الأنثى؛ إيزابيلا التقية الورعة، معتقة كالخمر لم تمسها الماء إلا يوم الزفاف. تكحل عينيها بالسهر على أحوال الرعية. تمشي متثاقلة بدروعها الحديدية وسط الجنود تلهب عزيمتهم بوهنها وضعفها. وأي رجل لا يرق إذا رأى تلك الملكة العظيمة تقاسمهم أحزانهم ومشاقهم، وهي التي تحكمهم بإرادة مقدسة تكفل لها العيش أبدًا في الحرير. يوم اقترف قريب فرناندو جرمًا وخشي النبلاءُ من مقاومته العقاب، ذهبت إليه وحدها على جوادها في ليلة مطيرة فتخفى منها مذهولا من جرأتها، عادت طريحة الفراش من المرض تهذي بوجوب القصاص من الظالم مهما كان نبيلًا. هاج النبلاء وماجوا حتى أبو المجرم انحاز إليها ونفذت إرادتها فبرئتْ من علتها! دوت صرخات فجأة مفسدة على الملكة لحظات الاهتمام، انتفضت من جلستها ناسية ضعفها الزائف، وهرع الملك والنبلاء إلى شرفة البرج. من بعيد ظهرت أشباح قادمة من أسوار غرناطة باتجاههم في الزبية، غارة جديدة للقائد الأسوَد عند الزوال، لكن بغيته ليست سرية منعزلة، أو أغنامًا ترعى، بل هم الآن بغيته. لم يكن عليهم الركون إلى كلام ابن كماشة وأبي القاسم إذن! انعقد وجه فرناندو والتف

حول نفسه ميممًا وجهه للخروج من البرج شاهرًا سيفه في قوس واسع، وبخطوات دقيقة محسوبة بما يكفي ليمسك بذراعه ماركيز قادش مشفقًا: «لا تخرج إليهم يا مولاي أرجوك! نحن نكفيك هؤلاء البرابرة»، همَّ فرناندو بالخروج مرة أخرى ثم استسلم لإلحاح الماركيز والنبلاء الذين سارعوا لشهر سيوفهم وسط شهقات مذعورة أطلقتها الوصيفات، وبينهن وقفت الملكة جامدة الملامح توحي بالحزم شامخة برأسها. تسابق الماركيز والنبلاء على الدرج خارجين لجمع فرسانهم. أغمد فرناندو سيفه وذهب مع الملكة إلى الشرفة يطلان على المعركة المؤذنة بالوقوع. قطعة كبيرة من جيش المور تتجه نحو الزبية، والماركيز والنبلاء يجمعون فرسانهم، والجنود يهرعون إلى الفؤوس والرماح، كل يهوي إلى راية قائده. اقترب جيش المور أكثر ليسمع الملكان صوت الإبل، هل جاءهم مدد من ساحل البرابرة؟ مستحيل! غرناطة مقطوع بحرها لا يقدر أن يطؤها إنس ولا جان. أم هؤلاء إبل جند غمارة وزناتة الباقين منذ الأزل؟ قطب الملك جبينه وضيق عينيه لعله يرى العدو أقرب، ثم عنَّ له خاطر، نظر إلى سقف البرج وتذكر، فعاد بصره إلى داخل نفسه يفض ما طوته السنون؛ أمازالت روح كارلوس هائمة في طرقات برشلونة أم وجدت الراحة أخيرًا؟ أخوه غير الشقيق، أمير فيانا وابن ملكة نافار. في برج كهذا البرج انتظر فرناندو الموت طفلا بسبب كارلوس. كان كارلوس في الأربعين من عمره عندما كان فرناندو في العاشرة، طويلا وسيمًا.. أو كذا يذكره. مازال البعض إلى الآن يتحدثه سرًا، يثني على علمه وفضائله. لو سارت الأمور كما أراد كارلوس لكان الآن ملكًا لأراجون

وصقلية، وزوجًا لإيزابيلا، ولكان هو، فرناندو؛ قتيلًا أو أسيرًا أو تابعًا ذليلًا. أتلومه روح كارلوس أنه سبق؟ كان طفلا ولم يقترف إثمًا، بل اقترف إثم الرضا والغبطة وهو في هذه السن، وتكفلت أمه خوانا بكل شيء. كأي ملكة وزوجة أب أوغرت صدر خوان والدهما وفسرت كل حركة وسكنة من كارلوس بوادر عصيان وتمرد حتى سُجن. لكن الملكة لم تدرك يومئذ كم هو هش عرش أراجون الذي يجتمع فيه نبلاؤه القلائل ليصيروا حزمة عصية على قبضة ملك واحد؛ ثار نبلاء كتالونيا وسجنوا حاكمهم، بل طاردوا الملكين وطفلهما من لاردة إلى فراجا حتى سرقسطة. ذاق فرناندو طعم القهر والهزيمة، وعلم عض الدهر وجور الأيام. لم يظن أبدًا وهو الملبَّاة رغباته وشهواته ونزواته الطفولية أن يزول كل ذلك فجأة وينقلب إلى ضده. رأى الدموع في عين أبيه وهو عائد من معاهدة مذلة مع الكتلان أن يخلي سبيل كارلوس ويُحرم وأمه من دخول مدينتهم برشلونة، أما الملك فلا يدخلها إلا بإذنهم! عادوا كالموتى إلى القصر في لاردة وكل شبر فيه ممزق برماح الكتلان، بينما استقبل أولئك كارلوس استقبال الفاتحين وطافوا به في مدينتهم. كارلوس. . هو من تسبب في دموع أبيه وآلام أمه، فليمت كارلوس إذن! صاح بها باكيًا في حجر مربيته. ومات كارلوس؛ كأي ملكة وزوجة أب، لم تكن خوانا لتترك ابن زوجها حيًا، لهذا خُلق السم والخدم الخائنون. وارتفعت رماح الكتلان مجددًا؛ قالوا إن روح كارلوس تحوم في مدينتهم ليلا تطلب الثأر من قاتليه. ماذا فعل ليثور لأجله النبلاء والشعب حيًا وميتًا؟ كأنه غانية من غواني البندقية أغواهم بما تعلمه من كلام الإيطاليين في مسينا، أو ربما

أنفة الكتلان لأنفسهم أن يخضعوا لملك قشتالي قح طلبوا جده ليملكوه عليهم منذ عقود بعدما انتهى عقب ملوكهم. هذه المرة لم يستطع فرناندو وأمه الهرب. في جيرونا حوصروا في برج الكنيسة. برج كهذا محصن بالمؤن والعتاد. حاصرهم الكتلان زمنًا، حفروا تحت البرج نفقًا، وبنوا أمام البرج قلعة من خشب، قذفوهم بالسهام والحجارة ومدافع لومباردي. كانت أول مرة يسمع فيها صوت المدفع؛ حديد يرمي بالحجارة ويصدر الرعود من فوهته. تملكه اليأس والخوف والشعور بالإثم. لقد اقترف وأمه الخطايا المهلكات وحان وقت انتقام الرب وغضبه. سيمزقه هؤلاء الرعاع بسيوفهم هاتفين باسم أخيه. غير أنه في هذا الوقت تعرف إلى أمه من جديد. الملكة خوانا ملكة أراجون وابنة أميرال قشتالة، وقفت شامخة تقود الدفاع عن البرج بعزم لا يلين، تواسي الجرحى وتشد من أزر الجنود، وتسكن خواطر النساء. ثم جاء المدد من ملك فرنسا مخلصًا ومنقذًا. بمدافع أكبر من مدافع الكتلان تهدمت القلعة الخشبية وتشتتت جموع الثائرين لتمزقها رماح الفرنسيين وسيوفهم. بعدت عن فرناندو نيران الجحيم وإصر الذنوب، عاهد نفسه ألا تعود تلك الأيام مجددًا، أن يحاصِر ولا يُحاصَر. عمّدته أيام برج جيرون من جديد.. لقد آمن بالمدفع.

في تلك اللحظة علت الأبواق فانتبه الملك بغتة. اقتربت جمال المور تحمل الفرسان المعممين وحولها فرسان القائد موسى. اقتربت من رماح الرجالة الروم المتأهبين، وقفوا بطول قرية الزبية ثلاثة صفوف كل يحمل ترسه بيسراه ورمحه بيمناه ورؤوسهم الحديدية مكسوة بالبَرَد. وقف

خلفهم صفان من الرماة أعدوا سهامهم ورفعوا أقواسهم. رفع الصف الأول رماحه باتجاه المغيرين، وقبل أن يلمس السن اللحم، اشتعلت الجمال دفعة واحدة!

شعلة وراء شعلة ألقاها الفرسان على ظهور الجمال ثم تراجعوا عنها، اشتعلت تماثيل القش المعممة المروية بالنفط، هدرت الجمال واخترقت صفوف رجالة الروم الرامحة لا تلوي على شيء، لا تبالي بالرماح والسهام الملقاة عليها، تفرَّقت في كل اتجاه تحمل النار والموت على ظهورها. اضطربت صفوف الروم كموج البحر، ركبت فيه الصفوف على الصفوف كتلك المنحوتة على جدران الكنائس. دُقت طبول ونُفخت أبواق، ومن بين الدخان والنار ظهر الفارس الأسود تعلوه شمس حمراء زائلة، ومن ورائه فرسانه يشقون الصفوف المضطربة كالسيف. ارتدت السهام عن درعه كما ترتد الحصى، واخترقت أخرى وشاكته في صدره وبطنه، كسر أعواد السهام بيسراه، ويمناه ممسكة بالسيف بحذاء فخذه. انهمر رجالة غرناطة من خلفه يملؤون ما فرجه من صفوف العدو، يهوون بسيوفهم ورماحهم. حدادون وخبازون وفلاحون، عوام أهل غرناطة عماد جندها ورجالتها. يقاتلون بتلك السذاجة التي قاتلوا بها بعضهم بعضًا في طرقات البيازين وعلى أبواب القصبة القديمة. تناسى أهل غرناطة تلك الأيام عمدًا وانصاعوا للسلطان المتغلب عليهم، بل كأنهم انتظروه أن يفعل ليفتحوا كل أبواب البيازين ويغشى كل قوم سوق عدوه يبيع ويشتري ويحمل أكياس الطحين! علامَ قاتلوا وعلام أطاعوا؟ كأنهم امرأة لعوب تتمنع، تنتظر فحلا يجثم عليها ويزلزل أركانها فتخضع.

نُفخت أبواق الروم مجدداً بأصوات مخصوصة، تراجع رجالتهم بخطى وئيدة لئلا يركب أقفيتهم فرسان موسى. تحملوا فُشُوَّ القتل والجراح فيهم. وأهل غرناطة كالمردة يقضمون صفوفهم وفي نفوسهم يسألون من أي شيء قُدَّ هؤلاء الرجال. تراجع الروم أمامهم بأقدام راسخة خاضت المعارك عشر سنين أو يزيد، قاتلوا عليها فرسان فرنسا المثقلين بالدروع، ورجّالة سويسرا الرامحة. باتوا سنوات في العراء، كسروا أشجار الغابات وبنوا مصانع الأنفاط. لن يتراجعوا أبداً أمام حفنة من المور مهما كانت بسالتهم. علا التكبير والتهليل والصيحة بسانتياجو، اختلط اللحم بالخشب والحديد، وامتزج العرق بالدماء، وجمال النار تجاوزت رجالة الروم إلى داخل الزبية، رآها الملكان متفرقة كالجمار من عل. اصطادتها فرسان ماركيز قادش؛ كل حفنة حول جمل، ولما فرغوا لحق الفرسان بقادتهم من جديد. وصل موسى لصفي الرماة أخيراً، سيعرف النصارى ما هو قتال اليائسين، قتال من أصبحت الحياة والموت لديهم سواء، قتال من لن يبقوا على شيء حتى لو تهدمت مدينتهم حجراً حجراً. كانوا بانتظار المثل والأسوة ليهووا بأنفسهم بين فكي الردى، هو ذلك الرجل، وهم تابعوه حتى النصر أو الشهادة. ليذق هؤلاء الكفار اليوم رماح أهل غرناطة وسيوفهم، وليتأمل الملكان غرناطة من عل لتكون آخر ما يبصرون قبل أن تعلق رؤوسهم على الرماح ويطاف بها في الطرقات.
دخل الزبية نفسها أخيراً بفرسانه، رأى رايات كالعمد المصفوفة تهوي نحوه. صدم فرسان الماركيز جنود غرناطة المنهكين من اختراق الصفوف كما تسلخ الريح الشجر تكسر أغصانها. رجع موسى بفرسانه، يملي

لفرسان الماركيز حتى يختلطوا برجالة غرناطة، فتضيق الأفراس بالزحام ثم يكر عليهم حيلة. لكن أهل غرناطة تراجعوا غيلة. بدت لهم الهزيمة ماثلة والأيام أظلم من سواد الليل الزاحف عليهم. انتزع موسى منهم جمالهم وحرقها أمامهم ولم يتبدل الحال. ليس عليهم من بعد ذلك إثم ولا وزر. أدوا ما عليهم ولم يأخذوا مالهم. لم يعودوا ينظرون إليه كأنه ملء السمع والبصر، ضاقوا به وما عاد بهم طاقة أن يتبعوه مجددًا. ليدعُ عليهم أو يلعنهم، لا يهم. سيعودون إلى المدينة، إلى الأهل والولد والخوف من قادم الأيام. يكفيهم من قضى منهم هذا اليوم. إلى أبواب غرناطة إذن، إلى حيث ينتظرهم السلطان بمماليكه المعلوجين وجنوده المخلصين. يحمي مدينتهم من حيلة العدو إذا أراد الحملة على المدينة. سيطأطئون رؤوسهم أمامه أنهم لم ينتصروا، ثم يمدون أعناقهم حين يستلقون على الفُرُش. مستلقين على الظهور ضامين الأذرع إلى الأجناب كسكان القبور.

تلقاهم السلطان صامتًا. فتح لهم مماليكه الأبواب. كان يلبس ذات الدروع التي دخل بها غرناطة من البيازين، يحفه نفس المماليك، وتضيء وجهه ذات المشاعل. ها قد أُعذر إلى الله من موسى. عضده بحيلة أخيرة؛ خدع وزيره ابن كماشة وأوهمه برغبته بلقاء الملكين في الزبية خفية عن أهل غرناطة. أعطى قائده الفرصة التي طلبها، فأخفق. أكان يرجو فشله؟ لا يدري. استخدمه بعد الفتنة وقربه وكل من اعتزل القتال. علم أنهم سيكونون خدمه المخلصين ليثبتوا أنهم تكفؤوا القتال معه ورعًا لا عداء، وهم أنفع إليه وأطوع ممن خاضوا معه قتال عمه ويرون لهم

سهمًا في نصره، ويرجون نصيبهم من الغنائم. وكلما امتنع موسى عنه في الحمراء رغب فيه وآثره؛ إذ أيقن بزهده في التصدر وطلب الجاه. ورغم ذلك خشيه وتحير في أمره.

لم ير من هو مثله، لا تجري عليه حكم ملوك اليونان ونصائح برزجمهم لكسرى ساسان. العطار نفسه كانت له حيله ودخائله، أما هذا فنفسه مبسوطة كالسماء، ساذج يكشف عن خبيئة نفسه كأهل البوادي. لم يزد ماله درهمًا ولا دينارًا، ولم تعد عليه مرتبته بشيء، اللهم إلا رسلا رتبهم ليحملوا الرسائل بينه وولده في فاس. وحتى طهارة يده تلك لم يجعلها تكئة له عند العوام ليرفعوه على العرش، بل بدا زاهدًا في مخالطتهم مؤثرًا العزلة عنهم. الجنود لم يبالِ باجتماع قلوبهم عليه، بل أسخطهم وشق عليهم. ورغم كل هذا أحبه العوام والجنود وكانوا له أطوع ممن سار فيهم بسيرة الملوك والحكماء، كأنهم عادوا إلى سيرتهم في البداوة الأولى، تلك الحال التي غزوا فيها الجزيرة أول مرة زمن القوط فدانت لهم الأرض. السلطان نفسه أحبه، أنكر ذلك مرارًا، ثم سلَّم في النهاية وأقر بذلك لنفسه. في كل غزوة خرجوا فيها كان يستعيد ذكرى اللسانة، يستعيد ذكرى الكسر والأسر، تولي أهل غرناطة عنه ومبايعة عمه. هو موتور منهم بقدر ما هم موتورون منه. وحده ذلك الألمري يخدمه بلا طلب أو رجاء. يسير من خلفه وبين يديه وعن يمينه وعن شماله، يتلقى عنه كل سهم، ويصد عنه كل رمح. وجد منه مالم يجده من عمه وأبيه وإخوته أبناء ثريا. بل وندمائه أبي القاسم وابن كماشة. لأجل موسى خالفهما وخرج للغزو رغمًا عنهما، وكلما عاد مظفرًا قال

بلسان حاله: «ألم أقل لكم؟» وكأن الآية انقلبت، والسنن تبدلت، وأتت كل رياح الأرض بما يشتهون. في كل غزوة كبر في عينيه موسى حتى علا جبل شلير. في البدء ظن فيه سوءًا، ثم حسده، ثم غبطه، ثم أحبه. لم تطمعه الغزوات في السلطان، ولم تغير نفسه، كأنه امتطى جواده الأعمى من الصدر الأول، أو لعله لا يبالي بأحد إلا صبيًا يسكن فاس البعيدة وراء البحر. ظن السلطان أنه يستعمل موسى في خدمته ثم انتهى به الأمر خادمًا له، أسيرًا لحكم القائد ومواعظه. بدا للحظة أن سبيل الدنيا والآخرة واحد لا يفترق. الناس على دين ملوكهم وإذا صلح دينه هو صلحوا، وإذا عاد إلى سيرة أجداده الأولى عادت الدولة معه إلى طورها الأول وامتنعت على عدوها. ثم ذهبت السكرة وأتت الفكرة؛ عاد طاغية النصارى ليحاصر غرناطة حصارها الأخير. عادت معه مجالس ابن كماشة وأبي القاسم، وعاد إلى السلطان منطقه القديم وسيرته الأولى. لكن ماذا سيفعل به موسى حينئذ؟ يمتنع في القصبة كما امتنع الثغري في جبل الفارة مع جند غمارة. لماذا فعل الثغري ذلك؟ لا يستطيع السلطان فهمه كما لا يفهم موسى. لماذا يلقي المرء بيده إلى التهلكة ويورث من حوله إثم خذلانه أبد الدهر؟ لماذا لا يسير كما يسير الناس؟ أهل غرناطة أنفسهم أيقنوا بالتسليم. عرف ذلك من وجوههم المطأطئة، من صمتهم. في كل مرة كانوا يعودون شامخي الرؤوس يكبرون ويهللون، يذكرون أنفسهم بالصبر والاحتساب. لكن اليوم غير. هو سلطانهم وأدرى بهم، بل لأنه أدرى بهم صار سلطانهم. مهما اختلف حالهما في الظاهر، يبقى كل منهم بضعة من الآخر، ويبقى موسى والثغري غريبيْن عن كل أحد. رأى السلطان بعين الخيال كيف

سيبيت الناس في فُرُشهم كسكان القبور، وعند الفجر يحسب كل رجل ماله في بيته خفية عن الناس، يجادلون نساءهم في البقاء أو الرحيل. يمدحون سراً فعل الأمير يحيى، ويخجل كل منهم أن يمس الثغري بسوء؛ فلا يحيك في الصدر إثم كالخذلان، حتى يود لو أن موسى والثغري ومن على دربهما لم يحيوا يومًا.

اعتصر السلطان عينيه بأجفانه ألما وتمتم بمرارة: "لاش ما ترجع فاس يا موسى؟ ارجع لمرتك وولدك. . اترك بو عبدللي وارحل. لا تفجعني فيك، ولا تلمني إني خذلتك».

***

أنت

سأل الوزير: «مولاي. . عريف اليد بالباب، أمن شيء تكتبه عن وقعة الزبية؟». جلس الملك على عرشه شاردًا. أعاد الوزير سؤاله ثلاث مرات حتى انتبه.

- «ماذا أخبره؟ أخبره أن قومه الذين امتدحتهم وفصلت في بذلهم وجهادهم فروا من النصارى فلم تحمهم إلا الأسوار. استمرؤوا العيش كالبهائم السائمة، لا يضرهم إن حكمهم أبو عبد الله أو فرذلند. يجرون وراء المتاع والقطاع، يسعون وراء اللهو والطرب حتى لو كانوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك. أم تريدني أن أحكي له عن النصارى وقتالهم، عن ثباتهم وفشوّ القتل فيهم، فلم يجزعوا ولم يفروا، بل علوا بالصياح والاستغاثة بشنت ياقب، ومن ورائهم الرهبان يرتلون ويرفعون الصليب. كأنهم أهل الحق، ونحن أهل الباطل. أم تريدني أن أخبره عن حقيقة الملك وصورته؛ ابن أخي الذي لازمته في الغزوات وتخولته بالموعظة، وظننت فيه خيرًا لم أظنه في أحد من قبل، حبسنا عن نصرة مالقة وبسطة ليبقى على صلح فرذلند وهو موقن أنه لا ريب ينقضه. يظنني غرًا ساذجًا لا أعلم سوء طويته وفساد قلبه. حتى لما خرج في الغزوات، كان يريد تحلية بضاعته في عين فرذلند، فيقبل الأخير شروطه كلها إيثارًا للسلامة واجتنابًا للقتال. أخبره عن ملك المسلمين يودي بهم في المعارك ليزيد ثمنه، وملك النصارى يدفع ليحفظ حياة جنوده. أهذا ما تريدني أن أكتبه أيها الوزير؟

لا ، اختمْ الرسالة على ذلك يا ابن لبابة . علها تصل إليه قبل أن يقع ما نكره» . اقترب منه القاضي أبو الضمير ، ربت على كتفه وقال : «عاجلا أم آجلا سيعلم . كتمانك الأمر عنه لن يخفيه عن العالمين . وما يضيرك أن يعلم مجاري العادات وطبائع الأمور؟ إنك إن زينت له الدنيا أقبل عليها غافلا ، ولم يتوقع منها الشرور والآفات . ألم تزعم أنك تعلمه في هذه الأوراق؟ اكتبْ له ما يعينه على نوائب الدهر إذن ويبصره بحقائق الزمان» .

-«عرف حقائق الزمان ، أم يقنط من رحمة الله؟ ليعلم الحقيقة من غيري أما أنا فلن أفتنه بما هو واقع . لعل زمانه يكون غير زماني ، فلا يعتزل الناس ويقول ذاك أبي قاتل كذا وكذا حتى انفض عنه الناس ، بل أنميه بالخير الذي شهدته ليطول أمله ويقوى رجاؤه في الدنيا ، فيقبل عليها دون وجل ، ولا يرى سوء العاقبة في كل عمل ، فتفتر همته ويستقصر نفسه أمام حكم الأولين وسيرهم فيقعد عن السعي» .

-«أتظنه يعبر إليك بعد تلك الرسالة؟ يستمع إلى حجج الرسل التي لقنتها لهم ، فتدمع عيناه ويعود معهم إليك ؛ إلى تلك الأرض المخوفة الواقعة لا ريب بيد النصارى» . صمت الملك ولم يرد . داخله ربض الأمل على صورة أمه وصوتها ، قال : «لماذا لا تعود؟ لماذا تحبس نفسك عن ولدك في تلك الأوراق البالية وأنت بعد حي؟ لماذا تشق على نفسك؟ عاجلا أم آجلا ستسلم غرناطة كما سلمت لوشة ومالقة وبسطة وغيرها وغيرها .

لماذا تعذب نفسك بخوض معركة خاسرة؟ عد إلى فاطمة التي تحبك، عد إلى ولدك، ربِّه على ما دونته له، كن رجلا صالحًا أمينًا، كن طبيبًا كما أردت لنفسك دومًا. ابنِ بيتًا كالخضراء واملأه بالكتب، دفِّئ فراشك البارد بفاطمة، حفَّ مجلسك بولدك وزوجته وأبنائه. أجلسهم حول الكانون في الشتاء واحكِ لهم عن أيامك. ازرع في صحن دارك أشجار النارنج والياسمين، واحفر بركة من ماء. حفها بأرائك تتكئ عليها في ليالي الصيف تتأمل السماء، وتناجي النجوم في الليل. وبالقرب من ذلك ابنِ آريًا لغارب حتى يرق جلده وتبرز عظامه، سيسألك أحفادك دهشة كيف ركبت يا جدي جوادًا أعمى؟ ستجلسهم يومئذ وتحكي لهم، وإذا أتيت على ذكر الفراق أمسكت بيد فاطمة العجوز وحمدت الله أنه جمعك بها لآخر العمر». ترقرق الدمع في عيني الملك وانزلق من مقلتيه يشوي وجنتيه. أسكره كلام الأمل وكاد يذوب في كرسيه. ثم همَّ بالكلام فقاطعه الأمل مجددًا: "لا تخش من الناس، لا تثريب عليك منهم. قد كفيت ووفيت وأعذرت إلى الله. أيسخط الله على رجل صالح يتحرى أكل الحلال، يبر ولده ويرعى زوجه؟ كلهم تواطؤوا على التسليم، ينتظرون أن ينطق أولهم ليتابعوه. لن تكون بدعًا منهم إذن».

صمت الملك دهرًا، لا يدري بما يرد. نظر إلى أبي الضمير عله يجد عنده ردًا، لكنه بدا مشفقًا أكثر منه ناصحًا، قد استوى عنده البقاء والرحيل. منذ انقضت الفتنة وهو يتورع عن الحكم وجعلته الحوادث أكثر ريبة وإعذارًا حتى كادت تستوي عنده الأمور كلها. ولما

آيس منه الملك، نادى مختنقًا على ابن لبابة:

«مُر عريف اليد أن يكتب.. سنكتب رسالة جديدة وبعدها نرى ما نفعله في قادم الأيام».

صاح ربض الأمل ملحًا: «لم تجبني يا مولاي».

-«سأجيبك في الرسالة الجديدة».

-«إلى من يا مولاي؟».

-«إلى محمد».

***

الفصل الثاني عشر

حجنبر

أنا

السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا من خمدت نار المجوس لمولده ، وارتج إيوان كسرى لمقدمه ، رحمة كنت في بطن آمنة ، لم تجد منك مخاضًا ولا ألما ، وأصنام مكة تهاوت لما قبضت يدك ، وأشرت بالسبابة مسبحًا ، ونجوم السماء دنت منك مطأطئة ، كسرج الزيت في حضرة الشمس ، يا من جلب الخير لبني سعد فما درت أنعامهم ، كما درت كرامة لمحمد ، وشق جبريل الصدر واستخرج القلب ، منه حظ الشيطان قد طرح ، وبماء زمزم غسله في الذهب ، فنعم الغسل والمغتسل ، وبيدك الشريفة رددت الحجر إلى موضعه ، فأنعم برسول الله حكمًا ترضى به الأعراب والعجم ، أمين لا لاه ولا بالأسواق صَخَّاب ، كريم شريف من نسل هاشم ، حنيف من ولد إبراهيم وكفى به تشريفًا ، تنزل عليك الروح الأمين مبلغًا في ليلة القدر ، قال اقرأ قلتَ ما أنا بقارئ ، فغطَّك حتى أجهدك ، ولما أرسلك قال اقرأ قلت ما أنا بقارئ ، ثم ثانية وثالثة حتى قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، فخشيت على نفسك وأرجف الفؤاد ما رأى ، فهويت إلى دار خديجة مفزعًا ، قالت والله لا يخزيك الله أبدًا ، وأنطقت ورقة ابن نوفل مبشرًا ؛ هذا الناموس الذي نزل على موسى ، أنت خاتم الأنبياء محمد ، ما جاء أحد بمثل ما جئت إلا عودي ، وإن قومك مكذبوك ومخرجوك ، وانقطع الوحي عنك ، فصرت مشوقًا حتى أبصرت جبريل على الكرسي بين السماء والأرض ، فلذت بخديجة وقلت زمّلوني ، وأنزل الله يا أيها المدثر قم فأنذر ، فقمت يا رسول الله وطاب مقامك ، جزاك الله عنا خير الجزاء .

هذا كتاب العبد الفقير موسى إلى سيد الكونين المصطفى، أبث إليك أشواقي ولواعجي وعجزي، أنا يا رسول الله موسى ين ليلى، من أرسلت إليك تشكو علة صدرها، فذهب عنها البأس حتى أملت كتابها إليك، لا ريب يا رسول الله أنك تذكرها في جملة من كتب إليك وصلى، هأنذا لما أيقنت دنو الأجل مثلها واستحالة الوصل، أكتب لك هذا الكتاب لأحظى بالبركة تذهب ما يشقى القلب ويغص الحلق وددتُ رسولَ الله لو جئتكم حبواً، وطهّرت وجهي بثرى طيبة، وصليت في الروضة وتكحلت برؤى القبر، لكنّ بيني وبينك بحاراً من الخطايا وجبالاً من الذنب، وصالحات الأعمال رواحل هزيلة لا تقوى على السير، حبستني عنك ليالي اللهو في البرطة، وليال بتُّها خالية من الذكر، وأعمالٌ أنفقت فيها المال والجهد، خلت من الإخلاَص وابتغيت بها الذكرَ، وأُخَرُ بتها ساخطًا على ربي لما شرفني بالبلاء وأكرمني، وتلاعبتْ بي الظنون، وانتظرت الفساد من القدر، وإعجابي بعقلي وكبري، كل ذلك طبع على قلبي، ومداراة الناس عن عجزي، وليّ عنقي إذا ردوني إلى الحق، وتهاوني في المال أحلال هو أم به شبهة أم حرام بالعذاب يُصْلي، وقتلت نفسًا بعُجبي وحماقتي، وهممت بقتل أخرى لولا رحمة من الله ولطف، ودخلت على الملوك ولازمتهم، وخضت معهم في الفتن، ونالني من أوزارهم كفلٌ ينقض الظهر، حسبي أن رسول الله حي في قبره، يرد السلاَم علَى أحبابه في كل مصر، فاللهم صلِّ وسلمْ وبارك على محمد وعلى آله وصحبه، حسبي أنك يا رسول الله تسمعني، وأن حبك قربة وشفاعة، أسأل الله أن يسلمني من النار وعذاب القبر.

السلاَم عليك يا رسول الله من غرناطة الأندلس، فيها أحباب بذكرك يأتنسون، آمنوا بك وصدقوك. لم يروا نورك ولم يقتبسوا، في المغرب

بين بحـر الروم والظلمـات سكنوا، بينهـم وبينك مـا يطوى له الأجل، تضج بالثناء عليك مجالسهم، والصوامع والأسواق والفحص، صبيانهم على اسـمك بلا عـدد، وصـلاتهـم عليك عند الدهش والفـرح، ولمرأى الجمال وحضرة الجلال، وفي سَورة الغضب، وفي غمرة الحزن، وعند الموت والفقد، اللهم صلِّ وسلمْ دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلهم، في يوم مـولدك يصوم الناس شبـابهم وشيـوخـهم، برهم وفـاجـرهم، للفـقـراء فيه الجفـان المبسـوطة في الطرق، ومـاء زلال سـائغ للشـرب، والمادحون بذكر أحمد في تَبارٍ، في حب رسول الله يهون الأهل والمال، حب رسول الله جبر لكل مكسورٍ، حب رسول الله زيادة لكل نقصان.

عـذراً رسـول الله مما أحدثوا بعدك، لكن حبك لم يخبُ في القلوب ولم يغبْ، وصـلاة الفـرائض في المسـاجـد جـامعـة، وتلاوة القـرآن في الصدور باقـية، وذكر الله في الأسفار والحضر، والعلم باق فينا مـهـما درست معالمه؛ عقيدة أبي الحسن وفقه مالك ومذهب الجنيد السالك، لم يخرج فينا معتزلٌ ولا مبتدع، وإن كـان فينا بالمعازف والقيان من تلهوا، والخمر عـاقروا وغفلوا، فإنهم بالله لم يكفروا ولم يستحلّوا، بل يتوبون ويرسلون بالدمع والندم، وإن عادوا فحسن ظن وطول أمل، فاستغفر الله لهم يا رسـول الله، فإنهم بك يستجيرون ويستغيثون من جليل الخطب. قد كفَّروا عن سيئاتهم؛ أسيراً بين يدي الروم يخدمهم، وسبية استحل فرجَها الكفر، وقتيلاً في النزال مُكفنًا في البَرَد مدفونًا بلا قبر، ومحصوراً باع جوهره ونفيسه بكسرة خبز تسد الرمق، أو بعض حطب يدفع عنه ريح شلير والثلج، وكان من قبل باللحم يملأ بطنه، عليه الفراء ونساءه بالديباج يكسو ويزين، وعياله زهرات ناضرات معطرة أردانهم، صاروا

جلدًا على عظم، قد كنا في الفتنة لا نعدم قوتًا ولا نارًا، واليوم إذ حان الرباط ينقص المال والثمر! هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدقوا، فمن يرضى بالبلاء ويصطبر؟ إن تهلكْ تلك العصابة فلا يبقى في الجزيرة من دين محمد أمرٌ ولا نهي، ونور الله باق لا أحد يطفئه، لكن رجانا في عون الله ليس يخيب، حسبنا رسول الله ما نزل بنا، فاستغفر الله لنا، فلا تفوتنا زهرة الدنيا وحسن ثواب الآخرة والأجر.

السلام عليك يا رسول الله من غرناطة الأندلس، دويرة الإسلام في لجة من العجم، يتيمة مقطوعة منكرة، فلا هاشم ينصرون حمية، ولا أوس ولا خزرج للإسلام قد لبوا. علتنا رايات الكفر خفاقة، ورايات المسلمين في ذل ونكس. جاؤونا ملوك الروم صفًا واحدًا، ومن فوقهم حبر رومية هم له تبع، وملوك المسملين شتى قلوبهم؛ شيخُ وطَّاس يخشى على ملكه، وابن عثمان وسلطان مصر كل يرفع السيف على أخيه عصبية، وخليفة المسلمين محجور لا حول ولا قوة، في اللهو مدعو وعن الملمات محتجب، ومليكنا وأميرنا، سميّك يا رسول الله وابن ناصرك سعد، سلطان غرناطة الذي تعلق به الرجا، باعنا لفرذلند بثمن بخس. عصى الله فينا، فلم نقومه بسيوفنا، بل لم تنكره قلوبنا، قلوبنا يا رسول الله غلف من الظلم. زعموا حكمةَ الروم وسنةَ فارس خيرًا من كتاب الله وسنة أحمد، زعموا أن الأمير يلي تَغَلُّبًا، وأن يأخذ المال ويجلد الظهر، فإذا خرج عليه خارج قال غزوة، وإذا أحاط به العدو قال صفقة، باعه الأرض والعرض، وعز الإسلام والشرف، إذا خوفته بالله قال قدرًا، في اللوح المحفوظ قد كتب، وقضاة المسلمين اشتروا بآيات الله ثمنًا، يقضون في أرباع المسلمين تحت طاعة

الكفر، يقولون أخف الضررين وأهون الشرين، وقلوبهم الوهنَ أشربتْ، بعجل الهوى طُبعت.

وقواد الجهاد مشرفية سيوفهم على المؤمنين ثلمة على الكافرين، يؤلفون القلوب لتكون لهم تبعًا، ولا يركبون الخيل إلا على السلطان وثبًا، وإذا مد الصليب لهم يدًا هرعوا إلى تقبيله، وإذا ما لاح لهم المال حلالاً أم حرامًا سارعوا إلى تحصيله، فأنّى ينصرنا الله على الكافرين ولو جاءنا الجند مدًا بعد مد، والرأس فاسد والجسد عليل، لكن الأمل في مدد من الله معين، يبدل الحزن ويفرج الكرب، عطاء من الله غير مجذوذ، فاللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله، واغفر لنا ذنوبنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ليتك رسول الله كنت معنا، إذًا لهان المصاب والخطب، ولاستبانت سبيل المجرمين واضحة، لكل فاسق للهوى تبع، الأمر أمرك والنهي ما نهيت عنه، وطاعتك طاعة لله لا رد ولا جدل، ولا تَتبّع صاحبُ الغرض متشابهَ القول يصيب به الغرض، ولعرفت المنافقين بسيماهم عينًا، ولائتلفت القلوب حولك وطأطأت الرؤوس خاشعة؛ زالت عنهم الشحناء والفتن، ولدانت لك كل الملوك، وطرحوا بين يديك النفيس وكل موجود، ولدعوت بالنصر دعوة لا يردها الله أبدًا، إن قلت قاتلوا الروم لم ننخذل عنك، نموت دونك فلا يمسك من الكفار أحد ولا يُرفع لهم سن، وإن قلت سالموا، إن لنا لكرة، ذلك قد قضى الله، سلمنا ولم نجد حرجًا. لكن نور رسول الله عنا محجوب وأفهامنا في الظلماء تفتقد البدر، تشكو في الملمات جلد فاجر، تشكو عاجزًا ثقةً.

عذرًا رسول الله إن قصر الكلام عن مقامكم، قد نويت قبلا أن أنظم

الشعر، أن أقرض في مديحكم وسيرتكم، علك تلقي عليّ في المنام بردة تشفيني فلا أشقى بعدها أبدًا، لكن شقوتي غلبتني وأنستني الذنوب الوزن وما يقفّى، وشغلتني النفس بهمومها فأسالت الحبر بما يفيض ويحرق القلب، تقول النفس هادنْ يا ابن أبي غسان ولا تُمار، قد جعل لك الله في ذلك العذر، سلّم.. فكلٌّ سلموا وبايعوا، وعَددوا المتاع وجهزوا، والدواب أسرجوا، على الرحيل قد عزموا، أو الدجن ارتضوا، فمالك ترغي وتزبد، ارحل إلى ولدك عبد الملك والزمه وربّه، وصاحبه كما يصاحب الوالد ولده وفي طاعة الله أنشئه، وفاطمة قرة القلب صلها فيجتمع الشمل وتظلك النعم. أترضى رسول الله إن تركت أندلس؟ إنَ نزلت فاس فتبايعت بالعينة وتبعت أذناب البقر، أو لحقت بشيخ وطاس أخدمه، أسعى له مملوكًا مصطفى، يرزقه من مال الناس قد غصب؟ أترضى رسول الله إن ترخّصت وللروم خضعت ورضيت الدجن؟ إن نسيت إخواني؛ قضوا وما بدلوا، بايعوني على الموت وتبعوا رايتي، فإذا أحيط بي أطلب الفرار والأمن، ولهم عيال كعبدالملك ونساؤهم كمثل فاطمة لا تفوقهن شرفًا. وإن كان الرحيل رخصة فإنني، ابن سيد الأنصار؛ أطلب العزم، أنا الغازي على العدو يحمل وحده، أنا القائد المخذول عنه الجنود تفرقوا، أنا الطبيب الذي لف الجرح فقتل صاحبه، أنا المغدور الغرور المذنب، خاذل الآمال الجحود المتكبر، فررت من كل حرب فلم يصح لي عزم؛ في الحَمّة تحت المتاع اختبأت، وفي لوشة بخشيتي من الرومي رميت، وبين الجبلين تركت جنودي والسلامة طلبتُ، ولما جست خلال العدو فلم أبال برميهم، كنت أحكمت الدروع عليّ وأسبغت، ومن قبل لما نزل بي البلاَء طلقت زوجي وأفسدت دنياي ولليهودي التجأت، لم أرتضِ أن أعتذر منها وأن ألقى من الناس اللوم

والعذل، وغاضبت العطار أستاذي وصاحب نعمتي فلم أرق لسنه ولم أحفظ له قدرًا، وتوليت عنه مقتولاً احتز العدو رأسه، أفي حجر فاطمة من بعده أضع الرأس؟ لأجعلنها رسول الله مقتلة أخيرة لا أفر منها ولا أخشى، ولا أحزن لفراق ولدي ولا وصلا بفاطمة قد قطعَ، وليعلمن الروم أن في أمة محمد من لا يرضى بالذل أبدًا، يستحبون الموت على الحياة، يرون الجنة ماثلة أمام العينين لا خيالاً ولا وهمًا، وإننا خُلقنا للخيل والرمح نذود بهم عن بيضة الإسلام ما دامت الروح، ومنا طائفة منصورة ظاهرة على الحق لا يخذلها خاذل، وإن نصر الله قادم عاجلاً غير آجل، وإن المرء إذا ضاقت عليه الأمور وانقطعت الأسباب عنه، وأيقن زوال التمكين عن زمانه، لم يزل عنه السعي إلى الله والجهاد فيه حتى يقضي الله أمرًا، وإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا. أم أن لي يا رسول الله عذرًا، أأعبر العدوة أرجو الظل والثمر، أتربص بالروم كرة أخرى، أعوض فاطمة عما فات ومضى، أربي عبد الملك على هديك أجمع المال من حلاله، وآنس في الكبَر بعياله، أترحم وأتصدق على من مات وقضى، قد أعذرت إلى الله فيَ الجهاد معهم، فما ينفعهم إن لحقت بهم؟ أغثنا يا رسول من الهم والفكر، أهدنا يا لله لما فيه رضاك والحق.

لست أدري يا رسول الله متى يصلبكم الكتاب، ويعلقه على القبر الحُجَّاج، حسبي يا رسول الله أنه بلغك قبل أن تجف الصحف ويطوى الكتاب، استغفر الله لي يا حبيب الله واسأله لي الإخلاص والصدق، وأن يشفي قلبي ويعتقني من الشهوات والأمل، إلا الأمل في رحمته ومغفرته بحبك يا رسول الله والصلاة عليك، فاللهم صلِّ وسلم دائمًا أبدًا على حبيبك خير خلق الله كلهم.

***

هو

نزل القمر بالبلدة؛ رقعة في السماء بلا كواكب، بلا معنى، بلا مجاز يربطها بالنرجس البادي على جبال قرطبة، واللوز البكير، والماء المدخر في الجِباب.

بلا حكاية تنظم القمرَ والجبلَ والمدينة الثاوية تحته، وشهر دجنبر الذي لا ينفع فيه دواء ولا فصد. بدا الكون على حقيقته، عاريًا بجوهره؛ صخور في الأرض جامدة وأجرام في السماء دائرة، والأنعام على الأرض بكماء تُولَدُ وتسافد وتموت، والشجر ينمو ويخضر ويذبل، والطير يخرج من بيضه، يستحيل زغبه ريشًا يطيره في السما، ثم يساقط عنه فيسقط. فلا تحيا كل تلك الكائنات تتنفس، وتفرح وتحزن وتغضب، وتحب وتصاحب وتهجر، إلا بكلام ابن آدم علمه الله أسماءها، ثم استعار لها من نفسه المعاني والصور، فأحياها حياة غير الحياة، وجعلها على صورته فبدلها، ونزع عليها أفراحه وأتراحه، وهواجسه ورجاءه. فإذا مات أو انقطع عنها خرجت منها روحها، جمدت كأن لم تغن بالأمس، صمتت عما أنطقها به ابن آدم، وعادت إلى تسبيح الإله الواحد الأحد. بل لعلها لم تفتر أبدا عن تسبيحها، ولم تتخل يومًا عن جوهرها، وما تلك الحياة التي بثها ابن آدم إلا روح منه إلى أوهامه وخياله، فإذا مات ابن آدم ماتت معه الفكَر. عاش دنياه يرى الكون بعين خياله، ويستغني عن الحق بالظن.

***

وقف الجندي منتصبًا أمام مدخل برج قمارش. اعتاد مظهر البركة المتوسطة الفناء وماءها الأخضر القاتم. افترش البرد الأرض حولها معجزًا كنس الخدام، ومكللا أسطح القراميد وتيجان الأعمدة والزرع على الجانبين. كانت تأتي النسمات في الصيف من تلك البركة ترد إليه روحه حتى يكاد يخلع لباسه ويخوض فيها متخليًا عن وقفته الأبدية تلك، لكن تلك الفكرة الآن تصيبه بالقشعريرة. حاول بمشقة أن يرمع أنفه ليتأكد أنها لم تسقط منه خلسة بعدما أفقده البرد كل حس. فتل بأصابعه المتيبسة رمحه خشية أن تتجمد روحه من أطرافه حتى قلبه، فيكب على وجهه دون حراك كما جرى لرفيقه الشتاء الماضي. حتى لو حدث ذلك فلعله يكون آخر جندي يسقط هذا العام، فلا شتاء يعقب هذا الشتاء. منذ أيام صعد الوجهاء ورؤوس القوم والعرفاء والأشياخ وأنجاد الفرسان، صعدوا ليقابلوا السلطان، أجمعوا أمرهم بعد وقعة الزبية على التسليم. أعلموه بحال الناس وما هم فيه من الضعف وشدة الجوع وقلة الطعام، وكانوا من قبل يعانون الفاقة وقلة الزاد حتى إذا انقطع طريق بشرة لم يجدوا حتى ذاك الزاد الشحيح. غرناطة.. ذاك البلد الكبير عظيم العمران والسكان نعمة في زمان الأمن، نقمة ومغرم في زمان الحصار؛ من لتلك الأفواه الجائعة؟ من يطعم العيال والنسوان والأشياخ والجنود والفرسان؟ أي طعام يقوم بأمرهم ولو جُلب إليهم من أقطار الأرض كلها؟ لا مفر من التسليم إذن، والنصارى في محلتهم يابسة أجسادهم مثلهم، كفوا عن الحرب بعد الزبية مثلما كفوا. لا ريب إن أرسلوا إلى ملكهم يطلبون الأمان أن يجيبهم إلى طلبهم قبل أن يأتي الربيع ويذوب

الثلج ويتصل ببلده ويأتيه المد بعد المد وهم مقطوعون لم يجبهم أحد. عندئذ لا يعطيهم الأمان لقاء ما يناله بسيفه، أما الآن والسيف جامد في غمده فلابد قابل صفقتهم ورابح بيعهم. كاد يبكي ويخر برمحه لما سمعهم ذلك اليوم، كاد يبكي مرارة الغلبة وقهر الرجال، بيد أن عريفه سبهم جميعًا واستنزل عليهم اللعنات؛ قال إن السلطان قد راود كلا منهم في أمر التسليم وحده وأن النصارى قد كفوا عن الحرب تلك المدة ليداخل السلطان وبطانته أهل غرناطة، فيسعون هم إلى التسليم من تلقاء أنفسهم ويظهر السلطان مغلوبًا نازلا على مشورتهم. ألا لعنة الله على السلطان وأهل غرناطة أجمعين! زفر الجندي ثلجًا من فيه لما استيقن النهاية. لقد انقضى الإسلام من الجزيرة إلى غير رجعة. ترى ما سيقسمه السلطان له ولإخوانه لما يسرحهم، هل يكفي كراء الدابة وجواز البحر؟ أم يصحبه معه إلى ضياعه في أندرش التي سينزله ملك الروم إياها في صلحه، فيقف بذات الرمح لكن أمام بهو غير البهو. أسفرت الشمس عن لحظها من بين السحب برهة ثم توارت، ومعها توافد القوم على البهو مارّين بالجندي. شد قامته واعتصر رمحه حتى ابيضت منابت أصابعه وشخص ببصره بين يديه، ومن طرف خفي لمح غفارات القواد والتجار وعمائم كبراء زناتة وغمارة وطيالس الأشياخ وقاضي الجماعة وقبب برانس الخدم ورؤوس العوام، وأزكم أنفه ريح العطور والعرق الثقيل وورد الزعفران النابت من إبطي ابن كماشة، ويْحكم يا أهل غرناطة! حتى وبطونكم تقرقر من الجوع لا تفتؤون تعطرون أردانكم! كل تلك الرؤوس تعطرت وتزينت ليلقي عليهم السلطان صلح النصارى، فيسبلون أعينهم ويبلون

لحاهم من الدمع ثم ينصرفون كل إلى دوابه ومتاعه وحريمه وكيس قطاعه. توقف سيال الرؤوس المتدفق أخيرًا ليحني الجندي رأسه ويرخي الرمح في قبضته، ثم رأى قادمًا مقنعًا يتهادى في الحديد متكئًا على رمحه.. دق الرمح على الأرض بوقع مكتوم وصاحب الدروع السوداء يقترب. زحفت الرعدة على ظهر الجندي وبرق بصره؛ ما الذي أتى بالقائد موسى بحديده إلى مجلس السلطان؟ لا أحد يجوز ذاك الرواق بسلاحه إلا واثب. ترى أيتبعه جنوده من القصبة ليثبوا على السلطان ويرفض تسليم المدينة، بدا مصير مالقة ماثلا أمام عينيه وسيرة حامد الثغري مكبلا بالسلاسل ومعه أهل مالقة، ما جدوى النفخ في نار خبت وصارت رمادًا ذرته الرياح، ما جدوى القتال أيها القائد العنيد. لكن مع اقتراب القائد بدا أنه وحيد تمامًا، فندت من الجندي زفرة، ثم غامت على عينيه دمعة لا يدري ما أثارها.

وصل القائد موسى بحذائه ثم خلع عنه خوذته السوداء التي لا تبدي منه إلا فاه وذقنه. تبعثرت خصلات شعره الفاحم ثم لم تلبث أن انتظمت في اتجاه الريح. رمقه الجندي من طرف خفي فرأى حاجبيه متمازجين وعينيه محمرتين كالعادة. ترى ما الذي يضمره القائد؟

سمع وقع خطوات القائد وهو يدلف إلى بهو قمارش بتؤدة. قتله الفضول فحانت منه التفاتة ليشرك بصره في مراقبة القائد. تطلع إلى صفي الرجال عن اليمين والشمال الذين حجبوا ضوء الشمس الخافت عبر الرواشن المحفورة في الجدران. رفع موسى رأسه متطلعًا إلى سقف البهو؛ عدا بعينيه على سورة الملك المحفورة على ركاب السقف الخشبي،

ثم ارتقت عيناه مقرنصات السقف على هيئة النجوم طبقات سبع فوق بعضها البعض ترمز للسموات السبع وأعلاها كرسي الرحمن. مط فمه من ركنه الأيمن منكراً ثم أرجع البصر كرة إلى الأرض ليجول في وجوه الجمع الذي قام هيبة لدخوله عليهم في الحديد. السلطان نفسه قام ويداه مقبوضتان على يدي الكرسي وابن كماشة واقف جوار العرش صامتًا وكان يتلو من رق في يديه صلح النصارى. خيم الصمت الثقيل على الجميع وألقى الزمان برحله وأقعى جامداً جوارهم، حتى استدار القائد الأسود وحذاؤه الثقيل يفرك التراب والثلج عن الأرض. أولاهم ظهره ثم ابعتد ورمحه يدق على الأرض كما دخل. هنا لملم الزمان متاعه وعاد يدور من جديد وزفر الجمع الصمتَ الثقيل؛ لقد سلم القائد الأسود أخيراً.

***

خرج من ربض الفَخَّارين بركبه الصغير؛ جواد وراحلة وثلاث بغال. شيبت السنون لحية أبي علي الفَخَّار وتركت رأسه جرداء فلم تذر شعرة واحدة يرسلها من تحت غفارته الحمراء. وعند جامع غمارة نزل أبو علي من على جواده، أحكم فروته حول خصره، وشد خطام راحلته بيديه المعروقتين، فتمايل الهودج بأهله حتى استناخت الراحلة. وقفت بين يديه بغاله الثلاث يقودها غلامه وهي تكاد تنوء بالمتاع المحمل فوقها. ها هو شيخ الصنعة يخرج من ربضه، ربض الفخارين، بلا كسرة فخار واحدة! يحسد من كان ماله ذهبًا أو أنعامًا أو حتى قوتًا يتخطفه الناس منه في تلك الأيام النحسات، أو أثوابًا تطوى في

الصناديق يحملها في البر والبحر لا ينالها شيء. لكن ما العمل وماله من فخار؟ إن عثرت الدابة حطمته وإن لعب البحر بالفلك صيره ترابًا. فليحمد الله أنه باع بضاعته لمن رضوا بالبقاء والدجن، كان يظن إيثاره لهم بالبيع على بيع النصارى أحفظ لدينه، ولمروءتهم لن يستغلوا حاجته وعجلته. فإذا به يبيع بثمن بخس حتى ظن النصارى أنصف من بني ملته! والعجيب أنهم يقبلون بالدجن على الرحيل خشية أن يستذلهم أهل العدوة ويستغلوا خلتهم ويبخسوهم أشياءهم، فيتركون مزارعهم ومصانعهم ودكاكينهم في الأندلس ويرحلون إلى أرض مضيعة وهوان؛ صحراء جرداء يجوع الناس فيها ولا يجدون القوت، فما أعجبَ الإنسان! فهو يسلك ما يخشى أن يُسلك معه، ويظلم مخافة أن يُظلم، يظن نفسه نجا وهو في المرديات هوى. لكن ما عزى أباعلي أن راحلته وبغاله لم تلق مصير دواب القوم؛ نجت من جنود القائد موسى فلم يفطنوا لمخبئها وهم يجمعون إبل غرناطة قبل وقعة الزبية. كان يمني نفسه أن يظفر القوم في قتال النصارى دون الحاجة لدابته، أو أن ينهزموا هزيمة لم يكن لراحلته أن تجبرها، لئلا يأكل قلبه الندم ويثقله الإثم. هاهم جميعًا باتوا تلك الليالي من بعد وكلٌ يقول لصاحبه: «ألنا من الأمر شيء؟». أمر غلامه أن يسقي الدواب ويطعمهم، واطلع إلى حريمه في الهودج يطمئن عليهم. توافد عليه الركب بعد الركب لتنتظم قافلة كبيرة تضم أول الراحلين. أخرج كيس قطاع من حزامه وعدَّ الذهب؛ سيجمع بعض ماله إلى مال الباقين ليخرجوا لمحلة النصارى في شنتفي يمتارون ويشترون دوابَّ وأمانًا إلى جواز البحر. بالأمس

القريب كان الاختلاف إلى محلة النصارى لإطعام العيال والنسوان ردة وكفراً، واليوم صلحًا وأمانًا واضطراراً، وما بين اليوم والأمس إلا استيقان كبراء القوم أن الهزيمة وقعت وليس للإسلام في الجزيرة من قومة. دار على القوم الوافدين جواره يشغل حواسه بصخبهم علّه ينسى وينسون مهد الطفولة ومرتع الصبا وموطن الرجولة والكهولة والمشيب. ثم صمت القوم فجأة كأن على رؤوسهم الطير، ومن بين الصمت مَرَّ جوارهم القائد الأسود في الحديد راكبًا جواده الأعمى غارب.. هاهو يزمع السفر واللحاق بولده وامرأته في العدوة بعدما عاند وكابر حتى فقد الناس كل متاعهم وموجودهم. غرَّه النصر على المرتدين حتى إذا جاءه النصارى بالعدد والعدة زايله حظه ولازمته الهزيمة والخسران، وكل ذلك من أجل مديح الزجالين ودعوات الأشياخ على المنابر والنسوان في الطرقات تلهث باسمه وذكره! أف لذاك القائد الجلف الغرور! جمع حوله أنجاد الفرسان وزينة الشباب، وأوردهم الهلكة ليسلم المدينة في النهاية كما كان حريًا به أن يفعل منذ سقطت مالقة. تهامس الناس عما وقع بينه وبين السلطان في الصباح؛ قالوا إنه تسخَّط على السلطان لما رأى ابن كماشة وأبا القاسم يقاسمان السلطان المال والضياع والجوهر، وأنه قد عزم أن لا يصحب القائد معه إلى أندرش، فذكَّره القائد وتألى عليه ببلائه في الوقعات مع النصارى، ثم جمع ماله كله في كيسه وخرج مغاضبًا من الحمراء.

-«إيه! كلهم سواء أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، كلهم يذود عن مكانته وسلطانه، والعوام لهم ربي!» تمتم أبو علي ساخطًا. ثم بصق في الأرض لما مر القائد بحذائه. توقف موسى بغتة، ومن بين بيضته نظر

إلى شانثه. انتبه الناس وتعلقت أبصارهم بالفارس الجامد على جواده. لم يخش أبو علي من نظراته وبادله قرع الحدق بالحدق. كل أولئك القواد سببٌ فيما آلت إليه البلاد؛ صبروا عليهم وأطعموهم وكسوهم من مالهم وبنوا لهم القصور وحرثوا لهم الأرض، حتى إذا هددهم النصارى استنفروا الناس ليدفعوا عن ديار الإسلام! أما كان تنعُّمهم من قبل لينهضوا لتلك الحوادث والخطوب. ها قد انتهى كل شيء، فما بقي لأهل غرناطة إلا الدجن أو الرحيل، لكن العوام الآن في تلك القسمة هم الفائزون؛ ما يضير الداجن أن يسكن فرذلند وامرأته الحمراء، ولم يصعد إليها الرجل طوال عمره، أو أن يحرسه فرسان قشتالة يضيقون عليه معاشه، وكان من قبل جند غمارة ومماليك السلطان وعرفاء الجيش وصاحب الشرطة ينهبونه ويسلبونه ويضربونه؟ يضيره أن تكون تلك ديار كفر لا ديار إسلام؟ وما البأس ومساجده وأنكحته وأقضيته على شرع الله، ما يضيره أن يتَنَصَّر المُلك والسلطان، وكان من قبل حنيفيًّا لا يجد من ريحه شيئًا إلا الفتن والظلم. والراحلون لا يأسفون على شيء؛ شقاء هنا وشقاء هناك، صناع وزراع وأجراء في أسواق غرناطة أو أسواق فاس. أما القواد والرؤساء فهم الأخسرون؛ خسروا قصورهم وضياعهم وسلطانهم فلن يعزيهم عن ذلك شيء، اللهم ما أخذوه من أموال الناس يسري عنهم بين الفينة والفينة ويذهب عنهم مرارة الكسر. ليرحل القائد الأسود بمالهم لعله يجده عن الهزيمة عزاءً. مد القائد موسى يده على سرج الجواد، فتراجع أبو علي خشية ضربة سيف غادرة، لكن أخذه الدهش لما أخرج القائد

كيسًا من سرجه ومن فم الكيس انهمر الذهب على الثلج فوق بصقة أبي علي، يرن بعضه فوق بعض يشق الصمتَ الرهيب، ثم زفر القائد الأسود بَرَدًا وهمز جواده لا يلوي على شيء. وأبو علي يقف مشدوهًا لا يدري ما يقول، يتمنى لو جمع المال من على الأرض وأعاده للقائد لتعود إليه ظنونه، ليطرد الإثم والخذلان الذي انهمر عليه من السماء مع انهمار الذهب من كيسه.

اضطربت أنفاسه وتقطعت، يود أن يلحق بالقائد يستجديه، احمرّ وجهه ونظرات القوم اللوامة تنشب في لحمه، وكانوا من قبل يسبون القائد كلهم، لم يحر جوابا وتمنى أن تنشق عنه الأرض الساعة أو يفلج فلا يقوم أبدًا، ثم لم يلبث أن تخطفه شيطانه وسكَّنه؛ يالرياء القائد وحب الذكر فيه! نعم، يخرج وحده أمام الناس بالسلاح ليذكروه ويشعرهم بالذنب أبد الدهر، وما يملكون له؟ يظنهم يبكونه ويتبعونه! إن هو إلا رجل مغرور عشق صورته ودوام ذكره حتى أنه يضحي في سبيل ذلك بروحه ليضمن بقاء سيرته بعد الممات. ما أضل القائد وسعيه!

***

سمعت الفتاة أمها عند الروشان تهتف باسمه فأجفلت. القائد موسى يمر تحت دارهم. هرعت إلى الروشان تنظر من بين فجوات الشماسة والبرد يمرق من بين فجوات الخشب كالسهام، ورائحة الخشب المبلل من ذوبان الثلج ملأت صدرها. هل قرر القائد الرحيل؟

قالت أمها إن السلطان طلبه أمام الناس ليعلمه بالصلح مع

النصارى، فمادت به الأرض وكاد يُغشى عليه، ثم بكى وأبكى الناس على بكائه، استعطف السلطان ولثم يديه أن يأمر الناس بالجهاد حتى يفتح الله لهم، ولما لم يجد صدى لكلماته غادر الجمع إلى القصبة ليخرج بعدها في الحديد. ها هو الآن يسير تحتهم على غارب يحمل رايته. لو كان عزم الرحيل فكان الأولى أن يصطحب مماليكه وجواريه ومتاعه، لو أراد السفر لركب جوادًا غير ذاك الجواد الأعمى العجوز. ألقت السمع لهمهمات القائد الخافتة يحدو بها جواده كحداء الإبل، يرفع صوته إذا لقي مرتقى ويخفض إذا لقي منحدرًا، والجواد مستكين في سيره على الطريق، المفلقة أحجاره من عبور الكتائب، كأنما هو محمول لا حامل. غارب؛ أعجوبة غرناطة كلها. لم يصدق أهل لوشة أن القائد كان يركبه في وقعاته مع النصارى، لم يروه إلا جوادًا للنزهة في أزقة غرناطة، فلم يستعمله القائد فيما هو أبعد من ذلك، حتى أنه لم يخرج به يومًا إلى الفحص. أيخرج للقتال وحده؟ شهقت الفتاة لهاجسها. نظرت لها أمها منكرة، وزاد إنكارها لما ترقرقت عيناها بالدموع. كادت تفتح الشمَّاسة وتهتف باسمه، ثم عادت إلى فراشها ترويه بالدموع. لقد رحل القائد إلى غير رجعة. زوج أحلام بنات غرناطة وفارس خيالهم الوحيد. جبل من الحديد الأسود، لكن قلبه مفعم بالرحيق. تهامست بعض النسوة أنه عنين وأخرى رمته بعشق الغلمان، لكنها تصدق ما سمعته من نسوان لوشة؛ أنه أودع صاحبته قلبَه فلم يسترده منها، وبقي دون زوجة كل تلك السنين. أي امرأة حمقاء تلك التي تهجر القائد. يقولون إنه عبر البحر لها وردته خاسرًا.

أي جحود وكفران بالنعمة! لو أنه جاءها هي لخرت على الأرض تقبلها بين يديه. أمها كذلك تذكره بالخير وتدعو له، وأخوها الصغير لطالما لعب مع أترابه لعبة «القايد موسى والنصارى»؛ كان يخترق صفوفهم بعصاه وهم يتساقطون عن يمينه ويساره، ثم يدور الدور على من يليه حتى يكونوا كلهم القائد. أما هي فتلعب صاحبته؛ تبيت كل ليلة تتصور نفسها بين ذراعيه. يأتيها مدفونًا تحت دروعه عاليه الغبار والدم، فتفك عنه أكفان الحديد، وتبعثه بالماء والليف تزيل عنه أدرانه، ثم تعانقه فتحمل عنه خوفه وشقاءه، وأمورٌ أُخَر يحمر لها وجه العذراء في خدرها، مأسورة بخيالها وصورة عشقتها.

هاهو القائد يترك مدينته ويرحل، سيتركهم للدجن. قال أبوها إن ملك النصارى رجل شهم يفي بالوعود وقد أثنى على أهل غرناطة وقتالهم ووعد السلطان ووزيره خيرًا. كما أنه إذا أراد غدرًا فمازال المسلمون في المدينة كثرةً كاثرة ولهم المنعة والغلبة. لكنها لا تفهم تلك الأمور ولا تأبه لها. تركب جواد الخيال علّها تلحقه؛ رجل كسرته صاحبته وتخاذل عنه جنده، وسلمه سلطانه وظهر عليه عدوه. وهو مازال على جواده يحدوه في سير لا ينتهي أبدًا. تُرى أيسيل دمعه في بيضته ويخفي أنينه بحداء الجواد؟

***

تهادى الريح على مهل، فسبح الثلج في الهواء كزغب القطن. نظر عريف باب التوابين للثلج يعلق بلحيته وفروته. تذكر أمه وهي تنصب مغزلها وتفتل القطن. آه يا لوشة! بالأمس غادرها ممنيًا نفسه بالرجوع،

واليـوم تلفظه الجـزيرة كلهـا. تعـسًـا لذلك السلطان الخـانع الخـائن لله ورسـوله! إنه لا يسـتـحق أن يطأ امـرأة كـان أبوها العطار أمـيـر لوشـة وسيـدها، ليته مات معه واحتمل السيل جسده يوم اللسانة بدلا من أن ينجـو ويمالئ النصـارى على أبناء ملته. اليـوم آخـر خفـرة له؛ لن يشهـد تسليم المدينة للنصارى. سيرحل مع امرأته وعياله إلى جبال بشرة وإذا قـدر الله يجـوز العـدوة إلى ديار الإسـلام. انتـصب برمـحه واقـفًـا للمـرة الأخيرة والدمع يقطر من عينيه. أخرجت الجزيرة حقًا من ديار الإسلام؟

إنه لن يصـدق كـلام فـرذلند المعـسـول وورع السـلطان المكذوب، لن يعيش تحت ظل الصليب ولو رفل في الذهب والحرير، فما الحال والعيش كدر والفاقة تلازمه؟

ولو أن أهل غرناطة استمرؤوا الخضوع لكل من يركبهم برًا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كـافرًا، فليس لمثله من أهـل لوشة أصحاب الثغور أن يرضى بهذا الذل.

ليت القـائد موسى قتل السلطان ولـم يكتف بلطمه؛ سمع أنه قدم إلى السلطان بالحديد في قمارش، ولما رآه يمسك صلح النصارى ويقرؤه على الناس، انتزعه من يده ولطمه به على وجهه، فأسـال الحديدُ الدمَ من فم السلطان، وتراخى الناس هيبة للقائد، فسبَّهم جميعًا ورحل. ترى إلى أين سيذهب القائد؟

ليته يجمع الناس كـحامد الثغري إذًا لاتبعه حتى لو كـانت العـاقبة أسـر النصـارى. ليعلـم العـدو أن في غـرناطـة بقيـة من الأبطال وأنجـاد الفرسان.

رمق بعينيه من فوق السور فحص غرناطة المدفون في البياض على مرمى البصر، كم حوت تلك الأرض بين جنباتها من الأجساد؟

سمع جلبة فالتفت بغتة؛ رجل يأتي من بين الضباب على فرسه. إنه يعرف تلك الهيئة في الركوب، يعرف ذلك الفارس المدرع بالسواد. هل قرر الخروج حقًا؟ إذًا لطاب الخروج وطاب القتال. كاد يصدح بالتكبير والتهليل وينزل ليتلقى القائد وإخوانه. لكن القائد أقبل وحده، بلا عدة ولا عدد. تراخى الرمح من بين يديه ولم يدر حتى سقط منه مكتومًا على الأرض. ازدرد لعابه من بين أشواك حلقه، تذكر نساءه وعياله. القائد عزب مقطوع لايعول أحدًا ليضيعه. ثم إنه خاض معه كل وقعاته حتى في الزبية كان آخر من رجع من القوم معه. لقد أعذر إلى الله وما فوق ذلك عزيمة لا يأثم بتركها. زايله حنقه على السلطان وأهل غرناطة واتكأ على السور مثقلاً برؤية سيده، ثم كاد يخر لما رأى راية القائد مرفرفة أشلاؤها، إنها هي؛ راية لوشة. ساقهم موسى بها إلى غرناطة منذ بضع سنين. يخرج مكفنًا بالحديد يرفعها، يقود جيشًا من النكران والجحود والخذلان. لكنه وحده، كيف يحمل الغازي على الجيش وحده؟

توقف القائد أمام البوابة ورفع رأسه إلى العريف. جمد حراس البوابة كلٌّ في مكانه، وشاركوا القائد التطلع لعريفهم. انتصب العريف مرتعشًا، أشار لجنوده إشارته المخصوصة، فأطلقوا النفير وفتحوا الأبواب، تمامًا كما كانوا يفعلون عند خروج الكتائب لقتال النصارى. اخترق القائد البوابة بتؤدة، وكأنما كل خطوة وطئها غارب على الأرض، وطئتْ صاحب البوابة.

- «سِيدي موسى!».

التفت القائد للعريف المنادي من فوق السور، أكانت التفاتة بلا رجاء؟

- «سيدي موسى!» كررها العريف مرة أخرى ثم انحبس صوته في النَحيب. أقعى على السور متواريًا عن القائد الذي اخترق الضباب.

***

غاصت أرجل غارب في الثلج، يلبس درعا حديديًا كسيده، مبطن بالجلد، لسعته أطراف الدرع العارية في كل خطوة خطاها. منذ زمن طويل لم يستدعه سيده في ذلك الوقت الباكر، كان يأتيه عند الزوال ليجول به في دروب مخصوصة ساعة أو ساعتين نزهة، ثم يعيده إلى الآري مجددًا. اليوم جاءه في الصباح وشد عليه هذه الدروع، علم أن الخطب جلل. يعرف من جذبة عنانه إن كان سيده يريد الحرب أو النزهة؛ جذبة الحرب قوية خاطفة تصاحبها أصوات الحث على الخروج، وجذبة النزهة لينة يصاحبها الغمغمة بالغناء. أما جذبة اليوم، لا يدري كيف يصفها، جذبة صامتة، كجذب الخيل المريضة للخروج إلى ذبحها.

ظنها نزهة عادية حتى سمع نفير الخروج وصرير باب التوابين. هي الحرب إذن، هو الموت إذن، صاحبه الخوف منه في سنين عمره المظلمة، بات ينتظره في كل ليلة، تنقل بين الأواري وعاشر الخيول من كل سن وجنس. كان يضيق في سنينه الأخيرة بتجنب سيده له، بتفضيله الجياد الصحيحة عليه، لم يلمه وإن سرَّها في نفسه؛ في النهاية يريد سيده أن يركب دابة تذهب به وتعود سالما. غارب سعيد اليوم أن اختاره سيده للخروج، لكنه علم في الوقت نفسه أن السيد لا يريد العودة. منذ دهر

خرج مع سيده من ألمرية يريد الحَمَّة، كان يحمل موسىٰ إلى المجهول، كان طفلا لموسى يلتمسه كلما نزل عنه لشأن من شئونه حتى كان يقض مضجعه أثناء النوم ليطمئن عليه، يطمئن أن سيده موجود، أن سيده حي. ثم كان صاحبه في عين الصقر، وقف بجواره في أعمال الظاهري، وفي سهل لوشة كرَّ به وأطاع حركاته وسكناته فلم يخذله، ثم لما همله موسى وركب بغلة العطار، غار غارب عليه كتغاير النساء، ولما صالحه موسى وأخرجه بين الفينة والفينة للنزهة، رضي منه غارب رضا الأم بفتات أوقات ولدها بعد الزواج، واليوم يحمل غارب موسى بطاعة الابن ومروءة الصاحب وحب الزوجة وحنان الأم. خرجا معا، وحدهما شهدا أمه والمالقي وفاطمة وعبد الملك، وحدهما شهدا الحَمَّة وعين الصقر ولوشة ومالقة وغرناطة، وفي تهادي الجواد العجوز والثلج المثار من ورائه تنسل الصور والذكرى، يخف ثقل التواريخ والأيام. ثم إن سيده جذب عنانه فجأة جذبة الحرب، ولما توقف انتصبت أذناه وسمع من بين جنبات الريح صوت حوافر تأتي من بعيد. استنفر حواسه وشد عروقه بانتظار أوامر سيده، لمرة أخيرة.

***

أنت

جثا عريف البصر تحت قدمي الملك وهتف: «مولاي . . ثلة من فرسان العدو في مرمانا».

- «كم عددهم؟».

- «خمسة عشر فارسًا».

هل هي النهاية؟ تحرك يديك اليابستين عن غير إرادة منك؛ ترسل عنان جوادك وتتوقف همهمة الحداء من فمك. على ضفة نهر شنيل تشق الثلج تحتك بعصا الراية تغرسها. تحرر منكبك من قوسك بيمينك، وبيسراك تجذب سهمًا من كنانتك. تفوق السهم وتجذب الوتر. وحين أرسلته لينشب من بين الضباب في رأس أحدهم، ثم سمعت صراخه، أدركت أن معركتك الأخيرة قد بدأت . .

وقف الملك في أعلى البرج مشرفًا على عرفاء الجسد وجواسيس الحس، كرياس البحر في صدر سفينته. يهتف بعريف اليد أن ينزع سهمًا ثانيًا، وعريف البصر أن يتخير صيده القادم، وعريف الصدر يشهق ويحبس الهواء فلا يزفره إلا بعد الرمي، ثم سهم ثالث على عجل يضيع بين الضباب، ولما اقتربت الخيول منك هاج ربض الخوف وكاد يحطم باب الصدر بدقاته، لكن الملك أمر بأبواق الصراخ أن تصدح حتى تشق حنجرتك، ولما شهرت سيفك دهم الغضب صدرك واستولى على مليكك، فصار يسيِّر يديك ضربًا وطعنًا، ورجليك مناورة بالجواد.

ومن بين الدم والثلج والحديد تذكرت؛ عبد الملك ترى أين هو؟ هل وصلته رسائلك، هل يجلس الآن على ضوء الكانون يقرؤها، أم يخلو بها في الفلاة. هل تقرؤها فاطمة فتعرف أنك لم تحب يومًا سواها؟ أم يدركها الكتاب صاحبة لغيرك فتخفيها اتقاءً لغيرته، أو لعلها نسيت وبرد قلبها كقلب دجنبر.

يشرد الملك بخواطره تلك مع ربض الشوق، فلا يلتفت لعريف الصدر يخبره عن ضلع مكسور، أو سهم نشب في الكتف. طوال المسير من الحمراء إلى الفحص كان قلبك صفحة بيضاء، واليوم تموج فيها الحروف وتنبعث فيها صور الأولين والآخرين. تركت غرناطة خلفك كخاتمة الكتب، نص فرغ منه النساخ، غادرتها عند آخر حمد في دفاتر الكُتَّاب، عند آخر صفر في دواوين الحُسَّاب، طويتها خلفك كطي السجل للكتاب، وعلى بصاق رجالها نثرت آخر متاعك من الدنيا، نويت أن تفرقه صدقة، فألقيت به غضبة، والآن بعيدًا عن كل أحد، تحمل، أيها الغازي، وحدك.

وغارب تحتك انضم عرفاؤه إلى عرفائك كأنه نصفك، يركب مليكك ملكه، يسيِّر أعضاءه ويحس بحسه، تخرج أنين الجراح حداء لتقوده. لعله يتذكر خروجه من لوشة على وقع ذات الحداء، بمصاب غير المصاب وأنين غير الأنين، يتذكر زنقات لوشة القذرة، وزروع عين الصقر، وسهل لوشة، لعلك حين أخرجته من الآري اليوم جاوبك سأمًا، ظنك تركبه نزهة، ولما طال الركوب جد السير طربًا، عاودته أيام الوقعات، اشتاق إلى أصوات الحديد وصرخات الرجال.

- «أنت أيضا يا غارب؛ حتفًا طلبتَ، وحتفًا تنال». قالها المليك نازفًا في برجه يتهاوى.

- «جواد أعمى وفارس مخذول». يبصر الملك سن الحديد يهدم رأس البرج فيكب على وجهه، وتميد مملكة النفس صارخة أرباضها، ويهوي الجسد من فوق الجواد.

يتوسد الظهر الحديد ويزيغ البصر والفؤاد. تأتيك ذكرى أمك وأبيك فتصرفها، تأتيك ذكرى المالقي والعطار فيشيح الملك معرضًا. يداخله ربض الشك، من بقي حيًا من الأرباض، يستشرف المصير، يسألك عن النية؟ هل كانت حبًا لله أم لنفسك؟ هل كانت عزيمة أم كنت غازيًا عشق صورته وقضى؟

لطالما طردت وسواس الإخلاص بسؤال العمل، لكنك الآن مسجًّى، فلا علم ينفع ولا عمل بعد العمل. يؤرقك السؤال والوزير واجمًا، يقول: «مولاي لست على الغيب مطلعًا، ولا بحساب الإله عليمًا». وحده أبو الضمير قام منتصبًا:

- «أيها السائل عن الإخلاص مهلاً. ألا تعلمن أنه لا يعلمه شيطان فيفسده؟ ولا مَلَك فيكتبه». ثم نظر إلى الملك المحتضر مواسيًا وأردف:

«ولا صاحبه فيدعيه». وعندئذ أسبلت عينيك على رؤية المالقي والعطار، وعلى صورة أمك تحويك بياسمينها.

***

الفصل الثالث عشر

Enero[1]

(١) يناير بالأسبانية.

١

علا النحيب في غرناطة مع مغرب الشمس[١].

فريق يهتف بالثالوث، وفريق يهتف بماهوند.

هنا مات القرآن، والصليب وُلد.

هنا سُمعت الأجراس، والأذان وُئد.

٢

تترنم القلعة تمجد الرب الإله.

من مناراتها تُلقَى الأهلة بالفلاة.

جيش قشتالة وأراجون يتهاديان.

يخطر ملك مزهواً بانتصاره، ويرحل آخر عَبرانًا.

٣

هتف الباكي قد تخلل لحيته الدمع الجليل.

وداعًا غرناطة، مدينة بلا مثيل.

ياحسرة عليك يا فخر المحمدية سبعة قرون ونيف.

ضعت الآن بعدما حمل المؤمنون صولجانك الشريف.

---

(١) قصيدة قشتالية قديمة، ترجمة المؤلف بتصرف عن النسخة الإنجليزية التى ترجمها لوكهارت فى كتابه: Ancient Spanish Ballads تحت عنوان Flight From Granada.

٤

كنت الأم الحنون لشعب عظيم .

برحيلك ذهب الكبرياء عنهم .

برحيلك ذهب فرسان شجعان حاربوا ببأس شديد .

كانوا أعداء لقشتالة العظيمة . . كانوا سدًا أمام الصليب .

٥

سيدة النساء نادرة الوجود والجمال .

لطالما طوقتك آمنة سواعد الأبطال .

من أجل الشجاعة والمجد حملوا رؤوسهم على الأكف .

وألقوا بها أمام ناظريك في يوم دام لم يكف .

٦

هنا ثبت الأبطال برهة فداء للعرض .

أو فداء للنبي ، أو فداء للمجد .

هنا ربت البسالة واشتد النزال .

أمام قصورنا السامية . . أمام مجد قد زال .

٧

فحص غرناطة ، سهولك وأشجارك ومجالسك الزاهرة .

يا حسرة على جمال ذاهب ، وورود مبعثرة .

لا كرامة لملك فرط في أرضه .

لا ظهر يحمله، ولا خان يَنزِله.

لكن في الظلام.. في مكان كئيب يخفي ملامحه.

يبكي بحرقة وحده الملك.

٨

هكذا تحدث الملك في مسيره للبحر يركبه.

عبر جبل طارق عند البرابر ينزله.

يبث شجونه إلى مليكته منتحبًا.

عانقها عند الرحيل منتحيًا.

٩

قالت أيها الملك التعيس صاحب الروح المذعورة التي قبلت.

ترك غرناطة بدم بارد ورحلت.

فالآن ابكِ على شباب قد زال.

على حياة لم تعد، على مُلكٍ لم تصنه كالرجال.

***

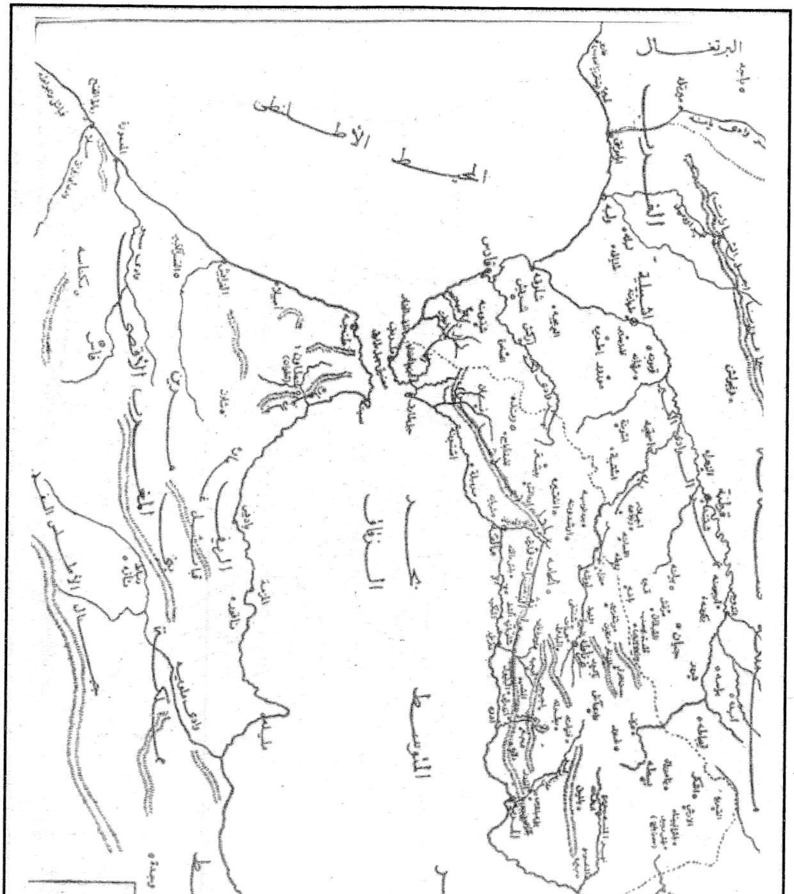

المصدر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء السابع، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣

المصدر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء السابع، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣